المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

توماس هاردى

تس سليلة دربرفيل

ميراث الترجمة

ترجمة و تقديم: فخرى أبو السعود
تصدير: ماهر شفيق فريد

1342

تس سليلة دريرڤيل

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد : ١٣٤٢
- تس سليلة دربرفيل
- توماس هاردى
- فخرى أبو السعود
- ماهر شفيق فريد
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية:

Tess of the d' Urberville

By: Thomas Hardy

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. , Opera House, El Gezir, Cairo
Tel.: 27354524 – 27354526 **Fax:** 27354554

تس سليلة دربرڤيل

تأليف : توماس هاردى

ترجمة وتقديم : فخرى أبو السعود

تصدير : ماهر شفيق فريد



٢٠٠٩

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هاردى، توماس
تس سليلة دربرفيل /تأليف: توماس هاردى، ترجمة وتقديم: فخرى أبو السعود، تصدير : ماهر شفيق فريد، القاهرة – المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٩ .
٤٤٤ ص ، ٢٤ سم
١ – القصص الإنجليزية
(أ) أبو السعود، فخرى (مترجم ومقدم)
(ب) فريد، ماهر شفيق (مصدر)
٢ – العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع ١٣٢٣٦ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 978 - 977 – 479 - 438 - 1
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

تصدير

هذه – إن أردنا أن نلخصها فى جملة – مأساة إغريقية من قبيل مآسى إسخولوس وأقرانه من شعراء التراجيديا باليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد، اتخذت لها مسرحًا جنوب غربى إنجلترا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

إنها مأساة تس دربرفيل التى تبدأ الرواية وهى عذراء متفتحة للحياة فى السابعة عشرة من عمرها وتنتهى – وقد صارت امرأة عرفت ما يكون بين الرجال والنساء من صلات – وهى فى الواحدة والعشرين.

الشخصيات الرئيسية هنا ثلاث: تس، والرجلان اللذان دخلا حياتها: ألك دربرفيل، وإينچل كلير. وعلى الهامش شخصيات ثانوية، ولكن دورها فى الرواية ليس بالضئيل، مثل أبوىّ تس، والمستر كلارك وزوجه.

كانت حياة چون دربرفيل – أبى تس وهو فلاح فقير – تمضى على رسلها، على ما بها من مشاق العيش، إلى أن أخبره كاهن الناحية يوما أنه اكتشف من سجلات المقاطعة أن الأب سليل أسرة أرستقراطية نبيلة المحتد تدعى آل دربرفيل. أدارت هذه الفكرة رأس الأب – وكانت زوجه لا تقل عنه حمقا – فقرّ رأيهما على إرسال فتاتهما إلى الفرع الباقى من الأسرة الغنية: سيدة ضريرة وابنها الفاسد ألك ولم يكونا فى الحق من سلالة الأسرة وإنما انتحلا اسمها انتحالا، شأن محدثى النعمة القادرين على شراء الألقاب والبشر أيضا. وتكتمل المفارقة حين نكتشف أن تس هى – فعلا – سليلة الأسرة النبيلة، ولكن الدهر قد أخنى على أبويها وردهما إلى بؤس بعد نعيم الأجداد. وتصور الرواية مأزق تس بين رجلين كلاهما دخيل على هذه البيئة الريفية: ألك وهو ابن رجل أعمال من الإقليم الشمالى صار، بماله، من طبقة السادة المهذبين، وإينچل – وهو ابن قس محافظ – الذى تمرد على خلفيته الأسرية إذ تأثر بالأفكار الليبرالية التى بدأت تشيع فى عصره. ويتمكن ألك عديم

الضمير من إغواء تس – على نحو أشبه بالاغتصاب، إذ لم تكن فى كامل وعيها – فيسلبها أعز ما تملك ويدمر بذلك إمكانية زواجها من إينچل النبيل (فى اسمه ANGEL ما يوحى بالملائكية) الذى لم يتمكن – على تظاهره بالتحرر الفكرى – من أن يغفر لعروسه خطيئتها. هكذا يهجرها هجرا قاسيا، ويغادر – تحت تأثير الصدمة – إنجلترا إلى البرازيل حيث لا يرد على خطاباتها الضارعة التى تلين الحجر وتكون ثمرة خطيئة تس طفلا يموت عقب ولادته. وتضطر الفتاة – كى تعول نفسها وأسرتها الفقيرة – إلى العمل فى مزرعة تكابد فيها من معيشتها جهادا، إذ تعمل عملاً شاقا فى حَمَارّة القيظ وَصبّارة الشتاء، ويأبى عليها كبرياؤها الفطرى – كبرياء الفتاة ذات الأصل النبيل – أن تلجأ إلى أبوى زوجها طلبا للمعونة. ويعاود ألك الدخول فى حياتها وقد طرأ عليه تغير مؤقت، لن يدوم طويلا، إذ من شأن الطبع أن يغلب التطبع: لقد غدا واعظا دينيا يجول فى القرى داعيا إلى الفضيلة وحاضا على التزام تعاليم الكتاب المقدس. وفى ظل هذه الظروف الجديدة يلتقى بتس فتعاوده رغبته الجسدية فيها ويتمكن من إقناعها بأنه لا أمل فى عودة زوجها إليها، وأن مصيرها قد ارتبط بمصيره (ألك) ومن ثم تضطر – تحت ضغط الفقر والحاجة – إلى أن تعود إليه محظية تشبع رغباته دون ارتباط شرعى، إذ هى فى الحقيقة مازالت على ذمة إينچل. هكذا عاد "المهتدى" إلى ضلاله القديم ورضيت تس بالهوان والعيش فى ظل الخطيئة. وأثناء ذلك يكون إينچل فى مهجره قد تعذب كثيرًا، ومرض مرضا كاد يتلفه، ثم أصبح يقرع السن ندمًا على ما فرط منه من قسوة على تس فقرر – بعد فوات الأوان – أن يغفر لها ويعود إلى إنجلترا كى يجتمع شمله بها، غير دار بما جدّ أثناء غيابه. ويصل إينچل إلى البيت الذى تقيم فيه تس مع ألك فيكتشف الحقيقة الأليمة، ويغادر البيت منصدع الفؤاد محطم الآمال. وتكاد تس تجن من الحزن والقنوط – إذ مازالت تحبه وهى باقية على عهده – فتسدد طعنة نجلاء إلى ألك الذى خدعها مرتين: مرة حين سلبها عذريتها، ومرة حين أوقع فى وهمها أن إينچل لن يعود إليها. ويخر الخاطئ القديم صريعا بينما تسرع تس للحاق بإينچل. ويدخلان بيتا مهجورا يعيشان فيه أياما قليلة – هى أسعد ما مر بهما من أيام – وهما عالمان أن هذه السعادة لن تدوم إلا ساعات. ثم

يرحلان إلى شمال إنجلترا أملا فى مغادرة البلاد إلى حيث لا يعرفهما أحد. ويصلان إلى سهل ساليسبرى، حيث أحجار ستون هنج المرهوبة التى ترجع إلى حقبة ما قبل التاريخ. ويغلب النوم تس - بعد رحلة شاقة مجهدة - وهى مستندة إلى أحجار الأثر، حتى إذا فتحت عينيها وجدت مطارديها وقد أحدقوا بها فتستسلم لهم دون مقاومة، وقد رضيت من دنياها بأن شملها قد اجتمع وحبيبها ولو زمنا قصيرا. ويسوقون تس إلى السجن حيث تحاكم ويصدر عليها الحكم بالشنق.

سُئل هاردى (١٨٤٠ - ١٩٢٨) ذات مرة: أى رواياتك تفضل؟ فتفكر لحظة، ثم أجاب: "تس". وقد ظل دائما معتزا بهذه الرواية - وهو رأى شاركته فيه جمهرة القراء - يأبى لها أن تُبتذل، ولا يكاد يطيق أن يغض أحد من قدرها. وفى هذا يكتب عباس محمود العقاد (الذى كان من أسبق أدبائنا إلى تقدير عبقرية هاردى روائيا وشاعرا) فى ١٩٢٨:

"كان أبغض شىء إليه وسائل الشهرة الحديثة من نشر وتصدية وعرض فى الصور المتحركة. فلما مثلت رواية "تس" فى السينما وابتذلت مواقفها لإرضاء النظارة الصبيان والجهلاء أسف لدلك أشد الأسف وأبى أن يحضرها فى الصور وقال فى شىء من الغم والتأسى: "إن الرواية ستعيش على الرغم من ذلك".

وعُرف عنه أنه لم يكن يطيق الملاحظات على رواياته وإنما يحتملها احتمالا ولا يبالى أن يناقش فيها أو يصحح أخطاءها. كان بعض الناس يلومه مرة علي مصير "تس" البريئة المسكينة التى أسلمها إلى الشنق وختمها بكلمته الساخرة لقد نفذ العدل! لقد فرغ رئيس الخالدين من عبثه بتس دربرفيل، وكانت فى المجلس سيدة سليطة فقالت: "أما أنا فأسفى أن المستر هاردى لم يشنق أبطال روايته جميعا" كأنها تقول إنه كان خيرا له ألا يكتب الرواية أو أن يكون قد قضى على أبطالها قبل أن يخلقوا. وكانوا على المائدة، فانحنى الشاعر قليلا ومضغ لقمة ومضى فى طعامه".

ظهر القسم الأكبر من الرواية على صفحات جريدة تدعى Graphic وظهرت بقيتها على صفحات Fortnightly Review و National Observer، ثم نشرت الرواية كاملة - من ثلاثة أجزاء - فى نوفمبر ١٨٩١. وصدّرها هاردى بمقتطف من شكسبير هذا نصه: "إيه أيها الاسم الجريح المسكين! ليحتوينك صدرى مهدًا".

وعنون الرواية: "تس سليلة دربرفيل: امرأة نقية" A Pure Woman. وهو يستخدم هنا كلمة "نقية" بمعنيين: فهى من ناحية تعنى طاهرة الذيل، عفيفة. وهى من ناحية أخرى تعنى: امرأة خلصت لنوازع الأنوثة وفطرة حواء، يكاد ينطبق عليها ما يقوله العقاد عن بطلته سارة:

"حزمة من أعصاب تسمى امرأة، وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة. استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة، ولعلها أنثى ونصف أنثى، لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة.

ولقد يخيل إلى الإنسان فى أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق، وأن يسوى تكوينا بتكوين، ويمزج عنصرا من الأبدان بعنصر، فامرأة يتممها رجل، وآدمى يتممه حيوان وطلعة فتاة يتممها قوام فتى، وأبوة أحرى أن تنتقل إلى أمومة، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب.

أما هذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها إلى تكوين ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشاج ولو بقى ألف سنة. ولو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكان فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الأجسام".

كان من الطبيعى أن يثير وصف هاردى لبطلته بالمرأة النقية (وهى – فى نظر العصر الفيكتورى المتزمت – خاطئة مع رجلين) ثائرة كثير من القراء والنقاد والأخلاقيين ممن استنكروا ما فى القصة من صراحة جنسية – بمقاييس العصر – واجتراء على الخوض فيما جرى العرف على إبقائه فى طى الكتمان. كانت محاجة فاسدة من جانبهم، وكان الزعم بلا أخلاقية الرواية زعما لا ينهض عليه دليل، بل

إننا لو أنعمنا النظر إلى موقف تس لالتمسنا لها بعض عذر ولوجدنا نقاءها لا ينقص أبدا ولا يتحيف منه شيء. لكن هاردى اضطر - إزاء ضغط الرأى العام - إلى أن يحذف أجزاء من روايته لدى نشرها منجّمة، ثم أعادها إلى مكانها حين نشر الكتاب كاملا: ولم يندم قط على صراحته فقد كان قاصا واقعيا صادقا يأبى أن يصبغ الحقيقة بطلاء زائف من مواضعات العرف وقشور الحشمة وقيود المجتمع. وهل يغيب عن أى مراقب نزيه للطبيعة البشرية أن كل امرئ يسعى لغاريّه: بطنه وفرجه، ويطلب الفتّانين: الدرهم والدينار؟ لقد صدّر الرواية بمقدمتين يرد فيهما على نقاده: مقدمة للطبعة الأولى فى نوفمبر ١٨٩١، وأخرى للطبعة الخامسة وما أعقبها من طبعات فى مارس ١٩١٢. كان من أكثر ما أثار ثائرة نقاده، وعدوه تجديفا على المقدسات قوله فى ختام الرواية: "لقد نفّذ (العدل) وفرغ كبير الآلهة كما يقول إسكليس من تلاعبه بتس، وتابع نبلاء دربرفيل ونبيلاتهم رقادهم فى قبورهم غافلين". وقد ذكر هاردى ناقديه بأنه لم يكن أول من سبق إلى هذه الفكرة - فكرة عبث الآلهة بالبشر، ذكرانا وإناثا، دون رحمة - وإنما نحن نجدها مثلا فى قول جلوستر فى تراجيديا شكسبير "الملك لير":

نحن من الآلهة بمثابة ذباب من صبية عابثين:

إنهم يقتلوننا على سبيل اللهو.

كان هاردى - كما يقول الناقد البريطانى جلبرت فليس - آخر الفيكتوريين وأول المحدثين. أخرج رباعية تراجيدية كبرى تضم - إلى جانب "تس" - "عودة ابن البلدة" (١٨٧٨) و"عمدة كاستربردج"(*) (١٨٨٦) و"جود المغمور" (١٨٩٦). لقد تأثر بكتاب دارون "أصل الأنواع" - الذى صدر عام ١٨٥٩ عندما كان هاردى فى التاسعة عشرة من عمره - وبالنظريات الارتقائية والجبرية المتنوعة التى خرجت من معطف دارون، مثل كتاب هربرت سبنسر "الأصول الأولى" (١٨٦٢)(**) كما تأثر بقراءته - فى مرحلة لاحقة - فلاسفة التشاؤم الأوروبيين

(*) كاستربردج عند هاردى تعادل مقاطعة دورتشستر البريطانية.

(**) يمكن أن نضيف هذه الأسماء : جون ستيوارت مل وجوليان هكسلى.

مثل شوبنهور وإدوارد فون هارتمان. وقد توصّل هاردى من وقوفه على آراء هؤلاء المفكرين إلى استنتاج مؤداه أن كوننا هذا تحكمه مصادفة عمياء أكثر مما تحكمه أية قوة أو خطة واعية، سواء كانت خيرة أو شريرة.

ويقول جلبرت فليس إن الخلفية الطبيعية تلعب دورا مهما فى أعمال هاردى حيث تتجاور حياة الإنسان والحيوان، وتقوم صلة عضوية عميقة بين الإنسان والتربة، على نحو ما نجد فى روايات د. هـ. لورنس ("قوس قزح" وغيرها). وتقنية هاردى الوصفية انطباعية، وثمة "خيال تصويرى على قدر يكاد يكون غير عادى من الحساسية" يغزو عمله، كما يلاحظ القاص الأيرلندى فرانك أوكونور. وما من شـك فى كـون هاردى قد تأثر بالمصورين الانطباعيين الفرنسيين فى القرن التاسع عشر، ولكنه قد تأثر أيضا بالتصاوير أخلاقية المنزع لمدرسة ما قبل روفائيل فى إنجلترا عصره، ومن أمثلتها لوحة "الضمير المستيقظ" للمصور هولمان هنت وفيها نرى محظية تعيش فى الحرام مع عشيقها تنهض فجأة من بين أحضانه إذ يجلس إلى البيانو، وفى عينيها نظرة ذاهلة نادمة، كأنما تأسف لإسرافها على نفسها وما امتهنت به جسدها وروحها (جلبرت فلپس، مدخل إلى خمسين رواية بريطانية ١٦٠٠ – ١٩٠٠، الناشر: كتب پان، لندن وسيدنى، الطبعة الثانية ١٩٨٠).

ويلاحظ ناقد آخر أن هاردى يستخدم الألوان على نحو وظيفى دقيق، فاللون الأبيض – مثلا – يرمز عنده إلى البراءة، واللون الأحمر إلى الشهوة – وهكذا (انظر طبعة "تس" فى سلسلة "كلاسيات يورك" التى يشرف عليها ا. ن. جناريس، مطبعة يورك، بيروت ١٩٨٨، ص ١٦ من المقدمة).

فقد هاردى – مثل كثير من معاصريه (ماثيو أرنولد، ولترباتر، سونبرن، هيوكلف، أ. إ. هاوسمان، إلخ..) إيمانه الدينى تحت وقع ضربات العلماء والفلاسفة ممن قوضوا أسس الإيمان المسيحى التقليدى، ورأوا فى قصص الكتاب المقدس – على أحسن تقدير – مجازات شعرية لا يمكن أن تُحمل على محمل الجد حرفيا. آمن هاردى بأننا نعيش فى كون مصمت لامبال بأفراح الإنسان وأتراحه،

وتخصص فى تصوير مـــا سمـــاه: وجـــع الحداثة The ache of modernity أو أزمات الضمير الحديث، واتخذ من إقليم وسكس (وهو الاسم الذى أطلقه على مقاطعة دورست) مسرحا لمآسيه العصرية، وبرع فى وصف الوضع الإنسانى إزاء خلفية قاحلة من المشهد الطبيعى (انظر مثلا إلى وصفه برية إجدون فى مطلع رواية "عودة ابن البلدة") كأنما يرمى إلى إبراز ضآلة الإنسان فى هذا الكون الفسيح وهوان شأنه من منظور الأبدية. وكان فى صدر شبابه يكتب لنساء قريته الأميات الساذجات رسائلهن إلى أحبابهن البعيدين فأكسبه ذلك بصرا بنفسية المرأة وأعمق نوازعها وعذاباتها ونشواتها.

وقد تراكم، عبر السنين، حصاد نقدى وفير حول رواية "تس" وغيرها من أعمال هاردى(*) فممن كتبوا عنها، إيجابا وسلبا، هنرى جيمز، ود. هـ. لورنس، وديفيد سيسل، ودوروثى فان جنت، وجون بيلى، وريموند وليمز وغيرهم. يقول ديفيد سيسل مثلا:

"(إن) خيال الروائى المنطلق يجنح به فهو يعيد ألك إلى حياتها (حياة تس) بطريقة غير مقنعة فى ثياب واعظ متجول، ثم يريدنا أن نصدق أن تس تعود إليه لتحصل على نقود تعول بها أسرتها التى ضربها الفقر، مع أنه كان أيسر عليها أن تحصل على المال من أقارب أنجيل. وأخيرا يرجع أنجيل نادما على قسوته، مستعدا لأن يغفر لها، فتهرب معه ولكنها تستفيد من اللحظات القليلة الباقية قبل رحيلها لتقتل ألك بسكين فطور، وتكون نتيجة ذلك أن يقبض عليها بعد قليل، وتشنق فى ونشستر. هذا القسم الأخير من الكتاب يبلغ من قوة خياله أنه يهزنا هزا فى القراءة الأولى، ولكننا إذا عدنا إلى تصفحه بهدوء بدأ إيماننا يتزعزع"(**).

ويقول مؤرخ الرواية الإنجليزية ولتر آلن:

(*) من أعمال هاردى الأخرى: علاجات مستيئسة (١٨٧١)، تحت الشجرة الخضراء (١٨٧٢)، عينان زرقاوان (١٨٧٣)، بعيدا عن هيجة الزحام (١٨٧٤)، يد إثلبرتا (١٨٨٠)، اثنان فوق برج (١٨٨٢)، سكان الأحراج (١٨٨٧)، مجموعة سيدات نبيلات (١٨٩١)، مفارقات الحياة الصغيرة (١٨٩٤)، وعدد من المسرحيات – أهمها "العواهل" (١٩٠٣ – ١٩٠٨)، ودواوين شعرية.

(**) نقلت كلام ديفيد سيسل هذا من كتاب تشارلز مورجان "الكاتب وعالمه".

«كثيرا ما أخطأ هاردى فى رسم الحبكة. وهو يتردى أحيانا فى مهاوى الخطأ عندما يتسم مجرى الأحداث فجأة، باللامعقولية – وهو مايبدو عندئذ نتيجة لعجزه – كما يحدث عندما تقتل تس ألك دربرفيل بسكين الخبز. ومما يزيد لامعقولية الأمر عمقا أنه يجانب اللياقة عندما يسمح لنفسه بوصف الدم المتسرب من الأرضية إلى السقف الذى تعلوه على شكل «آس ضخمة». بل إن لجوءه إلى الميلودراما لهو دليل مشابه على افتقاره إلى اللباقة، والقبض على تس فى ستون هنج فى النهاية مثال لذلك، فهو لا يستطيع أن يخلص بلباقته فى الوقت المناسب. وهو بطريقة ما، يضفى على الصورة الفخيمة شيئا من البهتان».

ويقول بول دوتان في كتابه عن الأدب الإنجليزى:

«سخر هاردى من آمال الإنسان الميتافيزيائية كما هزئ بهذه اللعبة التى يسميها الناس بالحب. وخير آثاره كتابان هما «تس دربرفيل» و«جود الغامض(*)». ولعل هذين الكتابين أظلم ماعرفت الإنسانية من كتب. فإنك لتخرج من قراءاتهما وأنت تحس بغم ثقيل وقلق ممض، أشبه بالقلق الذى تشعر به بعد اقتراف إثم، لذلك رأينا الجمهور الإنجليزى يثور. ثم رأينا هاردى الذى يعتبر الكتابة أشبه برسالة دينية يعتزل الرواية بعد إصدار «جود» لينصرف الى الشعر».

(*) كذا فى الترجمة العربية (وهى غفل من التوقيع) لكتاب دوتان. وصواب ترجمة العنوان "جود المغمور" Jude the Obscure

وما أكثر النقاد والدارسين والأدباء المصريين والعرب الذى كتبوا عن هاردى: ابتـداء بالعقاد والـمازنى وانتهاء بـفاطمة موسى محـمود وأمـين العـيوطى (انظر ببليوجرافيا: هاردى فى اللغة العربية، فى ختام هذا التصدير). وهاأنذا أورد نماذج مما كتبوه عن رواية «تس» على اختلاف مواقفهم منها، وانشعاب السبل بهم:

«أما هاردى فشخوصه - كبارا وصغارا - تحت رحمة قضاء عات لا يميز، وهو يرتب سلسلة من المصادفات الصغيرة لا يزال بعضها يأخذ برقاب بعض حتى تنتهى إلى الكارثة فلو أن أبا «تس» الصعلوك لم يلق القسيس الذى أيقظ فى قلبه آمالا عراضا، ونبهه الى عراقة أصله وكرم محتده - وقد كان فى غفلة عن هذا - لولا ذلك لما انطلقت «تس» تسعى الى أقربائها المزعومين، ولما لقيت هذا الوغد «ألك» الذى أفسد عليها حياتها. ولو أن حبيبها «إينجل كلير» قرأ اعترافها أو استمع إليه قبل زفافهما لما عصفت بحياتهما هذه العاصفة، ولو.. ولكن هاردى لايسمح بلو هذه، فهو يترك المصادفات الخبيئة تجرى مجراها حتى تنتهى بالكارثة التى لا محيص عنها فتقدم الضحية البائسة وتتحطم حياة حبيبها المسكين»

(فؤاد أندراوس).

«يرتبط المكان فى روايات هاردى ارتباطًا وثيقًا بالأحداث التى تتم فيه، كأنما يوحى المكان للفرد بسلوك معين، وبعواطف واستجابات وأفكار خاصة. ففى الريف النقى يتم اللقاء بين تس وكلير، فى وسطٍ يثير فيهما عواطف وأفكارا نبيلة. أما فى المدينة الساحلية حيث الحياة الصاخبة اللاهية تجد تس نفسها مرغمةً على أن تعيش مع الشخص الذى جر عليها البلاء، وهناك أيضا تقتله»

(شفيق مجلى).

«رُمى هاردى بالتشاؤم فرد فى مقدمته لبعض كتبه يقول إنه ليس بالمتشائم، وإنما هو يصور الحياة على حقيقتها. والواقع أنه يصور الحياة على حقيقتها ولكن فى جانب واحد منها هو الجانب المؤسى، وقلما ترى فى آثاره فرحا إلا محفوفا بالشوائك وشيك الذهاب، ولا ابتساما إلا ابتسام الشجر والإشفاق. فلا يكاد القارئ لرواية تس مثلاً يذكر لهذه الفتاة موقفًا ابتسمت فيه ابتسامة غبطة وارتياح أو يذكر أنها تمتعت حتى فى أسعد أيامها إلا تمتعا مريرًا مشوبًا بالغصص والحسرات»

(محمود محمود).

«أنغامه فى شعره وقصصه على السواء حزينة، وابتساماته الكثيرة تقطر سخرية رحيمة حكيمة. وما من قارئ أتى على رواية من رواياته - وعلى الأخص روايته الشهيرة «تس سليلة آل دربرفيل» إلا ولزمته من شاعريتها الحزينة ظلال قاتمة لم يتيسر له الخلاص منها إلا بعد أيام وأيام»

(نظمى لوقا).

«فى «تس سليلة دربرفيل» تجتمع كل قوى الطبيعة والقدر والنظام الاجتماعى والأخلاقى ضد امرأة جميلة خلقت لتحب ولتعيش فى سعادة. لكن الكاتب جعل كل الظروف تقسو عليها ليثبت أن الحياة خالية من الرحمة، وأن كل الظروف تقف للإنسان بالمرصاد. فقد تخطى القدر فى هذه الرواية كل الحدود المقبولة والمعقولة فى صب الكوارث فوق رأس «تس» إذ يلاحقها حتى ترتكب جريمة قتل، وتعاقب عليها بالشنق»

(سيد حامد النساج).

«الإنسان الغريزى قريب إلى الطبيعة، يأخذ مواصفاته عند هاردى بشكل فتيات ريفيات يمتلئن شهوةً وحيوية، ويفضن بجنسية تحميها البراءة والطهر فى أجواء مزارع خضر غنية أيام الربيع هكذا هى (تس). وحيث إن هذا الإنسان يتكرر يوميًا وفى الكون كله، كان لابد أن يكون إطار حركته أصيلا، أى لابد أن يكون موضوعا فى سياق متوارث أصيل شأن ثوابت الميثولوجيا. أما رحلة هذا الإنسان فهى رحلة الغريزة أيضا بين (العفوية) و (التلقائية) و (التطبع) والانتظام، أو بين الطهر وبين السقوط. فأنثى هاردى (تس) مثلاً تبتدئ رحلتها بريئة يمهد هاردى لما يعترضها مستقبلا بأفعالٍ دالة شأن أشواك الورد التى خدشتها أو شأن طرفٍ عربة البريد التى شقت جسد الحصان. وسرعان ماتتعرض حياتها الرعوية إلى غزو ذلك الشيطان المدينى (ألك) الذى يستعير هاردى مواصفاته من روايات الجريمة والإثارة، لكنه يمنحه مواصفات الموروث الأصيل عندما يجعله مرادفا للشيطان أو الإغواء الذى يربك سلام الفردوس وأمنه»

(محسن جاسم الموسوى).

«الكتاب، كما قال عنه هنرى جيمس، "محشو بالغلطات والمغالطة"، وقد كان القتل يظهر فى قصصه (قصص هاردى) قبل «تس» أما الشنق فيظهر فى هذه القصة لأول مرة. ويحاول هاردى أن يجعل قلب القارئ يتمزق لمنظر هذه الفتاة الرقيقة وهو يراها فريسة لسوء حظها يلاحقها حتى ترتكب جريمة قتل وتعاقب عليها بالشنق. وليس من المعقول أن تطعن «تس» «ألك» وكان الأفضل أن تتركه وتعود لزوجها. ولم يثن هاردى عن عزمه أى شىء، وأخذت العدالة مجراها وأنهى رئيس الخالدين لعبته مع تس»

(طه محمود طه).

«لا ينى هاردى يلجأ فى تلافيف الرواية إلى الصور الشعرية التى تربط بين (تس) وبين الذباب. ها هو يصورها تحاول أن تبدأ حياتها المحطمة من جديد بعد أن مات طفلها غير الشرعى من «ألك دربرفيل» والمشهد يصور (تس) لدى وصولها إلى المزرعة التى ستشتغل فيها:

«وقفت تس حائرة لا تدرى إلى أين تتجه، ومن حولها تنبسط الأرض الخضراء فى كل اتجاه. كانت تشبه ذبابة تقف على كساء لطاولة بلياردو مترامية الأطراف، ولم يكن يبدو أن الأشياء المحيطة بها تعيرها من الاهتمام أكثر مما تعير طاولة البلياردو الذبابة الواقفة عليها». وفى موضع آخر من الرواية يصف هاردى الأرض والسماء فى انصرافهما الأبدى عما يحدث البشر، ومرة أخرى يلجأ لصورة الذباب»

(رشيد العنانى).

«عندما تعانى تس ازدراء كلير لها وقسوته فإنها تدرك ورطتها و«قانون المجتمع التعسفى الذى لم يكن له أساس فى الطبيعة». هنا تكمن «طهارة» تس، فى طبيعية دوافعها التى ينكرها القانون الاجتماعى»

(أمين العيوطى).

«الرواية بأكملها تهيمن عليها فكرتان أساسيتان، أو فلنقل بالأحرى إحساسان غالبان ومتناقضان فى آنٍ واحد. والإحساس الأول الذى يفرض وجوده بقوة على كامل الأحداث وكل الشخوص - وخاصةً شخصية صاحبة المأساة - هو الشعور الجارف والعميق بأصالة الخطيئة وتجذرها داخل كل النفوس. أما الإحساس الآخر الذى يبرز ويتأكد مع تعقد الأحداث واستمرار الصعود الصعب فهو التمرد العنيف، نقيض الإحساس الأول ومحاولة نفيه بالقوة، بالجريمة»

(حسن حسنى).

«إن أشهر ما يعرف من إنتاجه (إنتاج هاردى) اليوم رواية «تس من أسرة دربرفيل» (١٨٩١) التى صور فيها دخول الرأسمالية الجديدة إلى الريف وتحويل الأراضى الزراعية إلى مزارع للزينة والصيد، وخروج صغار المزارعين والعمال الزراعيين من أرضهم نتيجة لذلك التغير الاجتماعى، وليست تس البطلة إلا واحدة من أولئك المخلوعين، وهى فتاة جميلة «نقية» تقع فريسة لابن الرأسمالى محدث النعمة من ناحية وابن قسيس القرية المثقف المتشكك الجبان من ناحية أخرى. تكون نهايتها على حبل المشنقة ضحيةً على مذبح آلهة متصارعة لا تدرك الضحية قوتها ولا أهدافها»

(فاطمة موسى محمود).

«كان هاردى كاتبًا محظوظًا فى اللغة العربية؛ إذ توفر علي نقل أشعاره ورواياته وأقاصيصه نفر من أقدر الأدباء والمترجمين وأعظمهم حظًا من المعرفة بالإنجليزية والعربية وأقدرهم على الإبانة: العقاد، المازنى، محمد مفيد الشوباشى، محمد إبراهيم زكى، سامى ناشد، نظمى لوقا... إلخ. ولكن أعظم مترجميه هو – بلا جدال – الأديب الشاعر المترجم فخرى أبو السعود الذى مات منتحرًا بإطلاق رصاصة من مسدسه على رأسه فى حديقة بيته بالإسكندرية فى ١٩٤٠. صدرت ترجمته هذه، لأول مرة، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أواخر ثلاثينيات القرن الماضى، ثم أعيد طبعها فى ١٩٦١. وها نحن أولاء نضعها بين يدى القارئ الكريم فى طبعة ثالثة ترى منها كيف تكون أمانة النقل، ودقة التعبير، وبلاغة الأسلوب. وقد ترجم فخرى أبوالسعود أيضا بعض قصائد لهاردى ووردزورث وغيرهما مازالت تنتظر أن توضع تحت أنظار القراء. قلَّ من الترجمات ما يسمو إلى مرتبة الأصل، ولكن هذه الترجمة – فيما أزعم – واحدة من هذا القليل.

وأدعُ للقارئ أن يحكم بنفسه إذا هو رأى – بعد أن يقرأها – أن يتجشم مشقة – بل متعة – معارضة الصورة على الأصل، ومقابلة الصدى على الصوت.

ماهر شفيق فريد

هاردى فى اللغة العربية
ببليوجرافيا مختارة

أعمال مترجمة لهاردى:

- بعيدًا عن الناس، تبسيط أ.ج.أير ترجمة عبد الحميد فهمى الجمال، مراجعة مختار السويفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧
- نافخ البوق، ترجمة محمد مفيد الشوباشى، مراجعة على أدهم، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، د.ت (نسختى مؤرخة فى يناير ١٩٦٦).
- عمدة كاستر بردج، ترجمة محمد إبراهيم زكى، مراجعة مصطفى حبيب، مؤسسة روز اليوسف ١٩٦٢ (جزءان).
- عودة ابن البلدة، ترجمة سامى ناشد، مراجعة حسن محمود، دار التعاون للطبع والنشر ١٩٦١ (جزءان).
- مفـــارقات الحيـــاة، ترجمـــة عثمان نوية، مراجعة أحمد حلمى على، دار الفكر العربى، د.ت (ست أقاصيص).
- جود المغمور، ترجمة سامى ناشد، مراجعة حسن محمود، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٤.

أعمال مترجمة عن هاردى:

- كلارا براندابور، البطولة الرواقية بين أعماله وأعمال توماس هاردى، ترجمة أيمن فؤاد، مجلة إبداع، يوليو / أغسطس ١٩٩٩.

- فلورنس إميلى - حياة توماس هاردى، ترجمة عثمان نوية، مراجعة مصطفى حبيب، مطابع سجل العرب ١٩٦٦.

- جيمس جبسون، توماس هاردى وروايته «تس دربرفيل» ترجمة يعقوب أفرام منصور، الأقلام (بغداد) نيسان ١٩٩٠.

- تشارلز مورجان، الكاتب وعالمه، ترجمة د. شكرى محمد عياد، أصدقاء الكتاب ١٩٩٤ (فصل «توماس هاردى»).

- م. ل. روزنتال، شعراء المدرسة الحديثة: دراسة نقدية، ترجمة جميل الحسنى، مراجعة د. موسى الخورى، المكتبة الأهلية بيروت ١٩٦٣.

- إ. م. فورستر، أركان القصة، ترجمة كمال عياد جاد، مراجعة حسن محمود، تقديم ماهر شفيق فريد، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١.

- فيفيان دى سولا بنتو، أزمة فى الشعر الإنجليزى، ترجمة عبد الواحد محمد، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٦.

- ريتشارد هـ. تايلر، مذكرات توماس هاردى الشخصية، ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد العدد الثالث السنة الثالثة صيف ١٩٨٣.

- إليزابث درو، الشعر كيف نفهمه ونتذوقه، ترجمة د. محمد إبراهيم الشوش، مكتبة منيمنة - بيروت ١٩٦١.

- أ. أ. رتشاردز، العلم والشعر، ترجمة د. محمد مصطفى بدوى، مراجعة د. سهير القلماوى، مقدمة ماهر شفيق فريد، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠١.

- ت. س. إليوت، وراء آلهة غريبة فى كتاب: المختار من نقد ت. س. إليوت، اختيار وترجمة وتقديم ماهر شفيق فريد، الجزء الأول – المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٠.
- ولتر آلن، الرواية الإنجليزية، ترجمة صفوت عزيز جرجس، مراجعة مرسى سعد الدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.
- جيكوب لوث، التكرار وأسلوب السرد الروائى: هاردى كونراد، فوكنر، ترجمة عنيد ثنوان رستم، مجلة الثقافة الأجنبية، بغداد، السنة السابعة العدد ٣ (١٩٨٧).
- إيفور إيفانز، موجز تاريخ الأدب الإنجليزى، ترجمة د. شوقى السكرى، د. عبد الله عبد الحافظ، مكتبة الأنجلو المصرية، د.ت. ولكن مقدمة المترجمين مؤرخة فى ١٩٦٠.
- ف. ر. ليفيز، اتجاهات جديدة فى الشعر الإنجليزى، ترجمة د. عبد الستار جواد، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ١٩٨٧.
- بول دوتان، الأدب الإنجليزى، دار الفكر العربى ١٩٤٨.

كتابات عربية عن هاردى:

- عباس محمود العقاد، أشعر شعراء الغرب فى القرن العشرين، جريدة الأخبار ١٩٦١/٢/١٥ (أعيد طبعها فى كتابه «يوميات» الجزء الثانى، دار المعارف ١٩٨٢).
- عباس محمود العقاد، ساعات بين الكتب، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ (فصول: أزياء القدر ٨ أبريل ١٩٢٧ / الشعر فى مصر ١٧ يونيو ١٩٢٧/ الشعر فى مصر ١٠ يونيو ١٩٢٧ / توماس هاردى ٢٠ يناير ١٩٢٨/ توماس هاردى ٢٧ يناير ١٩٢٨ / توماس هاردى ٣ فبراير ١٩٢٨ / الحب والغزل ٩ مارس ١٩٢٨).

- عباس محمود العقاد، عرائس وشياطين، عيسى البابى الحلبى، د.ت (يضم ترجمة قصيدتين لهاردى).
- إبراهيم عبد القادر المازنى، حصاد الهشيم، دار الشعب ١٩٦٩ (مقالة - جيئة وذهوب»).
- محمود مسعود، روائع الفكر العالمى، كتاب الهلال مارس ١٩٧٩.
- كامل عبد المجيد وفؤاد فهمى، أعلام الأدب الإنجليزى، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٥.
- محمود محمود، فى الأدب الإنجليزى، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥.
- صبرى حافظ: توماس هاردى: قصائد مختارة، اختارها وحررها و. ا. وليامز، مجلة المجلة نوفمبر ١٩٦٥.
- أحمد أمين وزكى نجيب محمود، قصة الأدب فى العالم، الجزء الثالث، القسم الأول، الهيئة العامة لقصور الثقافة سبتمبر ٢٠٠٢
- عبد الوهاب المسيرى، هاردى والطائر المغرد فى الظلام، مجلة الطليعة سبتمبر ١٩٧٣.
- فاطمة موسى محمود، سيرة الأدب الإنجليزى للقارئ العربى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.
- شفيق مجلى، توماس هاردى، مجلة أصوات (لندن) العدد الثانى ١٩٦١ (أعيد طبعها فى كتابه: توماس هاردى) ودراسات حديثة فى الأدب الإنجليزى، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢).
- طه محمود طه، القصة فى الأدب الإنجليزى، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٦.

- أمين العيوطى، دراسات فى الرواية الإنجليزية، ١٩٦٦ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٢.
- سيد حامد النساج، تعريف بالرواية الأوروبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨١.
- أنجيل بطرس سمعان، الرواية الإنجليزية، دار المعارف ١٩٧٧.
- محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية مقال فى النوع الأدبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦.
- رشيد العنانى، التشاؤم والقدرية فى شعر توماس هاردى وروراياته، جريدة الحياة ٢٣ مارس ١٩٩٠.
- نظمى لوقا - العواهل لتوماس هاردى، مجلة تراث الإنسانية ٥ أبريل ١٩٦٦.
- فؤاد أندراوس، توماس هاردى بين الفلسفة والأدب، مجلة الأدب المصرى، العدد الثالث، السنة الثانية.
- حسن حسنى، تس سليلة آل دربرفيل بين هاردى وبولانسكى، مجلة أدب ونقد يناير ١٩٨٤.
- محمد شعلان، تس: بنت البيت الفقير ذى الأصل العريق، مجلة الإنسان والتطور أكتوبر ١٩٨٢.
- ماهر شفيق فريد، رسالة لندن، مجلة الثقافة، أكتوبر ١٩٧٧.

ماهر شفيق فريد

تــــوطــــــئـــــــة

توماس هاردى

حياته وأدبه

حياته:

ولد توماس هاردى فى مقاطعة دورست سنة ١٨٤٠، وعمر ثمانية وثمانين عامًا، ومات سنة ١٩٢٨، فهو قد شب فى إبان العصر الفكتورى، وشهد تصرم ذلك العصر، وشهد عهد ما قبل الحرب العالمية وما بعدها.

ونشأ هاردى ضعيف البنية محبًا للعزلة، وتلقى تعليمه فى المقاطعة التى ولد بها، وكان فى صغره يكتب رسائل القرويات الأميات إلى أحبائهن، فأكسبه ذلك بصرًا بنفوس النساء جعله فيما بعد يبرع فى تصوير الشخصيات النسوية فى قصصه فوق براعته فى تصوير شخصيات الذكور، شأنه فى ذلك كله شـــأن رتشارد سن أبى القصة الإنجليزية الحديثة.

وأتم هاردى دراسته فى إحدى كليات لندن حيث أصبح مهندسًا معماريًا، وكان ذا ميل شديد إلى المبانى، مشغوفًا بطرازات الكنائس العتيقة، وبمصطلحات المعمار، وبأوصاف المبانى والكنائس تحفل بها بعض قصصه.

وبدأ هاردى فى شبابه ينظم الشعر، وكان المذهب السائد إذ ذاك مذهب تنيسون المغرم بتنميق الديباجة وإحكام الأوصاف، وكان شعر هاردى مناقضًا لذلك تمام المناقضة فلم يلق نجاحًا، فهجر الشعر إلى القصة وما زال يعالجها حتى أصاب فيها نجاحًا عظيمًا، وذاعت شهرته وهو يناهز الثلاثين من عمره، رغم أنه كان شديد التسامى بموضوعه وأسلوبه لا يكتب إلا مـــا يسيغه خاصة المتعلمين،

ولا يلقى بين العامة رواجًا، وأدر عليه أدبه القصصى من المال ما مكنه من اعتزال العمل والرجوع إلى قريته حيث توفر على التأليف، بعيدًا عن زحام العصر هانئًا بجمال الطبيعة والسكون، فأخرج عددًا عديدًا من القصص والأقاصيص، أشهرها رواية تس سليلة دربرفيل هذه ورواية يهود المغمور، ثم هجر هاردى القصة وعاود الشعر على كبره فأبدع فيه ووصف من أحوال الحب وحرارة العاطفة ما يعجز عنه الشبان فى ريعان العمر، حتى عد إمام الكتاب والشعراء معًا فى عصره، ومعظم النقاد يرفعونه إلى المرتبة الأولى بين القصصيين، ويقصرون به عن مثلها بين الشعراء أما هو فكان يعتز بشعره دون نثره.

وكان توماس هاردى كغيره من المتشائمين المنقبضين المرهفى الحس شديد الحدب على الطير والحيوان، يحيط به فى داره الريفية عدد منها بين عصافير وكلاب، فإذا نفق أحدها حفر له مقبرة فى حديقته، وتزوج هاردى مرتين، وقد كتبت امرأته الثانية تاريخ حياته بعد مماته.

عصره:

وقد شب هاردى فى عصر من أزهى عصور إنجلترا: وقد كللت حروبها ضد نابليون بالظفر، وتوطدت لها سيادة البحار، وصارت كلمتها الأولى فى السياسة الدولية، وكان الظفر بعد ذلك حليفها فى حروب القرم والبوير والحرب العظمى، وكانت إنجلترا فى رخاء مادى عظيم: لسبقها الدول فى مضمار التطور الصناعى، وكانت تجيش بشتى دعوات الإصلاح التى استتبعها ذلك التطور: من إصلاح فى النظم الدستورية، وتعميم للتعليم، وتحسين لحالة العمال، وهى أمور اشتغل بها أدباء ذلك العصر، ومنهم دكنز وثاكرى وتنيسون وبروننج وسوينبرن وميريديث وكارليل وماثيو أرنولد، وكلهم أدرك هاردى وبهم تأثر.

وكان عصر هاردى عصر تقدم فى العلوم والاجتماعيات، يتمثل فى كتابات داروِن وهكسلى وسبنسر وجون ستوارت مل، وكان لذلك التقدم العلمى أثره فى احتدام المشادة بين العلم والدين، وظهور حركة إصلاحية دينية عرفت بحركة أكسفورد الجديدة.

وكان ذلك العصر عصر تجاوب شديد بين الأدب الإنجليزى والآداب الأوربية: كان كارليل وأرنولد يذيعان أدب الألمان، وكان الأدب الفرنسى متمثلاً فى كتابات رينان وتين وقصص زولا وموباسان يؤثر فى الأدب الإنجليزى، ونالت قصص تولستوى رواجًا عظيمًا فى إنجلترا حبب الأدباء فى الأدب الروسى، وأثر إبسن القصصى النروجى فى القصة الإنجليزية فجعلها تتجه إلى مناقشة الشؤون الاجتماعية.

تأثره بعصره:

تأثر هاردى بكل هاتيك العوامل المعاصرة التأثر الذى يهيئه له مزاجه المنقبض وحسه المرهف وذكاؤه العظيم: تأثر بالحروب النابوليونية التى لم يكن صداها قد خفت فى الأذهان بعد، فتناولها فى شتى قصائده، وأورد ذكر الحروب والجنود فى كثير مما كتب، وكان هاردى على إنسانيته الشاملة إنجليزيًا وطنيًا، فنظم بعض الشعر حرب جنوب إفريقية، والحرب العالمية ملؤها الحماسة القومية، وإن كان بعيدًا عن التعصب الذميم، أو النزعة الاستعمارية التى كان يتصف بها معاصره كبلنج مثلا.

أما الحياة العصرية الصاخبة التى تسيطر عليها المادة وتحتدم فيها المزاحمة التجارية والتسابق الصناعى، فكان من شأنها أن تنفر نفس هاردى العيوف، ومن ثم هجرها إلى القرية حالما استطاع، ولم يشارك فى دعوات الإصلاح الاجتماعى، وتحرير الأمم المجاهدة، التى كان يشارك فيها معاصروه من الأدباء، ولم يكن يعرض فى كتبه للمجتمع إلا لماما، أو يشير إلى نقائصه إلا فى شمول واقتضاب.

على أن هاردى كان من أقطاب الثائرين على التزمت الفكتورى فى الأخلاق وفى الأدب، سبقه إلى ذلك ميريديث وسوينبرن، وتابعهما هاردى فجلب على نفسه غير قليل من حنق الجمهور، بمعالجته مواضيع كموضوع رواية تس هذه، ونعته إياها على غلاف الكتاب بالمرأة الطاهرة، كما أنه من الثائرين على مدرسة تنيسون فى الشعر التى كانت أغرقت فى النعومة اللفظية.

وتأثر هاردى بتقدم العلوم الحديثة كعلوم الأحياء والاجتماع والنفس: فرانت على كتابته دقة علمية ونزعة إلى التحليل النفسى، وقد نشر داروين نظريته التى غيرت وجه العلم الحديث وهاردى يناهز العشرين من عمره، وكان لكل ذلك أثره فى النظرة الواقعية التجريدية التى ينظر بها هاردى إلى العالم، ورفضه كل عزاء أو إيمان أو رجاء، وكان من عوامل نزوع هاردى إلى الواقعية أيضًا تأثره بالأدب الروسى فى شخص تولستوى، والفرنسى فى شخص زولا وغيرهما.

وفضلا عن تأثره بتلك البيئة الفكرية المعاصرة، تأثر هاردى بالتراث الأدبى الإنجليزى والتراث الإغريقى، وكان معشوقوه فى الأدبين اسكليس وشكسبير وشلى، فهو يتأثرهم فى مآسيه وأشعاره، وإن كانت له فى هذه وفى تلك شخصيته الواضحة وطابعه الخاص.

نظرته إلى الحياة:

تلك على الإجمال العوامل التى كونت نفسية هاردى وأدبه: حس مرهف، وبنية ضعيفة، وعصر زاخر، ونهضة علمية، وثورة فى الفكر والدين بدلت وجه العالم أمام أبناء عصره وزلزلت عقائد قرون، وأدب أجنبى معاصر، وتراث أدبى قديم حافل بأشتات الصور وغرائب الأفكار، وقد استوعب هاردى فى حياته الطويلة جانبًا عظيمًا من كل هاتيك الثقافات، وكان ذا بصرٍ خاص بالتاريخ والآثار وتاريخ المسيحية، وبدا أثر ذلك كله فى كتاباته، مصبوغًا بالصبغة القاتمة التى اتجه به إليها مزاجه: فقد كان هاردى متشائمًا شديد الإحساس بظلم القدر وفجائع الحياة وعجز حيلة الإنسان فى دولاب الوجود الدائر.

هذه هى الفكرة الغالبة الرائنة على قصص هاردى وأشعاره، مأساة الوجود: أقدار عمياء باطشة، ورغبات غريزية كائنة فى نفوس البشر، بل الأحياء جميعًا، فى التمتع بالحياة، وتلك الأقدار تعصف بهذه الرغبات وتبددها وتعكسها على أصحابها، لا عن عمد وقصد للنكاية، بل عن عمى وجهل وعدم مبالاة بتلك

الرغبات أنُجحًا أصابت أم خذلانا، وتلك النفوس أنعيمًا لقيت أم برحاء، ومن ثم تكون الآلام وخيبة المساعى ووقوع الظلم بأقل الناس استحقاقًا له وفوت الفرص وامتناع الآمال، ومن ثم أيضًا فجائع الفراق والموت والفناء الذى يأتى على كل الآمال والمساعى.

ولذا نرى هاردى فى شعره وقصصه معًا دائبًا يتفنن فى اختراع مفجع المناظر والمواقف والأحداث: من تحول الحب وقسوته، وسموم الغيرة وجناية الشهوة، وحلول المشيب ونزول البلى ونضوب الوفاء، ويختار لكل تلك المواقف ما يناسبها من مناظر عابسة كالحة فى الطبيعة الذابلة، أو بين المقابر أو على فراش المحتضرين أو بين آثار الذاهبين، وينتقى لكل ذلك ما يلائمه ويؤديه من لفظ وعر جاف باسر.

وقد أثار هذا الأدب المنقبض العابس ثورة فى الأفكار ونفورًا فى النفوس إبان انتشاره، ورمى هاردى بالتشاؤم، فرد فى مقدمته لبعض كتبه يقول إنه ليس بالمتشائم، وإنما هو يصور الحياة على حقيقتها، والواقع أنه يصور الحياة على حقيقتها ولكن فى جانب واحد منها هو الجانب المؤسى، وقلما ترى فى آثاره فرحًا إلا محفوفًا بالشوائب وشيك الذهاب، ولا ابتسامًا إلا ابتسام السخر والإشفاق، فلا يكاد القارئ لرواية تس مثلا يذكر لها موقفًا ابتسمت فيه ابتســام غبطة وارتياح أو يذكر أنها تمتعت حتى فى أسعد أيامها إلا تمتعًا مريرًا مشوبًا بالغصص والحسرات.

شعره:

القارئ لشعر هاردى يشعر أنه شعر قصصى: فهو حافل بالأقاصيص المحكمة النسج الموجزة العرض المفجعة المغزى على النحو السالف ذكره، وأسلوبه الشعرى شديد القسر خلو من كل تنميق، يرمى فيه هاردى إلى إبراز المعنى فى أوجز لفظ وأشده ملاءمة للفكرة، والفكرة عنده عادة عابسة كئيبة، وهو

يلتزم فى موضوعه جانب الحقيقة الواقعة لا يجاوزها إلى الخياليات والبطوليات، بل هو أشد انقيادًا للخيال الشعرى وتجوزا للحقيقة فى قصصه منه فى شعره، ومن نماذج شعره الدالة على منزعه مقطوعة سماها "الصدفة" نظمها فى السادسة والعشرين يقول منها:

"لو أن إلهًا حانقًا صاح بى من سمائه: (أيها الشيء المتألم! اعلم أن أساك لى غبطة، وأن ما تخسر فى حبك أربحه فى بغضائى!) إذن لتجلدت لذلك وطويت النفس عليه، ثم مت متدرعًا بالشعور بالظلم الذى لم أستأهله، مستشعرًا بعض الراحة من علمي بأن كائنًا أقوى منى قد ارتضى لى هذه الدموع التى أسفحها وقدرها على تقديرا، ولكن ليس الأمر كذلك، فلم تتحطم السعادة؟ ولِمَ تذبل خير الآمال التى نغرسها؟ إنه القدر الأخرق يسد الطريق على الشمس والمطر، والدهر يُلقى من نرده بعد فرحة أنة، وما كان ضر تلك القوى المتحكمة الخرقاء لو نثرت النعم بدل الآلام فى طريق حياتى".

فالسعادة فى هذه الحياة تتحكم، وخير الآمال المغروسة تذبل، لأن القدر الأخرق يحجب عنها مستلزمات الحياة والنماء، والدهر لاعب بالنرد يلقى من أصابعه نعمة أو نقمة بغير حساب، ويلج بالشاعر الحنق على هذه الأقدار العمياء ويود لو يعلم أن ما يصيب مساعيه من إخفاق إنما مرجعه إلى كائن شرير يتعمد نكايته. فلا يتاح له حتى التعزى بوجود ذلك الكائن والتأسى بالشعور بالظلم وإن لم يستطع للظلم دفعًا؛ نظم هاردى هذه المقطوعة فى ريعان الشباب، ولكنها ظلت لسان حاله وجماع فلسفته فى بقية حياته وفى كل كتاباته.

قصصه:

نشأ هاردى فى عصر قد بلغت فيه القصة أوج تطورها، وأصبحت أشد صور الأدب حظوة لدى القارئين، ونبغ فى عصره من الأدباء من مارسوا القصة والشعر معًا، مثل ثاكرى وميريديث، وقد مارس هاردى تأليف القصص زهاء ربع

قرن من الزمان، أخرج فيه عددًا وفيرًا من المآسى، وكانت تس من أخريات ما كتب، فهى ثمرة كل تلك التجربة الطويلة وأوج نضجه الفنى، وإن كانت لا تمتاز عن سالفاتها بمذهب جديد فى الكتابة، أو نظرة جديدة إلى الحياة وإنما تمتاز باتساع رقعتها وسموق بنائها، وبعد مراميها وإحكام صياغتها، وقصصه كلها مهما اختلفت حوادث وشخوصًا متماثلة فى تلك النظرة المتشائمة إلى مأساة الحياة.

فبطلة هذه الرواية تس مثلا، فتاة كما يقول المؤلف طاهرة لا تريد إلا أن تتمتع بحياتها شأن كل الأحياء، ولكن الظروف المحيطة بها حرب عليها: يلجئها فقر أبويها وإهمالها إلى احتراف عمل، فلا يزال بها مستخدمها حتى يغصبها أعز ما تملك، فإذا ما تماثلت من العقابيل النفسية والبدنية التى يفدحها به هذا الخطب وعولت على أن تحيا حياة ترهب إذا الصدفة تدفعها دفعًا إلى مقابلة سيد يبادلها الحب ويريدها على زواجه، فتهم مرارًا أن تخبره بماضيها الأليم فتخونها العزيمة والظروف، حتى إذا ما أخبرته بعد الزواج هجرها وغادرها فى عوز، ولا يزال كدحها من أجل إخوتها الصغار حتى يلقى بها فى أحابيل مغريها الأول، بعد أن يئست من عودة زوجها المحبوب، فإذا عاد الزوج نادمًا لاستلحاقها بلغ منها الحنق على مغويها الذى أوهمها أن زوجها لن يعود، واستدرجها بذلك إلى حمأته، فتقتله وتؤخذ بجريمتها.

يعرض الكتاب هذه الأحداث فى سلسلة متتابعة الحلقات تستلزم السابقة منها اللاحقة، فهى أحداث ينجم أحدها عن الآخر كما تتفاعل العناصر الكيميائية التى لا مرد لتفاعلها، وترى حتمًا من الحتم على تلك الفتاة الطاهرة النفس الحسنة القصد، أن تنحدر إلى لهوات الشقاء والشر والجريمة، ثم يلفظها المجتمع اقتصاصا، وجميع حوادث القصة مع ذلك عادية بسيطة لا خوارق فيها ولا أوابد فى تحليلاتها النفسية.

ولا ينسى هاردى فى مآسيه غير الآدميين من الأحياء، ولا يفوته أن يصور فتك الأقدار العمياء القاسية بالحيوان والطير بل والحشرة: ففى أول روايتنا هذه وصف مفظع لمقل الحصان "برنس"، وفى وسطها تصوير دامٍ لمصارع الدراج المصيد، وفى آخرها إشارة عاجلة الى عنكبوت يرتعد بين قسوة البرد وإلحاح الجوع.

ولولوع هاردى بتجسيم الهول والفجيعة فى رواياته، يسلك بالقارئ مسالك غريبة مشعرة بالرهبة لا يدرى أين تنتهى به، ويصف له طريقًا موحشًا كأن المؤلف نفسه لا يدرى أين يؤدى، ويصف بناء غريبًا، وكأنه هو نفسه لا يدرى لمن ذلك البناء وماذا يحوى من أسرار، ويصف ضوضاء كأنه لا يدرى مأتاها، وشبحًا قادمًا فى الطريق كأنه لا يعرف، ولا يعرف قصده أخيرًا يريد أم شرًا، ثم هو على نزعته العلمية الدقيقة لا يتوانى عن استخدام الخرافات والأوهام التى يتداولها الريفيون، ليبث جوا من الرهبة فى القصة، وهو لا يكتفى بما يتكنف حياة الأحياء من مآسٍ حتى يبث روح الرهبة والفزع فى الجماد: من قصر قديم منحوس، أو مركبة كئيبة مشئومة، أو آلة بخارية سوداء تتعب فى حقول لا تعهدها.

ومن وسائل هاردى التى يطرقها كثيرًا ليصور عمى الأقدار وعبثها بمساعى الإنسان وعكسها مآربه عليه، أنه لا يزال يفوّت على أشخاص رواياته الفرص، ويتيح لهم ما يريدون أو ما يصلح لهم، ولكن بعد فوات وقته وضياع فرصته، ويجعلهم يعقدون العزم على الأمر مرارًا ثم تخذلهم شجاعتهم فى اللحظة الرهيبة: انظر إلى تس مثلا فحياتها سلسلة فرص ضائعة، ومساع لا تتحقق إلا بعد فوات الأوان، وعزائم تعقد ثم تنحل: فهى تلقى كلير الرجل الذى يصلح لها وترضاه لقاء عابرًا فى أول القصة، ولا يطارحها الحب إلا بعد أن يسبق السيف العذل ويجنى عليها ألك دربرفيل، وهى تنهى خبر ماضيها إلى حبيبها فى رقعة فتخطئه الرقعة، وهى تزور والده شاكية مستعينة فتخطئه، ولا تجنى من رحلتها إلا الوقوع فى طريق ألك دربرفيل من جديد، وهلم جرا.

تلك نظرة هاردى العامة إلى الحياة، لا يخفف من وطأتها إلا ما تتسم به رواياته من روعة التصميم، وجمال تصوير الطبيعة، ودقة رسم الأشخاص، وصدق النظرات النفسية والاجتماعية، مما يجعل كل رواية منها قطعة من صميم المجتمع متحركة نابضة بالحياة.

وأبرع ما برع فيه هاردى وخدم به القصة روعة تصميم قصته: فقد كان هاردى يجمع اتساع الخيال إلى دقة الملاحظة، فيرسم رقعة رواياته واسعة شاملة، ثم يركب فى داخلها كل دقيقة وكل تفصيل فى موضعه الملائم، فترى القصة وكأنها البناء الشامخ المتناسق المتساند، ولاغرو فقد كان هاردى مهندسًا معماريًا يحذق وضع التصميم وتقسيم أجزائه.

فرواية تس مثلا قطعة من الحياة لها معاهدها ومناظرها التى يتحرك فيها أشخاصها، وتتواتر أحداثها بين ماض وحاضر ومستقبل، وترى الأشخاص يتلاقون ويتفرقون ليعودوا فيلتقوا بعد زمن، وكأن كلا منهم يعلم متى يظهر، وماذا يقول، ثم متى يختفى ويلوذ بالصمت، وظهور الأشخاص من حين إلى آخر على هذا النحو، وتكرر المناظر من آن إلى آن، يربطان أطراف القصة ربطًا وثيقًا، ويضيفان عليها حلة من الصدق والحيوية.

انظر إلى إخوة تس أو أخوى كلير، أو أبويها أو أبويه، أو رفيقاتها فى تلبوثيز، كيف يظهرون فى الوقت المناسب فيلقون ضياء على مختلف جوانب القصة. وانظر كيف يلقى كلير تس فى المرج الأخضر خارج مارلت فى أول القصة، ثم يعود فى آخرها فيظهر فى نفس المرج بعد أن مضت أعوام وتعاقبت أحداث، وكيف تغيب تس عن دار أبيها ثم تعود فتظهر فيها، وكيف يتحدث المؤلف عن مناظر الطبيعة وأعمال القرويين فى حقولهم وأسواقهم فتجيش القصة بالحركة والحياة، ثم يعود فيلتقط حبل سيرة بطلة الرواية حيث تركه، ويسلك بحياتها مسلكًا جديدًا، وهكذا تجول القصة فى متسع مترامٍ متجدد، لا هو بالضيق، ولا هو بالمشتت المناظر فى غير ارتباط.

وهاردى حين ينتقل بحوادث قصته وأشخاصها فى ذلك المتسع المترامى بين وديان وقلاع، وقرى وبلدان، وجداول وغابات، يصف كل منظر يقف به وصف خبير دقيق محب للطبيعة نافذ إلى أسرار جمالها، يصفها فى إقبالها وإدبارها، فى رضاها وغضبها، ويصف أديمها وسماءها وضياءها ووحشها وطيرها وهوامها فلا ترى فى قصصه رجالاً ونساء يتحادثون بين جدران أربعة، بل ترى الطبيعة فى

رحبها، والحياة فى عجيجها وجيشانها، والكون فى بسطته وتناهيه، وهو ينتقل بمناظر رواية تس من رُبَى بلاكمور الخضراء ووديانها الخصبة، ومروج تلبوثيز المونعة وجداولها المتدفقة، إلى هضاب فلنتكوم آش المقفرة المربدة، التى تعصف فوقها الرياح وتغزوها زعازع القطب وأنواء الثلج والمطر، متابعًا فى ذلك انتقال أحداث القصة من ربيع المسرات والغرام إلى شتاء العزلة والهجران والإدبار وخيبة الآمال.

كان هاردى، شأن المتشائمين المرهفى الحس، يحب الطبيعة ويشغف بجمالها ويعشق صحبتها، بقدرما ينقم على ما فيها من مناظر القسوة، وما فى الوجود من أسباب الشقاء، فأودع قصصه أوصافًا طويلة ممتعة لمناظر الريف الإنجليزى، فى ذلك الجانب من إنجلترا الذى اختاره مسرحًا لقصصه ودعاه وسكس، وهو الإقليم الجنوبى الغربى من إنجلترا المحتوى على مقاطعة دورست والمقاطعات المحيطة بها، وفيه تقع مدينة ونشستر عاصمة إنجلترا القديمة قبل لندن، وبها تمثال الملك الفرد، وفى ونشستر التى يدعوها هاردى ونتنسستر سيقت تس إلى خاتمتها، وفى بعض الطبعات الجديدة لمؤلفات هاردى خرائط لوسكس تبين بلادها والأسماء التى نحلها إياها هاردى.

أما أشخاص هاردى فأغلبهم من أبناء الريف بين متعلمين وجهال، ومنهم من تثقفوا فى العاصمة ثم أووا إلى الريف شأن هاردى نفسه، وكان هاردى مغرمًا كذلك بتصوير شخصيات رجال الدين ومناقشة آرائهم، ولرجال الدين شأنهم فى الأدب الإنجليزى مؤلفين ومؤلفا عنهم، وقد سبق هاردى إلى تصويرهم فى القصة أحد أعلام القصة فى العصر الفكتورى وهو أنطونى ترولوب، ومما زاد هاردى التفاتا إلى شأنهم اشتغال ذهنه دائمًا بالمسائل الدينية وتاريخ الكنيسة وأن زوجه الأولى كانت ابنة قسيس، وفى رواية تس ذكر ما لايقل عن خمسة قسس: أبى كلير وأخويه وقس مارلت والقس ترنجم، فضلاً عن ألك دربرفيل فى إبان نزعته الدينية.

وهاردى يرسم صور أشخاصه واضحة جلية، ثم يجعلهم يتحركون فى القصة ويتحدثون فتزيدهم أعمالهم وأحاديثهم وضوحًا، ثم يعاودهم بعد حين وآخر فيزيد صورتهم توضيحًا وتفصيلاً، كأنه المصور يعاود لوحته فى الفنية بعد الفينة فيزيد فيها خطوطًا وظلالا، وهو يرسم الأشخاص الرئيسيين رسمًا شـديد البروز - وهم فى هذه الرواية تس وكلير وألك دربرفيل - ويرسم الآخرين رسمًا أقل وضوحًا، وإن كان يظل متميزًا ممتعًا، وكان هاردى ولا شك يؤسس صور أكثر أشخاصه على خلائق أشخاص عرفهم فى حياته، شأنه فى ذلك شأن كل قصصى وإن كان طالما استاء وتأفف إذا عزا بعض النقاد شخصيات رواياته إلى شخصيات من عرف، وقد صور نفسه فيما لا يقل عن ثلاث روايات من تأليفه، ولا ريب أنه قد خلع على كلير بعض الصفات التى يعهدها فى نفسه، والآراء التى يعتقدها.

وكما كان هاردى مشتغلاً بمسائل الدين وتاريخ الكنيسة، كان مشتغل الذهن بالأنساب العريقة، وهى مسائل مرتبط بعضها ببعض، لما كان بين الكنيسة والأمراء فى القرون الوسطى من صلات، واحتفاظ رجال الدين بتلك الأنساب فى سجلات الكنيسة، واحتواء أفنية الكنائس وأبهائها على قبول النبلاء الأقدمين، وكان هاردى يعيش فى إقليم مملوء بآثار الفرسان وذكريات العصور الوسطى وحكايات الأسر النبيلة، من النرمنديين الذين صحبوا وليم الفاتح وكان هاردى نفسه ينحدر من إحدى تلك الأسر، وكان يتمثل فى تلك الأسر - التى ذهبت ريحها وأملق معظم سلائلها وارتداوا سوقة بعد أن كانوا أمراء - مصاير القوة والسيادة، وسطوات الفناء ودوران رحى الزمن، وكانت أسرة دربرفيل من تلك الأسرات العريقة؛ ومنها تنحدر تس بطلة الرواية وقبورها لا تزال على ما تصف القصة.

وتعترض فصول روايات هاردى الجادة العابسة بوارق من الفكاهة تكفكف من غرب المأساة، وإن كانت قليلة وكانت فى بعض الأحيان كئيبة، وهى فكاهة إن أضحكت القارئ فقلما يطرب لها أشخاص الرواية أنفسهم، فوالدا تس فى هذه الرواية مصدر فكاهة وإن كانت حزينة تبعث على الإشفاق، وكذلك شخصية مستر كريك ونوادره، وبعض أعمال صواحب تس الثلاث وأحاديثهن، وفيما عدا هذه اللمحات الفكاهية تسير القصة سيرها الرهيب نحو الخاتمة المؤسية.

وعلى نزعة هاردى العلمية الدقيقة فى أوصافه وأفكاره، لا تخلو قصصه من آثار الخيال البعيد، الذى يغرب أحيانًا فيدنو من المستحيل أو البعيد الاحتمال، ومن أمثلة ذلك فى هذه الرواية تخيله المنظر الذى اضطلعت فيه تس بتعميد ولدها المحتضر، ومن أمثلته أيضًا وصفه كيف استظهرت آراء كلير دون أن تفقهها، حتى أدتها إلى ألك دربرفيل تأدية كانت من أسباب ارتداده وآذت بها دون أن تعلم أويعلم كلير، فهاردى يضفى على أشخاصه أو حوادثه أحيانا ثوبا خياليا شعريا يدل على أن مؤلف القصة شاعر فضلا عن كونه قصصيًا، وهكذا كان هاردى قصصيًا فى شعره، شاعرًا فى قصصه.

العـــــذراء

١

في مساء يوم من أواخر مايو كان رجل في ضحوة العمر، يسير من شاستُن قاصدًا بيته في قرية مارلُت، من قرى الوادى المجاور المسمى وادى بلاكمور، وكانت ساقاه تحملانه فى اختلاج، وكان اختلاج مشيته يميل به إلى اليسار قليلاً، بدل أن يسير فى خط مستقيم، وكان يهز رأسه من حين إلى آخر هزة قوية، كأنه يوافق على فكرة، وإن يكن فى الحقيقة لا يفكر في أمر معين، وكانت تتدلى من ذراعه سلة بيض فارغة، وكان ظاهر قبعته مشعثًا، وقد بلى من حافتها الموضع الذى يمسه إبهامه حين يريد أن يخلعها، وسرعان ما لقيه قس يركب مهرة شهباء مفَرْشِطًا، وهو يغمغم بأغنية مبهمة.

قال صاحب السلة: "عم مساء". فقال القس: "عم مساء ياسير جون"، وواصل الرجل سيره، ولكنه بعد خطوة أو اثنتين وقف والتفت قائلا: "ائذن لى ياسيدى أن أقول لك إنك حين تلاقينا يوم السوق الماضية على هذا الطريق وحييتك؛ أجبتنى: عم مساء ياسير جون، كما فعلت الآن"، قال القس: "أجل"، قال: "ومرة أخرى قبل ذلك منذ نحو شهر"، قال: "ربما"، قال: "فماذا تقصد بتلقيبى بالسير جون كل هذه المرات، وما أنا إلا ذلك البائع البسيط، جاك دربيفيلد؟".

فاقترب القس بمطيته خطوة أو خطوتين وقال: "لم تكن تلك إلا من بدواتى"، وتردد لحظة ثم عاد يقول: "إنما كان ذلك بناء على حقيقة كشفتها منذ عهد غير بعيد، حين كنت أتقصى الأنساب من أجل تاريخ المقاطعة الجديد، فأنا القس ترَنْجَمُ الأثرى المقيم فى ستَجفت لين، أحق أنك لا تدرى أنك سليل أسرة دربرفيل العريقة النبيلة، التى تنتمى إلى سير باجن دربرفيل، ذلك الفارس المشهور الذى وفد من نرمندية مع وليم الفاتح، كما هو مرقوم فى سجل كنيسة باتل؟"، قال الرجال: " لم أسمع بهذا من قبل ياسيدى!"، قال: "بل هى الحقيقة، ارفع ذقنك قليلا كى أستبين

صفحة وجهك، أجل تلك أنف آل دربرفيل وتلك ذقنهم – فى حالة منحطة قليلا؛ لقد كان جدك أحد فرسان اثنى عشر آزروا لورد استريما فيلا النرمندى، فى فتحه جلامور جنشر، وتولت فروع بيتكم الحكم فى شتى بلدان إنجلترا، وقد ظهرت أسماؤهم فى سجلات بايب فى عهد الملك ستيفن؛ وكان أحدهم فى عهد الملك جون من الغنى بحيث وهب فرسان هوسبتل ضيعة، وفى حكم إدوارد الثانى دعى سلفك براين إلى وستمنستر، ليحضر المجمع الكبير هناك، وأفل نجمكم قليلا فى أيام أولفر كرمول، ولكن إلى حد ضئيل لا يعتد به، وفى زمن شرل الثانى مُنحتم لقب فرسان البلوطة الملكية، جزاء على إخلاصكم، أجل: قد خلت أجيال تعاقب فيها سير جون بعد سير جون منكم؛ ولو كانت ألقاب الفرسان تورث كما يورث لقب اللورد، وكما كانت الحال فيما مضى، حين كان الولد يخلف أباه فى الفروسية، لكنت اليوم سير جون".

قال الرجل: "أحقا تقول؟"، قال القس مختتمًا حديثه فى لهجة الواثق وهو يضرب رجله بمخصرته: "بالاختصار، ليس فى إنجلترا اليوم أثر لهذه الأسرة سواك"، قال دربيفيلد: "واعجبا! أحقا؟ ومع ذلك مازلت أضرب فى الأرض عامًا بعد عام، تتقاذفنى فجاجها كأنى لا أمتاز عن أحقر أبناء هذه الأبرشية! ومنذ كم خرجت أخبارى هذه إلى النور ياقسيس ترنجم؟"، فأجاب القس إن تلك الأخبار كانت قد طمست إلى غاية ما يعلم، ولم يكد يبقى أحد يحفظها على الإطلاق، حتى بدأ هو أبحاثه ذات يوم من أيام الربيع الماضى، إذ كان يتتبع تقلبات تاريخ أسرة دربرفيل، ولاحظ اسم دربيفيلد مكتوبًا على عربته؛ فأداه ذلك إلى الفحص عن أمر أبيه وجده، حتى لم تبق عنده شبهة فى الأمر، قال: "وصممت فى بادئ الأمر على عدم إزعاجك بخبر كهذا غير ذى بال، ولكن نوازع المرء تغلبه على حكمته أحيانا، وعَنَّ لى أن الأجمل أن تكون على بينة من الأمر".

قال الرجل: "الحق أنى سمعت مرة أو مرتين، أن أسرتى كانت أحسن حالا قبل قدومها إلى بلاكمور، بيد أنى لم أعرْ ذلك اهتمامًا، ظنًا منى أن معنى ذلك أنه كان لنا فيما مضى حصانان، على حين لنا اليوم حصان واحد؛ وعندى فى الدار

ملعقة فضة قديمة، وخاتم منقوش كذلك، ولكن أى خطر لذلك؟... أإنى ونبلاء دربرفيل لمن لحم واحد؟ لقد كان يقال إن أبا جدى كان يطوى أسرارًا، ولم يكن يجب أن يفصح عن وطنه الأول، والآن هل لى أن أسألك أين يتصاعد دخاننا اليوم، أعنى أين نقيم؟"

قال: "أنتم لا تقيمون فى مكان على الإطلاق؛ قد اندثرت أسرتكم النبيلة"، قال: "وا أسفا!"، قال: "أجل، انقرض نسل الذكور منكم كما تقول سجلات الأسر المملوءة بالأقاويل، أى قد انحدرتم وانطويتم"، قال: "فأين نرقد؟"، قال: " فى كنجزبير سبجرينهل، هناك صفوف متراصة منكم، تحت الأقبية والسقوف الرخامية والنقوش"، قال: "وأين قصور أسرتنا وأملاكها؟" قال: لاتملكون منها شيئًا"، قال: "أحقًا؟ ولا نملك حتى حقولاً؟"، قال: "كلا، على أنكم كنتم تحوزون من ذلك الشىء الكثير كما ذكرت لك، فقد كانت أسرتكم متعددة الفروع، وكان لكم بهذه المقاطعة وحدها محلة فى كنجزبير، وأخرى فى شرتن، وثالثة فى ملبند، وغيرها فى للستد، وأخرى غيرها فى ولبردج".

قال: "وهل نعود لسالف عزنا يومًا؟"، قال: "هذا ما لا علم لى به!"، فسكت دربيفيلد وهلة ثم قال: "وماذا يخلق بى أن أفعله فى هذا الشأن ياسيدى؟"، قال: "لاشىء! لاشىء اللهم إلا أن تطهِّر نفسك بالتفكر فى سقوط الجبابرة، وليس يعدو الأمر حد الإمتاع للمؤرخ والنسابة، وفى أكواخ هذه المقاطعة أسرات عديدة لعلها تضارع أسرتك طيب أعراق، عم مساء"، قال: "بل تعود معى فأسقيك قليلا من الجعة احتفاء بهذا الأمر ياقسيس ترنجم، ففى حان القطرة الصافية جعة جيدة، وإن لم تضاه جعة جان روليفر، قال: "لا، شكرا، لن أشرب هذا المساء، وقد أصبت أنت كفايتك".

هكذا ختم القس كلامه، ومضى لوجهه وهو جازع لإفشائه تلك النبذة التاريخية العجيبة، ولما ذهب مشى دربيفيلد خطوات وهو فى حلم عميق، ثم جلس على الحشيش على جانب الطريق واضعا سلته أمامه، وبعد دقائق لاح على بعد فتى يسير فى الاتجاه الذى كان يسير فيه دربيفيلد، ولما رآه الأخير رفع يده فحث

الفتى خطاه ودنا منه، فقال له: "دونك هذه السلة يا غلام فإنى منفذك فى غرض لى"، فعبس الفتى النحيل وقال: "ومن أنت يا جون دربيفيلد حتى تأمرنى بما تشاء وتدعونى غلاما؟ إنك لتعرف اسمى معرفتى اسمك!" قال: "أحقًا؟ أحقًا؟ ذاك هو السر! ذاك هو السر؟ لتصدع بأمرى ولتؤد الرسالة التى أنـا محملك مع... اسمع يا فرد: لا ضير أن أصارحك أن السر هو أنى أنتمى إلى سلالة عريقة، وقد كشفت ذلك اليوم"، قال ذلك واستلقى باسطا جسمه فى أبهة بين أزهار الأقحوان، ومثل الفتى أمامه يصعد البصر فيه من مفرقه إلى أخمصه، واستطرد الرجل فى ضجته: "سير جون دربرفيل؛ ذاك اسمى إذا كان الفرسان لوردات، وما هم إلا كذلك، وخبرى كله مذكور فى التاريخ، فهل تعرف يا غلام مكانا يدعى كنجزبير سبجرينهل؟".

قال: "أجل، لقد حضرت هناك سوق جرينهل"، قال: "فاعلم أن تحت كنيسة تلك المدينة يرقد..."، فقال الآخر: "ليس المكان الذى أعنيه مدينة أو على الأقل لم يكن كذاك حين كنت هناك؛ وإنما كان مكانًا قبيحًا منحوسًا"، قال: "دعك من المكان يا غلام، فما ذاك موضوع حديثنا الساعة، واعلم أن تحت كنيسة تلك الأبرشية يرقد أسلافى، مئات مئات، فى دروعهم وجواهرهم، فى توابيت عظيمة من الرصاص تزن أطنانًا على أطنان، وليس فى مقاطعة وسكس الجنوبية رجل يُدل بما أدل به من جماجم شريفة مجيدة"، قال: "عجبًا!"، قال: "الآن هاك السلة وامض إلى حان القطرة الصافية، فمرهم أن يحضروا إلى عربة وجوادا فى الحال، لتحملنى إلى دارى، وأن يجعلوا فى العربة قليلاً من النبيذ فى قارورة صغيرة، ويضيفوا ثمنها إلى حسابى، فإذا فرغت من ذلك فاحمل السلة إلى دارى، وقل لامرأتى أن تكف عن الغسيل، إذ لا حاجة بها إلى ذلك بعد اليوم وأن تنتظر قدومى كى أفضى إليها بما لدىّ".

وقف الغلام مترددًا، فدفع دربيفيلد يده فى جيبه، واستخرج شلنا من الشلنات النزرة الملازمة لجيبه، وقال: "هاك أجر عملك يا ولد"، فغير هذا من تقدير الغلام للموقف فقال: "سمعًا يا سير جون وشكرًا، هل لى أن أؤدى لك خدمةً أخرى ياسير

جون؟"، قال: "أخبر أهلى أنى أريد شواء حَمَلٍ لعشائى إذا وسعهم، وإلا فلحم عنز، فإن لم يكن هذا بعض لحم خنزير"، قال: "نعم يا سير جون"، والتقط السلة، ولم يكد يهم بالمضى حتى تعالت ألحان موسيقى نحاسية آتية من صوب القرية، فقال دربيفيلد: ""ما هذا؟ أهذا من أجلى؟"، قال الغلام: "هذا موكب نادى النساء ياسير جون، وإنك لتعلم أن ابنتك من أعضائه"، قال: "صدقت، وما أنسانى ذلك إلا تفكيرى فيما هو أعظم من الشئون! والآن انطلق إلى مارلت، وأنفذ إلى تلك العربة، ولعلى أن أذهب بها فأتفقد أحوال النادى".

انطلق الغلام وبقى دربيفيلد منتظرًا مستلقيًا على العشب فى شمس الغروب، ولم يعبر بتلك الجهة إنسان منذ حين، وكانت أنغام الموسيقى الخافتة، هى الأصوات الإنسية الوحيدة المترددة فى نطاق التلال الزرقاء.

٢

كانت قرية مارلت تقع بين الشعاب الشمالية الشرقية لوادى بلاكمور الجميل، وهو إقليم مطوق معزول، لم يكد يطرقه إلى ذلك العهد سائح ولا مصور، وإن لم يبعد عن لندن أكثر من أربع ساعات، وخير وسيلة للتعرف بهذا الوادى أن تشارفه من رؤوس التلال المحيطة به – اللهم إلا فى أيام الجفاف فى الصيف، أما الضرب فى مسالكه على غير هدى فى جو ردىء، فخليق أن يثير نقمتك على طرائقه الضيقة الملتوية الموحلة.

هذا الجانب الخصيب المحمى، الذى لا تتصوح حقوله ولا تجف عيونه أبدًا، تحفه من الجنوب سلسلة من التلال الطباشيرية البارزة، فإذا بلغ المسافر الآتى من الساحل أحد منحدراتها، بعد أن يخترط طريقه شمالا مسافة عشرين ميلا وسط المروج وحقول القمح، تملكته الدهشة والغبطة: إذ يرى دونه إقليمًا منبسطًا انبساط الخريطة، مغايرًا كل المغايرة للإقليم الذى اجتازه، وتتفرج التلال من خلفه، وتتوهج الشمس على حقول متسعة اتساعًا يبدى الإقليم كله لعين الناظر، وتبدو الطرائق بيضاء وأسيجة الحقول منخفضة مشتجرة الأغصان والفضاء حائل اللون.

هنا فى الوادى يبدو العالم كأنه مخلوق على صورة أصغر وألطف: فالحقول من الصغر بحيث تبدو أسيجتها للناظر من ذلك الارتفاع، كأنها شبكة من الخيوط الخضراء الضاربة إلى السواد، منتشرة على العشب الأخضر الذى هو أقل كثافة، والفضاء دون عين الناظر مُشبع بالركود مشرب بالزرقة، أما الأفق ففى زرقة البحر المتجسمة، والبقاع المزروعة قليلة محدودة، ولكن المنظر على العموم منظر كتلة متسعة من الحشائش الخضراء والأشجار اليانعة، التى تكسو التلال والوديان الصغيرة الممتدة وسط الوادى الأكبر، ذاك هو وادى بلاكمور.

وللإقليم أهميته التاريخية بجانب فتنته الطبيعية. فقد كان الوادى فيما مضى يسمى غابة الظبى الأبيض، نسبة إلى أسطورة عجيبة ترجع إلى حكم الملك هنرى الثالث، فيها يقتل شخص يدعى توماس ديلاليند ظبيًا أبيض جميلاً، كان الملك قد طارده حتى أرهقه ثم أبقى عليه، فحمل القاتل غرامة فادحة، وكان الإقليم فى ذلك العهد وإلى زمن ليس بالبعيد مغطى بالغابات الكثيفة، ولا تزال بقاياها ترى فى جذوع البلوط وأكوام الأخشاب المتناثرة على سفوحه، والأشجار المفرغة الجذوع التى تظلل الكثير من مراعيها، ذهبت الغابات ولكن لا تزال بعض العادات القديمة التى كانت تستظل بها باقية، وإن كان كثير منها قد تخلف على حالة مختلفة أو مبهمة غير واضحة المغزى: فرقصُ أول مايو مثلا وهو تقليد قديم، كان يمكن تبين أثره فى احتفال ذلك اليوم الذى ورد ذكره فيما تقدم، وقد بدا فى صورة حفلة ناد، أو موكب كما كان القوم يسمونه.

كانت تلك الحفلة فرصة غبطة لدى الفتيان والفتيات فى مارلت، وإن غاب مغزاها عن المساهمين فى بهجتها، ولم تكن طرافتها تعود إلى الاحتفاظ بعادة المسير فى موكب الرقص كل عام، قدر ما تعود إلى كون جميع الأعضاء من الإناث، وكانت أمثال هذه الحفلات فى نوادى الرجال - على انقراضها تدريجيًا - أكثر حدوثًا، على حين أدى الخجل الذى هو طبيعة الجنس اللطيف، أو السخر الذى نالهن به أقرباؤهن الذكور، إلى حرمان نوادى النساء الباقية- إن يكن قد بقى منها غير النادى سالف الذكر- من تلك المتعة، ولم يبق سوى نادى مارلت ناد يحافظ على ذلك الموسم المحلى، وقد ثابر على عاداته مئات السنين، وما زال مثابرًا، وإن يكن لم يثمر ثمرة مادية، فقد كان سبب ألفة بين النساء.

كانت جميع المشتركات فى الموكب يلبسن جلابيب بيضاء، وذلك أثر من أيام الأزياء القديمة البهيجة، أيام كان المرح ومايو لفظين مترادفين، أيام لم تكن عادة النظر الطويل إلى المستقبل قد هبطت بالعواطف إلى مستوى واحد رتيب مملول؛ وظهرن أول ماظهرن فى موكب سائر فى الأبرشية اثنتين اثنتين، ولما لمعت الشمس على قاماتهن بين الأسيجة الخضراء وجبهات المنازل المكسوة

بمتسلق النبات، تعارضت الحقيقة الواقعة والمثل الأعلى المنشود بعض التعارض: إذ إنه وإن كانت جميع السائرات يرتدين الثياب البيضاء، لم تكن بينهن اثنتان متماثلتان بل كانت ثياب بعضهن ناصعة البياض، وثياب أخريات تميل إلى الزرقة الشاحبة وثياب الطاعنات منهن في السن- التي كانت على الأرجح مطوية من سنين- ذات لون متغير كلون الجيف، وزي كزي العهد الجورجي.

وفضلاً عن تميز صاحبات الموكب بالثياب البيضاء، كانت كل امرأة وفتاة تحمل في يمناها عودا من الصفصاف مقشورًا، وفي اليسرى باقة أزهار بيضاء، وكانت كل منهن قد تأنقت في قشر ذلك العود وتدبيج تلك الباقة، وكان في الموكب "نساء أنصاف" وأخريات مكتهلات، فكان لشعورهن الفضية الرفيعة ووجوههن المجعدة التي أنحى عليها الهم والدهر؛ مظهر في ذلك الموقف الطروب يثير بعض الدهشة وكثيرًا من الرحمة، ولودقق المرء النظر لرأى على كل وجه من وجوههن، التي يرين عليها السهوم وترتسم عليها آثار التجارب - وجوه أولئك اللائي يدلفن إلى سنيهن المقفرة من أسباب البهجة - منادح للاعتبار ودواعي للمقال، أكثر مما يرى على وجوه زميلاتهن الصبيات، ولكن عدِّ عن العجائز إلى أولئك اللائي تضطرم جرارة الحياة دون مجاسدهن، وتتدفق دفعتها.

كانت جمهرة الجماعة من الفتيات، وكانت رؤوسهن الغزيرة الشعور تعكس في الشمس شتى الألوان، بين ذهبي وفاحم وعسلي، ومنهن حسناء العينين وجميلة الأنف وأنيقة الفم والقوام، وندر منهن من اجتمع لها كل ذاك، وكانت الصعوبة التي يعانينها في ضم شفاههن، وعجزهن عن موازنة رؤوسهن، وعن محو آثار الاضطراب من ملامحهن، كان كل ذلك واضحًا يدل على أنهن حقًا ريفيات غير متعودات احتمال الأنظار المحدقة؛ وكما كانت الشمس تدفئهن جميعًا كانت لكل منهن فكرة في باطن نفسها تَضْحَى في حرارتها: من حلم أو غرام أو ملهاة، أو أمل بعيد قاص لا يزال حيا رغم تفانيه رويدًا رويدًا، كما تظل الآمال حية، ومن ثم كن جميعًا مغتبطات، وكان بعضهن مبتهجات.

وأدى بهن المطاف إلى حان القطرة الصافية، وإنهن لينعطفن من الطريق الكبير ليمررن من بوابة صغيرة إلى المروج، إذ قالت امرأة: "يا إلهى! ذاك ياتس دربيفيلد أبوك راكبًا عربة إلى داركم!"، وعند ذلك التفتت إحدى المساهمات فى الحفل، وكانت فتاة جميلة حسنة الصورة، وإن لم تفق الأخريات كثيرًا، بيد أن فمها القانى وعينيها الواسعتين البريئتين كانت تزيد تكوينها ولونها روعة، وكانت تلبس فى شعرها شريطًا أحمر، فكانت هى الوحيدة بين مرتديات البياض التى تستطيع أن تُدِل بتلك الحلية الواضحة، وعند التفاتها كان دربيفيلد يعبر الطريق فى عجلة يمتلكها صاحب حان القطرة الصافية، تقودها فتاة مجعدة الشعر مجدولة العضلات مشمرة عن ساعديها- تلك كانت خادم ذلك الحانوت المرحة، التى انتهى بها تقلبها بين الحرف إلى امتهان رياضة الخيل وسوقها.

وكان دربيفيلد مضطجعًا مغمض العينين فى ترف، يلوح بيده فوق رأسه ويترنم فى هدوء: " لى قبو كبير به تثوى أسرتى فى كنجزبير، ولى أجداد فرسان فى توابيت من الرصاص هناك!"، وعند ذلك غتّ أعضاء النادى عدا الفتاة المسماة تس، التى اضطرمت نفسها لدن رأت أباها يستهدف لسخريتهن بحماقة مسلكه، وقالت على عجل: "كل ما فى الأمر أنه تعب، وقد استأجر العربة لأن حصاننا يستريح اليوم"، فقالت رفيقاتها: ما أشد غرارتك يا تس! ما نراه إلا ثملا كعادته كل سوق! هُو هُو!"، قالت: "كفى! لن أمضى معكن خطوة أخرى إن نبستن بكلمة سخر منه!"، وانتشر لون خديها حتى عم وجهها وجيدها، وبعد وهلة اغرورقت عيناها وانكسر بصرها إلى الأرض، وأدركن أنهن قد آلمنها فلم يزدن، وعاد النظام إلى نصابه، ولم تطاوع تس كبرياءها على إعادة الالتفات، لترى مقصد أبيها إن كان له مقصد على الإطلاق، وهكذا واصلت سيرها مع الجماعة إلى الحظيرة؛ حيث أعِدت العدة للرقص على الخضرة، وكانت قد استرجعت جأشها ولمست جارتها بعودها الصفصافى، وأنشأت تتحدث كالعادة.

كانت تس دربيفيلد فى تلك المرحلة من حياتها إناء مليئًا بالعواطف لم تمازجها التجربة، وكانت لهجتها المحلية جلية على شفتيها رغم نشأتها فى مدرسة القرية، وكانت أظهر خواص تلك اللهجة طريقة نطق المقطع الذى يؤديه على وجه التقريب حرف "أر"، وهو من أجزل المقاطع التى ينطق بها البشر، ولم يكن ذلك الفم القانى المضموم المتعود التفوه بهذا المقطع على ذلك النحو، قد اتخذ صورته النهائية بعد، وكانت تس إذا فرغت من النطق بكلمة والتقت شفتاها، دفعت السفلى وسط العليا إلى أعلى.

وكانت لا تزال تلوح على هيئتها مخايل من عهد الطفولة: فكانت وهى تسير اليوم فى الموكب تستطيع رغم مظهر أنوثتها الجميلة المستوفزة، أن تستشف سَنتَها الثانية عشرة من خديها، أو سنتها التاسعة ملتمعة فى عينيها، بل كانت سنتها الخامسة تتراءى على أقواس شفتيها من حين إلى آخر؛ ولكن من يلحظون ذلك كانوا قليلين، ومن يتدبرونه كانوا أقل عددًا، فلربما رمقها نفر قليل من الناظرين- لاسيما من لا يعرفونها - وفتنتهم نضارتها برهة، وودوا لو تتاح لهم مقابلتها مرة أخرى، ولكن جميع الناس تقريبًا لم يكونوا يرونها إلا ريفية رشيقة المنظر.

لم ير أحد ولم يسمع بما كان من أمر دربيفيلد، فى عجلة النصر التى كانت تقوده فيها تلك السائقة، ودخل الموكب الساحة المعدة وبدأ الرقص، وإذ كان الجمع خاليا من الرجال تراقصت الفتيات، حتى كان موعد انتهاء أعمال اليوم، فتجمع حول المكان سكان القرية الذكور، وغيرهم من المتسكعين وعابرى السبيل وبدت عليهم الرغبة فى المساهمة.

وكان بين أولئك النظارة ثلاثة شبان أرفع مرتبة من سواهم، يحملون على ظهورهم حقائب رحلة وفى أيديهم عصيا غلاظًا، وكان تشابه ملامحهم وتقارب أعمارهم يوحى بأنهم إخوة، وكانت تلك هى الحقيقة، وكان أحدهم يرتدى ربطة رقبة بيضاء، وصدارًا مرتفعًا وقبعة رقيقة الحافة، وهو لبوس القسس؛ وكان يبدو على الثانى أنه طالب بإحدى الجامعات؛ أما ثالثهم وأصغرهم فكان من الصعب الاستدلال من ملبسه على عمله، بل كان مظهر البساطة والترّسل المتمثل فى عينيه

وفى ثيابه، يدل على أنه لم يختط طريقة فى الحياة بعد، إنما ينبئ بأنه دارس للحياة بأكملها، يستقبل ما تُلقى به من فرصها وحقائقها؛ وكان الإخوة الثلاثة يخبرون من يتحدث إليهم أنهم يقضون عطلة عيد العنصرة بالتجوال فى وادى بلاكمور، متخذين طريقهم من شاستن فى الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى. اعتمد ثلاثتهم على البوابة واستوضحوا مغزى ذلك الرقص، وأولئك النساء فى الثياب البيضاء، وكان يلوح على الأكبرين أنهما لن يلبثا إلا هنيهة، أما الثالث فاسترعى انتباهه أن يرى جمعًا من الفتيات يرقصن بلا مراقصين، فخلع حقيبته ووضعها هى وعصاه على وشيع الحقل وفتح البوابة، فسأله الأكبر: "ما عساك فاعل يا إينجل؟ قال: "أريد أن أدور معهن شوطًا، ألا تفعلان؟ لن نضيع فى ذلك كبير وقت"، قال الأول: "كلا، هذا جنون! أتراقص فى العراء رهطا من الريفيات البلهاوات! هب أن أحدًا رآنا! هلم بنا وإلا فلن نبلغ ستوركسل قبل الظلام، وليس قبلها مكان نقضى الليلة فيه، هذا إلى أنه لابد من قراءة باب آخر من (تسفيه الشكوكية) قبل أن نأوى، ما دمت قد تجشمت مئونة إحضار الكتاب".

قال الأصغر: "حسنًا، سألحق بك أنت وكَثبرت بعد خمس دقائق، فلا تنتظرانى فإنى أعدك يا فيلكس"؛ فتركه أخواه على كره وانطلقا يحملان حقيبته وعصاه، ليكفياه مشقة حملهما فى لحاقه بهما، واندفع هو فى الساحة، ولم يكد يتوقف الرقص قليلا حتى تقدم من فتاتين أو ثلاث قريبات منه، وقال فى رشاقة وبراعة: "إن هذا الخطب جلل، أين المراقصون يا سيداتى؟"، فأجابت أجرؤهن: "لم ينتهوا من أعمالهم بعد، وسيأتون عما قليل، فهل لك فى الرقص ياسيدى حتى يحضروا؟"، قالت: "خير من لا أحد، فما أقبح أن تراقص المرأة إحدى بنات جنسها، وجهًا لوجه وقدمًا لقدم، والآن اختر وانتق"، قالت أخرى أكثر حياء: "صه يا وقاح!".

ولما رأى الفتى نفسه مخيرًا أجال فيهن بصره وحاول أن يميز بينهن، ولكنه لجدَّة الجمع على عينيه لم يستطع تمييزًا، فتناول أقربهن إليه، ولم تكن تلك هى مكلمته كما كانت تتوقع، كلا ولا كانت تس دربيفيلد: فلم تكن الأعراق وجماجم

الأسلاف. والسجلات المخلدة ومخايل آل دربرفيل، قد توافت لمساعدة تس في حياتها بعد، حتى في اجتذاب مراقص من فوق رءوس أحقر الريفيات، ذلك حظ الدم النرمندى لم تساعده الدنانير الفكتورية.

وأيا كان اسم الفتاة التى حظيت دون غيرها، فإن اسمها لم يحفظ ولم يرو ولكن الجميع حسدنها على أن كانت السابقة إلى التمتع بنعمة مراقصة رجل فى ذلك اليوم، على ان الاقتداء ما لبث أن دفع الشبان الذين كانوا محجمين بالباب إلى التهافت عجالا، وسرعان ما انتشروا فى الحشد الراقص، حتى لم تبق فتاة مهما ضؤل نصيبها من الجمال مضطرة إلى القيام بدور الرجل.

ولما دقت ساعة الكنيسة انتبه الطالب، وقال ألاَّ بد له من الذهاب ليلحق بصاحبيه، وبينما هو ينفتل خارجًا من حلبة الرقص، إذ أخذت عيناه تس دربيفيلد وكانت عيناها الواسعتان والحق يُقال، تنمان نما ضئيلاً عن عذلها إياه لعدم انتقائه إياها، وأسف هو أيضًا لكونه لم يلاحظها، نظرًا لحيائها وتأخرها عن أترابها، وغادر الساحة وذلك الشعور فى نفسه، ولشدة تأخره انطلق يعدو ملء رئتيه صوب الغرب، وسرعان ما اجتاز الوهدة وصعَّد فى النجد الذى وراءها، ولم يكن قد أدرك أخويه بعد، ولكنه تريث حتى يتنفس، والتفت خلفه فرأى أشباح الفتيات البيضاء، وهن يتماوجن كما كن يتماوجن وهو بينهن، وكأنما نسيته تمام النسيان.

نسينه إلا واحدة كأنها لم تنسه، كان شخصها الأبيض واقفًا بنجوة بجانب الوشيع، وقد تبين من هيئتها أنها الحسناء التى لم يراقصها، وعلى تفاهة الأمر أحس إحساسًا غريزيًا أن تجاوزه إياها قد آلمها، وود لو كان تقدم إليها، أو كان قد سألها اسمها، وقد راعه خفرها ولطافة روحها وجمال منظرها فى ثوبها الأبيض الرقيق، وخيل إليه أنه قد سلك مسلك غباء، على أنه لم يكن يستطيع نقض ما أبرم، فعاود السير محتث الخطى، وطرد الموضوع من ذهنه.

٣

أما تس دربيفيلد فلم تطرد الحادثة من مخيلتها بتلك السهولة، بل ظلت مدة زاهدة فى الرقص، على وفرة من كانوا على استعداد لمراقصتها، ولكن آه! لم يكونوا يتحدثون بمثل رشاقة الشاب الغريب! ولم تنفض عنها حزنها العارض وتلب دعوة مراقصيها. حتى احتوت أشعة الشمس الغاربة شبح الفتى الممعن فى الذهاب فوق التل.

وظلت مع رفيقاتها حتى الغسق، آخذة من الرقص بنصيب، وكانت لتدفُّع الحياة فى نفسها فى سنها تلك تستمرئ الرقص فى حد ذاته، وإن لم تدر بعد – إذ ترى "العذاب اللذيذ والمتعات المريرة والآلام السارة والأشجان المحببة" التى هى نصيب الفتيات اللواتى بَلَوْنَ الحبَّ – إلى أى حد يمكن أن تمضى هى نفسها فى تلك السبيل، وكان تزاحم الفتيان ونضالهم من أجل يدها فى حفلات الرقص لا تستثيران إلا ابتسامها؛ فإذا احتدوا زجرتهم.

ولعلها كانت تطيل المكث أكثر مما مكثت، لولا أن عاودها تذكُّر ما كان من مظهر أبيها على تلك الحالة المستهجنة، والقلق عليه، فانسلت خارجة ومضت إلى طرف القرية حيث كوخ أبيها؛ وسمعت وهى لا تزال على بعد من الكوخ أصواتًا توقيعية غير تلك خلفتها وراءها، أصواتًا كانت تعرفها حق المعرفة. ولم تكن إلا سلسلة ضربات آتية من داخل المسكن، ناشئة من تحريك مِنزٍّ على أرض صخرية تحريكًا عنيفًا، يُزامل تلك الحركة صوت أنثوى يتغنى غناء جهيرًا متداركا بالأنشودة المحبوبة "البقرة المنقطة"، "رأيتها ترقد فى ذلك الحرج، تعالَ ياحبيبى أخبرك بمكانها!"، وكان هز المهد والغناء ينقطعان معا برهة، ويحل محل النغم صوت مرتفع أشد ارتفاع يصيح: "مرحى لعينيك الماسيتين! وخديك الشمعيين وفمك الكريزى! وكل صغيرة من جسمك الجميل!"، ثم يعود الاهتزاز والإنشاد إلى شأنهما، وتمضى أغنية "البقرة المنقطة" كأول أمرها؛ هكذا كانت تجرى الأمور حين فتحت تس الباب، ووقفت داخله على الحصيرة تتأمل المنظر.

وعلى رغم ذلك النغم الطروب، فقد أدخل المنظر على نفس الفتاة أشد الغم: ذلك أنها جاءت من مباهج العطلة فى الحقول – بثيابها البيضاء، وباقات الأزهار، وعيدان الصفصاف، والحركات الخاطفة فوق الخضرة، والعاطفة الرقيقة المفاجئة التى هزتها نحو الشاب الغريب – إلى هذا المشهد الأصفر الشاحب ذى الشمعة المفردة – يالها من نقلة! أمضها ما أحست من فرق، وحز فى نفسها ندم على أن لم تعد قبل ذلك لتساعد أمها فى شئون البيت، بدل أن تطيل اللهو خارجه.

كانت أمها قائمة وسط جمع الأطفال كما تركتها، منكبة على وعاء الغسيل كدأبها كل يوم اثنين، وكان الغسيل قد أُرجئ كالعادة حتى آخر الأسبوع، وتذكرت تس والندم يقتل نفسها، أن الثوب الأبيض الذى كانت ترتديه والذى تركت ذيوله بإهمالها تتلوث بخضرة العشب الرطب، كان قد استخرج البارحة من ذلك الوعاء بعد أن غسلته أمها ثم كوته بيديها.

وكانت مسز دربيفيلد كعادتها واقفة بجوار الوعاء على رجل واحدة، والأخرى مشغولة بدفع المنز السالف الذكر، مهد أصغر صبيتها، وكان المنز، لطول عهده بالعمل، وكثرة من أقلّ من أطفال على ذلك الأديم الصخرى، بليت دعامتاه، وغدا كلما اهتز دفع الطفل دفعًا عنيفًا من جانب إلى آخر، كما يدفع النساج نوله، وكانت مسز دربيفيلد – وهى مدفوعة بحماسة أغنيتها – تطأ زمبرك الأرجوحة بما بقى لها من قوة بعد عملها اليومى.

قالت الفتاة فى رفق: "أأهز الأرجوحة بدلاً منك يا أمى، أم تفضلين أن أخلع ثوبى الجميل وأساعدك فى الغسل؟ لقد كنت أظنك فرغت منذ طويل"، ولم تكن الأم حانقة على تس لإلقائها شئون البيت على عاتقها طول تلك المدة، والحق أنها قلما وبختها من أجل شىء من هذا القبيل، إذ لم يكن يضيرها عدم مساعدة تس، لأنها كانت تميل ميلا طبيعيًا إلى التخلص من أعمالها بإرجائها، وقد كانت الليلة أشد حبورًا منها سائر أوقاتها، وكانت فى نظراتها أمارات سعادة وحلم وتأمل حارت الفتاة فى تعليلها.

قالت أمها حين فرغت من نغمتها الأخيرة! "يسرنى أنك قد عدت، فإنى أريد أن أذهب لاستدعاء أبيك، وأهم من هذا أنى أريد أن أخبرك بحادث ستطربين له كثيرًا يا صغيرتى!"؛ وكانت مسز دربيفيلد تتكلم باللهجة العامية عادة، أما ابنتها التى اجتازت الفرقة السادسة فى المدرسة الحكومية تحت إشراف مدرسة متعلمة فى لندن، فكانت تتكلم بلهجتين! العامية فى الدار، والإنجليزية السليمة فى الخارج وعند مخاطبة ذوى المكانة.

قالت تس: "أو حدث شىء بعد خروجى؟" قالت الأم: "نعم!" قالت تس: "أو كان لذلك علاقة بمسلك أبى الشائن فى تلك العربة عصر اليوم؟ لماذا فعل ما فعل؟ لقد وددت لو ساخت بى الأرض خزيًا!" قالت الأم! "لم يكن ذلك إلا جزءًا من القصة! لقد اتضح أننا أشرف أشراف هذه المقاطعة، وأن نسبنا يرجع إلى ما قبل أولفر جرَمْبل، إلى عهد الترك، وأن لنا تماثيل وأقبية ومشاعر وجماجم وأشياء أخرى لا يحصيها إلا الله، وقد لقبنا بفرسان البلوطة فى عهد القديس شرل، أما اسمنا الصحيح فهو دربرفيل! ألا يملأ هذا قلبك غبطة؟ لقد كان هذا سبب مجىء أبيك فى عربة، *ولم يكن السبب أنه كان سكران كما ظن الناس".*

قالت! "يسرنى ذلك، فهل وراءه طائل؟" قالت الأم: "بغير شك! فمن المنتظر أن تنجم من هذا أمور جسيمة، ومن المحقق أن زمرًا من أقربائنا سيهرعون إلينا فى عرباتهم، حالما تذيع الحقيقة؛ لقد عرف أبوك الأمر فى عودته من شاستن، وأفضى إلى به". قالت تس فجأة: "أين أبى الآن!"، فأجابتها أمها بحديث طويل لا علاقة له بسؤالها: "لقد زار الطبيب فى شاستن اليوم، ويظهر أن مرضه ليس بالسل، بل هو شحم حول القلب كما قال الطبيب" وعقفت إبهامها المبتل وسبابتها على شكل دائرة غير كاملة، وأشارت بالسبابة الأخرى واستطردت قائلة: "هكذا قال له الطبيب: فى الوقت الحاضر قلبك محاط من جميع هذه الجهات، ولا تزال هذه المسافة مفتوحة، فإذا انسدت هكذا،" – وأغلقت إصبعيها مكونة دائرة كاملة – "ذهبت كالخيال يا مستر دربيفيلد، فإما عشت عشرة أعوام، وإما قضيت نحبك فى عشرة أشهر أو عشرة أيام".

جزعت تس إذ سمعت أن أباها ربما غاب وراء السحابة الأبدية غيابًا وشيكًا، على رغم هذه العظمة المفاجئة! ثم عادت تسأل: "ولكن أين أبى؟" قالت أمها فى لهجة استرضاء: "على رسلك، لقد بلغ التأثر منه عقب سماعه مقالة القس، فذهب المسكين إلى حانة روليفر منذ نصف ساعة، ولا ريب أنه محتاج إلى تجديد نشاطه استعدادًا لرحلة الغد، إذ لا بد أن يذهب بخلايا النحل مهما كان مجد أسلافه؛ ويجب أن ينطلق بعد منتصف الليل بقليل لطول المسافة".

صاحت تس وقد اغرورقت عيناها حنقًا: "تحديد نشاطه! يا إلهى! أإلى الحان يذهب لتجديد نشاطه؟ ووافقته أنت على ذلك؟"، وكان هياجها وتقريعها من الحدة بحيث لاحا كأنهما يملآن الحجرة جميعًا، ويرسمان الجزع على الأثاث والشمعة والأطفال اللاعبين ووجه أمها، فقالت الأم متأففة: "أنا لم أوافقه، وقد كنت أرقب عودتك كى تظلى فى الدار حتى أذهب لأسترجعه"، قالت تس: "بل أذهب أنا"، قالت: "لا يا تس، لن تستطيعى استرجاعه"، فلم تجادل تس إذ كانت تعرف مغزى اعتراض أمها، وكانت مسز دربيفيلد بمكرها قد أعدت سترتها وقلنسوتها على كرسى بجانبها، تأهبًا لهذا الخروج المنتوى، والذى كانت تتظاهر بالاضطرار إليه على كره منها؛ ثم قالت لابنتها وهى تجفف يديها وترتدى ثيابها: "خذى كتاب "المتنبئ الكامل" إلى الدار الخارجية" وهو سفر ضخم ملقى على المنضدة بجانب كوعها، قد رث لكثرة ما دس فى الجيوب حتى بلغت هوامشه حوافى السطور، فالتقطته تس وانطلقت أمها.

وكانت تلك الرحلة فى أثر زوجها الكسلان لا تزال من أحب متعاتها وسط أعباء الأمومة، فكان يسعدها أن تهتدى إليه عند حان روليفر، وتجلس بجانبه هناك ساعة أو ساعتين متناسية هموم الأطفال، وكأن هالة وضاءة قد أشرقت على حياتها؛ وكانت هموم الحياة وأشغالها تستحيل عند ذلك معانى وأشباحًا لاتدرك إلا بالتأمل الطويل، لا حقائق متحجرة حازبة تضنى الروح والجسم؛ وكان ساعتئذ يلوح لها صبيتها وقد غابوا عن بصرها كأنهم جزء ممتع محبوب من حياتها، كما كانت تلوح لها حوادث العمل اليومى سارة طريفة، وكان يعاودها هناك نفس

الشعور الذى كان يخالجها، حين كانت تجلس فى ذلك المكان عينه بجانب زوجها قبل اقترانهما زمن خطبتهما، مغضية عن كل معايبه، لاترى فيه إلا مثلا أعلى للعاشق.

ألفت تس نفسها بمفردها مع الصغار، فخرجت أولاً إلى الدار الخارجية حيث وضعت كتاب التنبؤ بالحظوظ بين الكلأ، وكانت أمها تخاف ذلك الكتاب العتيق وتتوجس منه توجسًا عجيبًا، فكانت لاتبقيه تحت سقف البيت ليلاً، بل تحضره من موضعه كلما احتاجت إلى النظر فيه؛ وكانت تفصل عقلية الأم وعقلية ابنتها هوة مداها مائتا عام: الأولى تمشي بركام من الخرافات والأوهام والأغانى الشعبية الموروثة، والثانية بتعليمها المنظَّم الدقيق ذى المناهج المنقحة، فكانتا إذا اجتمعتا اجتمع العصرَان اليعقوبى والفكتورى.

وسألت تس نفسها وهى عائدة على المشى بين الأشجار، ما عسى أن يكون السر الذى دفع أمها إلى النظر فى ذلك الكتاب فى هذا اليوم، ورجحت أن يكون السر راجعًا إلى النسب الذى كشف فى ذلك النهار، ويدور بخلدها أن الأمر إنما كان يخصها، على أنها انصرفت عن التفكير فى ذلك، واشتغلت برش الملابس التى جفت أثناء النهار بقطرات من الماء، يصحبها أخوها إبْرَهَم الذى كان فى التاسعة من سنه، وأختها إلايزا لويزا التى كانت فى منتصف الثالثة عشرة، وكانوا يدعونها لايزالو، أما الصغار فقد ناموا.

وكانت بين تس وبين من تليها من أخوتها فجوة من الزمن تزيد على أربع سنين، إذ مات الأخوان اللذان كانا يملآن تلك الفجوة الزمنية فى طفولتهما، فكانت تس لذلك تقوم بدور الأم حين تختلى بأشقائها، وكان يصغرهم إبرهم فى السن اثنتان أخريان: هوب ومودستى، وبعدهما غلام فى الثالثة؛ ثم رضيع لم يُحْوِلْ إلا منذ قريب.

كانت جميع هذه الأنفس الصغار ركابا فى سفين دربيفيلد معتمدين كل الاعتماد على تصرفات عميدَىْ الأسرة فى حوائجهم ومسراتهم وصحتهم، بل فى وجودهم ذاته، فإذا راق العميدين أن يندفعا فى تيار المصاعب والمعاطب، والجوع

والداء والعار والموت، تبعهما أولئك الأسرى الستة الصغار – ستة مخلوقات لا تستطيع لنفسها نفعًا ولا ضرًا – لم يسألهم سائل قبل قدومهم أيحبون أن يقدموا إلى الحياة، دع عنك القدوم إليها في هذه الأحوال العسيرة القائمة في مسكن دربيفيلد المجهول المصير؛ فلعمرى كم يود المرء أن يعلم من أين استنبط حجته ذلك الشاعر الذى تعد فلسفته اليوم عميقة جديرة بالثقة، كما يعد قصيده جزلا ممتعًا، حين يتحدث عن "خطة الطبيعة المقدسة".

مضى الوقت ولما يعد الأب، والأم، وأرسلت تس بصرها من الباب وجالت بفكرها فى أنحاء مارلت، وكانت القرية تغلق أعينها، فكانت الشموع والمصابيح تطفأ فى كل ناحية، وكانت تس تتخيل مطفئيها وأيديهم الممدودة، وأيقنت أنه لا بد بعد أن خرجت أمها فى طلب أبيها ولم يعودا أن تخرج هى فى طلب كليهما، وقالت فى نفسها إن رجلا عليلا مزمعًا الرحيل قبل الساعة الأولى صباحًا، لا ينبغى أن يبقى فى حان إلى هذه الساعة المتأخرة، يحتفل بنسبه العريق.

قالت تس لأخيها الصغير: "إبرهم، البس قبعتك واذهب إلى حان روليفر، وانظر ما كان من أمر أبيك وأمك، أيمنعك الخوف؟". فوثب الغلام من مجلسه فورًا واندفع إلى الباب وابتلعه الظلام؛ ومر نصف ساعة ولم يؤب الأب ولا الأم ولا الغلام، وكأنما الحان قد تصيد الغلام وارتهنه كما فعل بأبيه وأمه؛ وأخيرًا قالت تس فى نفسها: "لا بد أن أذهب بنفسى"، فآوت لايْزَالو إلى فراشها، وأقفلت الباب واتخذت سمتها على الطريق المظلم المتلوى المعوّق عن الإسراع، والذى كان قد اختط قبل أن يصبح كل شبر من الأرض ذا قيمة، وأيام كانت الساعات ذوات العقرب الواحد تكفى لتوقيت اليوم.

كان حان روليفر هو الحان الوحيد فى ذلك الجانب من تلك القرية المستطيلة المتهدمة. وكان لصاحبته حق بيع الخمر، ولكن لم يكن لها حق إيواء الشاربين، فلم يكن به غير لوح طوله ذراعان فى نصف ذراع، قد شد بأسلاك إلى سياج الحديقة ليكون منضدة، وعليه كان يضع عابرو السبيل الظماء أقداحهم، وهم وقوف للشرب على قارعة الطريق، ويلقون الثمال على الأرض المتربة على حال مستبشعة، وهم يودون لو أتيح لهم الاستراحة فى الداخل.

ذاك كان شأن عابرى السبيل الغرباء، غير أن العملاء من أهل القرية كانوا يشعرون بنفس الرغبة، وحيث تكون الرغبة تتفتق الحيلة، ففى ذلك المساء كان نحو ستة أشخاص مجتمعين فى غرفة نوم واسعة فى الطابق الأعلى، وقد أسدل على شباك الحجرة شال صوف كثيف كبير، قد استغنت عنه حديثًا مسز روليفر صاحبة الحان؛ جاء أولئك النفر من كهول الجانب القريب من القرية، يبتغون الصفاء والنعيم فى ملجئهم المعهود، ذلك أن حان القطرة الصافية المباح الجلوس فيه للشراب، كان يقوم فى الطرف الآخر من تلك القرية المبعثرة الأطراف، وكان بعده يحول بين سكان هذا الطرف وبين الجلوس فيه، بيد أن جودة الشراب كانت اعتبارًا آخر أهم من ذاك، ومن ثم قيل إن الشرب مع روليفر فى ركن بأعلى مسكنها، خير منه مع صاحب الحان الآخر فى بيته الرحب.

كان عدد من الشاربين يجلسون على ثلاثة جوانب من فراش عار ذى دعائم أربع. وكان رجلان آخران جالسين على تخت، وآخر على صندوق كبير من البلوط، واثنان آخران على منضدة الزينة، وآخر على مقعد تلك المنضدة، وهكذا كان كل واحد مستقرًا فى مكانه فى اطمئنان، وقد بلغت السعادة منهم جميعًا أن طفرت أرواحهم من أشباحهم وعمت حرارتها جو الحجرة، وبدت الحجرة وأثاثها فى صورة من الأبهة والترف، وبدا الشال المعلق بالشباك كأنه الديباج الموشى، وبدت مقابض التخت النحاسية كأنها كرات العسجد، وبدت دعائم الفراش المزركشة شبيهة بأعمدة محراب سليمان.

إلى هذا المكان احتثت مسز دربيفيلد خطاها بعد مغادرتها تس، وفتحت الباب الخارجي واجتازت الردهة التي كان يخيم عليها الظلام، ثم فتحت باب السلم بخفة اليد المدرَّبة الخبيرة بمعالجة المزلاج، أما الدرج فصعدته متأنية لشدة تعرجه، حتى ارتفع وجهها في الضوء الذي كان يشع فوق آخر درجة، فقابلتها نظرات جميع المحتشدين في المخدع، وحالما سمعت صاحبة الحان وقع قدميها قالت بذلاقة الغلام الذي يردد الوصاية الدينية التي تتلى عليه يوم التعميد، وعيناها مشدودتان إلى الدَّرج: "وقد دعوتكم يا رفاقي للاحتفاء بهذا اليوم على نفقتي"، ثم عادت تقول: "أوه! هذه أنت يا مسز دربيفيلد! كم أفزعتني! لقد خفت أن يكون الصاعد عينا أرسلته الحكومة".

ورحبت بقية الجماعة بمسز دربيفيلد بنظراتهم وهزات رؤوسهم، ثم التفتوا إلى مجلس زوجها وكان يغمغم في غيبوبة: "أنا قريع من هنا ومن هناك! ولأسرتي قبو عظيم في كنجزبير سبجرينهل، وجماجم لا تناصيها جماجم في وسكس!"، فهمست إليه زوجه في حبور: "دعني أخبرك بمشروع عظيم يتعلق بهذا الأمر قد خطر لي! جون! ألا تراني؟"، قالت هذا ودفعته، أما هو فظل ناظرًا إليها كأنما ينظر من زجاج شباك، واسترسل في ترنمه، فصاحت به صاحبة الحان: "صه! لا ترفع صوتك بالغناء يا هذا، فلربما مر بعض عمال الحكومة فسحب رخصتي".

قالت لها مسز دربيفيلد: "هل أنبأك بما كان؟"، قالت: "نعم، بعض الشيء، أتظنين وراء هذا مالاً؟"، أجابت مسز دربيفيلد في رزانة: "هذا هو السر، وقرابة النبلاء على أي حال شيء جميل، وإن لم نركب العربات الفخمة التي يركبون"، ثم خفضت صوتها هامسة إلى زوجها: "لقد كنت أفكر منذ جئتني بأنبائك في سيدة كبيرة غنية، تسكن قرب ترنتردج عند طرف مقاطعة تشيس، تدعى دربرفيل"، قال سير جون: "ماذا؟ ماذا تقولين؟"، فأعادت عليه قولها واستطردت: "لابد أن تلك السيدة تمت إلينا بالقربى" ورأيي أن ترسل إليها تس لتطلب إليها الاعتراف بتلك القربى"، قال: "ذاك حق وقد أذكرتني، وقد غاب ذلك عن القس ترنجم، على أن تلك المرأة ليست بجانبنا شيئًا مذكورًا، إن هي إلا ثمرة فرع صغير راجع إلى أيام الملك نرمان".

ولم يلاحظ أحدهما وهما منهمكان في درس هذا المشروع أن إبرهم الصغير قد ظهر في الحجرة وقام ينتظر الفرصة ليخاطبهما في العودة، واستطردت مسز دربيفيلد: "إنها ثرية، ولا بد أنها ستعطف على الفتاة وفي ذلك خير، ولست أدرى ما يمنع فرعَىْ أسرة واحدة أن يتواصلا"، فأطل إبرهم من خلف دعائم الفراش وقال في حماسة: "أجل: لابد أن نطالب بالاعتراف بالقربى! ولنذهبن لزيارتها حين تقيم معها تس، ولنركبن عربتها ولنلبسن ثياب النبلاء السوداء!"، فصاحت به أمه: "ماذا أتى بك إلى هنا يا ولد؟ وما هذا الهراء الذى تهذى به؟ اذهب فالعب على السلم حتى يفرغ والداك مما هما فيه!"، ثم استطردت في حديثها تقول: "يجب أن تذهب تس إلى قريبتنا تلك، ولا ريب أنها ستكسب قلب المرأة، والأرجح أن الأمر سينتهى بزاوجها من فتى نبيل، إنى لواثقة مما أقول".

قال: "كيف؟"، قالت: "لقد كشفت عن حظها في كتاب المتنبئ، فانكشف عما حدثتك به! وليتك رأيت جمال منظرها هذا النهار: لقد كان جلدها غضا كأجسام الدوقات"، قال: "وما رأى الفتاة في الذهاب؟"، قالت "لم أفاتحها بعد ولا هى تعلم بوجود قريبتنا النبيلة، ولكن الأمر المحقق أن ذلك سيؤدى بها إلى زواج في علية القوم، ولن تمانع هى في الزواج"، قال: إن تس غريبة الأطوار"، قالت: "ولكنها لينة القياد في النهاية، فدعها لى".

كان حديثهما خاصًا، ولكن تطاير مجمله إلى الجالسين، الذين أدركوا أن آل دربيفيلد قد غدا لهم من مهام الأمور ما لا يحيط به الدهماء، وأن تس ابنتهما الكبرى الحسناء على أبواب مستقبل باهر، فهمس أحد أولئك المخمورين: "إن تس لمتعة عظيمة، كما حدثت نفسى اليوم حين رأيتها في زينتها تسير مع الأخريات، ولكن ينبغى لجوان دربيفيلد أن تحذر من أن تلقى السم في الدسم" ولم يجبه أحد، واتسع نطاق الحديث وسرعان ما سمع خفق أقدام تعبر الردهة السفلى، فاندرأ لسان صاحبة الحان بعبارتها التى أعدتها للقاء الواغلين، قالت: "وقد دعوتكم يا رفاقى للاحتفاء بهذا اليوم على نفقتى"، ولكن سرعان ما تبينت وجه تس.

كان من المحزن أن تُرى طلعة تس المشرقة فى ذلك الجو الموبوء بأبخرة الكهول، الذى لا يناسب إلا الوجوه المغضنة المسنة، وقد أحست أمها ذاتها بذلك، ورمقت تس أمها وأباها رمقة تقريع لعلها لم تكن فى حاجة إليها، فإنهما لم يكادا يريانها حتى انتفضا قائمين، وتجرعا ما بقى من ثمالة كأسيهما، وهبطا الدرج خلفها، وشيعتهم مسز روليفر بقولها: "حذار الضجيج يا سادة، وإلا خسرت رخصتى واستدعيت للتحقيق، وتوالت على المتاعب، عموا مساء".

ساروا إلى المنزل وتس تتأبط إحدى ذراعى أبيها، وأمها تتأبط ذراعه الأخرى، ولم يكن قد أسرف فى الشراب أو تناول منه ربع ما يتناول المدمن قبل ذهابه إلى الكنيسة يوم الأحد، ثم لا يبدى أدنى اضطراب فى استقباله المحراب أو فى ركوعه، ولكن ضعف بنية سير جون كان يرد صغار آثامه جبالاً رواسى، فلما بلغ الهواء النقى اشتد اختلاجه، حتى صار يميل بصاحبتيه يمينا كأنما يقصد لندن، ويسارًا كأنه ييمم باث، فكان من ذلك منظر مضحك كثيرًا ما تراه حين ترى أسرة مدلجة عائدة إلى دارها، وهو مع ذلك من المناظر المضحكات المبكيات إذ فكرت فيه؛ وأبدت المرأتان غاية الشجاعة فى إخفاء هذا التدفع والتخبط عن دربيفيلد نفسه وهو مسببه، وعن إبرهم، وعن نفسيهما، حتى قارب جمعهم الدار، وإذا عميد الدار ينفجر منشدًا نغمته الأولى، كأنما يعزى نفسه عن حقارة مثواه.

قال مترنمًا: "لأسرتى... قبو فى كنجزبير! " فصاحت به زوجه: "صه يا أحمق. فما كانت أسرتك هى الأسرة العظيمة الوحيدة فيما مضى، اذكر آل أنكتل آل هورسنى وآل ترنجم أنفسهم، لقد هبطوا كما هبطت، وإن كان آباؤك أمجد من آبائهم، أما أنا فلا أنتمى إلى أسرة عريقة، والحمد لله، وليس فى ذلك ما يشين!"، قال: "على رسلك، فإنى حين أتدبر طباعك يرجح لدى أن قومك هبطوا شرًا مما هبطنا، وأنهم كانوا جميعًا ملوكا وملكات حينًا من الدهر"؛ وغيرت تس مجرى الحديث إلى ما هو أهم لديها من أعراقها، قالت: "أخشى ألا يستطيع أبى الانطلاق بتلك الخلايا غدًا مبكرًا": قال أبوها: "أنا؟ سأكون فى أطيب حال بعد ساعة أو ساعتين".

كانت الساعة الحادية عشرة قبل أن يأوى الجميع إلى فراشهم، وكانت الساعة الثانية صباحًا آخر موعد لانطلاق الرجل بالخلايا، إذا أريد إيصالها إلى التجار فى كستر بردج قبل قيام سوق الأحد، فقد كان الطريق إليها رديئًا، والمسافة بين العشرين والثلاثين ميلًا، وكان الحصان والعربة بطيئين غاية البطء، وفى منتصف الساعة الثانية دخلت الأم حجرة النوم الكبيرة، حيث تنام تس وجميع الأطفال فانفتحت لدخولها عينا تس الكبيرتان، وقالت لها أمها: "المسكين عاجز عن النهوض"، فجلست تس فى فراشها وذهنها مشتت فى غيبوبة بين الأحلام وبين هذا الخبر، ثم استطردت الأم فى حديثها: "ولكن لا بد من ذهاب أحدنا، لقد تأخرنا فى بيع الخلايا وسينتهى موسم جمع النحل عما قريب، فإذا انتظرنا سوق الأسبوع القادم انقطع الطلب وكسدت الخلايا فى أيدينا".

بدت الحيرة والعجز على مسز دربيفيلد ثم قالت: "لعل أحد أولئك الشبان الذين كانوا يتلهفون على مراقصتك أمس يتبرع بالذهاب! " فاعترضت تس فى إباء: "كلا! لا أسمح بهذا أبدًا! أونرضى أن يذيع سبب ذلك فى الناس؟ واخجلاه! الأجدر أن أذهب أنا ويرافقنى إبرهم لإيناسى فى الطريق"؛ وبعد لأى وافقت الأم، وأزعج إبرهم الصغير من سباته فى أحد أركان الغرفة، وأمر بارتداء ثيابه وعقله لا يزال فى عالم آخر، وكانت تس قد ارتدت ثيابها، وأوقد الشقيقان فانوسًا ومشيا إلى السقيفة، وكانت العربة المضعضعة محملة بالخلايا وجذبت الفتاة الحصان "برنس"، الذى لم يكن أقل من العربة تضعضعًا؛ فتلفت هذا المخلوق المسكين فى الظلام، ونظر إلى الفانوس وإلى الآدميين، كأنه لا يصدق أنه يراد على الخروج والعمل فى تلك الساعة التى يهجع فيها كل مخلوق ويستريح.

وضع الشقيقان عددًا من أعقاب الشموع فى الفانوس وعلقاه فى جانب العربة وقادا الحصان إلى الأمام سائرين بحذاء كتفيه فى أول الطريق المرتفع، كيلا يَرهقا ذلك الحيوان الضعيف؛ ولكي يسريا عن نفسيهما قدر ما يستطيعان، اتخذا من الفانوس صباحًا صناعيًا، وتناولا شيئًا من الخبز والزبد وتجاذبا الأحاديث وما زال الصباح الحقيقى بعيدًا، وكان إبرهم قد سار هذه المسافة فى نصف غيبوبة،

حتى إذا ما استعاد كامل يقظته انطلق يتحدث عن الأشكال الغريبة التى تتشكل بها الأجسام المختلفة فى عرض الفضاء، من شجرة تلوح كأنها نمر مزمجر يثب من غيله، وأخرى تبدو كرأس مارد.

واجتازا بلدة ستور كسل الصغيرة، وكان السكون والكرى يخيمان على سقوفها المبنية من الكلأ الرمادى اللون، وعند ذلك صعدا فى أرض مرتفعة وشمخت عن جانبيهما ربى وسكس الجنوبية، وابتداء من ذلك الموضع إلى مدى بعيد أصبح الطريق مستويًا معبدًا أمامها، فركبا فى مقدمة العربة واسترسل إبرهم فى الأفكار، وبعد صمت قال فى لهجة من يمهد الحديث: "تس!"، قالت: "نعم يا إبرهم"، قال: "ألم تغتبطى لصيرورتنا فى النبلاء؟" قالت: "لم أغتبط كثيرًا".

قال: أفلا يسرك أنك ستتزوجين نبيلا؟" فرفعت إليه وجهها قائلة: "ماذا؟". قال: "ألا يسرك أن قريبتنا العظيمة ستساعدك على زواج نبيل؟" قالت "أنا؟ قريبتنا العظيمة؟ ليس لنا قريبات عظيمات فمن أدخل هذا فى وهمك؟" قال: "لقد سمعتهما يتحدثان بذلك فى حان روليفر، حين ذهبت للبحث عن أبى، ففى ترنتردج سيدة غنية تمت إلينا، وقد قالت أمى إنك إن طلبت إلى تلك السيدة أن تستلحقك، أتاحت لك فرصة الزواج بنبيل".

لاذت أخته بصمت عميق، واسترسلت فى التفكير، ومضى إبرهم فى حديثه لمجرد التلذذ بالتفوه وإن لم يصغ إليه أحد، فلم يكرثه شرود لب أخته، وأسند ظهره إلى الخلايا ورفع وجهه إلى السماء، وجعل يتحدث عن النجوم، وكانت النجوم دائبة فى مداراتها وسط قبابها الظلماء الشاهقة، غير عابئة بذينك الجرمين الإنسانيين الضئيلين، وتساءل عن بعد تلك السواطع، وهل الإله كائن خلفها؛ ولكنه كان يعود من حين إلى آخر بثرثرته الصبيانية إلى الموضوع الذى كان خلفها؛ ولكنه كان يعود من حين إلى آخر بثرثرته الصبيانية إلى الموضوع الذى كان أشد تملكًا للبه من عجائب الخليقة، فتساءل أإذا أثرت تس بزواجها نبيلا، أيصير لديها من المال ما يكفى لشراء منظار مكبر، يدنى إليها النجوم دنو قرية ننتلكوم توت؟

ضاقت تس ذرعًا بتجديد هذا الموضوع الذى اختمر فى عقول الأسرة جميعًا، فصاحت به: "دعك من هذا الآن!"، قال إبراهم: "أقلت ياتس إن النجوم دُنًا أُخَر؟"، قالت: "نعم"، قال: "كدنيانا؟"، قالت: "لا أدرى، وإن كان يخيل إلى ذلك، فهى أحيانا تبدو كالتفاح الذى على شجرتنا، معظمه صحيح غض وبعضه فاسد"، قال: "وعلى أى النوعين نحيا؛ على صحيحه أو على فاسده؟"، قالت: "على فاسده"، قال: "ليتنا وقعنا على صحيحة من بين تلك الصحيحات الكثيرات!" قالت: "أجل"، قال ملتفتا إليها وقد راعه التفكير فيما أفضت إليه به: "أحقًا تقولين ياتس؟. ماذا كان يحدث لو وقعنا على صحيحة؟"، قالت: "إذن لما عانى أبوك السعال واختلال المشية، ولما أفرط فى الشراب حتى عجز عن القيام بهذه الرحلة، ولما انهمكت أمك دائمًا فى الغسيل دون أن تنجزه"، قال: "ولكنت أنت سيدة غنية من بادئ الأمر، دون أن تنجزه"، قال: "ولكنت أنت سيدة غنية من بادىء الأمر، دون حاجة إلى زواج نبيل لك تحوزى الغنى"، قالت: "مه يا غلام، مه ولا تعد لهذا الحديث".

ترك إبرهم لأفكاره فسرعان ما غلبه النعاس، ولم تكن تس حاذقة بسوق الخيل، ولكنها رأت أن فى مقدورها أن تستقل بقيادة العربة ردحا من الزمن، ليصيب إبرهم حظا من النوم، ومهدت له عشًا أمام الخلايا لا يخشى وقوعه منه، وأخذت العنان فى يديها ومضت العربة تندفع، ولم تكن بها حاجة إلى الانتباه إلى برنس فقد كان أضعف من أن يطلب منه مجهود أكبر مما يبذل، وإذ ألفت نفسها بلا سمير استسلمت لتأملاتها مسندة ظهرها إلى الخلايا، واختلطت مواكب الأشجار والأسوار المارة فى صمت عن جانبيها بأوهامها وأحلامها، وأصبح تنفس الرياح من حين إلى آخر كأنه تنهد روح هائلة حزينة، مختلط بالعالم فى الفضاء، وبالتاريخ فى الزمان.

ثم راحت تتأمل فى حوادث حياتها المشتجرة، فتبين لها غرور دعوى أبيها، وبدا لها الخطيب النبيل الكامن لها فى وهم أمها، وكأنه يهزأ بها ويضحك من فقرها ومن أجدادها الفرسان المكفنين، وتضخمت الأمور كلها فى حدسها، وغفلت عن الوقت حتى أزعجتها رجة مفاجئة، فأفاقت وإذا هى أيضًا قد كانت نائمة، وكانا

قد قطعا مسافة طويلة وهى فى غشيتها، وكانت العربة قد وقفت، وانبعثت من الأمام أنة مبهمة لم تسمع لها تس مثيلاً من قبل، ثم صيحة تقول: "هِيه!"، وكان الفانوس المدلى من جانب العربة قد انطفأ، ولكن كان فانوس آخر يسطع فى وجهها أشد توهجًا من فانوسها، وكان قد حدث حادث فظيع، إذ علقت شكيمة الحصان بشيء معترض فى الطريق.

قفزت تس إلى الأرض على دهش، وإذا هى تكتشف الحقيقة المريرة: فقد كانت تلك الأنة قد انبعثت من حصان أبيها المسكين، وذلك أن عربة بريد الصباح ذات العجلتين الصامتتين، كانت تعدو فى الطريق الضيق كالسهم على عادتها فاصطدمت بعربة تس غير المضاءة، واخترقت إحدى ذراعى العربة المدببتين صدرَ "برنس" المنكود كأنها السيف، فأخذ الدم يتدفق من جرحه كالسيل منهمرًا على الأرض، فاندفعت تس فى يأس تسد الجرح بكلتا راحتيها، فلم يجـدها ذلك إلا أن لطخها رشاش الدم القانى من فرعها إلى ذيلها، ووقفت تنظر ولا تستطيع للمصيبة دفعًا، ووقف برنس كذلك فى موضعه متماسكًا ما استطاع وأخيرًا ارتمى جسمًا هامدًا.

وفى هذه الأثناء كان سائق عربة البريد قد لحق بتس، وراح يجر جسم برنس الحار ويخلع شكيمته، ولكن الحيوان كان قد قضى، فلما أدرك الرجـل أن لم تعد ثمة حيلة ناجعة، عاد إلى حيوانه الذى لم يصب بضير، وقال: "لقد كنت تسيرين على الجانب الخطأ من الطريق، والآن يجب على أن أنطلق بحقائب البريد، فليس لك ما تفعلين سوى أن تمكثى هنا بجانب أحمالك، وأنا مرسل إليك من يعينك بأسرع ما أستطيع، وقد جاء الصباح وليس ثمة ما تخافين"، وركب وانطلق وتس جامدة فى مكانها.

وشحب وجه الأفق، ونفضت الأطيار عن نفسها النوم، وشرعت تسقسق فى أغصانها وبدا بياض كل الأشياء البيضاء فى الطريق، وبدا بياض بشرة تس أسطع، وبدأت بركة الدم المنبسطة أمامها تتجمد ويحول لونها، وانعكست عليها عند

بزوغ الشمس شتى الألوان المنشورية[1]، وقد تمدد الحصان بجانبها متخشبًا جامدًا منفتح العينين نصف انفتاح، ويعجب الرائى لصغر جرحه الذى تدفق منه معين حياته كلها.

قالت الفتاة وهى تحدق فى ذلك المنظر: "هذا ما جنت يداى أنا وحدى، أنا الملومة لا ملوم غيرى، كيف يحيا والدى بعد الآن؟"، وهزت أخاها ونادته، وكان لا يزال فى سباته رغم وقوع تلك الفاجعة، وصاحت به: "لقد هلك برنس ولن نستطيع المضى بأحمالنا"، ولما أدرك الغلام كل ما حدث تغضن جبينه الصغير تغضن وجه الشيخ الهِمِّ؛ ومضت الفتاة تنحى على نفسها: "لقد كنت أرقص وأضحك أمس! يالحماقتى!"، فغمغم إبرهم من خلال عبراته: "إنما حدث ما حدث لأننا نحيا على كوكب فاسد، أليس الأمر كذلك يا تس؟"، وانتظرا صامتين مدة خيل إليهما أنها دهر طويل، وأخيرًا سمعا صوتا وأبصرا شبحًا مقبلاً، فعلما أن سائق عربة البريد قد بر بوعده، ووافاهما عامل فى بعض المزارع القريبة من ستوركسل، بحصان قوى أخذ مكان برنس، وانطلقت العربة إلى كستربردج.

وشهد أصيلُ ذلك اليوم العربةَ الفارغة تعود إلى نفس تلك البقعة، وكان برنس لا يزال مجندلا فى حفرته منذ الصباح، ولا تزال آثار بركة الدم تلوح فى عرض الطريق، وإن خدشتها وقشرتها العربات المارة، فحملت بقيته العربة التى كان يجرها من قبل، وعادت به مسافة أميال ثمانية أو تسعة إلى مارلت، وحوافره فى الهواء وأحذيتها تلمع فى الشمس الغاربة؛ ووصلت تس إلى دارها مبكرة، ولم تدر كيف تنهى الخبر الفاجع إلى والديها، ثم حل عقدة لسانها أن تبينت فى وجهيهما أنهما على علم بالخسارة، وإن لم ينقص ذلك من تأنيبها نفسها على إهمالها.

على أن نزعة التهاون التى كانت تسود الأسرة قد هونت الخسارة، فبدت لهم أيسر مما تبدو لقوم مجدين عاملين، رغم أنها هنا تجلب الدمار، وفى الأسرة الأخرى المجدة لا تسبب إلا صعوبة طارئة؛ ومن ثم لم يلح فى نظرات أبوى تس لائح من ذلك الغضب المحتدم، الذى كانت تلقاه لو كان أبواها أحرص على مستقبلها. ولم يعنف أحدٌ تس، قدر ما عنفت تس نفسها.

---

(١) المنشورية: التى تتكسر من منشور بلورى يوضع فى ضوء متوهج.

ولما لم يقم الدباغ وتاجر اللحوم الميتة بقايا برنس بأكثر من دراهم معدودة، لهزاله وضموره، نهض دربيفيلد يقول فى كبرياء وحمية: "كلا! لن نبيع جسمه: فإنا آل دربرفيل حين كنا فرساناً، لم نكن نبيع لحوم جيادنا لتكون طعامًا للقطط، فليضن القوم بدراهمهم! لقد خدمنى جوادى فى حياته، ولن أتخلى عنه بعد مماته" وفى الغد اجتهد فى حفر مقبرة للحصان اجتهاداً لم يجتهده منذ شهور فى إنتاج محصول يعود نفعه على أسرته، فلما فرغ جعل هو وزوجه حول عنق الحصان حبلا جذباه به إلى الحفرة، وأبناؤهما يسيرون من خلفه مشيعين، وكان إبرهم ولايزالو ينتحبان، وهوب ومودستى يولولان من لوعتهما ولولة تردد صداها الجدران، ولما سقط برنس تجمهروا حول قبره. لقد انتزع منهم كافل قوتهم فما عسى أن يصنعوا؟

تساءل إبرهم بين الزفرات: "هل ذهب إلى الجنة؟"، ثم أخذ دربيفيلد يهيل التراب، فتجدد عويل الجمع إلا تس، فقد كان وجهها جافًا شاحبًا كأنها تحس أنها قاتلة.

٥

اضطربت التجارة الصغيرة التى كان عمادها الحصان، ولاح شبح العسر، بل شبح الإملاق مقبلا، ولم يكن دربيفيلد على شيء من العزيمة، نعم كان ينهض للعمل أحيانًا، ولكن نهوضه لم يكن دائمًا يوافق وقت الحاجة، وحتى حين كان يفعل لم يكن يثابر على الجهد لعدم تعوده العمل المنتظم؛ أما تس التى كانت تحس أنها هى التى زجت والديها فى ذلك الموقف الضنك، فكانت تفكر فيما تستطيع أن تفعل لتخرجهما منه، وعند ذلك تقدمت أمها بمشروعها.

قالت: "يجب يا تس أن نلبس لكل حالة لبوسها، ولم أرنا أحوج إلى الانتفاع بشرف محتدك منا اليوم، وليس لنا إلا الفزع إلى أصدقائنا، ألا تعلمين أن فى أرباض تشيس سيدة غنية من أسرة دربرفيل، لابد أنما تمت إلينا برحم؟ ينبغى أن تذهبى إليها وتسأليها أن تستلحقك، وتطلبى إليها إنقاذنا من مصاعبنا". قالت تس: "لا أحب أن أفعل هذا، وإذا صح أن تلك السيدة موجـودة فيجب أن نقنع بمودتها ولا نطمع فى نوالها"، قالت أمها: "بل يمكنك أن تستخدميها فى أى أغراضك شئت يا عزيزتى، وفضلا عن ذلك فإن وراء هذا الأمر ما لا علم لك به، وقد تناهت إلى علمى أشياء ووعيتها".

حمل تس شعورها المرهق بالضرر الذى جلبته، على الاكتراث بسؤل أمها اكتراثًا لعلها لم تكن تكترثه لولا ذاك، بيد أنها لم تدر كيف تفرح أمها بمغامرة كانت تراها هى غير محققة الجدوى، ولعل أمها قد بحثت واستقصت وعلمت أن تلك السيدة كانت على غاية من كرم الخلائق وطيبة القلب، ولكن كبرياء تس كانت تملأ نفسها أسى حين تتصور قيامها بدور القريبة الفقيرة، فقالت فى صوت منخفض: "أنا أوثر أن أبحث عن عمل"، وعندها التفتت الأم إلى زوجها الجالس فى المؤخرة وقالت: "الأمر إليك يا دربيفيلد، فإذا أشرت بوجوب ذهابها حق عليها الذهاب" فقال الرجل مهينما: "لست أرضى لبنى أن يذهبوا ليتطفلوا على الغرباء، فأنا عميد أشرف فروع الأسرة، ويجب أن أرعى كرامة مقامى".

رأت تس أن الحجج التى اعتذر بها أبوها عن عدم ذهابها أقبح من ذهابها، فقالت على مضض: "ما دمت أنا يا أمى قاتلة الحصان، فواجبى أن أعمل عملا ما، ولا ضير فى زيارة السيدة، على أن تدعى لى أمر طلب معونتها، وأقلعى عن فكرة بحثها لى عن زوج، فهى فكرة حمقاء"، قال أبوها فى شمم: "أجدت يا تس!" وقالت أمها: "من أنبأك أنى أفكر فى ذاك؟". قالت: "يخيل إلى أنها فكرة تختمر فى رأسك يا أمى، على أنى سأذهب".

وفى الغد نهضت مبكرة، وسارت إلى شاستن القائمة على مرتفعٍ من الأرض، وهناك استقلت عربة كانت تذرع كل أسبوع المسافة من شاستن شرقًا إلى مقاطعة تشيس مارة قرب ترنتردج، وهى الأبرشية التى كانت تقيم فيها مسز دربرفيل، تلك السيدة المحفوفة بالأسرار والألغاز؛ وكان طريقها فى ذلك الصباح المشهود يجرى فى الشعاب الشمالية الشرقية من الوادى الذى ولدت فيه وترعرعت، وكان وادى بلاكمور فى نظرها هو الدنيا، وسكانه هم شعوب العالم.

وطالما أشرفت عليه فى أيام طفولتها المستطلعة، من بوابات حقول مارلت وأسيجتها، وما زل أكثر ما كان يلوح لها إذ ذاك سرًا مغلقًا، يبدو لها اليوم سرًا مغلقًا، وكانت ترى كل يوم من شباك مخدعها أبراجًا وقرى وقصورًا شاحبة وترى فوق ذلك قرية شاستن فى عليائها وجلالها، ونوافذها تسطع كالمصابيح فى ضوء الطفَل، ولعلها لم تطأ تلك البقاع أبدًا، ولم تكن تعرف معرفة مستيقنة إلا جزءًا محدودًا من الوادى ذاته أو أرباضه، وقلما طرقت ما ند عن تخومه، وكانت تعرف أشباح جميع التلال المحيطة بها معرفتها وجوه أقربائها، أما ما وراء ذلك فكان علمها به مقصورًا على ما تلقته فى مدرسة القرية، حيث كانت تحتل مكانًا مقدمًا على زميلاتها عند مغادرتها أياها، قبل هذا التاريخ بعام أو عامين.

وكانت فى تلك الأيام الأولى محببة إلى بنات جنسها المقاربات لها سنًا، وكان من المألوف رؤيتها تسير بين بنتين مماثلتين لها عمرًا، وهن عائدات من المدرسة جنبًا إلى جنب؛ كانت تس تتوسط الأخريين فى ميدع رخيص قرنفلى دقيق الرقشة من دونه رداء حائل اللون، تحملها ساقان رفيعتان طويلتان يغطيهما جورب

ضيق تبدو فيه عند الركبتين خروق صغار كأنها درجات السلم، قد أحدثتها كثرة الركوع على جوانب الطرق والشواطئ، فى طلب الأعشاب وغرائب المعادن، وكان شعرها فى ذلك العهد رمادى اللون مسترسلا إلى خصرها، وكانت تعتمد بكلتا ذراعيها على صاحبتيها.

ولما ترعرعت تس وأدركت حقيقة ما حولها، نقمت على أمها ما قد ينقمه المؤمن بمذهب مالثس – المنادى بضبط النسل – لإقدامها بلا روية على إنتاج ذلك العدد العديد من صغار الإخوة والأخوات، الذين تقتضى تربيتهم وإطعامهم جسيم المشاق؛ أما أمها فكانت تتمتع بعقلية الطفل السعيد، ولم تكن الأم نفسها إلا فردًا من مجموع من الأشقاء والشقيقات، الذين يرقبون عطف الأقدار، ولم تكن بكبراهم؛ على أن تس كانت تفيض رفقًا بأولئك الصغار.

ولحدبها عليهم أصبحت بعد مغادرتها المدرسة تعمل أحيانًا فى المزارع المجاورة فى تجفيف الكلأ أو حصاد المحصول، أو فى الحليب وصنع الزبد، وكانت تفضل العملين الآخرين على ما عداهما، وكانت قد حذقتهما حين كان لأبيها بقر، وبرعت فيهما لخفة يدها؛ وجعل كل يوم يلقى على كتفيها الصغيرتين أعباء جديدة من أعباء الأسرة، فكان من الطبيعى أن تقوم هى بالسفارة لأسرة دربيفيلد فى قصر دربرفيل، ولا ريب أن آل دربيفيلد بإيفادها قد أظهروا خير ما عندهم.

نزلت تس من العربة عند ترنتردج كروس، وصعدت على قدميها تلا مؤديًا إلى مقاطعة تشيس، التى أخبروها أن مسكن مسز دربرفيل – المسمى سلوبس – قائم على تخومها؛ ولم يكن هذا المسكن كدور أشراف الريف المعهودة المحاطة بالحقول والمروج، يتعهدها فلاح ناقم يبتز منه المالك دخلا يقوم بحاجته وحاجة أسرته، بل كان أعظم من ذلك وأكبر، كان قصرًا ريفيًا معدًا للمتعة وحدها، لا تحيط به ذراع واحدة من الأرض التى يقتضى استغلالها المتاعب، إلا ما تقتضيه المرافق الضرورية، وإلا مزرعة صغيرة أنيقة تشرف عليها ربة القصر، ويتعهدها أحد أتباعها.

كان المسكن المبنى من الحجارة الحمراء أول شيء لاح لعينى تس، تغطيه الخضرة الدائمة إلى سقوفه المائلة على جوانبه، فظنت أول وهلة أن ذاك هو القصر ذاته، حتى مرت وقد عرتها قشعريرة من باب جانبى صغير، وسارت قدمًا حتى بلغت موضعًا ينعرج عنده الممشى، وإذ ذاك بدا لها المسكن الحقيقى واضحًا جليا، وكان حديث البناء جدًا، لونه أحمر فاقع كالمنزل الأول الذى كان احمراره يتميز فى اخضرار النبات تميز الأضداد، وكان القصر يقوم كزهرة الجرينيم الحمراء الزاهية وسط الألوان المحدقة به والتى تقل عنه زهاء، وقد نمت على مدى خلف ركن منه غابة جليلة المنظر، هى إحدى الغابات القليلة الباقية فى إنجلترا من أعرق الأزمان، والتى لا تزال تقوم فيها أشجار البلوط نامية عليها فروع المِيسلتُّو التى كان يعبدها أحبار الكلت، وأشجار السرْوِ التى لم تغرسها يد إنسان، لا تزال كما كانت أيام كانت تقتطع فروعها لتتخذ منها أقواس القتال؛ كانت هذه الغابة فى مرمى بصر الناظر من القصر، وإن كانت واقعة خارج أملاك ربته.

كانت مظاهر الرخاء والثراء والازدهار والدعة بادية على ذلك المثوى، وكانت تحيط به فدادين مترامية قد انتثرت فيها البيوت الزجاجية منحدرة على تلك التلال حتى سفوحها المغطاة بالأحراج، وكان كل شيء يبدو جديدًا لامعًا كآخر عملة أصدرتها دار سك النقود، وكانت الاصطبلات فاخرة تبدو عليها أبهة الكنائس الفخمة، تحيط بها الأشجار دائمة الاخضرار، مجهزة بأحدث المعدات، وكانت تقوم فى وسط المرج الفسيح خيمة مزركشة بابها يواجه تس.

وقفت الفتاة الساذجة على حافة الممشى المغطى بالحصى، تحملق فيما ترى مأخوذة متوجسة، وكانت قدماها قد حملتاها إلى ذلك الموضع قبل أن تدرك أين هى، وإذا هى ترى كل شيء على عكس ما توقعت، قالت فى غرارتها: "لقد كنت أحسبنا أسرة قديمة، ولكن كل هذا جديدا!"، ودت لو أنها لم توافق بتلك العجلة على مشروع أمها، ولو أنها طلبت العون من قوم هم أدنى إليها وأشبه بها.

كان آل دربرفيل، أو ستوك دربرفيل كما كانوا يتسمون أولا، مالكو كل هذا، أسرةً يندر وجود مثلها فى ذلك الجانب العتيق من الريف وقد صدق القس ترنجم حين قال إن صاحبنا الأهوج المشية جون دربفيلد، هو الممثل الوحيد لآل دربرفيل الأقدمين فى تلك الأصقاع، ولم يكن ليعدو الصواب لو قال إن أسرة ستوك دربرفيل لا يمتون إلى آل دربرفيلي القدماء بأدنى صلة، على أن تلك الأسرة الجديدة كانت غصنا صالحًا كل الصلاحية ليطعم به اللقب القديم، الذى كان فى حاجة حازبة إلى التطعيم والتجديد.

كـــان الشيخ سايمن ستوك المتوفى حديثًا قد جمع مالاً حلالا مـــن التجارة – أو من الربا كما يقول أناس – فى الشمال، ثم عول على استيطان الريف فى جنوب إنجلترا بعيدًا عن موطن تجارته، وعندها عنّ له أن يتخذ اسمًا جديدًا يسدل حجابًا على التاجر القديم، ويكون أنبل من اسمه الأول السوقى، فانطلق إلى المتحف البريطانى يقلب صفحات الكتب المكرسة لأسماء الأسرات البائدة والمغمورة، والسائرة إلى الاندثار، والتى أدركها الدمار، فى ذلك الجانب من إنجلترا الذى اختاره مستقرًا ومقامًا، فراقه من بينها اسم دربرفيل، فألحقه باسمه واسم ذريته من بعده، على أنه لم يكن بالمسرف المتهور، بل اتبع سبيل القصد والاعتدال فى اختراع الأنساب الشريفة والمصاهرات، فلم يدخل فى نسبه المنتحل لقبًا يجوز حد المعقول.

كانت تس المسكينة ووالدها يجهلون هذا الانتحال، فكان جهلهم به وبالا عليهم، بل كان مثل هذا الأمر فوق ما يتصورون: إذ كانوا يعتقدون فى سذاجة أن جمال الوجه هبة من هبات الحظ، أما اللقب العريق فلا يكون إلا منحة من منح الطبيعة.

وبينما تس مترددة من يتأهب للقفز فى اليم، تقدم رجلا وتؤخر أخرى برز شخص من باب الخيمة المظلم المثلث الشكل، وكان شابًا طويلاً يدخن، وكان لونه مشربًا بالسمرة، وكانت شفتاه غليظتين وإن كانتا حمراوين ناعمتين، يعلوهما شارب أسود مجمم مدبب معقوف، وإن لم تعد سنه ثلاثًا أو أربعًا وعشرين، ورغم

مظهر الجهالة الذى كان يعلوه، كان وجهه وعيناه الجريئتان البراقتان تنم عن القوة. قال وهو يدنو منها: "ماذا تريدين ياحسنائى؟"، ولما رأى حيرتها قال: "لا تبالى بى، أنا مستر دربرفيل، أإياى تريدين أم أمى؟".

كان مظهر الشاب يباين ما توقعت تس أن تراه فيمن ينتمى إلى أسرتها، أسرة دربرفيل، وأخلف ظنها هنا أشد مما أخلفه مظهر القصر والضيعة، إذ كانت من قبل تتخيل وجها مكتهلا وقورًا تمثل غضونه سمات دربرفيل وذكرياتهم أسمى تمثيل، وتبدو كأنها رمز هيروغليفى لتاريخ أسرتها وتاريخ إنجلترا، على أنها تجلدت لما هى فيه إذ لم يكن منه مخرج، وقالت: "لقد جئت لزيارة أمك يا سيدى"، فأجابها ممثّل تلك الأسرة الدعية، فقد كان ذلك مستر ألك الابن الوحيد للرجل المتوفى حديثًا: "آسف إذ لا سبيل لزيارتها لأنها عليلة، ألا أقوم لك مقامها؟ ما المهمة التى جئت فيها؟"، قالت: "لم آت فى مهمة بل.. لست أدرى!"، قال: "أللنزهة جئت إذن؟" قالت: "كلا! أنا إن أخبرتك اعتقدت...".

واشتد عند ذلك إحساسها بسخافة مهمتها، حتى أنها رغم رهبتها إياه وحرج موقفها لم تتمالك أن افترت شفتاها الورديتان ابتسامًا، فاشتد لذلك ابتهاج الرجل الأسمر، وقالت متلعثمة: "إنها مسألة فى منتهى الحماقة، ولن أستطيع الإفضاء بها إليك!"، قال مترفقًا: "لا ضير عليك، أنا أحب الحماقات، فحاولى مرة أخرى ياعزيزتى"، قـــالت: "أمرتنى أمى – بل كنت أريد أن أفعل ذلك من تلقاء نفســـى – ولكنى لم أدر أن الأمور ستجرى على هذا النحو – لقد جئت ياسيدى لأخبركم أننا أبناء أسرة واحدة"، قال: "ها! أقرباء فقراء!"، قالت "نعم"، قال: "من آل ستوك؟" قالت: "لا، من آل دربرفيل"، قال: "نعم، نعم، دربرفيل، ذلك ما كنت أعنى".

قالت: "لقد فسد اسمنا حتى صار دربيفيلد، ولكن لدينا براهين شتى على أننا نسل دربرفيل: فعلماء الآثار يقولون بذلك، و.. ولدينا خاتم قديم يحمل رسم أسد يثب على درع ومن فوقه حصن، ولدينا ملعقة فضية قديمة جدًا شديدة التقعير والاستدارة، وعليها نقش نفس الحصن، على أنها بالية، ولذلك تستعملها أمى فى تقليب الحساء"، قال فى لهجة رقيقة: "الحصن الفضى والأسد الواثب شعارى دون

ريب"، قالت: "ومن ثم رأت أمى أن نتعارف، لأننا فقدنا حصاننا فى حادثة أليمة، ولأننا أعرق فروع الأسرة"، قال: "لقد كَرُمَتْ أمك وأحسنت صنعًا"، وكان ينظر إليها وهو يخاطبها نظرة احمرَ لها وجهها خجلاً، واستطرد: "أنت إذن يا حسنائى قد جئت لزيارتنا زيارة ود وقربى!" قالت متلعثمة وعاودها الشعور بالحرج: "هو كما تقول"، قال: "لا ضير فى ذلك، أين تسكنون؟"

فأجابته عن سؤاله بإيجاز، وأخبرته ردًا على أسئلة أخرى أنها ستستقل فى عودتها نفس العربة التى أتت بها، فقال: "لن تعود العربة مارة بترنتردج كروس إلا بعد زمن ليس بالقصير، فهل لك يا ابنة عمى فى التمشى فى الضيعة لنقضى الوقت؟" وكانت تس تريد اختصار زيارتها بقدر إمكانها، ولكنه ألحّ حتى وافقت، فطاف بها بين المروج وأحواض الزهر والمنابت الصناعية، ومن ثم إلى حديقة الفاكهة والخضر. وهناك سألها أتحب الشليك، قالت: "نعم فى أوانه"، قال: "هذا أوانه هنا"، وراح دربرفيل يجمع لها أشتاتًا منه ويناولها إياها وهو منحن، ثم انتقى لها جملة صالحة من النوع المعروف بالملكة البريطانية ونهض واقفًا وأدناها من فمها فقالت: "لا، لا"، وسارعت فحالت بأناملها بين يده وبين شفتيها، فقال؛ "يا للحماقة!" وألح حتى فرجت شفتيها على كره والتقمتها.

ومضى وقت وهما فى طوافهما على غير قصد؛ وتسِ تأكل بين الرضى والإباء كل ما يقدم دربرفيل، فلما امتلأت أفعم لها سلتها الصغيرة بالفاكهة. ثم سارا إلى شجيرات الورد فقطف ورودًا دفعها إليها لتضعها فى صدرها فأطاعت وهى فى شبه لحم، ولما استحال أن تثبت فى صدرها أكثر مما ثبتت تولى بنفسه رشق وردة أو وردتين فى قبعتها، وملأ سلتها بورود أخرى فعل السخى المسرف ثم نظر إلى ساعته وقال: "الآن تستطيعين أن تتناولى شيئًا من الطعام، وبعدها يكون الوقت قد حان لانصرافك، إذا كنت تريدين استقلال العربة إلى شاستن، تعالى أنظر ما أستطيع أن أقدم لك".

وعاد بها إلى المرج وأدخلها الخيمة وغاب عنها برهة، ثم عاد يحمل سلة فيها غداء خفيف وضعه أمامها بنفسه، إذ لم يكن يريد على ما يظهر أن يعكر حضور الخدم عليه هذه المتعة الخلوية، وقال: "أيضايقك تدخيني؟"، قالت: "كلا، كلا يا سيدى" وراح يراقب مضغها الجميل والصوت الذى كانت تحدثه فى ذلك دون وعى، من خلال غمائم الدخان التى كانت منتشرة فى الخيمة.

ولم تدرتس دربيفيلد، وهى ترسل بصرها فى سذاجة إلى الورود التى فى صدرها، أن وراء غيابة الدخان كان يجلس منبع الشر فى مأساة عيشها، والشعاع الأحمر الدموى فى طيف حياتها؛ وكانت لتس ميزة عادت عليها الآن حربًا، وكانت هى سبب حملقة ألك دربرفيل فيها. تلك كمال نموها وبهجة منظرها، حتى كانت تبدو امرأة ناضجة قبل أن تكون كذلك، وكانت قد ورثت تلك الظاهرة من أمها، دون أن ترث معها الصفة التى هى دليل عليها، وقد شغلت تلك الظاهرة بالها أحيانًا، حتى قالت لها أترابها إنها عيب تصلحه الأيام.

فرغت من طعامها على عجل ونهضت قائلة: "الآن أنْطلق"، ورافقها فى الممشى حتى غاب القصر عن نظريهما، وقال: "وماذا يسمونك؟" قالت: "تس دربيفيلد، من مارلت"، قال: "وقد فقد أهلك حصانهم؟" قالت: "أنا... قتلته" واغرورقت عيناها وهى تصف مصرع برنس وقالت: "ولست أدرى ما عسيت أن أصنع من أجل أبى تعويضًا له!" قال: "لعلى أنا أستطيع أن أصنع شيئًا، فلا بد أن أمى تستطيع أن تجد لك عملا، ولكن اسمعى يا تس.. لا تهذى باسم دربرفيل، وتحدثى عن" دربيفيلد فقط"، قالت فى كبرياء "ولست أطمح إلى خير منه" ولما بلغا منعطف الممشى حيث لاحت لنظريهما الأشجار المحيطة بالمسكن الخارجى، مال عليها بوجهه، لحظة واحدة، كأنما... ولكن لا! لقد لاذ بالحكمة وتركها تمضى.

هكذا بدأ الأمر، ولو أنها أدركت مغزى هذا اللقاء، لتساءلت لم قدرلها أن تقابل الرجل الخطأ فى ذلك اليوم وتصبو إليها نفسه، بدل ان تقابل الرجل المنشود فى جميع صفاته – إلى غاية ما تستطيع الطبيعة تهيئته من الصفات المنشودة– أما الرجل الوحيد بين من تعرف، الذى تكتمل فيه تلك الصفات، فلم تكن تس فى مخيلته إلا شبحًا عابرًا نصف منسى.

وهكذا رسمت للأشياء فى هذه الدنيا خطة صحيحة، لكنها تنفذ تنفيذًا فاسدًا ومن ثم قلما يلبى المدعو دعوة داعيه، وقلما يأتى الرجل الجدير بالحب ساعة الشعور بالحب، وقلما تقول الطبيعة لأحد أبنائها المساكين: "انظر" حين يكون النظر مؤديا إلى العمل السعيد، أو تجيب سائلها: "أين؟" بقولها: "هنا"، حتى تكون لعبة الاختفاء والبحث قد آضت ثقيلة مرهقة.

ولعل لنا أن نتساءل: أإذا بلغت الإنسانية أوج رقيها، أيصلح هذه الأخطاء والمفارقات الزمنية شعورٌ باطنى ألطف حساسية من شعورنا اليوم، ومجتمع أوثق وشائج من هذا الذى نتخبط فيه؟ على أن هذا الكمال ليس من السهل تصور إمكانه، بَله التنبؤ به، وكفى أن نقول إنه فى القصة التى نحن بصددها كما فى ملايين من الأحوال غيرها، لم يتلاق نصفًا الكل الكامل فى الوقت المناسب، بل ظل نصفٌ مفقودًا منفردًا يضرب فى الأرض وهو فى غيابة من الجهل والغفلة، حتى فات الأوان، وكان فى إبطائه فساد الأمور، والمخاوف وخيبة الآمال، والصدمات والكوارث وأعاجيب الحدثان.

لما عاد دربرفيل إلى الخيمة جلس على كرسى مستقبلاً ظهره، واسترسل فى التفكير ووجهه يبرق سرورًا، ثم انفجر مقهقها قهقهة عالية: "يا للعجب! يا للغرابة! ها ها ها! ويا لها من فتاة!".

٦

هبطت تس إلى ترنتردج كروس، وانتظرت العربة العائدة من مقاطعة تشيس إلى شاستن، وكانت شاردة اللب فلم تع ما قال لها الراكبون وهى تدلف فى العربة، وإن تكن أجابتهم، وانطلقت العربة وبصر تس متجه إلى باطن نفسها لا إلى ما حولها، وعاد أحد الركاب يخاطبها بلهجة أشد إلحافا مما قاله الآخرون، قال: "ياله! أنت باقة من الزهر! أنى لك هذه الورود فى مستهل يونيه؟" وعندها تنبهت إلى منظرها الذى أدهشهم، إذ كان صدرها محلى بالورود، وقبعتها محملة بالورود، وسلتها مفعمة بالورد والشليك، فاحمر وجهها خجلاً وقالت إن الورود هدية قدمت إليها، ولما انصرفت عنها الأبصار نزعت من قبعتها أشد الورود بروزًا، ووضعتها فى السلة وغطتها بمنديلها، ثم عادت إلى أفكارها، وبينما هى تطرق وخزتها شوكة وردة فى صدرها؛ وكانت تس كسائر القرويين فى بلاكمور مفعمة المخيلة بالخرافة والطيرة، فتشاءمت من ذلك، وكان ذلك أول ما تشاءمت منه فى يومها.

ونزلت من العربة عند شاستن، وكان عليها أن تسير أميالاً هابطة من تلك البلدة المرتفعة إلى مارلت، وكانت أمها قد أشارت عليها بقضاء الليل هناك فى دار إحدى معارفهم إذا أدركها التعب، وذاك ما فعلته تس، فلم تعد إلى أهلها إلا بعد ظهر اليوم التالى؛ وحالما دخلت الدار أدركت من نظرة أمها الناطقة بالظفر أن شيئًا حدث فى غيابها، قالت أمها: "نعم، نعم، أنا أعلم كل ما هنالك! لقد تنبأت لك بالنجاح وها قد صحت نبوءتى!" قالت تس: "فى غيابى؟ كيف صحت نبوءتك؟" وأجالت المرأة نظرها فى ابنتها مبتهجة مسرورة، واستمرت فى ممازحتها: "هكذا كسبتهم!" قالت تس: أنى علمت يا أمى؟" قالت: "أتانى كتاب"، وعندها تذكرت تس أن كان هناك متسع من الوقت لوصول كتاب، قالت أمها: "إنهم يقولون – مسز دبرفيل تقول – إنها تريد أن تعهد إليك بدجاج لها تتسلى بتربيته، وليس ذلك إلا تحايلاً منها على ضمك إليها دون إثارة أطماعك، إنها ستستلحقك لا ريب".

قالت تس: "ولكنى لم أقابلها"، قالت أمها: ألم تقابلى أحدًا؟" قالت: "قابلت ابنها"، قالت: "وهل أقرَّ قرابتك؟" قالت: "كل ما كان منه أن دعانى بابنة العم"، قالت أمها: "هذا ما توقعت!" وصاحت ببعلها: جاكى! لقد دعاها ابنة عمه! لا ريب أنه فاتح أمه فى أمرك، وها هى ذى تريدك بجانبها"، قالت تس وهى فى ريب: "ولكنى لا أحسن تربية الدجاج"، قالت: "إذا لم تحسنيها فمن يحسنها إذن؟ إن من يولد فى حرفة يتقنها أضعاف ما يتقنها من يتلقنها، وفضلاً عن ذلك فما هو إلا عمل ملفق لك كيلا تشعرى أنك مدينة لهم ببر"، قالت تس متأملة: "لست أعتقد أنه يجدر بى الذهاب، من كتب تلك الرسالة؟ هل لى أن أنظر فيها؟" قالت: "كتبتها مسز دربرفيل، وهاكها".

كانت الرسالة مكتوبة بضمير الغائب، وفحواها إخطار مسز دربيفيلد أن تلك السيدة بحاجة إلى ابنتها لتتعهد حظيرة دجاجها، وأنها إن اختارت المجىء أعدت لها حجرة مريحة، فإذا رضوا عنها منحوها أجرًا سخيًا، قالت تس: "عجبًا! أهذا كل ما هنالك!" قالت أمها: "ليس لك أن تنتظرى منها أن تأخذك فى ذراعيها توا وتعانقك وتقبلك"، قالت تس وهى ترمى ببصرها من النافذة: "أوثر أن أبقى هنا مع أبى ومعك"، قالت: "ولم؟" قالت: "لا أحب أن أخبرك لم؟، بل أنا لا أدرى لم؟".

وبعد أسبوع عادت تس إلى دارها مساء، بعد بحث مخفق عن عمل بسيط فى الجيرة القريبة، وكانت تريد ادخار بعض المال فى الصيف لشراء حصان؛ ولم تكد تطأ العتبة حتى اندفع أحد الصبية إليها قائلاً: "لقد كان السيد هنا!" وسارعت أمها إلى تفصيل الخبر، والابتسام يطفر من جميع أجزاء جسمها، فذكرت كيف أن ابن مسز دربرفيل عرج على دارهم ممتطيًا جوادًا، إذ اتفق مروره على مقربة من مارلت، وتساءل باسم أمه هل تس تنوى القدوم لتعهد دجاجها، إذ كان الغلام القائم بذلك قد أبدى عدم كفاية، قالت "وقد قال مستر دربرفيل إنك لابد أن تكونى فتاة طيبة جدًا، إذا كان باطنك كظاهرك، وإنك تستحقين زنتك ذهبًا، وهو والحق يقال شديد الاهتمام بأمرك".

وبدا الانشراح على تس وهلة، إذ رأت نفسها قد نالت تقدير ذلك الغريب على حين كان ظنها بنفسها قد ساء كثيرًا، فتمتمت: "كرم منه أن يظن بى ذلك ولو أنى أعلم كيف تكون الحياة هناك لذهبت بلا تردد"، قالت أمها: "ما أجمل منظره!" قالت تس فى فتور: "أنا لا أراه كذلك"، قالت: "على كل حال ها هى الفرصة سانحة لك، فإما نعم وإما لا، ما كان أجمل خاتمه الماسى!" قال إبرهم متحمسًا من مجلسه عند الشباك: "أجل، أنا أيضًا رأيته، وقد لمع حين رفع يده إلى شاربه؛ لماذا يا أمى كان قريبنا العظيم يكثر من رفع يده إلى شاربه؟" قالت أمه وعليها سيماء إعجاب الأمهات: "أصغوا إلى هذا الغلام!" وغمغم سير جون وهو فى كرسيه فى غيبوبة: "ربما أراد إظهار خاتمة الماسى"، وقالت تس وهى خارجة: "سأتدبر الأمر".

قالت المرأة لبعلها: "لقد ظفرت بقلوب الفرع الأصغر من فروع أسرتنا ظفرًا سريعًا، ومن الحمق ألا تتابع انتصارها"، قال: "لست أحب أن يفارق أبنائى منزلى. بل ينبغى أن يأتى الآخرون إلى بيتى ما دمت عميد الأسرة" قالت امرأته الحمقاء تسترضيه: "ولكن دعها تذهب يا جاكى، لقد استرعت انتباه الرجل على ما ترى وقد دعاها بابنة العم! والأرجح أنه سيتزوجها ويلحقها بطبقة النبلاء، فتعود كما كان آباؤها"، وكان جون دربيفيلد يملك من الغرور ما لا يملك من الصحة أو النشاط، فأشبع هذا الفرض غروره وقال موافقًا: "لعل هذا ما ينويه مستر دربرفيل، ولعله يفكر فى تحسين دمه بالامتزاج بالفرع القديم، يا للخبيثة تس! أحقًا زارتهم وهى تبيت هذا الغرض؟".

وكانت تس فى هذه الأثناء تتمشى بين نبات عنب الذئب فى الحديقة، فوق قبر برنس، فلما كرت راجعة تابعت أمها حملتها قائلة: "علام عولت؟" قالت تس: "ليتنى كنت رأيت مسز دربرفيل"، قالت: "يجدر بك أن تبتى فى الأمر وعندها ترينها كما تريدين" وسعل أبوها فى جلسته وأجابت تس متململة: "لست أدرى ماذا أقول! الأمر إليكم، فأنا التى قتلت الحصان ويلوح أن واجبى أن أشترى سواه، ولكن... ولكنى غير مرتاحة إلى وجود مستر دربرفيل هناك!".

وكان الصبية، بعد وفاة الحصان قد اتخذوا فكرة انضواء تس إلى أقربائهم الأغنياء علالتهم، فبدأوا يضجون لرفضها الذهاب، وراحوا يتهكمون بها ويعنفونها على ترددها، وفغروا أفواههم معولين: "تس لا... تريد الذهاب.. ب... لتصبح.. سيدة.. شريفة... بل تقول... إنها لا.. تريد! ولن نشترى حصانًا جميلاً، ولن نملك النقود الذهبية الكثيرة، لنشترى اللعب! ولن تبدو تس جميلة فى أحسن لبوسها بعد الآن!"، وضمت أمهم صوتها إلى النغمة، واحتجت بكثرة أعبائها المنزلية، التى كانت هى بتباطئها وتسويفها تجعلها تبدو أشق مما هى فى الحقيقة، وظل أبوها وحده محتفظًا بالحياد، وأخيرًا قالت تس: "سأذهب".

وعندها لم تستطع أمها كتمان تصورها للزواج المقبل الذى أثارته فى مخيلتها موافقة ابنتها، قالت: "بخ بخ! هذه فرصة سعيدة لفتاة جميلة مثلك!" فابتسمت تس فى غيظ وقالت: "أرجو أنِ تكون هذه فرصة لاكتساب شىء من النقود أما فيما خلا ذلك فلا أراها فرصة لشىء ما، وأولى لك ألا تثرثرى فى الجيرة بمثل هذا الهراء"، ولم تجبها أمها ولم تعدها بما طلبت، فقد كانت ممتلئة زهوا بعد ما سمعت من قول الزائر، وكانت تريد أن تثرثر طويلاً.

وهكذا بت فى الأمر، وكتبت الفتاة تقول إنها مستعدة للمسير فى أى يوم تطلب فيه، وجاءها الرد المباشر بأن مسز دربرفيل قد سرها قبول الفتاة، وأن عربة صغيرة سترسل لإحضارها هى ومتاعها من رأس الوادى بعد الغد؛ وكان خط مسز دربرفيل يبدو شديد الشبه بخط الرجال، وقالت مسز دربيفيلد متعجبة: "عربة صغيرة؟ أما كان الأولى أن يرسلوا مركبة فخمة لابنة رحمهم؟".

أصبحت تس بعد أن بتت فى الأمر أقل قلقًا وشرود ذهن، وقد وطدت العزم على شراء حصان جديد لأبيها من وراء ذلك العمل الذى تسير إليه مكرهة وكانت من قبل قد رغبت فى أن تكون معلمة فى مدرسة القرية ولكن يظهر أن الأقدار شاءت غير ذلك، ولما كانت أعقل من أمها فإنها لم تطمع وهلة فى تحقق آمال أمها فى ذلك الزواج، ولقد كانت الأم الحمقاء تنتقى لابنتها الأزواج من عام ميلادها.

٧

استيقظت تس فى صبيحة يوم رحيلها قبل الفجر، فى آخر لحظات الظلام، ولم يزل المرج صامتا، إلا طائرًا واحدًا يتغرد بصوت خالص متنبئًا تنبؤ الواثق بالوقت، معلنا أنه هو وحده على الأقل يعرفه، بينما الطيور الأخرى ملتزمة الصمت، كأنها مقتنعة اقتناعًا واثقًا من جانبها بأن ذلك الطائر مخطئ؛ وظلت تس فى مخدعها تحزم متاعها حتى حان أوان الفطور، فنزلت مرتدية ثيابها العادية التى تلبسها فى أيام الأسبوع، أما ثياب يوم الأحد فقد طوتها بعناية ووضعتها فى صندوقها، فقالت أمها متعجبة: "أتذهبين للقاء أهليك فى هذه الثياب الساذجة؟" قالت تس: "إنما أنا ذاهبة للعمل!" قالت: "نعم نعم"؛ ثم أسرت إليها: "طبعًا ستتظاهرين بذلك بادئ الأمر، ولكن يخلق بك بعد ذلك أن تظهرى بأحسن مظهر"، قالت تس مستسلمة: "حسنًا أنت لا ريب أخبر منى"، ولترضى أمها وضعت نفسها فى يديها قائلة: "اصنعى بى ما شئت يا أمى".

فسرت مسز ربيفيلد بهذا الانقياد أشد السرور، وجاءت بطست كبير وغسلت شعر تس غسلاً شديدًا، حتى أنه لما جف ومشط بدا فى ضعف حجمه العادى، وربطته بشريط قرنفلى أعرض مما كان يربط به عادة، ثم ألبستها الثوب الأبيض الذى كانت تلبسه يوم الموسم، فكان مظهره الفخم مضافًا إلى كبر مظهر شعرها داعية إلى ظهور جسمها النامى بمظهر أسن من حقيقة أمرها، حتى كادت تظن امرأة ولم تكد تعدو أن تكون طفلة، قالت تس: "إن فى كعب جوربى خرقًا!" قالت أمها: "لا تبالى خروق الجوارب فإنها لا تفصح، وحين كنت أنا فتاة كنت لا أبالى– ما دمت مرتدية قبعة جميلة– أن أسير بلا جوارب!".

وبلغ من إعجاب المرأة بجمال ابنتها ان ارتدت القهقرى كما يرتد المثال عن تمثاله، لتتأمل عملها الفنى فى مجموعه، وصاحت: "يجب أن ترى نفسك، إنك لأجمل منظرًا مما كنت فى ذلك اليوم"، وإذ كانت المرآة صغيرة لا تبدى إلا جزءًا صغيرًا من شخص تس، علقت أمها معطفًا أسود خارج زجاج النافذة، حتى صارت

تنعكس عليه الصور، كما هى عادة القرويين حين يتزينون؛ وبعد ذلك نزلت إلى زوجها وقالت له وهى تطفر فرحًا: "أصغ إلى يا دربيفيلد! لن يتمالك الرجل نفسه عن الهيام بها، ولكن مهما فعلت فلا تفاتح تس فى تعلقه بها، ولا فى هذه الفرصة المتفتحة أمامها، فإنها فتاة شاذة الأطور، وربما دفعها مقالك إلى النفور منه أو العدول عن الذهاب بتاتا، وإذا مضى كل شيء على ما يرام، فلن أتوانى عن مكافأة قس ستجْفِت لين على ما أتانا به من نبأ، رعاه الله من شيخ كريم!".

على أنه حين دنت ساعة رحيل الفتاة، بعد أن خبت نشوة الارتداء، ساورت جوان دربيفيلد بعض المخاوف، ودفعتها إلى مسايرة الفتاة حتى الموضع الذى عنده يتناهى الوادى، وتبدأ المرتفعات السريعة الانحدار المؤدية إلى العالم الخارجى، وعند قمة المرتفعات كانت تس ستلاقى العربة التى بعث بها آل ستوك دربرفيل، وكان صندوقها قد أُرسل إلى تلك القمة مع غلام على عجلة صغيرة ولما رأى الأطفال أمهم تلبس قبعتها ضجوا فى طلب مرافقتها، وقال أحدهم: "أريد أن أرافق سيسى قليلاً فى طريقها، ما دامت ذاهبة لتتزوج قريبنا النبيل وترتدى فاخر الثياب"، فاحمر وجه تس والتفتت قائلة: "صه! لا أريد أن أسمع هذا الهراء ثانية! كيف رضيت يا أمى أن تدخلى هذا الهراء فى رءوسهم؟" قالت أمها مهدئة: "إنما هى ذاهبة لخدمة أقربائنا الأغنياء، لتساعدنا على ادخار المال لشراء حصان".

قالت تس بصوت متهدج: "وداعًا يا أبى". قال سير جون رافعًا رأسه عن صدره، منتبها من غفوته التى كان فيها من جراء إفراطه قليلاً فى الشراب ذلك الصباح احتفاء بالحادث: "وداعًا يا بنيتى، وعشمى أن فتاى ستروقه قريبته الحسناء، وأخبريه يا تس أنى مستعد- إذ قد تدهورنا وذللنا بعد عز- أن أبيعه اللقب بثمن غير باهظ"، فصاحت ليدى دربيفيلد: "يجب ألا يقل عن ألف جنيه!" واستطرد الرجل: "أخبريه أنى أقبل ألفًا، بل يبدو لى أنى أقبل أقل من ذلك، فإنه سيشرف اللقب أكثر مما يشرفه فقير ضعيف مثلى، فأخبريه أنى أقبل مائة، بيد أنى لا أتشبث بالصغائر، فأخبريه أنى أرضى بخمسين، بل بعشرين، نعم عشرون جنيهًا هى الحد الأدنى، فإن شرف الأسرة شيء لا يستهان به، ولن أقبل إن نقصها درهمًا واحدًا!".

كانت عينا تس مغرورقتين وصوتها محتبسًا، فلم تستطع البوح بما يخامرها من شعور، فانفلتت خارجة على عجل، وسارت جميع الأخوات وأمهن، تحف بتس بنت من كل جانب ممسكة بيدها، وهما تنظران إليها من حين إلى آخر، تتأملانها كأنها شخص سيأتى عما قريب بالعظائم، وأمها فى أثرها ومعها صغرى الشقيقات وزمرتهن تؤلف صورة للجمال البرىء الساذج الغافل؛ حتى بلغن سفح المرتفعات تبدو من ورائها أشباح مساكن شاستن، ولم يكن يبدو فى الطريق الممتد على رءوس المرتفعات إلا الغلام الذى تقدمهن بالمتاع، جالسًا على مقابض العجلة التى كانت تحوى كل ما كانت تملك تس من حطام الدنيا.

قالت مسز دربيفيلد: "فلننتظر هنا قليلاً حتى تأتى العربة، ها هى قادمة من بعد"، وكانت العربة قد ظهرت بغتة من خلف مرتفع قريب ووقفت خلف الغلام. وقررت الأم والشقيقات أن يعدن أدراجهن، فودعتهن تس وداعًا عاجلاً وصعدت فى المرتفع، ورأين شخصها الأبيض يدلف إلى العربة، وكان متاعها قد وضع فيها، ولكن قبل أن تصل إليها اندفعت عربة أخرى من خلال أشجار على ذلك المرتفع، وانعطفت فى منعرج الطريق هناك، ومرت بعربة المتاع متجاوزة إياها إلى تس فوقفت بجانبها، فرفعت الفتاة بصرها مشدوهة.

ولا حظت أمها أن العربة الثانية لم تكن حقيرة المنظر كالأولى، بل كانت مركبة فخمة لامعة الطلاء مجهزة أحسن تجهيز، وكان السائق شابًا فى الثالثة أو الرابعة والعشرين، يدخن سيجارًا بين شفتيه، لابسًا قبعة رشيقة وسترة داكنة وسراويل مماثلة للسترة فى اللون، وغطاء رقبته أبيض وبنيقة ناشفة، وقفاز ركوب رماديًا؛ وبالاختصار كان هو هو الرجل الطرير المستوفز الذى زار جوان منذ أسبوع أو أسبوعين يطلب جوابها فى شأن تس؛ فصفقت مسز دربيفيلد يديها كالطفل، ثم أطرقت ثم اشرأبت ثانية تحملق؛ أيغيب عنها مغزى ما ترى؟ وتساءل أصغر الصبية: "أذاك قريبنا النبيل الذى سيجعل سسى نبيلة؟".

أما تس فكانت ترى فى ثوبها الموصلى جامدة مترددة أمام تلك المركبة الضخمة التى كان صاحبها يخاطبها، قد توجست خوفًا، وكانت تؤثر العربة الصغيرة، بيد أن الشاب ترجل وجعل يحثها على الركوب، فدارت بعينيها ونظرت إلى أهلها فى أسفل التل، وعندها أحست بضرورة البت، ولعلها تذكرت مصرع برنس فصعدت فجأة، وجلس بجوارها، وضرب الجواد بسوطه، وسرعان ما خلّفا العربة الصغيرة حاملة الصندوق وراءهما، وتواريا خلف كتف التل.

ولم تكد تس تتوارى عن الأنظار، وتنتهى تلك الدارما الرائعة، حتى اغرورقت عيون الصغار وقالت صغراهن: "ليت المسكينة تس لم تذهب لتصير نبيلة!" وانخفض جانبًا شفتيها وانخرطت باكية، وسرت عدوى هذه النظرة الجديدة إلى الأمر، فصنعت صنيع الأولى. وتبعتها الثالثة، وتعالى عويل الثلاث واغرورقت عينا مسز دربيفيلد أيضًا وهى راجعة أدراجها ولكنها لم تبلغ القرية حتى لاذت بالاستسلام إلى رحمة الأقدار.

بيد أنها تنهدت فى فراشها فى تلك الليلة، فلما سألها زوجها ما بها قالت: "لست أدرى، إنما يُخيل لى أن الخير كان فى بقاء تس لا فى ذهابها"، قال: "أما كان يجدر بك أن تفكرى فى ذلك من قبل؟" قالت: إنها على كل حال فرصة للفتاة.... بيد أنه لو عاد الأمر إلى يدى لما أطلقتها حتى أستوثق من سلامة طوية الشاب، وحد به عليها حدب القريب على قريبته". قال سير جون وهو يغط: "أجل كان يحسن أن تفعلى ذلك"، وكانت جوان تحسن انتحال المعاذير لنفسها، فقالت: إنها تنتمى إلى أعراقهم، وواجبها أن تبلغ غايتها منهم إذا أتقنت لعب دورها، وإذا لم يبنِ بها عاجلاً فهو فاعل بعد حين، لأنه يضطرم شغفًا بها ما فى ذلك شك لذى عينين"، قال: "كيف تحسن لعب دورها؟ بدمها الدربرفيلى؟" قالت: "لا يا أبله، بوجهها- كما فعلت أنا".

٨

انطلق ألك دربرفيل بالعربة على متن التل الأول مسرعًا، وهو يثرثر مطريًا ملاحة تس، فتصاعد بهما الطريق حتى انبسط من دونهما سهل رحب مترامى الأكناف، خلفهما الوادى الأخضر الذى ولدت فيه، وأمامهما شعب أغبر لا تعرف عنه إلا القليل الذى شهدته فى رحلتها السابقة إلى ترنتردج، ثم أشرفا على منحدر يهبط عليه الطريق مستقيمًا مدى ميل، وكانت تس منذ مصرع حصان أبيها، رغم شجاعتها الطبيعية، تفزع كلما ركبت عربة وتهلع كلما اختل سير العربة أدنى اختلال، وقد روعها الآن ما رأت من اندفاع صاحبها، فقالت وهى تخفى قلقها: "لعلك تنوى التريث فى الهبوط؟".

فالتفت إليها دربرفيل، وابتسم لها ابتسامة بطيئة، وسيجارته بين ناجذيه، وقال بعد أن دفع الدخان من فيه مرة أو مرتين: "عجبًا يا تس! أفتاة شجاعة متوثبة مثلك تطلب ذلك؟ إن من عادتى أن أترك للجواد العنان فى الهبوط، وهو عمل عديم النظير فى إنعاش الروح"، قالت: "أحتمًا أن تفعل ذلك الآن؟"، قال هازًا رأسه: "ليت الأمر إلى أنا وحدى، إنما يجب أن تحسبى حساب شخص آخر، حساب تب، وهى عنيدة غريبة الأطوار"، قالت: ""حساب من؟" قال: "حساب هذه المهرة، ألم تريها تلتفت إلى منذ هنيهة التفاتة حنق؟" قالت فى فتور : "لا تحاول إفزاعى يا سيدى"، قال: "لست أحاول إفزاعك، ولكن الحقيقة أنه لا يستطيع رياضة هذه المهرة إنسان سواى، إذا كنت أنا نفسى أستطيع رياضتها"، قالت: "ولم تستبقها؟"، قال: "هذا ما لا أدريه، ولعله قدر محتوم على؛ لقد قتلت تب رجلاً، وكادت تقتلنى أنا عقب شرائها، وعندها هممت أن أقضى عليها، ولا تزال صعبة المراس، وقلما يأمن المرء على حياته وراءها!".

وبدأ الهبوط، وكانت المهرة تعلم جيد العلم أى عمل يراد منها، فانطلقت دون أن تحتاج إلى حافز من ورائها، وانحدرت المركبة، وعجلاتها تطن طنين النحلة، وهى تهتز يمنة ويسرة، مائلة المحور على خط سيرها، وشخص المهرة أمام

بصريهما يعلو ويهبط من ارتفاع الأرض وانخفاضها، وكانت تبدو إحدى العجلات أحيانًا مرتفعة عن الأرض وتظل كذلك مدى أذرع، وأحيانًا ترمى بالحصى متطايرًا فوق الشجر على جانبى الطريق، وتارة ينبعث الشرر من حوافر المهرة يكسف ضوء النهار؛ وكانا كلما اندفعا إلى الأمام امتد الطريق المستقيم أمام بصريهما، وانفتح جانباه كأنهما شقا عصا مشدوخة، ومرق كل جانب منهما عن كتفيهما، وكانت الريح تشق طريقها فى ثياب تس الرقيقة ضاربة فى لحمها، وتطاير شعرها المغسول وراءها، وكانت موطنة النفس على ألا تبدى فزعًا، بيد أنها قبضت على ذراع دربرفيل الممسكة باللجام.

فصاح بها: "خلى ذراعى وإلا قذفت بنا العربة، وتعلقى بخصرى"، ففعلت حتى بلغا القرار، فقالت ووجهها يتقد: "حمدًا لله، وصلت سالمة رغم خرقك!"، قال: "ويلك ياتس تسبيننى!"، قالت: "بل أقول الحقيقة"، قال: "لا يجمل أن تقبضى ذراعيك عن خصرى غير شاكرة حالما تبلغين الأمان"، وكانت قد تعلقت بخصره كارهة وعلى غير وعى، وسواء لديها إن كان رجلاً أو امرأة أو عصًا أو حجرًا، فلما ثابت إلى نفسها جلست صامتة لا تجيب، حتى بلغا قمة منحدر ثان فقال: "والآن فلنعد الكرة!" قالت: "لا، لا، شيئًا من الحكمة!" قال: "ولكن المرء إذا وجد نفسه على بقعة من أعلى بقاع المقاطعة، فلا بد له من الهبوط ثانيًا".

وأرخى العنان وانطلقا مرة أخرى، والتفت إليها والعربة تتخبط بهما، قائلاً فى سخرية وخبث: "دونك خصرى مرة أخرى يا حسنائى" قالت وهى تتماسك وتتجلد فى موضعها دون أن تمسه: "هيهات"، وزادت انقباضًا عنه واعتزالا فى موضعها، فحفز المهرة من جديد فزادت تس قلقلة فى مجلسها، حتى عيل صبرها، فحدقت فيه بعينيها الكبيرتين كأنهما عينا وحش، وقالت: "ألا يرضيك ما عدا ذلك؟" قال: "كلا يا عزيزتى تس"، قالت وهى تلهث، وقد نال منها الإعياء: "لم إذن، لست أدرى، لست أبالى" وكفكف العنان وهم أن يطبع على خدها تحيته ولكنها نفرت منه حياء دون أن تتمالك، وكانت يداه مغلولتين فى توجيه اللجام، فلم يستطع لحركتها ردًا.

واحتدم غيظًا وتملكته سورة العناد فقال: "ويل لك! لأكسرن عنقينا معًا أهكذا تحنثين من بعد ما وعدت أيتها السويحرة؟"، قالت:"هاك! لن أحاول الإفلات هذه المرة ما دمت مصرًا، بيد أنى كنت أتوقع أن تحسن إلىّ وتدفع عنى، فعل القريب!" قال: "خلينى من ذكر القرابة وهلمى!" قالت وترقرقت دمعة كبيرة فى عينها، واختلج جانبًا فمها وهى تُعالج البكاء: "ولكنى لا أحب أن يقترب منى أحد يا سيدى، ولو علمت بهذا لما جئت!" لكنه أصر ولم يقبل شفاعة فاستسلمت حتى طبع على خدها قبلة؛ ولم يكد يفعل حتى احمرّ وجهها خجلاً ومسحت الموضع الذى لمسته شفتاه من خدها، فعلت كل ذلك بحركة طبيعية جرحت كبرياءه فقال: "ما أشد حساسيتك يا ربيبة الكوخ".

ولم تجب تس على قوله ذاك الذى لم تفهم مغزاه، إذ لم تفطن إلى الإهانة التى وجهتها إليه عن غير قصد بمسحها أثر شفتيه؛ وقد محت القبلة من خدها- إذا كان مثل ذلك العمل مستطاعًا متصورًا- وأحست إحساسًا مبهمًا بأنه مغيظ، فشخصت ببصرها إلى الأمام؛ وتقدمت العربة حتى دانت ملبرى داون وونجرين فما راعها إلا أن ترى منحدرًا جديدًا لا بد من هبوطه، وعاد يقول وما زال صوته متهدجًا من الحنق وقد رفع السوط من جديد: "لتندمن على ما جنيت، إلا أن توافقى طائعة على أن أقبلك، ثم لا مسح ولا منديل"، فتنهدت قائلة: "سمعًا يا سيدى! آه: دعنى ألتقط قبعتى".

وكانت قبعتها قد طارت فى الطريق، لأنهما حتى على متن المرتفع كانا مندفعين بسرعة ليست بالقليلة، فأوقف دربرفيل العربة وقال إنه سيحضر القبعة، ولكن تس كانت أسرع منه إلى النزول من جانبها، وعادت أدراجها فالتقطت القبعة؛ قال مرسلاً بصره فوق العربة يتأملها: "قسمًا لأنت أملح بدونها، لو كان ذلك مستطاعًا! والآن هلمى اصعدى! ما بالك؟"، وكانت تس قد لبست قبعتها ولكنها لم تتحرك من موضعها، وقالت وقد اشتد تورد فمها وتجلت نظرة التحدى فى عينيها: "هيهات!" قال: "ماذا؟ ألا تصعدين بجانبى! قالت: "كلا، بل أسير"، قال: "إن بيننا وبين ترنتردج خمسة أميال أو ستة"، قالت: "لتكن عشرات الأميال، والعربة الصغيرة على كل حال آتية فى أثرنا"، قال: "ما أخبثك من جارية! أصدقينى: ألم تتعمدى إسقاط تلك القبعة؟ أقسم لقد فعلت؟" فالتزمت الصمت فزاد يقينًا.

فانطلق يكيل لها السباب واللعنات جزاء خدعتها، ثم فاجأها بإدارة العربة ليحصرها بينها وبين الأشجار، ولكنه رأى استحالة ذلك إلا أن يلحق بها أذى وأهابت به تس ناظرة من قمة السياج الذى كانت قد لاذت به: "أما تستحى أن تتفوه بذاك البذاء؟ إنى لأمقتك وأمجك! ولأرجعن إلى أمى!" وتقشعت سحابة غضبه أمام غضبها فقال مقهقهًا: "هذا ما يزيدنى حبا لك، تعالى وليكن بيننا سلام، وأقسم لك بشرفى لا أعيد الكرة دون رضاك"، ولكنها تأبت وإن لم تمانع فى مسايرته إياها بالعربة، وهكذا تقدما بطيئين إلى ترنتردج، وكان يبدو عليه الحنق والأسف معًا من آن إلى آخر، حين يرى ما ألجأها إليه بسوء مسلكه.

ولو شاءت لصدقت يمينه ولم يمسها سوء، ولكنه قد أضاع ثقتها به؛ وواصلت سيرها مفكرة كأنما تتدبر إن كان الأولى أن تعود أدراجها، ولكن بدا لها أن من التناقض والحمق- بعد أن بتت فى أمرها- أن تنقض ما أبرمت لأسباب تافهة، ولم تدر كيف تواجه أبويها وكيف تسترجع صندوقها، وكيف تهجر مشروع إنهاض أسرتها؛ وإنها لفى ذلك إذ تراءت مداخن قصر سلوبس، وفى ركن كنين على جانبه الأيمن حظيرة الدجاج والكوخ، اللذان ارتبط بهما مستقبل تس.

٩

كان مركز مجتمع الدجاج الذى عُيِّنتْ تس فيه مُشْرِفة ومتعهدة، وممرضة وطبيبة وصديقة، كوخا قائمًا وسط حظيرة كانت فيما مضى حديقة، ثم صارت اليوم أرضًا تربة متهدمة، وكان الكوخ مغطى باللبلاب، وكان اللبلاب متكاثفًا حول المدخنة أيضًا فبدت كأنها برج خرب؛ وكانت الحجرات السفلى مباحة للدجاج يخطر فيها خطرة السيد المالك، كأنه هو بانيها، وكأنما لم يبنها مالكو هذه البقعة الفقراء الأولون، الذين يرقدون اليوم فى مدفن الكنيسة، ثم آلت الضيعة إلى أسرة دربرفيل فأحالوا المسكن حظيرة للدجاج، وقد آلم ذلك أبناء البناة الأولين الذين كانوا يتعلقون بهذا المسكن تعلقًا شديدًا، ويعلمون أنه كلف أسلافهم كثيرًا، ويذكرون أنه تورث فيهم أمدًا طويلاً، وكانوا فى نقمتهم يقولون: "لقد كان يصلح لسكنى المؤمنين فى عهد آبائنا".

وكانت الحجرات التى طالما رددت صراخ الأطفال الرضع، تردد الآن دبيب الكتاكيت الناشئة، وقد احتلت مراقد الدجاج المواضع التى كانت تقوم فيها مقاعد المزارعين الوقورين، وامتلأ الموقد الذى كان قدمًا يتوهج بخلايا النحل مقلوبة يبيض فيها الدجاج؛ أما خارج الكوخ فقد مزق الدجاج أحواض الزراعة- التى تأنق المزارعون السالفون فى تخطيطها- شر ممزق، وكان يحيط بالحديقة المحدقة بالكوخ سور ليس له إلا باب واحد.

انهمكت تس فى صبيحة اليوم التالى فى تنظيف المكان وترتيبه، بمهارة ابنة الفروجى، وإذا بباب السور ينفتح ودخلت خادم بيضاء القلنسوة والميدع آتية من القصر، وقالت: "مسز دربرفيل تطلب الدجاج كعادتها"، ثم لاحظت أن تس لم تفقه، فقالت: "مسز دربرفيل طاعنة فى السن، وهى عمياء"، قالت تس: "عمياء!" وقبل أن تفيق من دهشتها أشارت إليها الخادم فحملت تحت ذراعيها دجاجتين من أحسن الدجاج الهمبرجى، وحملت الأخرى اثنتين، وقادت خطى تس إلى القصر، وكان القصر رائعًا فخمًا، ولكن كان على مقربة من مدخله ريش يتطاير، وعلى العشب مراقد للدجاج، فكان ذلك دليلا على أن بعض ساكنيه الأشراف يعطف على العجماوات.

كانت ربة القصر جالسة على كرسى كبير، وعليها أغطية وظهرها إلى اليمين، وكانت امرأة شمطاء تناهز الستين، ترتدى قلنسوة فضفاضة، وكان وجهها سهل الخلقة يدل على أنها لم تفقد بصرها إلا منذ حين، بعد أن جهدت جهدها لاستبقائه حتى يئست، ولم تكن لها تلك السيماء الجامدة التى يتسم بها من يولدون عميًا أو يذهب بصرهم فى حداثتهم، وتقدمت إليها تس بالدجاجتين كل واحدة منهما قابعة فى إحدى ذراعيها، وقالت السيدة إذ شعرت بخطى جديدة الوقع: "آه! أأنت الفتاة التى جاءت لتتعهد طيورى؟ أرجو أن تنال برك، وقد أخبرنى تابعى أنك نعم المتعهدة، والآن علىّ بها، آه! هذه ستْرَت، ولكنى لا أراها اليوم نشيطة كعادتها، فلعلها قد أفزعها، أن يدًا جديدة تتعهدها، وكذلك أرى "فينا" ، أجل كلتاهما فزعتان، أليس الأمر كذلك يا عزيزتى؟ بيد أنهما ستألفانك عما قليل".

وكانت السيدة تشير إلى الفتاتين وهى تتكلم، فتصعان الطيور فى حجرها واحدة فواحدة، فكانت تتحسس كلا منها من الرأس إلى الذيل، فاحصة مناقيرها وأعرافها وأجنحتها ومخالبها، وكانت تتعرف كل واحدة بمجرد لمسها، وتدرك كل ريشة مقصوفة أو ملوثة، وبحبس حواصلها تعلم إن كانت قد طعمت، وهل أفرط أو فرط فى إطعامها، وكانت كل هذه الآراء التى تتعاقب فى فكرها تبدو فى خلجات وجهها، وأخيرًا أعيدت الطيور الأربعة إلى مستقرها؛ ثم كررت العملية حتى استعرضت السيدة كل طيورها المدللة، بين همبرجى وبنتامى وكوشينى إلى غيرها من أنواع كانت فاشية فى تلك الأيام، وقلما أخطأت فى معرفة واحدة من زائراتها أولئك، حالما وضعت فى حجرها.

ذكر ذلك المنظر تس بمنظر تنصير المراهقين فى الكنيسة: فكأن مسز دربرفيل الأسقف، وكأن الدجاج الغلمان يقدمون إليه، وكأنها هى والخادم القسيسان اللذان يحضرانهم؛ ولما انتهت المراسيم سألت مسز دربرفيل تس فجأة وهى تعرج معارف وجهها وتلويها: "أتحسنين الصفير؟" قالت: "الصفير يا مولاتى؟" قالت: "نعم: أتحسنين تصفير الألحان؟" وكانت تس تجيد الصفير كما تجيده غيرها من الريفيات، وإن لم يكن ذلك مما تحب أن تفخر به أمام علية الناس، على أنها لم يسعها إلا الجواب إثباتًا.

قالت: "أريدك إذن أن تصفرى لطيور الدّغناس المغردة، فإنى وقد حرمت رؤيتها أحب سماعها، ونحن نعلمها الأغازيد بتلك الوسيلة، وقد كان عندى غلام يحسن ذلك ولكنه ذهب- أرشديها إلى الأقفاص يا إليزابث- ولتبدئى من الغد وإلا نسيت الطيور ما تعلمته، فقد أهملت أيامًا، قالت إليزابث، "لقد صفر لها مستر دريرفيل اليوم يا سيدتى" قالت السيدة وقد تقبض وجهها وتغضن كراهية ونفورًا: "أوَ قد فعل؟ قبحًا له!" ولم تزد.

هكذا انتهت مقالة تس لقريبتها الموهومة، وأعيدت الطيور إلى مقرها، ولم تدهش تس كثيرًا لمسلك مسز دربرفيل حيالها؛ فإنها لم تتوقع سوى ذلك منذ رأت ضخامة القصر، ولكنها لم يدر بخلدها وهلة أن السيدة لم تسمع قط بأمر القرابة المزعومة؛ وخيل إلى تس أن الوداد لم يكن متصلا بين الأم وابنها، وقد وهمت فى هذا أيضًا؛ فلم تكن مسز دربرفيل أول أم أحبت ابنها بالرغم منها، وأعزته غير مختارة.

ورغم ذلك البدء غير الحميد، فإن تس حين أشرقت عليها شمس الصباح التالى شعرت بالغبطة لجدة مقرها الحديث وللحرية التى تتمتع بها فيه، وكانت تتوق إلى اختبار مهارتها فى العمل الذى طلب منها ولم تكن تتوقعه من قبل، كى تستوثق من قدرتها على الاحتفاظ بمركزها، وحالما وجدت نفسها وحيدة فى الحديقة المسوّرة، جلست على أحد مراقد الدجاج، وجمعت عزمها وضمت شفتيها تأهبًا للعمل الذى لم تزاوله منذ زمان، فإذا هى قد فقدت مقدرتها السابقة، ولم ينطلق من فيها إلا هواء أجوف لا لحن فيه يستبان، وأعادت الكرة مرارًا دون جدوى، وهى تعجب كيف فقدت تلك المقدرة التى وهبتها الطبيعة من تلقاء نفسها، حتى نبهتها حركة فى فروع اللبلاب التى كانت تغطى السور، كما كانت تكسو الكوخ، فنظرت فإذا قافز يقفز من أعلى السور إلى أرض الحديقة، وإذا هو ألك دربرفيل. وكانت لم تره منذ قادها يوم قدومها إلى مسكن البستانى حيث نزلت.

صاح: "أقسمت ما أبدعت الطبيعة ولا الفن أجمل منك، تس يا ابنة العم" - وكان فى قوله يا ابنة العم رنين سخرية- "لقد كنت أراقبك من فوق الحائط، فى جلستك القلقة، وأنت تزمين ذلك الثغر الأحمر المليح، تريدين أن تصفرى، وتنفخين

المرة تلو الأخرى، وتلعنين بينك وبين نفسك، دون أن تستطيعى إخراج لحن واحد، أفيحزنك كثيرًا ألا تستطيعى الصفير؟" قالت: "ربما أحزننى ذلك ولكنى لم ألعن"، قال: "لقد أدركت لماذا تحاولين: من أجل تلك الطيور، إن أمى تريد أن تواصلى تعليمها الموسيقى، ما أقساها! كأن رعاية هذا الدجاج وهذه الديكة ليست عملا كافيًا لأية فتاة؛ لو كنت مكانك لرفضت رفضًا باتًا".

قالت تس: "ولكنها تشدد فى وجوب استعدادى والبدء من اليوم"، قال: "أحقًا؟ إذن أعطيك درسًا أو درسين"، قالت وهى تتسل إلى الباب: "كلا، لن تفعل"، قال: "يا للحماقة! أنا لن أمسك، انظرى: سأقف على هذا الجانب من السور السلكى، ولك أن تقفى على جانبه الآخر، وبذلك تكونين فى مأمن تام، والآن انظرى: إنك تضمين شفتيك ضمًا عنيفًا، وإنما هكذا يكون الصفير"، وشفع القول بالعمل فصفر شطرًا من أغنية: "نحى هاتين الشفتين عنى"، على أن تس لم تفطن إلى تلميحه، ثم قال: "الآن حاولى"، وكانت لا تريد التبسط معه، فظلت جامدة كالتمثال، ولكنه ألح حتى اضطرت- طلبًا للخلاص منه- أن تزم شفتيها كما رسم لها لإخراج لحن، ثم غلبها الضحك، ثم احمر وجهها حنقًا على ضحكها، فقال مشجعًا: "حاولى ثانية".

وجمعت كل عزمها وتجلببت بكل وقارها، وجربت مرة أخرى، وإذا هى تخرج فى النهاية صوتًا صحيحًا جليًا، وغلبها فرحها بالنجاح فاتسعت حدقتاها وابتسمت فى وجهه بالرغم منها، وقال: "هكذا هكذا! لقد وضعتك على الدرب وسوف تتقدمين تقدما رائعًا، وقد وعدت ألا أدانيك، ورغم هذا المنظر المغرى الذى لم يمتحن بمثله إنسان سأبر بوعدى؛ تس.. هل تظنين أن أمى مخلوقة عجيبة؟" قالت: "لست أعرف كثيرًا من أمرها بعد يا سيدى"، قال: "سيتضح لك أنها كذلك، ولا بد أن تكون كذلك ما دامت تأمرك بتعلم الصفير من أجل أطيارها؛ أنا غير متمتع برضاها فى الوقت الحاضر، أما أنت فستنالين عطفها إذا أحسنت معاملة دواجنها، والآن عمى صباحًا، وإذا اعترضتك صعوبة وطلبت المعونة، فلا حاجة تلجئك إلى عاملنا بل ائتنى أنا".

وهكذا تبوأت تس مكانها من هذه الكورة، وكانت تجارب اليوم الأول مثالا لتجارب الأيام الكثيرة التالية، واستطاع ألك دربرفيل أن يستعيد ثقتها بخلاب الأحاديث، وبدعوتها وهو يمزح بابنة العم حين يخلوان، حتى ذهب حياؤها الأول منه، على أنه لم يستطع أن يغرس فى نفسها شعورًا يبعث حياء جديدًا من ضرب آخر، بيد أنها كانت أطوع له مما كانت تكون لو كانت علاقتهما مجرد معرفة، وذلك لاعتمادها بالرغم منها على أمه، أو بالأحرى لاعتمادها عليه إذ كانت أمه عاجزة.

وسرعان ما تبين لها- بعد أن استردت مقدرتها على الصفير- أن الصفير لطيور مسز دربرفيل ليس بالعمل الشاق، فقد كانت ثقفت عن أمها ألحانًا كثيرة تلائم تلك الطيور، وأصبح صفيرها بجانب الأقفاص كل صباح أدعى إلى الارتياح من محاولتها الأولى تلك فى الحديقة، فكانت وهى فى مأمن من إلحاح الشاب وإرهاقه، تجمع شفتيها وتدنيهما من القضبان، وتصفر صفيرًا رخيمًا للطيور المصيخة المنتبهة.

وكانت مسز دربرفيل تنام فى فراش ضخم مغطى بستائر الديباج الدمشقى، وكانت الطيور الفريدة تحتل نفس الغرفة، حيث كان يسمح لها بالطيران حرة ساعات من النهار، فكانت تترك على الأثاث والأغطية نقطا بيضاء دقيقة، وكانت تس مرة واقفة عند النافذة المصفوفة حولها الأقفاص، تعطى دروسها كالمعتاد، فخيل إليها أنها تسمع حفيفًا خلف الفراش، ولم تكن السيدة العجوز حاضرة، فالتفتت تس فلاح لها أن طرفى حذاء يبرزان من تحت ذيول الستائر، وعند ذلك اضطرب صفيرها، حتى أن المتسمع- إذا كان هناك متسمع- تنبه إلى ارتيابها فى أمره، وبعد ذلك أصبحت تس تفتش الستائر كل صباح، ولكنها لم تعثر قط فيها على أحد، وكان ألك دربرفيل على ما يظهر قد أقلع عن حيلته فى مباغتتها على ذلك النحو.

١٠

لكل قرية سننها وخصائصها ولوازمها، بل لكل قرية أحيانًا معايير للأخلاق خاصة، وكان من خصائص ترنتردج وأرباضها تبذل بعض فتيانها، وكأنما كان ذلك التبذل رمزًا لأخلاق رب قصر سلوبس، وكان من خصائصها أيضًا أو من مساوئها الشنيعة إدمان الشراب، وكان عدم جدوى الادخار هو موضوع المحادثة المحبب فى تلك الناحية، فكان الفلاحون فى ثيابهم الخشنة يتكئون على محاريثهم أو مناجلهم، ويتعمقون تعمق كبار الرياضيين فى الحساب، كى يثبتوا أن الجعل الذى يمنحه مجلس الأبرشية للمفلسين العاطلين أقوم بحاجات الرجل إذا أسن من أى مال يستطيع ادّخاره من أجره طول حياته.

وكانت كبرى متعات أولئك الفلاسفة أن يذهبوا مساء كل سبت عقب الفراغ من العمل، إلى تشيس، وهى بلدة سوق متهدمة على مدى ميل أو ميلين، ويعودوا مبكرين صباح الأحد ليقضوا النهار فى النوم، يتخلصون من الأثر الممسك للهضم الذى تتركه فيهم المشروبات الغريبة، التى تباع لهم على أنها جعة، فى تلك الحانات التى كانت حقبة مستقلة، وهى اليوم حكر فى يد واحدة.

وظلت تس زمنًا طويلاً لا تنخرط فى هذه الرحلات الأسبوعية، ثم وافقت أخيرًا على الذهاب تحت إلحاح المتزوجات اللواتى لم يكن يكبرنها كثيرًا، إذ كان أهل تلك الجهة يبكرون بالزواج، لأن أجر أحدهم وهو فى الحادية والعشرين يظل هو هو حين يبلغ الأربعين، وقد سرت تس من رحلتها الأولى سرورًا لم تتوقعه إذ سرت إليها عدوى الحبور الذى كان طاميًا على الأخريات، بعد قضائها الأيام الطوال فى عملها الممل فى تعهد الدواجن، فأعادت الذهاب مرة بعد أخرى، وإذ كانت رشيقة ممتعة، وكانت إذ ذاك فى المرحلة الدقيقة بين الطفولة والأنوثة الكاملة فقد كان منظرها يجذب نظرات المتسكعين فى طرق تشيس، ولذلك أصبحت حتى حين تذهب بمفردها إلى تلك البلدة، تبحث فى عودتها عن بعض صويحباتها، تطلب بمرافقتهن الأنس والأمان فى الطريق.

واستمر ذلك شهرًا أو شهرين، حتى جاء سبت فى سبتمبر اجتمع فيه السوق الأسبوعية والسوق الموسمية، واحتفاء بهذه المناسبة راح الحجاج إلى تشيس يشربون ضعف ما يشربون عادة فى الحانات، وتأخرت تس فى الذهاب حتى فرغت من عملها، ولذا وصلت صويحباتها إلى البلدة قبلها بزمن طويل، وكان المساء جميلا قبيل الغروب، حين تصطرع الأشعة الصفراء والظلال الزرقاء فى خطوط شعرية، ويصبح الجو ذاته منظرًا جميلا دون حاجة إلى الأجسام المتحجرة، اللهم إلا ما يتراقص فيه من هوام مجنحة لا تعد؛ فى هذا الضوء الخافت اتخذت تس طريقها ولم تعلم باتفاق السوقين حتى بلغت البلدة وكان الليل قد أرخى سدوله، وسرعان ما فرغت من شراء حاجاتها المحدودة، وعندها بدأت كعادتها تبحث عن بعض صويحباتها.

ولم تهتد إليهن فى بادىء الأمر، وقيل لها إنهن قد ذهبن ليساهمن فى رقص فى دار رجل يتجر فى الكلأ والوقود، بينه وبين أصحاب الضيعة التى يعملن بها تعامل، وكان يسكن فى جانب متطرف من القرية، وبينما هى تتهدى إلى تلك الدار وقعت عيناها على مستر دربرفيل واقفًا على منعطف طريق! قال: "ماذا؟ أحسنائى؟ ألأنت هنا فى هذه الساعة المتأخرة!" فأخبرته أنها إنما تنتظر رفيقاتها فى الطريق ومضت عنه فصاح بها من خلفها: "سأراك ثانية".

ولما قاربت الدار سمعت ألحان موسيقى رقص منبعثة من الجانب الخلفى منها، ولكنها لم تسمع الرقص ذاته، وكان ذلك أمرًا عجبًا فى مثل تلك الأحياء الوضيعة حيث يطغى وقع أقدام الراقصين عادة على نغمات الموسيقى، وكان الباب مفتوحًا فاستطاعت أن ترسل بصرها إلى الحديقة الخلفية إلى مدى ما يمكنها الضوء الخافت، ودقت فلم يجبها أحد، فاجتازت المسكن إلى البناء الخلفى حيث كانت الموسيقى التى اجتذبتها، وكان ذلك بناء مصمتًا عديم النوافذ يستخدم فى خزن الحبوب، وكان بابه مفتوحًا ينبعث منه وهج أصفر غائم حسبته تس بادئ الأمر دخانًا ينعكس عليه الضوء، ولكنها حين قاربته وجدته سحابًا من الغبار، تضيئه الشموع داخل البناء.

وتقدمت ونظرت فى الداخل، فرأت أشباحًا غامضة تعدو على وقع الموسيقى، وكان خفوت وقع أرجل القوم راجعًا إلى غياب أقدامهم فى التبن المتخلف عن الحبوب، وكان ذلك التبن يتطاير من خفق أقدامهم فينشر ذلك الضباب الذى يلف المنظر جميعه، وقد امتزج ذلك الضباب الكريه الرائحة بعرق الراقصين وحراراتهم امتزاجًا كأنما تلاقح فيه النبات والإنسان، والقيثارات الضعيفة ترسل أنغامها الواهية، فكان بين وهنها وبين حماسة الراقصين تباين عجيب، وكانوا يسعلون أثناء رقصهم، ويضحكون خلال سعالهم، وكانت أشباحهم تبدو وكأنها عفاريت الغاب تعانق عرائسه، وفى فترات السكون كان يأتى زوج منهم إلى الباب يتنسمان الهواء الطلق، فتبدو عند ذلك ملامحهما جلية، وتتبين تس – مكان أولئك العفاريت والعرائس وأنصاف الآلهة– وجوه جيرانها وجاراتها فتعجب من تحول أبناء ترنتردج هذا التحول الهائل فى ثلاث ساعات قصار.

وجلست زمرة من أنصاف الآلهة على بعض المقاعد والآلات هناك، وعرف أحدهم تس فقال يفصل لها الأمر: "فتياتنا لا يرين من اللائق الرقص فى حان زهرة الزنبق، إذ لا يرضين أن يعلم الجميع أى شاب تهواه كل منهن، وفضلاً عن ذلك فإن الحان يغلق أحيانًا فى الساعة التى فيها تنشط مفاصلهم للرقص، ومن ثم نؤثر المجيء إلى هنا ونرسل من يبتاع لنا الأشربة"؛ قالت تس فى قلق: "ولكن متى يعود بعضكم؟" قال: "عما قليل، فلم تبق إلا رقصة واحدة"، فانتظرت حتى انتهت الرقصة، وفكر بعض الحضور فى الانصراف، ولكن غيرهم أبى وبدأت رقصة أخرى، وقالت تس فى نفسها: "إن تلك الرقصة هى الأخيرة، ولكن أعقبتها ثالثة فاشتد قلقها، بيد أنها وقد انتظرت كل هذا الوقت لم تر محيدًا عن البقاء، فقد كانت الطرق غاصة بالشذاذ لمناسبة السوق الكبرى، وكانت تس لا تخشى الأخطار التى تعرف كنهها، ولكنها تخشى الأخطار المجهولة المدى، ولو أنها كانت على مقربة من مارلت ما اشتد جزعها.

قال لها فتى متصبب الوجه عرقًا، قد دفع قبعته إلى الوراء حتى بدت حافتها حول رأسه كهالة القديسين، وهو يسعل: "لا تجزعى يا جاريتى، علام التعجل؟ إن غدا والحمد الله يوم الأحد، وفى الكنيسة نستطيع أن نعوض ما فاتنا من النوم، هل لك فى مراقصتى؟" ولم تكن تكره الرقص ولكنها لم تكن لترقص فى هذا المكان، واحتدت حركة الرقص، وجعل العازفون وهم جلوس خلف عمود الضباب المتوهج يخالفون بين أنغامهم بالضرب على مؤخرة الأوتار بدل مقدمتها، أو بالعزف بظهر القوس بدل بطنها، ولم يكن الراقصون يبالون شيئًا من ذلك، بل ظلت أشباحهم مندفعة تدور.

ولم يكونوا يغيرون مراقصيهم إذا كانوا مرتاحين إلى من يراقصون، وإنما كان التغيير معناه أن أحد المتراقصين لم يرتح إلى مراقصه، أما الآن فكان كل قد اهتدى إلى من يروقه، وعند ذلك سبحوا فى عالم من النشوة والأحلام، ارتدت العاطفة فيه هى الحقيقة المتحجرة فى هذا الكون، وارتدت المادة عقبه دخيلة تعترض الطريق وتمنع الراقص من الاندفاع والالتفاف حيث شاء.

ثم سمعت فجأة خفقة ثقيلة، فقد سقط متراقصان وظلا فى مكانهما ركاما، ولم يستطع الزوجان اللذان تلواهما التوقف فوقعا عليهما، وثارت حول الساقطين غمامة من الغبار صغرى وسط الكبرى التى كانت تغشى الحجرة، وبدا فيها خليط من الأيدى والأرجل المشتجرة، وصاحت امرأة من ذلك الركام البشرى: ستنال جزاءك على هذا يا صاح متى رجعنا إلى الدار!"

وكانت تلك مراقصة الرجل الذى سبب الحادث كله بفدامته وهوجه، وكانت زوجه قد بنى بها حديثًا، ولم يكن تراقص الزوجين أمرًا غريبًا فى ترنتردج ما دام بينهما أثارة من حب،لا ولا كان ذلك بالغريب فى أخريات حياتهم، مخافة أن يراقص أحدهما شخصًا آخر يكون إليه أميل.

وتعالت ضحكة من خلف تس فى ظلام الحديقة، ممتزجة بالقهقهة التى انتشرت فى الحجرة فالتفتت فرأت شعلة سيجارة، وإذا ألك دربرفيل قائم هناك وحده، وأشار إليها فمشت إليه على كره، فقال: "ماذا تصنعين هنا يا حسنائى؟"

وكان الجهد بالغًا منها مبالغه بعد يومها الطويل ورحلتها، فباحت إليه بأشجانها وأخبرته أنها كانت تنتظر منذ رآها كى تصطحب بعض القافلين، ثم قالت: "ولكن يظهر أنهم لن ينتهوا أبدًا وقد عيل صبرى"، قال: "لا حاجة بك إلى الصبر، ليس معى الليلة إلا جواد مسرج، ولكن تعالى إلى حان زهرة الزنبق أكتر عربة وأحملك إلى المنزل"، وأصاب مقاله من نفسها موقعًا حسنًا، ولكنها لم تكن قد تغلبت بعد على سوء ظنها به، فآثرت أن تعود سائرة مع صويحباتها مهما تأخرن فقالت إنها تشكره ولكن لا تريد تجشيمه مشقة ذلك، وإنها قد وعدت بانتظارهن فقال: "حسنًا يا فتاتى المستقلة، اصنعى ما شئت، والآن لا حاجة بى إلى الإسراع، ياالله! ما أشد انهماكهن!"

ولم يكن قد خطا فى النور، ولكن بعضهم لمحه، فدعاهم الشعور بوجوده إلى التوقف والتساؤل عن الوقت، ولم يكد يوقد سيجارًا جديدًا وينصرف حتى بدأ أهل ترنتردج يجمعون أنفسهم من بين الآخرين الآتين من مزارع أخرى، تهيئوا للانصراف جماعة، والتقطوا سلاتهم وعيابهم، وبعد نصف ساعة – حين دقت ربعًا بعد الحادية عشرة – كانوا ينقلون خطاهم فى الطريق الضيق الذى يصعد المرتفع، يقصدون ديارهم، وكانت مسيرة ثلاثة أميال على طريق أبيض جاف، قد زاده قمر تلك الليلة بياضًا.

سارت تس فى الجمع تحادث هذا مرة وتلك أخرى، وسرعان ما لاحظت أن هواء الليل البليل يطوح بعض الرجال يمنة ويسرة، وكانوا قد أفرطوا فى الشراب وكان بعض من أفرطن فى الشراب يترنحن كذلك، ومن أولئك امرأة وقاح، تدعى كاردارتش، تنبز أحيانًا بملكة الفئوس، وكانت إلى عهد قريب محظية دربرفيل، وأختها ننسى المدعوة بملكة الماس، تشبيها لهما بملكات أوراق اللعب، والفتاة المتزوجة حديثًا التى سقطت فى الرقص؛ على أنه وإن كان منظر القوم إذ ذاك يلوح لعين الرائى العادى قبيحًا مسترذلاً فقد كان الأمر فى نظرهم على عكس ذاك كانوا يتابعون سيرهم، وهم يشعرون أنهم محلقون فى عالم من الأفكار العميقة، وقد تمازجوا هم والطبيعة فى كل واحد متلائم الأجزاء متآلف سعيد، وأنهم يماثلون القمر والنجوم المشرفة عليهم سموا، وأن القمر والنجوم تماثلهم حرارة.

وكانت نس قد خبرت من مثل هذه الأحوال في دار أبيها، ما نغص عليها الحبور الذي كانت بدأت تشعر به في رحلتها القمراء، حين رأت ما رأت من اختلال مشياتهم، بيد أنها لما تقدم من أسباب لم تر مفرًا من مرافقة الجمع، وكانوا قد ساروا في الطريق العامة مشتتين، أما الآن فبلغوا بوابة حقل، ولاقت المتقدمة أمامهم صعوبة في فتحها حتى تلاحق بها الباقون، وكانت هذه المتقدمة في الطليعة هي ملكة الفئوس، وكانت تحمل سفطًا فيه مشتريات الأسبوع: بين بقول لأمها وأقمشة لنفسها إلى غير هذا وذاك، وكان السفط كبيرًا ثقيلاً، فحملته على رأسها حيث جثم في توازن خطر، وسارت ويداها في خاصرتها.

وقال لها أحدهم فجأة: "ما هذا الذي يزحف على ظهرك يا كار؟"، فنظر الجميع إليها، وكانت ترتدي ثوبًا قطنيًا خفيفًا رخيصًا، وكان يتدلى من قذالها حبل يصل إلى ما دون خصرها كضفيرة الصيني، وقال آخر: "هذا شعرها قد انتشر" ولم يكن ذلك حقًا، إنما كان سائل يجري من سفطها ويلتمع كأنه ثعبان في أشعة القمر الباردة الساكنة، وقالت امرأة أنفذ بصرًا: "هذا عصير قصب" وأصابت فقد كانت جدة كار العجوز المسكينة مغرمة بالحلوى، وكانت تجني من خلاياها هي نفسها عسلاً كثيرًا، ولكن عسل القصب كان منية روحها الكبرى، وقد أرادت كار أن تحمل إليها مفاجأة سارة.

وتعالت الضحكات لدى مرأى ظهر كار، فاشتد حنق الملكة السمراء، فاندفعت تتخلص من المادة المشوهة بأقرب الوسائل، دون أن تلجأ إلى مساعدة الساخرين منها وهرولت في الحقل الذي كانوا على وشك اجتيازه، واستلقت على العشب وجعلت تمسح ثوبها ما استطاعت بالتمرغ وبحر نفسها بمرفقيها على العشب، فاشتد دوى القهقهة حتى عجز بعض القوم عن التماسك من فرط الضحك، فتعلقوا بالبوابة وبالأعمدة، واعتمدوا على عكازاتهم! وكانت بطلتنا قد احتفظت حتى الساعة بسكونها، ولكنها لم تتمالك الآن أن تشارك الباقين

وكان ذلك من سوء طالعها من شتى الوجوه: فإن الملكة السمراء حالما سمعت صوت تس الخصب الرزين وسط أصوات العمال، بلغ منها الحنق والحسد حد الجنون، فانتفضت قائمة وصرخت فى وجه الفتاة التى كانت تشنؤها: "كيف تجسرين على الضحك منى يا صبية؟" قالت تس معتذرة، ومازال الضحك يغالبها: "لم أتمالك الضحك مع الضاحكين"، قالت: "أنت شديدة الزهو لأنك اليوم أدنى إليه من سواك، ولكن مهلاً يا هذه ثم مهلاً، إنى لأعلى قدرًا من اثنتين من طرازك، هاك!" وما راع تس إلا أن انطلقت الملكة السمراء تشق جيب ثوبها - وكان يسر المرأة تتخلص منه بعد أن سخر منه القوم - حتى أبدت جيدها البض وكتفيها وذراعيها لضوء القمر، فلاحت أعضاؤها تلك فى ضوئه لامعة جميلة كأنها تمثال إغريقى، تتم استدارتها وامتلاؤها عن امرأة ريفية شهوانية؛ وتصدت لتس جامعة قبضتيها.

قالت تس فى أنفة: "لن أقاتلك، ولو كنت أعلم أنكم هكذا لما تدليت حتى رافقت غوغـــاءكم"، فجر هذا الحكم المعمم على رأس تس الجميل سخط الآخرين، ولا سيما سخط ملكة الماس التى كانت بينها وبين دربرفيل فيما مضى نفس العلاقة التى تشاع عن الملكة السمراء، فاتحدت مع أختها على العدو المشترك وانحازت إليهما نساء أخريات فى حماسة هوجاء، لعلهن لم يكن يظهرنها لولا المساء العاصف الذى قضينه؛ ولما رأى الأزواج والعاشقون أن تس تتدحر فى حرب غير متعادلة، حاولوا نشر السلام بالانحياز إلى جانبها، فلم يزد ذلك المهاترة إلا احتدامًا.

وبلغ الغيظ والخجل من تس فلم تعد تبالى وحشة الطريق وتأخر الوقت، وإنما صار همها الانفصال عن الرهط بأسرع ما تستطيع، وكانت موقنة أن خيارهم سيندمون فى الغد، وكانوا جميعًا قد دخلوا فى الحقل، وكانت تتباطأ كى تندفع مبتعدة عنهم، وإذا فارس يخرج فى صمت من ركن السياج الذى يحجب الطريق، وأطل عليهم ألك دربرفيل قائلاً: "ويل لكم، ما هذا الصخب!"، ولم يستطع القوم التفوه بجواب، ولم يكن هو يبغى جوابًا، وكان قد سمع أصواتهم من بعد فاقترب حتى سمع ما يكفيه، وكانت تس واقفة منفردة قرب البوابة، فمال إليها قائلاً: "اقفزى خلفى، نغادر رهط القطط الصاخبة، فى طرفة عين".

واشتد إحساسها بحرج موقفها حتى كاد يغمى عليها، وما كانت لتقابل هذه المساعدة الممنوحة والمرافقة المعروضة فى أى وقت آخر بغير الرفض كما رفضتهما من قبل مرارًا، وما كان خوفها الوحدة ليدفعها على قبولهما، ولكن الدعوة جاءتها فى تلك البرهة العصيبة حين اجتمع فى نفسها الخوف والنقمة على مخاصميها ورأت أن قفزة واحدة تحول تينك العاطفتين إلى نصر على أولئك الخصوم، فاستسلمت لنزوتها، وتسلقت البوابة ووضعت قدمها فوق قدمه، وتحاملت حتى جلست فى سرجه من خلفه، وقبل أن يعى أولئك المعربدون ما حدث، غاب شخصاهما فى غبش الظلام.

ونسيت ملكة الفنوس السائل الذى يلوث رداءها، ووقفت بجانب ملكة الماس والمرأة المتزوجة حديثًا المترنحة ثملاً، وقد شخصت أبصارهن جميعًا إلى حيث تخافت صوت حوافر الجواد، وقال رجل لم يلاحظ ما حدث: "إلام تنظرن؟" فضحكت كار: "هُو هو هو!" وضحكت العروس المترنحة، وهى تتحامل على ذراع زوجها المتيم: "هى هى هى!"، وضحكت أم كار: "هيو هيو هيو!"، ومسحت شاربها وقالت متهكمة: "لقد استجارت من الرمضاء بالنار!".

وواصل السير سادتنا أبناء الهواء الطلق، الذين لم يكن حتى الإفراط فى المسكرات يضر بهم ضررًا مقيمًا، وكان يتحرك معهم حول هامة خيال كل منهم دائرة ساطعة من ضوء القمر المشعشع على بساط الندى، ولم يكن منهم من يرى سوى هالته، التى كانت لا تفارق خيال الرأس مهما هوم الرأس وتطوح، بل تلازمه وتجمله، حتى كاد الترنح يبدو جزءًا من الإشعاع، وكادت الأبخرة المتصاعدة مع أنفاسهم تبدو كأنها جزء من ضباب الليل، وبدا لهم كأن المنظر المحيط بهم وضوء القمر وروح الطبيعة، تتآلف جميعها مع روح الخمر.

١١

خب الجـــواد بالراكبين حينًا دون أن يتكلما، وكانت تس متعلقة بالشباب، ولا تزال تلهث من نشوة الظفر، وإن كانت نفسها مضطربة لأشياء أخرى، ولاحظت أن ذلك الجواد لم يكن هو الجواد الجموح الذى يركبه أحيانًا، وارتاحت لذلك، وإن كان مركبها قلقًا رغم تشبثها بصاحبها، فرجته أن يكفكف من سرعة الجواد ففعل، وبعد قليل قال: "ما أبرع ما فعلناه!" قالت: "أجل ويجب أن أكون شاكرة لك ذلك "، قال: "وهل أنت شاكرة فعلاً؟"، فلم تجب، قال: "تس! لماذا تكرهين أن أقبلك؟" قالت: "لأنى.. لأنى لا أحبك" قال: "أواثقة أنت؟" قالت: "إنى أحنق عليك أحيانًا!" قال: "آه! هذا ما كنت أخشاه".

على أنه لم يؤلمه هذا الاعتراف، فقد كان أى شىء خيرًا لديه من التزمت، قال: "لم لم تخبرينى حين كنت أحنقك؟" قالت: "أنت تدرى جيدًا لم: لأنى لا أستطيع لنفسى هنا دفعًا"، قال: "هل ضايقتك كثيرًا بمغازلتك؟" قالت: "أحيانًا"، قال: "كم مرة؟" قالت: "أنت تعلم مثلما أعلم، مرارًا أكثر مما يجب"، قال: "فى كل مرة حاولت؟" فلم تجب.

واستطرد الجواد يخب خببًا هينًا حتى انتشر ضباب خفيف منير كانت أهدابه مسفة طول المساء، وهبط حتى لفهما، وبدا كأنه يفت فى كبد ضوء القمر ويجعله أيسر اختراقًا مما يكون فى الجو الصاحى، ولعل هذا، أو لعل شرود ذهنها أو لعل مغالبة النعاس إياها، جعلها تغفل عن مجاوزتهما منذ زمان موضع انسلاخ الطريق الصغير المؤدى إلى ترنتردج، عن الطريق العام، وأن قائدها لم يركب طريق ترنتردج، وكانت متعبة مكدودة، فقد استيقظت فى الخامسة من صباح كل يوم من أيام ذلك الأسبوع، وكانت تعمل على قدم وساق طوال كل يوم، وفى مساء ذلك اليوم كانت قد ذرعت المسافة إلى تشيس، وانتظرت جيرانها ثلاث ساعات دون طعام ولا شراب، إذ كانت ترقب انصرافهم من حين إلى حين، وبعدها سارت ميلاً فى طريق العودة، وأزعجها ذلك الشجار؛ وكانا يتقدمان على مهل حتى بلغت الساعة الواحدة.

ولم يغلبها النعاس إلا مرة واحدة مال فيها رأسها عليه، وعندها أوقف دربرفيل الجواد وسحب رجليه من الركاب، ودار بجسمه في سرجه وأجال ذراعه حول خصرها ليمنعها من السقوط، فانتبهت في الحال كالمدافع عن نفسه، وتملكها ذلك الميل الذى كان يدفعها فجأة إلى الاقتصاص من الغير، فدفعته عن نفسها دفعة خفيفة، فكاد يفقد توازنه فى مجلسه الحرج ويقع على الطريق، وكان الجواد لحسن حظه أهدأ جياده روعًا على شدة بأسه، وعندها صاح: "هذا جحود شنيع، إنما أردت أن أحميك من السقوط ولم أبغك بسوء".

ففكرت برهة فى ارتياب، حتى بدا لها أنه ربما كان صادقًا، فندمت وقالت فى اتداع: "صفحًا يا سيدى" فانفجر صائحًا: "لن أصفح عنك حتى تبدى ثقتك بى، يالله! من أنا حتى تدفعنى بنية مثلك؟ ثلاثة أشهر كاملة عبثت فيها بشعورى وصددت عنى وتجاهلتنى، ولن أصبر على هذا بعد اليوم!" قالت: "سأرحل عنك غدًا يا سيدى"، قال: "لا، لن ترحلى عنى غدًا، إنى أسألك مرة أخرى: أمستعدة أنت أن تبدى ثقتك بى بتركى أطوقك بذراعى؟ اسمعى: نحن الآن فى خلاء لا يسمعنا أحد، وكلانا يعرف صاحبه تمام المعرفة، وأنت تعلمين علم اليقين أنى أحبك وأراك أجمل نساء الأرض، وأنت حقًا كذلك، أفليس لى أن أعاملك معاملة المحب؟".

فتنهدت تنهد ضيق وإباء، وتململت فى مجلسها وأرسلت بصرها بعيدًا، وتمتمت: "لست أدرى... ليتنى... كيف أجيب نعم أو لا، بينما..."، فبت هو فى الأمر بتطويقها كما يحب، ولم تمانعه تس واستطردا حتى تنبهت إلى أنهما قد قطعا شطرًا طويلاً من الزمن، أطول جدًا مما تستغرقه الرحلة القصيرة من تشيس، حتى مع خطرة الحصان الرفيقة تلك، وتنبهت إلى أنهما لم يعودا بعد على الطريق الصلب، بل فى ممشى صغير، فصاحت: "أين نحن؟" قال: "تخترق غابة"، قالت: "غابة؟ أية غابة؟ هل حدنا عن الطريق؟" قال: "هذا جانب من مقاطعة تشيس، وهذه أقدم غابات إنجلترا، والليلة جميلة، فلم لا نطيل رحلتنا قليلاً؟".

قالت تس بين الملاطفة والذعر: "يا لك من خائن!" وتخلصت من ذراعه بفتح أنامله واحدة بعد الأخرى، مستهدفة فى ذلك للسقوط، واستطردت: "أبعد أن وضعت فيك كل هذه الثقة، وجاملتك لأرضيك لما بدا لى أنى أسأت إليك بدفعك عنى! أرجوك أن تدعنى أترجل وأعود إلى الدار". قال: " لن تستطيعى العودة يا سيدتى ولو كان الجو صحوًا؛ فنحن على مدى أميال من ترنتردج إذا كان لا بد أن أخبرك، وفى هذا الضباب المتكاثف ربما طوفت ساعات بين هذه الأشجار بلا طائل"، قالت بلهجة رجاء واسترضاء: "بالرغم من كل هذا أرجوك أن تدعنى أترجل، لست أبالى أين نكون، إنما أرجوك أن تتركنى أترجل، أرجوك يا سيدى!".

قال: "أما إذ لا بد فإنى تاركك على شرط واحد؛ فإنى وقد أتيت بك إلى هذا المكان المنقطع، أعد نفسى مسئولا عن إعادتك سليمة إلى الدار، مهما كان رأيك فى، أما عودتك إلى ترنتردج بلا مساعدة فمستحيلة؛ فإنى والحق يقال لا أعلم أنا نفسى أين انتهينا، وسط هذا الضباب الذى يحجب كل شيء ، فإذا وعدت بالانتظار حتى أجوس خلال الأشجار أبحث عن منزل أو طريق لأستيقن من مكاننا تركتك تترجلين هنا، وحين أعود أخبرك بجلية الأمر، فإن أصررت حينئذ على العودة مشيًا فذاك، وإن شئت ركبت".

وقبلت شرطه وانزلقت إلى الجانب الأدنى، ولكنه اختطف قبلة عجلى وهى تهبط، ثم قفز فى الجانب الآخر، وقالت: "أينبغى أن آخذ بعنان الجواد؟" قال وهو يربت الجواد اللاهث: "لا، لقد قام من العمل بما يكفيه الليلة"، وأدار رأس الجواد فى الأشجار وربطه بغصن، ومهد لها أريكة أو عشا فى ركام الأوراق الجافة وقال: "والآن اجلسى هنا، هذه الأوراق لم تتند بعد، ويكفى أن تراقبى الجواد". ومضى عنها خطوات ولكنه عاد قائلاً: "على فكرة يا تس لأبيك اليوم حصان جديد، قد أعطاه إياه بعض الناس"، قالت: "بعض الناس؟ أنت!" فوافق بهز رأسه، قالت: ما أكرمك!". ولكنها شعرت بحرج موقفها إذ اضطرت إلى شكره فى ذلك الموقف، قال: "وللأطفال لعب كثيرة" فغمغمت وقد اشتد اضطرابها: "لم أكن... أعلم.... أنك ترسل إليهم شيئًا أكاد أود لو لم تفعل، نعم أكاد أود لو لم تفعل" قال: "لم يا عزيزتى؟" قالت: "هذا يحرجنى كثيرًا"، قال "تسى! ألا تحملين لى الآن ولو ذرة قليلة من الحب؟" قالت على مضض: "أنا شاكرة، ولكن...".

وحز فى نفسها إدراكها أن هيامه بها هو الذى أدى إلى تلك النتيجة، فانحدرت من عينها دمعة فأخرى ثم اجهشت بالبكاء، قال: "لا تبكى أيتها العزيزة اجلسى هنا حتى أعود"، فأطاعت وجلست فى الأوراق التى كومها، وأخذتها قشعريرة ضئيلة فقال: "أتشعرين بالبرد؟" قالت: "قليلاً ما"، فلمسها بأصابعه فغاصت أصابعه فيها غوصها فى زغب الطير، قال: "أليس عليك إلا ذلك الثوب الموصلى الرقيق؟ كيف هذا؟" قالت: "هذا خير ثيابى الصيفية، وقد كان يكفينى فى خروجى، ولم أكن أعلم أنى سأركب وأن الليل سيدركنى"، قال: "ليالى سبتمبر باردة، والآن ماذا أستطيع أن أصنع؟".

وخلع معطفًا خفيفًا وضعه حولها فى رفق وقال: "هكذا، الآن ستشعرين بالدفء، فلتستريحى قليلاً وسأعود بلا إبطاء"، وزر المعطف حول كتفيها، وغاب فى أنسجة الأبخرة التى كانت قد نشرت أسدافها بين الأشجار، وكانت تسمع حفيف الأشجار وهو يصعد المنحدر المجاور، ثم تضاءل ذاك الحفيف حتى كأنه وقع خطى طائر يتوثب، ثم تلاشى، وغرب القمر فخفت الضوء الشاحب، واختفى شخص تس وغاب فكرها فى الأفكار والأحلام.

وكان ألك دربرفيل قد صعد المنحدر ليستيقن من موقعه، فقد كان حقًا فى شك؛ إذ كان قد أطلق العنان لجواده على غير هدى زهاء الساعة، ينعطف فى كل طريق يطيل مرافقته لتس، معيرًا شخصها المتألق فى ضوء القمر انتباهًا لم يعره معالم الطريق، ولم يتعجل فى بحثه إذ كان يعلم أن الجواد المرهق فى حاجة إلى الراحة، وهبط الوادى المجاور فوجد نفسه عند سياج طريق عام كان على علم به، وبذلك فرغ من أمر التهدى إلى موضعهما الحالى، فعاد أدراجه، ولكن القمر كان قد توارى تمامًا وغاب المكان فى ظلام حالك، وإن كان الصباح قد بات غير بعيد، فتقدم مادا ذراعيه كيلا يصادم الأغصان، ولاح له أن الاهتداء إلى النقطة التى بدأ منها بات محالاً.

فراح يضرب فى الغابة حتى سمع حركة ضئيلة صادرة من الجواد على كثب، ولمس قدمه كم معطفه فقال: "تس"! فلم يسمع جوابًا، ولم يتبين فى الظلام المعتكر إلا سديمًا أبيض عند قدميه، يمثل الشبح المتدثر بالرداء الموصلى، الذى تركه على الأوراق الجافة، فانحنى فسمع تنفسًا رقيقًا منتظمًا، فجثا وازداد انحناء حتى أحس بحرارة أنفاسها على وجهه، وكانت تنام نومًا عميقًا ولا تزال على أهدابها دموع مترقرقة.

وكان الظلام والسكون يسودان حولهما، وتشمخ فوقهما أشجار السرو والبلوط فى أغصانها صغار الطير تستمتع بأخريات سباتها، وتنسل من حولهما الأرانب البرية متوثبة؛ ولكن قد يتساءل المتسائلون: "أين كان ملاك تس الحارس؟ أين كانت العناية التى كانت تؤمن بها إيمانًا ساذجًا؟" لعلها كانت – كذلك الإله الذى تحدث عنه إيليا ساخرًا – تَسْمَر، أو تطارد أحدًا، أو كانت على سفر، أو كانت نائمة لا ينبغى أن تزعج.

لماذا يقدر لهذ الأديم الأنثوى الجميل الحساس، والذى لم يكد يختلف بعد عن الثلج الغفل، أن يخط عليه ذلك الأثر الغليظ؟ ولماذا يستأثر الغليظ بالرقيق، والرجل الخطأ بالمرأة، والمرأة الخطأ بالرجل؟ هذا ما عجزت فلسفة آلاف السنين عن تبريره لشعورنا الطبيعى بالمنطق والمعقول، ولربما تبين المرء فى هذه الكارثة التى نحن بصددها عقابًا مستحقًا؛ إذ لا شك أن بعض أجداد تس دربرفيل، وهم عائدون فى حلق الحديد من بعض الغزوات، قد جنوا على ريفيات عصرهم هذه الجناية أو أشد منها قسوة، بيد أنه وإن جاز فى عرف الآلهة أن تفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فإن ذلك مما تشمئز منه طبيعة الرجل العادى، ولا عزاء لنا فيه عن هذا الأمر.

لقد كان ذلك قصاء مكتوبًا، كما يقول قوم تس فى تلك الأنحاء كل يوم بلا ملال، وذلك أفدح ما فى المصاب؛ ومن هذا اليوم انفرجت هوة سحيقة بين شخصية بطلتنا فى مستقبل أيامها، وبين نفسها يوم خرجت من باب دار أمها لتجرب حظها فى حظيرة دجاج ترنتردج.

لم تعد عذارى

١٢

كانت السلة ثقيلة والميثرة كبيرة؛ ولكنها استطردت فى طريقها كأنها لا تحفل بعبئها المادى، وكانت تقف بغتة من حين لآخر بجانب بوابة حقل أو عمود لتستريح، ثم تعود فترفع متاعها فى ذراعها المفتول، وتمضى فى طريقها.

كان ذلك صباح يوم أحد فى أواخر أكتوبر، وقد مضت أربعة أشهر على قدوم تس دربيفيلد إلى ترنتردج، ومضت أسابيع قلائل على رحلتها الليلية الراكبة فى منطقة تشيس، ولم يكن قد مضى وقت طويل على بزوغ الفجر، وكان الشعاع الأصفر المنتشر على الأفق وراءها يضيء المرتفع الذى تيممه، والذى كان حاجزًا يدور حول الوادى الذى كانت تعيش فيه أخيرًا عيشة اغتراب. وكان عليها أن تجتاز ذلك الحاجز لتعود إلى مسقط رأسها، وكان الانحدار بطيئًا على الجانب وكانت التربة والمناظر مغايرة لمقابلتها فى وادى بلاكمور، بل كان يختلف أهل الواديين بعض الاختلاف فى أخلاقهم ولهجاتهم، رغم تأثير السكة الحديدية التى تربطهما وتخلط أبناءهما، ومن ثم كان يخيل إلى تس وهى مقيمة فى ترنتردج أنها بعيدة نازحة عن قريتها الأصلية، وإن لم تبعد عنها عشرين ميلاً، وكان مزارعو الجانب الآخر يتجرون شمالاً وغربًا، ويسافرون ويخطبون ويتزوجون فى الشمال والغرب، وإلى الشمال والغرب يتجهون بأفكارهم، اما مزارعو هذا الجانب فكان نشاطهم وانتباههم موجهين إلى الشرق والجنوب.

كان هذا المنحدر هو نفسه الذى هبطه دربرفيل وإياها، هبوطه الجنونى فى ذلك اليوم من يوليه، وصعدت تس ما بقى أمامها من طوله بلا تريث حتى أوفت على قمته، فأرسلت بصرها فى ذلك العالم الأخضر المألوف الممتد وراءه، وكان لا يزال فى غيابة خفيفة من الضباب، وكان دائمًا يبدو جميلاً من هذا اليفاع، وقد بدا لتس اليوم جميلاً مخيفًا معًا؛ فإنها منذ ألقت عليه النظرة الأخيرة تعلمت أن الثعابين تفح حيث تصدح الصيادح، وغير هذا الدرس نظرتها إلى الحياة طرا؛ لقد كانت تلك الفتاة الجامدة فى مكانها هذا مثقلة بالهموم بلا ريب فتاة جديدة غير تلك الساذجة التى كانت تعيش فى بيت أبيها.

ودارت تنظر وراءها وإذا هى ترى عربة ذات عجلتين تصعد الطريق الطويل الأبيض الذى تسلقته منذ وهلة، وبجانب العربة رجل يُليح إليها بيده لتنتظر، فأطاعت بلا تردد ولا تفكير، وبعد دقائق كان الرجل والجواد واقفين بجوارها، وقال دربرفيل مؤنبًا وهو يلهث: "لماذا انسللت هكذا واليوم يوم الأحد وكل الناس فى فرشهم؟ لقد اكتشفت عملك صدفة، فجئت أعدو وراءك كالمجنون، انظرى إلى المهرة! لماذا تذهبين هكذا؟ إنك لتعلمين أن أحدا لن يقف فى سبيلك وما كانت بك حاجة إلى إجهاد نفسك هكذا بالمشى، وإرهاقها بهذا العبء الثقيل! وما جئت إلا لأحملك فى العربة بقية طريقك، إذا أصررت على عدم العودة"، قالت: "أجل أنا مصرة على عدم العودة!" قال: "هذا ما ظننت! هاتى متاعك إذن ودعينى أعنك على بقية الطريق".

فوضعت متاعها فى العربة فى غير مبالاة، وجلست فى العربة وجلس بجوارها ولم تعد تخافه الآن، وكان سبب وثوقها به موضع بليتها، وأوقد دربرفيل سيجارا ولم يتبادلا فى الطريق إلا حديثًا مشتتًا فاترا حول الأشياء العادية التى مرا بها، وكان قد نسى تمامًا محاولته تقبيلها يوم كانا يذرعان نفس الطريق فى الاتجاه المضاد فى أوائل الصيف، أما هى فلم تنس، وجلست بجواره كأنها عروس الأطفال تجيب على ملاحظاته بألفاظ مبتورة، وبعد خمسة أميال أشرفا على الأحراج التى تقوم خلفها مارلت، وعند ذلك ارتسمت على وجهها الجامد آثار من عاطفة، وانحدرت من عينها دمعة أو دمعتان.

قال: "لماذا تبكين؟"، فغمغمت: "إنما تذكرت أنى ولدت هناك"، قال: "وما فى ذلك؟ لا بد لكل إنسان أن يولد فى مكان ما!" قالت: "ليتنى لم أولد، لا هناك ولا فى مكان آخر"، قال: "يا للحماقة! إذا كنت لم تريدى المجىء إلى ترنتردج فلم تجب فاستطرد: "لم تجيئى حبًا فى، هذا يقين" قالت: "أجل، هو اليقين؛ فلو أنى ذهبت لحبك، لو أننى أحببتك مخلصة يومًا ما، ولو كنت أحبك اليوم، لما أوسعت نفسى ذمًا وبغضًا على ضعفى، كما أفعل الآن! لقد عبثت بلبى برهة، هذا كل ما هنالك"، فهز كتفيه واستطردت: "لم أفطن إلى مرادك حتى فات الأوان" قال: "هذا ما تقوله كل امرأة"، فصاحت فى وجهه وقد اتقدت عيناها إذ تنبهت عزيمتها الراكدة التى

سوف يصلى سعيرها فى مقبل الأيام: "كيف تجرؤ على هذا القول؟ لقد هممت أن أقذف بك من هذه العربة! ألم يخطر لك قط أن ما تقوله كل النساء قد تصدق فيه بعض النساء؟".

قال ضاحكًا: "حسنًا، أنا آسف إذا آلمتك، لقد أسأت الصنيع، أنا مقر بذلك"، ثم استطرد فى رنة مريرة: "بيد أنه لا حاجة بك أن تظلى دائمًا أبدًا تجهيننى بذلك، وأن مستعد أنا أبذل آخر درهم فى يدى من أجلك، وإنك لتعلمين جيدًا أنك فى غير حاجة إلى العمل فى الحقول أو معامل الألبان بعد اليوم، وأنك تستطيعين أن تلبسى أبهى ما يلبس، بدل هذه الثياب الجافية التى تصرين على الظهور بها، كأنك لا تستطيعين شراء شريط من غير ما تكسب يداك". فارتفعت شفتها وإن لم يكن الاحتقار من طبيعة نفسها الوادعة وسجيتها المطلقة، وقالت: "قلت لك، وما زلت أقول إنى لن أقبل منك شيئًا، هذا محال، وإلا كنت خليتك وهذا ما آباه".

قال: "يخيل إلى من يرى لهجتك أنك أميرة، فضلاً عن انحدارك من نسل دربرفيل، ها! ها! اسمعى يا عزيزتى تس: ليس لدى ما أقول لك بعد هذا، وأكبر ظنى أنى رجل فاسد لا خير فيه، لقد ولدت فاسدًا، وعشت فاسدًا، وسأموت فاسدًا على ما أرى، ولكنى لن أسيء إليك ثانية يا تس، وإذا ألجأتك ظروف صعبة فى طلب المعونة فاكتبى إلى سطرًا واحدًا يأتك توا ما تطلبين، وربما لم تجدينى فى ترنتردج فإنى شاخص إلى لندن حينًا، إذ لا طاقة لى باحتمال تلك العجوز، ولكن كل الرسائل تحول إلى".

فقالت: "أنا لا أريد أن أمضى فى عربتك أكثر من ذلك؛ فوقفا تحت الحرج، وهبط دربرفيل وحملها بين ذراعيه فأنزلها، ثم أنزل متاعها بجانبها، وانحنت إليه انحناءة بسيطة وهى تحدق فى عينيه قليلاً، ثم همت أن تحمل متاعها وتمضى فقال: "أهكذا تتركيننى وتمضين يا عزيزتى؟ نشدتك!" قالت فى غير مبالاة: "كما تشاء، انظر كيف ملكت قيادى يا سيدى!" والتفتت إليه ورفعت وجهها إلى وجهه، ولبثت كذلك كأنها دمية رخامية حتى طبع على خدها قبلة بين الإهمال كأنما يؤدى واجبًا، وبين الإقبال كأن لهفته القديمة لم تذهب بعد، وكانت عيناها مرسلتين إلى الأشجار البعيدة، كأنها لا تعى ما يصنع.

قال: "والآن على بالجانب الآخر بحق الود القديم" فأدارت وجهها بنفس الاستسلام، كما يدير الإنسان وجهه إجابة لطلب المصور أو الحلاق، وقبل الخد الآخر، ثم قال: "أنت لا تنيلينني فمك ولا تبادلينني تقبيلاً بتقبيل، أنت لا تفعلين ذلك راضية أبدًا، أنت لن تحبيني أبدًا على ما أرى"، قالت: "ذلك ما قلته مرارًا وهو الحق، أنا لم أحببك قط حبًا صادقًا ولا أخالنى أفعل ذلك يومًا" ثم أضافت فى رنة حزينة: "لعل أكذوبة واحدة أفتريها فى هذا الأمر الآن تنفعنى ما لا ينفعنى شيء آخر، ولكن ما بقى فى نفسى من الشرف على قلته يمنعنى أن أفعل، ولو أجبتك لكان أولى لى أن أخبرك، ولارتقبت كل الخير من إخبارك بذلك، ولكنى لا أحبك".

فزفز كأن الموقف قد ثقلت وطأته على قلبه، أو على ضميره. أو على كبريائه، وقال: "أنت تغالين فى التشاؤم يا تس، وليس من سبب يدعونى إلى تمليقك الآن ولكن ثقى أن لا داعى لهذا الحزن كله، إنك لتزرين جمالا بكل امرأة فى هذه الربوع نبيلة كانت أو وضيعة، أقول هذا لك قول رجل عملى يرجو لك الخير، فإذا كنت حكيمة أظهرت هذا الجمال للعالم قبل ذبوله... ومع هذا كله ألا تعودين معى يا تس؟ قسمًا إنى لأكره أن أدعك تذهبين على هذا الوجه!" قالت: "أبدًا! أبدًا! لقد أزمعت أمرى بعد أن رأيت ما كان يجدر بى أن أراه من قبل، لن أعود"، قال: إذن وداعًا يا من كنت ابنة عمى أربعة أشهر".

وعاد إلى مجلسه بخفة وأصلح العنان، وسرعان ما غاب فى الأشجار، ولم ترسل تس بصرها خلفه، بل انعطفت توا فى الطريق الضيقة المتعطفة، وكان الوقت لا يزال مبكرا، ورغم أن الشمس كانت قد ارتفعت عن الجبال، فإن أشعتها الضئيلة الفاترة كانت لا تزال تدرك بالعين دون الحس، وكان الطريق مقفرًا، ولاح لها أن أكتوبر الحزين، وهى نفسها – وهى أشد حزنًا – هما وحدهما اللذان يعبران ذلك الممر.

على أنها ما لبثت أن سمعت خطى رجل وراءها، ولسرعة مشيته لحق بها وحياها قبل أن تشعر بدنوه، وكان يبدو عليه أنه بعض أصحاب الحرف، وكان يحمل فى يده وعاء فيه طلاء أحمر، واستأذنها بلهجة الجد فى أن يحمل عنها السلة

فأذنت له وسارا معًا، وقال في حبور: "هذا وقت مبكر في صبيحة يوم الأحد" قالت: "نعم"، قال: وأكثر الناس يرتاحون الساعة من عملهم الأسبوعي" فوافقت على هذا أيضًا، قال: "أما أنا فعملي اليوم أهم من كل ما أعمل طوال الأسبوع"، قالت: "أحقًا؟" قال: أنا طوال الأسبوع أعمل لإرضاء الإنسان واليوم أعمل لإرضاء الله، أليس هذا أهم من ذاك؟ وعليَّ عمل أؤديه هنا هذا المدخل".

والتفت إلى فرجة في جانب الطريق مفضية إلى المراعي وقال: "أرجوك أن تنتظريني وهلة ولن أبطئ"، وكانت سلتها في يده فلم يسعها إلا الانتظار. ووضع سلتها والوعاء الصفيحي، وأثار الطلاء بفرجونه، وراح يرسم حروفًا كبيرة مربعة على وسطى العوارض الخشبية التي تكون المدخل، واضعًا شولة بعد كل كلمة، كأنما ينبغي للقارئ أن يتمهل حتى تنفذ كل كلمة في فؤاده، حتى فرغ من هذه الآية من الإنجيل: "إن، عقابك، لا يزال، ينتظرك".

وسطعت هذه الكلمات الحمراء وسط المنظر الطبيعي الهادئ، وألوان الأشجار الشاحبة الحائلة، وزرقة الأفق وزرقة عوارض المدخل المتآكلة، وبدت كأنها تنطق بنفسها في صوت عال يدوي به الفضاء؛ وربما سخر بعض الناس من تلك العقائد البالية التي أدت غرض الإنسان في أيامها ثم غبر عهدها، ولكن هذه الكلمات اخترمت نفس تس مدخلة عليها شعورًا فظيعًا بالخطيئة، وخيل إليها أن هذا الرجل واقف على قصة حياتها الحديثة، مع أنه كان غريبًا لا يعرفها بتاتًا، ولما انتهى التقط سلتها وواصلا سيرهما وهي لا تزال مأخوذة.

قالت في صوت مضعضع: "أتؤمن بما تكتب؟"، قال: "بذلك النص؟ إيماني بوجودي!" قالت: "فإن لم تكن خطيئة المرء من صنعه؟"، قال وهو يهز رأسه: "لا أستطيع الإفتاء في هذا الموضوع المشكل، لقد ذرعت مئات الأميال في الصيف الفائت، أرسم هذه النصوص على كل حائط وبوابة ومدخل حقل في طول الإقليم وعرضه، أما تطبيقها فأتركه لقارئيها"، قالت: "أنا أعدها نصوصًا فظيعة، ساحقة، مهلكة!"، قال في صوت رزين: "هذا هو المراد منها! ليتك قرأت أشد نصوصي حرارة، وهي التي أخص بها مساكن السفلة والثغور البحرية! إنك لو قرأتها لتلويت ألمًا! أما هذا فنص ملائم للأقاليم الزراعية؛ ها! ذاك حائط غفل بجانب ذلك البيدر، فلأنقش عليه نصًا يصلح للشواب المغريات مثيلاتك، هل لك في انتظاري؟".

قالت: "لا" وأخذت سلتها وانطلقت، وبعد قليل التفتت فرأت الحائط قد بدأ يعلن حروفًا نارية مشابهة للأولى، غريبة المنظر عليها سيماء الكراهية، كأنما أحزنها أنها تراد على أداء عمل لم تألفه، واحمر وجه تس فجأة حين قرأت ما كتب وأدركت بقية الجملة التى لم يفرغ منها بعد: "ولا تقربوا...".

ورآها صاحبها المرح تنظر، فأوقف فرجونه وصاح: "إذا طلبت المشورة فى هذه المسائل الخطيرة، فإن رجلاً ورعًا عالمًا سيعظ اليوم فى الأبرشية التى أنت شاخصة إليها، واسمه مستر كلير من امنستر، أنا لا أدين بمذهبه الآن، ولكنه رجل صالح يخطب كأبلغ خطيب أعرفه، وهو الذى أثار بنفسى ما بها اليوم"، ولكن تس لم تجب، بل تابعت سيرها وقلبها يدق وعيناها إلى الأرض، ولما غاض احمرار وجهها تمتمت: "هيهات! ما أحسب الله قد قال هذه الأشياء!".

وتصاعد خيط من الدخان من بيت أبيها، فانقبضت نفسها لمرآه، ولما بلغت الدار ورأت ما بداخلها ازدادت غمًا وانقباضًا؛ كانت أمها قد نزلت من الطابق الأعلى منذ هنيهة، وكانت توقد حطبًا تحت الوعاء المحتوى على الفطور، فمشت إلى ابنتها مِحيية، وكان أبوها والصبية لا يزالون فى الطابق العلوى، وكان أبوها يمنح نفسه حق التأخر فى الفراش نصف ساعة صباح الأحد؛ وقالت أمها وهى تقبلها فى دهشة: "يالله! عزيزتى تس! كيف أنت؟ لقد فاجأتنى من حيث لا أشعر! أأنت عائدة إلينا من أجل الزواج؟" قالت: لا، لم أعد من أجل ذلك يا أمى" قالت: "فى عطلة إذن؟" قالت: "نعم فى عطلة طويلة"، قالت: كيف؟ ألا ينوى ابن عمك أن يصنع الصنيع المرجو؟" قالت: "ليس بابن عمى ولن يتزوجنى".

فحدقت فيها أمها وقالت: "تعالى خبرينى بكل ما هنالك"، فسارت إليها تس ووضعت وجهها على عنق أمها وأخبرتها، فقالت أمها: "ولم تحمليه على زواجك بعد هذا؟ لقد كان فى وسع أية امرأة أن تحمله على الزواج بعد هذا!" قالت: "ربما كان ذلك صحيحًا" قالت أمها وكادت تنفجر باكية من فرط الغيظ: "لو استطعت ذلك لعدت إلينا بقصة عجاب؛ من كان يظن أن الأمر ينتهى إلى هذا بعد كل تلك الأحاديث التى كانت تأتينا عنكما؟ هلا فكرت فى عمل شىء نافع لأسرتك بدل

التفكير فى نفسك فقط؟ انظرى كيف أجدنى مضطرة إلى العمل المتواصل كالأمة، وانظرى إلى أبيك المسكين وقد أكل الداء حشاشته؛ لقد كنت وطيدة الأمل فى نتيجة هذا الأمر! ما كان أجملكما يوم انطلقتما فى العربة معًا منذ أربعة شهور! انظرى ماذا أهدى إلينا، وكنا نعزو كل هذه الهدايا إلى صلة الرحم، أما إذ لم نكن أقرباءه فلا بد أن الدافع كان شغفه بك، ومع ذلك لم تحمليه على زواجك!".

أتحمل ألك دربرفيل على زواجها؟ زواجها هى نفسها؟! إنه لم يذكر الزواج مرة واحدة، وهبه فعل! لم تكن تس على يقين أن حرصها على سمعتها يدفعها إلى القبول. أما أمها المسكينة فلم تكن تدرى شعور تس نحوه، ولعل ذلك الشعور كان غريبًا فى مثل تلك الظروف، ولعله كان من سوء الحظ أن تحمل ذلك الشعور، ولكن تلك كانت الحقيقة، وكان ذلك – كما قالت تس من قبل – سبب حنقها على نفسها.

هى لم تحبه يومًا من الأيام حبًا خالصًا، ولم تك تحمل له اليوم حبًا ما، إنما كانت ترهبه وتجفل منه، وقد استغل عجزها وقلة ناصرها أمامه أمهر استغلال، حتى وقعت فى يده، وأعماها برهة ما كان يبدى نحوها من مجاملة وحرارة شعور ثم ارتدت بغتة تحتقره وتعافه، وولت منه فرارًا – هذا كل ما هنالك. ولم تكن تكرهه حق الكراهية، إنما كان أهون عليها من التراب السافى، ولم تكن تحب أن تتزوجه حتى لإنقاذ اسمها.

قالت أمها: "كان ينبغى أن تكونى أحرص ما دمت لم تريدى حمله على اتخاذك حليلة!" قالت الفتاة وقد بلغ منها المض وكاد قلبها يتفطر: "أماه! رحماك يا أماه! كيف ينتظر من مثلى أن تعرف؟ لقد كنت طفلة يوم غادرت هذه الدار منذ أربعة أشهر، فلماذا لم تنبهينى إلى ما فى جنس الذكور من خطر؟ لماذا لم تحذرينى؟ إن بنات الأثرياء ليعرفن موطن الخطر الذى يتقى، لأنهن يقرأن القصص التى تبصرهن بتلك الفخاخ، أما أنا فلم يتح لى مثل ذلك التعليم، ولم تساعدينى أنت".

ففترت صورة أمها وقالت: "كنت أخشى إن نبهتك إلى هيامه بك وما يجر إليه، أن تتهيبيه، وتتحاميه فتضيع عليك فرصتك"، ومسحت عينيها بميدعها وقالت: "على كل حال ليس لنا إلا أن نقبل الأمر على علاته، فما هى إلا سنة الطبيعة وإرادة الله".

١٣

ذاع خبر عودة تس من قصر أقربائها الموهومين – إن لم يكن من الإسراف قولنا: "ذاع" حين نتحدث عن ميل مربع واحد – وزار تس بعد الظهر رهط من فتيات مارلت من صويحباتها وزميلاتها فى الدراسة، يرتدين أفخر ثيابهن مكوية منشاة، كما يخلق بزائرات فتاة قد كللت بالظفر والمكانة الاجتماعية – وكان ذلك ظنهن – وجلسن حولها يرمقنها بنظرات الاستطلاع، فقد كانت شهرة قريبها المزعوم وابن عمها الحادى والثلاثين مستر دربرفيل الذى شغف بها حبًا، قد بدأت تنتشر خارج ترنتردج، وعرف عنه أنه شاب خلاب جرىء محطم لقلوب العذارى، فخلع ذلك على مكانة تس الموهومة روعة وجاذبية، لم تكن لتنالهما لو كانت مكانتها أبعد عن مواطن الخطر.

واشتد اهتمامهن وتعجبهن، حتى همست إحداهن وقد اشتغلت عنهن تس: "ما أملحها وما أملح ذلك الثوب على جسدها! لابد أنه هدية منه تكلفت ثمنًا غاليًا"، وكانت تس تحضر آنية الشاى من دولاب فى ركن الغرفة، فلم تسمع ما قيل. ولو سمعته لبددت وهم صواحبها، أما أمها فسمعت، وكان غرورها الأحمق قد حُرِمَ التعلل بأمل زواج عاجل، فراحت تتعلل ما استطاعت بما شاع من أمر الغرام، فسرها ما سمعت، رغم أن ذلك النصر المحدود الوشيك الذهاب قد دفع ثمنه غاليًا من مكانة ابنتها الاجتماعية، وكان لا يزال يساور المرأة أمل زواج الشاب بابنتها، ودعتها حرارة اغتباطها بإعجابهن إلى دعوتهن للبقاء حتى يتناولن الشاى.

وأنعشت ثرثرتهن وضحكاتهن وتلميحاتهن الحسنة المقاصد، ولا سيما لمحات الحسد التى تراءت بينهن، روح تس أيضًا، وتصرم المساء، وقد سرت إليها عدوى حبورهن، وزايل محياها وجوم التماثيل الذى كان يرين عليه، وبدأت تروح وتغدو فى خطواتها المرحة المستوفزة القديمة، وبدت فى أبدع فتنتها، وكان يذهب بها أحيانًا فتجيب أسئلتهن بلهجة الترفع، كأنها تشعر أن تجاربها فى عالم الغزل جديرة بالحسد، ولكنها لم تكن قط كما يقول روبرت ساوث "متيمة بدمارها"

فسرعان ما كان يزايلها ذلك الوهم كلمح البرق، ويعاودها المنطق المتحجر ساخرًا من ضعفها القصير المدى وتتجسم أمامها بشاعة ذلك الغرور المؤقت، فترتد إلى مظهر السكون وعدم المبالاة.

وتلا ذلك فى فجر اليوم التالى قنوط مطبق، حين مضى يوم الأحد الذى ترتدى فيه أحسن الثياب، وأعقبه يوم الإثنين، وقد غابت الزائرات الطروبات، وأفاقت وحدها فى فراشها القديم، ولا يزال إخوتها الصغار البرآء يتنفسون حولها فى سكون، ورأت أمام ناظريها مكان الحبور والبهجة والاهتمام الذى أثارته عودتها، طريقًا طويلاً وعر المرتقى عليها أن تتوقل فيه بلا معين، ولا عاطف مؤاس، ففدحها الخطب وودت لو تدفن نفسها حية.

ومرت أسابيع، واستردت تس نشاطها حتى صارت تظهر للناس صبيحة كل أحد، حين ينبغى الذهاب إلى الكنيسة، وكانت تحب الإصغاء إلى النشيد الكنسى على علاته وإلى المزامير، وتحب المشاركة فى "ترتيلة الصباح"، وكانت قد ورثت ذلك الحب الدفين للموسيقى عن أمها التى كانت لا تمل ترديد الأغانى الشعبية، وكان ذلك الحب يمكن لأبسط الألحان من نفسها حتى ليكاد يخلع قلبها من صدرها أحيانًا؛ وكانت لأسباب تتجنب عيون الناس ما استطاعت وتتحاشى مجاملات الشبان، ولهذا كانت تخرج قبل ابتداء قرع النواقيس، وتتخذ مجلسها فى المؤخرة تحت الشرفات بجانب الآلات والمهملات ونعش الكنيسة، حيث لم يكن يجلس إلا الكهول والعجائز.

وكان أبناء الأبرشية يدخلون بعد ذلك مثنى وثلاث، ويجلسون فى صفوف ويسجدون وهلة كأنهم يصلون وما هم بمصلين، ثم يرفعون رءوسهم ويجولون بأبصارهم. فلما بدأ الإنشاد سرها أن تسمع لحن لنجدون، أحب الألحان إليها وإن لم تعرف اسمه، وكانت تود كل الود لو عرفته، وكانت تعجب فى نفسها من براعة الملحن الإلهية الغريبة، إذ يستطيع من قبره أن يثير فى فتاة مثلها عواطف شعر بها هو أول مرة، وهى التى لم تسمع باسمه، ولن تهتدى يومًا إلى شخصيته؛ وبدأت الصلات، وعاد الرجال الذين كانوا يدورون بأبصارهم فنظروا إلى الأمام، وبعد حين لحظها بعضهم فجعلوا يتهامسون، وعرفت موضوع تهامسهم، واشتدت لذلك غمها، وودت لو تستطيع الانقطاع عن الكنيسة.

وصارت تلزم مخدعها الذى تشارك فيه بعض إخوتها، ومن تحت سقفه الصغير المصنوع من الكلأ، كانت ترسل بصرها تراقب الرياح والثلوج والأمطار وغروب الشمس فى لألائها وتتابع البدور، وبلغ من اعتكافها أن ظن بعض الناس أنها ارتحلت؛ وكانت لا تنهض للرياضة إلا بعد هبوط الظلام. وفى الغابات كانت تشعر أقل ما تشعر بالوحدة، وكانت تميز أدق التمييز تلك اللحظة فى المساء، التى فيها يتعادل الضوء والظلام، ويتداخل النهار والليل، ويتركان العقل فى طلاقة تامة وفى تلك اللحظة تتصاعل أمامها مأساة الحياة إلى أضأل ما ترى، ولم تكن تس ترهب الظلام، وإنما كان همها منصرفا إلى تجنب الأنام، ذلك المجموع البغيض المسمى بالبشر، الذى يبدو هائلاً فى كله، حقيرًا مستحقًا للرثاء إذا نظرت إلى كل وحدة من وحداته.

وكانت خطوتها الهادئة بين تلك النجود والوهاد الموحشة، مماثلة للعناصر التى تتحرك فيها، وأصبح شخصها الدالف المتعطف جزءا من المنظر المحيط متممًا له؛ وكان خيالها الجموح يبالغ فى تصور مظاهر الطبيعة المتجلية حولها، حتى تلوح كأنها أجزاء من قصة حياتها، بل أصبحت فعلاً أجزاء من حياتها، فإنما الحياة ظاهرة سيكلوجية، وما دامت تلك الأشياء تلوح كذلك فهى كذلك، فكانت تس تتمثل فى خفقات الرياح فى منتصف الليل وهى تتناوح بين لحاء أغصان الشتاء وبراعمها المحكمة الأكمام، ظواهر تقريع مرير، وكان اليوم المطير دليل حزن على ضعفها، دائم مقيم فى نفس كائن سام لم يكن يخيل إليها أنه هو إله طفولتها، ولم تكن تدرى من هو.

ولكن شد ما خدع تس وهمها وعذبها، حين خلق حولها هذا العالم المؤلف من أطمار التقاليد، المأهول بالأشباح والأصوات المعادية لها، وشخوص الفضيلة الساخطة عليها، وروعت نفسها بكل ذلك بغير داع؛ فلقد كانت تلك الأخيلة – لا تس نفسها – هى المناقضة لسنة الطبيعة، وكانت وهى تسير بين العصافير النائمة فى وكناتها، أو ترقب الأرانب المستبقة حول أجحارها فى ليلة قمراء، أو تقف تحت غصن محمل بالأطيار، تعد نفسها شخص الجريمة يتطفل فى مغانى الطهارة، ولكنها بذلك كانت تقيم الفروق حيث لا فروق، وتعد نفسها شاذة وهى جزء من القاعدة؛ لقد أرغمت على خرق قانون اجتماعى، لا قانون معترف به فى ذلك الوسط الذى تعد نفسها بدعة فيه.

١٤

أشرقت شمس أغسطس وسط الضباب، وهجمت أشعتها الحارة على أبخرة الليل الكثيفة، فتضاءلت وتقسمت مزقًا كقطع الفرو لائذة بأطراف الوديان والأحراج، تنتظر حتى تجف وتتلاشى، وقد بدت الشمس من خلال ذلك الضباب كأنها روح عجيب نافذ النظرة، فكان مظهرها ذاك مضافًا إلى إقفار المكان من بنى الإنسان، يوحى بالسر فى عبادة الأقدمين لها، حتى ليكاد المرء يعتقد أن البشر لم يدينوا بدين أصح من عبادتها؛ فقد كان ذلك الكوكب الساطع يلوح كأنه مخلوق سمح الوجه ذهبى الشعر رقيق النظرة إلهى الطلعة، يطل فى فتوة الشباب وعزيمته على أرض تفيض حبًا له وتطلعًا إليه.

وبعد قليل نفذ ضياء الشمس من ثقوب مصاريع المساكن، وامتد فى خطوط كأنها الأسياخ المتوهجة بالحرارة على الدواليب والصوانات وغيرها من الأثاث، ونبه الحاصدين الذين لم يستيقظوا بعد، وبدت الأشياء حمراء لامعة فى ذلك الصباح، وكان أشدها لمعانًا ذراعان خشبيتان عريضتان مطليتان، ترتفعان من جانب حقل قمح أصفر على كثب من قرية مارلت؛ وكانت هاتان الذراعان، وأخريان دونهما، تؤلف جميعها الصليب المفرطح الدوار فى آلة حصاد، قد استحضرت إلى الحقل البارحة استعدادًا لعمل اليوم، وقد زاد شعاع الشمس طلاء الذراعين الظاهرتين اتقادًا حتى لاحتا كأنهما غمستا فى نار سائلة.

وكان الحقل قد "افتتح"؛ أى شق باليد حول محيطه طريق عرضه بضعة أقدام وسط القمح، لتمر فيه الخيول والعربة أول مرة، وظهر فى الممشى جمعان أحدهما مؤلف من الرجال والغلمان، والآخر من النساء، وقد سقطت ظلال الوشيع الشرقى على منتصف الوشيع الغربى، فكانت رءوس الجمعين تتمتع بشروق الشمس. وأقدامهم لا تزال فى الفجر، ثم غادروا الممشى ماركين بين العمودين الحجريين القائمين عن جانبى أقرب بوابة، وسرعان ما تصاعدت من الداخل طقطقة كطقطقة الجنادب فى موسم لقاحها، وبدأت الآلة تتحرك، وظهرت من فوق

البوابة ثلاثة خيول مقرونة بعضها إلى بعض، وتلك الآلة العتيقة سالفة الذكر، وقد جلس سائق فوق الخيول المجتهدة فى الجر، وجلس شخص آخر فى مقعد الآلة، وتقدم الموكب على جانبى الحقل وذراعا الآلة تدوران فى بطء. حتى غابت وراء التل، وبعد قليل تعالت على الجانب الآخر من الحقل بنفس السرعة، وكان أول ما لاح منها النجم النحاسى اللامع فى جبين الحصان المتقدم، ثم الذراعان اللامعتان، ثم بقية الآلة.

وكلما دارت الآلة اتسع الممشى وغطى بالعيدان المجذوذة، وتضاءلت مساحة سيقان القمح القائمة بمرور الوقت، وتقهقرت الأرانب والثعابين والفيران والجرذان إلى الداخل كأنما تأوى إلى حصن، غير دارية بقصر مدة ملجئها وبالنهاية التى تنتظرها بعد قليل، وتضاءل مأواها حتى ضاق بها، وتكدست فيه بين أعداء وأصدقاء، حتى سقطت آخر عيدان القمح تحت أسنان الآلة الماضية، وعندها أنحى الحصاد على تلك المخلوقات بالعصى والأحجار حتى أفنوها عن آخرها.

تركت الآلة الحاصدة المحصول وراءها فى أكوام صغيرة، كل كومة منها تصلح لأن تكون حزمة، وعليها أكب الحاصدون بأيديهم، وكان معظمهم من النساء، وكان الرجال يرتدون قمصانًا وسراويلات تجمعها حول أوساطهم أحزمة من الجلد، فلم تبق للزرين الخلفيين من كل السراويل فائدة إلا أن يلتمعا فى ضوء الشمس كلما تحرك لابس السراويل، كأنهما عينان فى وسط ظهره، أما بنات الجنس الآخر فكن أهم شأنًا، وأمتع منظرًا، شأن المرأة حين تندمج فى مظاهر الطبيعة بدل أن تظهر بينها مجرد ظهور، كما هى الحال غالبًا، فالرجل فى الحقل يبدو شخصية قائمة فيه أما المرأة فتبدو جزءًا منه، قد فقدت استقلال شخصيتها وتشربت روح المنظر المحيط بها، ومزجت نفسها به.

وكان النساء – أو بالأحرى الفتيات، فقد كان معظمهن صغارا – يرتدين قلنسوات من القطن ذوات أهداب فضفاضة تحجب الشمس؛ وقفازات تحمى أيديهن من شفرات السيقان المجذوذة، وكانت إحداهن تلبس سترة ذات لون قرنفلى شاحب، وأخرى ترتدى جلبابًا ضيق الأكمام لبنى اللون، وثالثة ترتدى قميصًا فى احمرار

أذرع الآلة الحاصدة، وكانت أخريات أسن من أولئك يرتدين الثوب السابغ الخشن الرمادى التقليدى، الذى هو أصلح الأثواب للعمل فى الحقل، وإن كانت الفتيات الناشئات قد أخذن يهجرنه.

وفى هذا الصباح كانت العين ترتد عفوًا إلى الفتاة ذات السترة القرنفلية الشاحبة، إذ كانت أعدل الجميع قدا، وألينهن مهزا؛ ولكنها كانت قد شدت قلنسوتها على جبينها حتى لم يعد يرى شىء من وجهها حين تنحنى، وإن كان من الممكن التنبؤ بلون وجهها بالنظر إلى خصلات من شعرها الأسود الرمادى ممتدة من تحت حافة قلنسوتها، ولعل من أسباب طموح العين إليها أنها لا تحاول اجتذابها، وإن تلفتت الأخريات حولهن من حين إلى آخر.

وظلت تنحنى وتقوم فى حركة رتيبة كسير الساعة، تستخرج من آخر كومة هيئت ملء يمناها من السنابل، وتضرب قممها براحتها لتسوى رءوسها، ثم تنحنى مليا، وتتقدم ضامة العيدان بكلتا يديها إلى ركبتيها، وتدفع يسراها ذات القفاز تحت الحزمة لتقابل اليمنى على الجانب الآخر، معانقة القمح معانقة المحب، وتجمع أطراف الحزمة وتجلس عليها وهى تربطها، وتدفع أذيالها إلى أسفل كلما عبث بها النسيم،وكان جزء من ذراعها يبدو عاريًا بين جلد القفاز الخشن وبين كمها ناعمًا رقيقًا وكلما تقدم النهار ارتسمت عليه الخدوش وبض منه الدم؛ وكانت تعتدل قائمة من حين إلى آخر لتستريح وتصلح من ميدعها وقلنسوتها، وعندها يرى الناظر وجه فتاة مليحة بيضاويًا ذا عينين سوداوين تحف به خصلات من الشعر الأسود سبطة تعلق بكل شىء تقع عليه، وكان خداها أشد شحوبًا، وشفتاها الحمراوان أرق وأسنانها أكثر تناسقًا مما يشاهد فى بنات الريف.

تلك كانت تس دربيفيلد أو دربرفيل، قد تغيرت قليلاً، تعيش فى هذه المرحلة من حياتها كالغريبة فى هذه الأرض، وإن لم تكن فى أرض الغربة، فقد عولت بعد اعتزال طويل على أن تشارك فى العمل فى حقول قريتها، وكان قد حل أحفل المواسم بالعمل، ولم يكن فى الدار عمل تعمله هو أعود بالربح من الحصاد فى الحقول.

وكانت حركات الأخريات مقاربة لحركات تس، فكن إذا فرغت كل واحدة من حزمتها تقاربن تقارب الراقصات فى رقصة جمعية، ووضعت كل حزمتها مسندة إلى حزم الأخريات، حتى يتكون من كل عشر حزمات أو اثنتى عشرة كوم، وذهبن فأفطرن ثم عدن، ولما اقتربت الساعة الحادية عشرة كان من اليسير على من يراقب تس من أمم أن يرى أنها ترفع مقلتها فى حزن من آن إلى آخر نحو قمة التل، وإن لم تتوقف عن عملها، ولما حلت تلك الساعة بدا على الحقل المغطى بالحصيد رهط من الصبيان المتراوحين سناً بين السادسة والرابعة عشرة، وعندها احمر وجهها قليلا ومع ذلك تابعت عملها.

وكانت كبرى الجمع المقبل بنتًا ترتدى شالاً مثلثًا يتجرجر طرفه على العيدان، وكانت تحمل فى ذراعيها شيئًا بدا أولاً كأنه عروس لها، ثم تبين أخيرًا أنه رضيع فى أثواب فضفاضة، وكان صبى منهم يحمل طعامًا؛ وكف الحاصدون عن العمل ومالوا إلى طعامهم وجلسوا بجانب أحد الأكوام، وانكبوا على الأكل وانهمك الرجال فى استفراغ دن وأجالوا القدح فيما بينهم، وكانت تس دربيفيلد من أواخر من أمسكوا عن العمل، وجلست عند طرف الكوم مشيحة بوجهها قليلا عن رفاقها، ولما جلست حمل القدح رجل ذو قبعة مصنوعة من جلد أرنب ومنديل أحمر معلق بحزامه، ومده من فوق الكوم إلى تس لتشرب فأبت، وحالما بسط غذاؤها أمامها دعت كبرى أخواتها وحملت عنها الطفل، ففرحت البنت بخلاصها من عبئها وانطلقت تلعب مع بقية الصغار عند كوم آخر، وفكت تس جيب جلبابها بسرعة عجيبة ولكن فى جأش رابط، وبدأت ترضع الطفل وقد احمر وجهها.

وتأدب الرجال القريبون منها فأداروا وجوههم إلى الجانب الآخر، وبدأ بعضهم يدخن، وراح أحدهم وهو غائب الذهن ساهم النظرة يربت الدن الذى غاض معينه، وانهمك النساء جميعًا ما عدا تس فى الحديث، ورحن يصلحن من غدائرهن؛ ولما امتلأ الطفل أجلسته أمه الشابة فى حجرها، وشخصت ببصرها إلى بعد وجعلت تدهدهه فى فتور كاد أن يكون بغضًا، ثم أكبت عليه فجأة توسعه تقبيلاً كأنما لا تستطيع إقلاعًا، وبكى الطفل من هجمتها التى كانت تجمع جمعًا عجيبًا بين الحب والاحتقار، وقالت ذات القميص الأحمر؛ "إنها لمشغوفة بذلك الطفل وإن زعمت أنها تمقته، وأنها تود لو كانت وإياه فى بطن قبر".

قالت أخرى: "ستكف عن ذلك الزعم عما قليل، فإن المرء ليوطن نفسه على مثل ذلك الأمر على كر الأيام، حتى تألفه ألفة عجيبة" قالت صاحبتها: "لقد كان سبب مجيء هذا الطفل إلى الوجود شيئًا آخر غير الإغراء: فقد سمع بعض السابلة في إحدى ليالي السنة الماضية نحيبًا في غاية تشيس، ولو عرج منهم معرج إلى ذلك الموضع لحل ببعض الناس نكال شديد"، وقالت الأخرى: "سيان إن كان الإغراء أو غيره هو السبب، فمن المؤلم المفجع أن أصابها ذلك دون غيرها، ولكن مثل هذا الخطب لا يصيب عادة سوى المليحة، أما الدميمات فهن في حرز حريز، أليس ذلك حقًا يا (جنى)؟" والتفتت إلى امرأة بين الجالسات لم تظلم إذ نسبتها إلى الدمامة.

كان الخطب مؤلمًا مفجعًا حقًا، ولم يكن أحد يشعر بغير ذلك – حتى العدو – حين ينظر إلى تس في جلستها تلك، وإلى فمها المتفتح كالزهرة وعينيها الواسعتين الوادعتين، اللتين لا هما سوداوان ولا هما رماديتان ولا بنفسجيتان، بل تجمعان هاتيك الظلال جميعًا وغير هاتيك، ترى جميعًا إذا حدق المرء في مقلتيها، إذ يرى ضوءًا خلف ضوء وظلا وراء ظل، حول إنسانين لا قرار لهما؛ لقد كانت مثال المرأة الكاملة لولا شبهة من غفلة موروثة عن أسلافها.

وكانت – لدهشتها هي نفسها – قد أجمعت رأيها وخرجت إلى الحقل هذا الأسبوع لأول مرة منذ شهور، وكان ضوء الرشد قد أشرق على نفسها بعد أن عذبت قلبها وحرقته بنيران الندم الذي تتفنن العزلة في إصلاء أبنائها سعيره، وأحست أنها تحسن صنعًا إذا هي عاودت العمل المثمر، لتشعر مرة أخرى بلذة الاعتماد على النفس أيا كان ثمنها، وأحست أن الماضي قد ذهب بهناته ولم يعد حاضرًا، وسيختم الزمان على نتائجه أية كانت، وستمحى عما قليل تلك النتائج وتعود كأن لم تكن، ويحين حصادها هي نفسها ثم تنسى، على حين لا تزال الأشجار خضراء كالعهد بها، والمشاهد المحيطة بها لم تخب بهجتها لحزنها، ولا ذوت نضرتها لآلامها.

ولو درت لعلمت من بادئ الأمر أن فكرة احتفال العالم بحالتها الراهنة، وهى الفكرة التى أذاقتها الهوان والمضض، لم تكن إلا وهمًا، فإنه لم يكن هناك سواها من يعدها وجودًا أو يراها عبرة أو يعتبرها كلا من العواطف والأحاسيس، وما كانت تس فى بال جميع الناس إلا خطرة عابرة، حتى صواحبها لم تكن هى فى أخلادهن إلا فكرة تتردد، فإذا هى جرعت نفسها الغصص صباح مساء لم يزيدوا على قولهم: إنها لترهق نفسها"، وإذا أبدت بشاشة وتناست الآلام وتملت محاسن الضوء والأزهار وسعدت بوليدها، لم تكن إلا هذه الخطرة فى أذهانهم: "إنها لتضطلع بخطبها".

ثم لو أنها كانت تعيش فى جزيرة جدباء أتراها كانت تأسى لما نابها؟ هيهات! أو لو أنها فطرت على تلك الصورة أمًا بلا زواج، كل خبرتها بالحياة أنها والدة طفل غير مسمى، أكانت تقنط لحالتها تلك؟ كلا! إنها كانت تسلم بها فى هدوء، وترى فيها منادح للسرور؛ لقد كان أكثر آلامها راجعًا إلى نظرتها التقليدية، لا إلى شعورها الفطرى؛ على أنه أيا كان منطق تس، فقد أوحى إليها أن تحتفى بملبسها كسالف عهدها وتدلف إلى الحقول، وكانت الحاجة شديدة إذ ذاك إلى الأيدى الحاصدة، وكان ذلك الوحى الذى أوحى إليها هو سر رباطة جأشها وكبريائها ومقابلتها نظرات الناس أحيانًا فى سكون والطفل بين ذراعيها.

نهض الرجال وتمطوا وأطفأوا بيباتهم، وكانت الخيول قد خلعت عنها شكائمها فأعيد شدها إلى الآلة القرمزية، وكانت تس قد ازدردت طعامعها على عجل وأشارت إلى أختها فاستردت منها الرضيع، وزرت جلبابها ولبست قفازها الجلدى، ثم انحنت تجر حزمة جديدة؛ واستمر العمل على ذلك المنوال إلى المساء، وظلت تس مع الآخرين إلى الغسق، ثم ركب الجميع عربة كبيرة عائدين، يصحبهم القمر منداح الصفحة شاحب الوجه، وكان قد صعد من الأرض إلى الجانب الشرقى، فكان وجهه يحكى الهالة الذهبية المحيطة بصورة قديمة العهد بالية من صور قديسى تسكانية.

وأنشأت الفتيات ينشدن الأناشيد، ويبدين عطفهن على تس واغتباطهن لمعاودتها الظهور، وإن كان الخبث يغلبهن أحيانًا فيغنين أغنية العذراء التى ذهبت إلى الغابة الخضراء الجميلة وعادت على حال متغيرة؛ وفى الحـــياة من المحاسن ما يقابل المساوئ، ومن العزاء ما يهون المصاب، فإن تكن حادثة تس قد صيرتها مثلة اجتماعية فإنها جعلتها فى عيون الكثيرات أحب شخصيات القرية وزادتها ملاطفاتهن انصرافًا عن التفكير فى نفسها، وسرت إليها عدوى مرحهن فكادت أن تماثلهن مرحًا.

بيد أنها وقد بدأت تبرأ من أحزانها ما لبثت أن ابتليت بأحزان جديدة، منشؤها فى هذه المرة طبيعتها المفطورة لا تقيدها بعرف اجتماعى، فإنها علمت ساعة وصولها إلى الدار أن وليدها قد انتابه مرض شديد داهم منذ الظهيرة؛ ولم يكن مثل هذا الأمر مستبعدًا، لما كان عليه الوليد من وهن وضآلة، على أن النبأ صدمها، ونسيت الأم الفتاة الإثم الاجتماعى الذى اقترفه الطفل بمجيئه إلى هذه الدنيا، وأصبح هم فؤادها أن تستبقى ذلك الإثم باستبقاء حياة الطفل، ولكن سرعان ما بدا أن ساعة خلاص ذلك الروح رهين اللحم أقرب مما صورت لها أبشع مخاوفها، ولما أدركت ذلك غشيتها لجة من الغم، لم يكن كل مرجعها إلى مجرد فقد ابنها، بل وإلى علمها بأنه لم يعمد.

كانت تس قد هوت إلى تلك الحالة النفسية التى تستقبل فيها الإحراق مستسلمة إذا لزم إحراقها جزاء ما جنت يداها، وكانت كسائر فتيات القرية جيدة البصر بالإنجيل، قد وعت قصص "أحولاح" و"أحوليباح" ووعت مغزاها، ولكن الأمر اتخذ شكلاً آخر حين أصبح يتعلق بابنها العزيز وأدركت أنه سيموت بلا أمل فى النعيم، وكان موعد النوم قد حان، ولكنها اندفعت نازلة وسألت أمن الممكن إحضار قسيس، ولكن أباها كان قد عاد فى تلك اللحظة من معاقرته الأسبوعية فى حان روليفر، وكان شعوره بنبل محتده على أشده، وإحساسه بالعار الذى ألحقته تس بذلك المحتد على أتمه؛ فأعلن أنه لن يدخل فى بيته قسيسًا يتدخل فى شئونه فى ذلك الوقت الذى يجب فيه كتمان تلك الشئون غاية الكتمان بسبب فضيحتها، وأقفل الباب وجعل مفتاحه فى جيبه.

وأوى الجميع إلى مضاجعهم، وحاولت تس أن تصنع صنيعهم وهى على أشد المضض، ولكنها كانت تنتبه من ساعة لأخرى، وعند منتصف الليل وجدت الطفل ما زال فى حالة سيئة، وكان لا شك فى سياق الموت، وإن سار إليه فى سكون بلا تألم، فتململت فى ضجعتها؛ ودقت الساعة الواحدة، تلك الساعة التى يخرج فيها الوهم عن كل حدود العقل، وتتراءى الاحتمالات المنغصة كأنها الحقائق المتحجرة، وتصورت تس ابنها محصورًا فى أقصى أطراف جهنم الشمالية جزاء جريمته المزدوجة: عدم شرعية مولده وعدم تعميده، وتصورت كبير الزبانية يطعنه بعود ذى ثلاث شعب، كذلك الذى كانوا يستعملونه فى إحماء الفرن يوم يخبزون، وراحت تضيف إلى تلك الصورة تفاصيل أخرى عديدة عجيبة من التعذيب يلقنها الصغار أحيانًا

فى هذه البلاد المسيحية، وبلغ من فعل هذه الخيالات البشعة فى نفسها، والسكون مخيم على الدار، أن بلل عرقها مجسدها واهتزت أعمدة الفراش من ضربات قلبها.

واشتد تنفس الطفل صعوبة، وازداد عناء الأم تبريحًا، ولم يعد إيساعها إياه تقبيلاً يجديها، ولم تعد تطيق البقاء فى الفراش فراحت تذرع الغرفة فى هياج، وصاحت : "رحماك يا رحمن! رحماك بطفلى المسكين ! صب على رأسى ما شئت من غضبك ولكن رحمة بالوليد!"، واستندت إلى الصوان برهة طويلة تغمغم بتوسلات مبهمة، ثم اعتدلت قائمة وهى تقول: "آه! لعل من المستطاع إنقاذ الوليد! لعل الأجدر أن أفعل!"، وكانت تتكلم بغبطة يكاد منها وجهها يضيء الظلام المحيط بها.

وأضاءت شمعة ومشت إلى فراش ثان وثالث، حيث كان الصغار يرقدون وجذبت منضدة الزينة حتى صارت تستطيع القيام بينها وبين الحائط، وصبت قليلاً من الماء من إبريق وأشارت إليهم أن يركعوا حولها ويجمعوا أيديهم بعضها إلى بعض وأصابعهم رأسية، وظلوا فى هيئتهم تلك، وهم مرتاعون لحالها ولم يكادوا يفيقون من سباتهم بعد، وعيونهم تزداد تفتحًا واتساعًا، وأخرجت الطفل من السرير

– طفل الطفلة!– وكان من الضآلة والنحافة بحيث لا يكاد ينبغى أن تسمى منجبته أمًا، ووقفت معتدلة، وهو على ذراعها بجانب الطست، وحملت أختها بجانبها الكتاب المقدس مفتوحًا أمامها كما يحمله الكاتب فى الكنيسة أمام القس، وشرعت الفتاة تعمد ابنها.

وبدت قامتها رائعة بطولها تملأ العين، وهى ماثلة فى جلباب نومها الطويل الأبيض، وقد استرسلت على ظهرها إلى خصرها ضفيرة سوداء أثيثة، وقد رفق ضوء الشمعة الضئيل بجسمها وملامحها، فلم يظهر عيوبها التى كان ضوء الشمس يظهرها، من خدوش عيدان القمح على معصميها وفتور عينيها، وقد بدا أثر حماستها لما هى فيه على وجهها الذى كان سبب بلواها، فزاده جمالاً وكساه عظمة كعظمة الملكات، وكان الصغار راكعين حولها وعيونهم مرنقة بالكرى حمراء مختلجة الجفون، يرقبون أعمالها بدهشة ساكنة، يمنعها تفتر أوصالهم أن ترتد دهشة صاخبة متحركة.

قالت أشد الصبية دهشة: "أحقًا ستعمدينه يا تس؟" فأجابت الأم الفتاة فى وقار أن نعم، قالت: "وما يكون اسمه؟" ولم تكن تس قد فكرت فى ذلك، ولكن خطر لها، وهى ماضية فى مراسيم العماد، اسم وارد فى بعض عبارات سفر التكوين، فنطقت به قائلة: "أعمدك يا ندم باسم الأب والابن وروح القدس" ورشت الماء وساد السكون، ثم قالت: "قولوا آمين"، فأطاعت الأصوات الصغيرة، وانطلقت معًا تقول: "آمين!" واستطردت تس: "... نحن نستقبل هذا الطفل..." إلى أن قالت: "ونسمه بعلامة الصليب"، وعند ذلك غمست يدها فى الطست ورسمت فى حماسة صليبًا كبيرًا على الطفل بسبابتها، ومضت تتلو العبارات المألوفة، من كفاحه الإثم والدنيا والشيطان وصيرورته مجاهدًا أمينًا وخادمًا إلى منتهى حياته، حتى بلغت أنشودة الرب، والصبية يرددونها خلفها بأصوات ضئيلة رتيبة كأصوات البعوض، حتى بلغوا الخاتمة فرفعوا أصواتهم محاكين صوت كاتب الكنيسة قائلين: "آمين!" ثم لاذوا بالصمت.

ثم انطلقت أختهم وهى وطيدة الثقة بصحة هذه الشعائر تتلو آيات الحمد التى تعقبها، ساكبة إياها من صميم فؤادها، متفوهة بها فى جرأة ونشوة ظفر، بتلك النغمة المشجية التى كانت ترين على صوتها حين تتكلم من جماع روحها، والتى لن ينساها من عرفوها، وقد كادت لحرارة إيمانها ترتد إلهة، وتوهج وجهها نورًا وعلت كلا خديها نقطة حمراء، وبرق ضوء الشمعة الضئيل فى حدقتيها كالماس، وجعل الصبية يتطلعون إليها وهم يزدادون لها تبجيلاً، ولم تعد بهم رغبة فى مساءلتها فى شىء، ولم يعودوا يرون فيها سسى المعهودة، بل كائنا هائلا رائعًا ساميًا، وشخصية إلهية لا يماثلونها هم فى شىء.

وقدر لحملة "ندم" المسكين أن تكون قصيرة المدى قليلة الحظ من المجد؛ ولعل ذلك كان من حسن حظه وقد بدأ الحياة على نحو ما بدأ، فلفظ ذلك الجندى الضعيف نفسه الأخير عند بزوغ الفجر، ولما هب الصبية الباقون أجهشوا بالبكاء وضرعوا إلى تس أن تتخذ ولدًا آخر جميلاً؛ ولازم تس هدوؤها الذى نزل عليها منذ تعميدها الطفل، ولما أشرق عليها النهار رأت أن خوفها على روحه أثناء الليل كان مبالغًا فيه، وسواء أصابت التعليل أم أخطأت فإنها لم تعد تأسى على شىء، محدثة نفسها بأنه إذا لم تقبل منها محاولتها لتقريب الطفل إلى العناية السماوية، فإنها لن تندم على فقدها – هى وابنها – جنة يذادان عنها لمثل ذلك الفرق البسيط.

وهكذا مضى "ندم" غير المرغوب فيه، المخلوق المتطفل والهبة الحقيرة التى سخت بها الطبيعة الفاجرة التى لا ترعى العرف الاجتماعى، والطريد الذى لم يعرف من الزمن السرمد إلا أيامًا معدودات ولم يسمع بوجود الأعوام والقرون، وكان داخل الدار له هو الكون، وتقلبات الأسبوع الجوية هى المناخ، وعهد الرضاع هو الوجود الإنسانى، وغريزة امتصاص الثدى هى المعرفة البشرية كلها.

وأطالت تس التفكير فى أمر ذلك التعميد، وساءلت نفسها: أكاف هو لدفن الطفل فى مدافن المؤمنين، ولم يكن ليفتيها فى ذلك إلا القس، وكان حديث القدوم إلى القرية فهو لا يعرفها، فذهبت إلى داره ذات مساء، ووقفت ببابه لا تجرؤ على الدخول، وكادت تقلع عما انتوت لولا صادفته آيبًا إلى منزله، ولم تر بأسًا فى

الصراحة تحت لثام الظلام، فقالت: "لى إليك سؤال يا سيدى"، فأعارها سمعه ،فقصت عليه خبر مرض الطفل وقيامها بتعميده، وأضافت فى لهفة: "والآن يا سيدى خبرنى: أيقوم هذا مقام تعميدك إياه؟" ووجد الرجل نفسه فى موقف الصانع الذى يرى عملاءه قد أدوا لأنفسهم فى غير مهارة عملاً كان ينبغى أن يستدعى هو للقيام به، فمال إلى الإجابة سلبًا، بيد أن سيماء النبل المرتسمة على وجه الفتاة والنبرة الرقيقة الغريبة المتجلية فى صوتها، تضافرتا على إثارة عواطفه الشريفة، أو بالأحرى ما بقى له من تلك العواطف بعد محاولته مدى عشر سنين أن يغرس الإيمان المصطنع فوق الشك الحقيقى.

واعترك الرجل والحبر فى نفسه حتى انتصر الأول، قال: " نعم يا بنيتى، يقوم مقامه، ليس هناك فرق"، قالت فى لهفة: إذن تدفنه كما يدفن المسيحيون؟" فشعر القس بحرج موقفه، وكان لما سمع بمرض الطفل قد ذهب بوازع من نفسه إلى الدار بعد هبوط الظلام يبغى القيام بالمراسيم، فرفضت خدماته، ولما كان لا يعلم أن الرفض إنما جاء من أبى تس لا منها، فإنه لم يستطع الآن قبول الاعتذار بالحاجة الحازبة، الذى اعتذرت به عن تعميد الطفل على ذلك النحو.

قال: "هذه مسألة أخرى"، قالت متلهفة: مسألة أخرى؟ لماذا؟" قال: "لم أكن أتردد فى دفنه كما تبغين لو أن الأمر متوقف عليك وعلىَّ وحدنا ولكن أسبابًا تحول دون ذلك"، قالت: "افعلها مرة واحدة يا سيدى!" قال: "أؤكد لك أنى لا أستطيع"، قالت وهى تشد على يده: "سيدى!" "فجذب يده هازًا رأسه، فصاحت متفجرة: "إذن أنا لا أحبك ولن آتى إلى كنيستك أبدًا"، قال: لا تتهورى هكذا"، قالت: "لعل رفضك لن يضيره؟ أيضير ذلك شيئًا؟ ناشدتك الله ألا تخاطبنى خطاب القديس للآثمة بل خطابك أنت لى أنا – يا لى من شقية!". وليس فى طوق الإنسان العادى أن يقول كيف وفق القسيس بين جوابه وبين الآراء الصارمة التى يجب عليه أن يتظاهر بالتمسك بها فى مثل هذه الأمور، وإن كان فى الطوق عذره، فقد بلغ من تأثره أن أجاب فى هذه المرة بمثل جوابه فى المرة السابقة: "لن يضيره شيئًا، ليس هناك فرق".

ومن ثم حمل الطفل تلك الليلة إلى مدفن الكنيسة فى صندوق صغير مغطى بشال خلق، وأعطى الحفار شلناً وقدح جعة، ودفن الطفل على ضوء فانوس فى ذلك الركن الأغبر الذى أعده الله وأنمى فيه الأشواك وجعله مثابة للأطفال غير المعمدين ولمدمنى الخمر والمنتحرين، وغيرهم ممن يعدهم العرف ملعونين.

على أن تس رغم قبح ذلك الموضع الذى يرقد فيه ابنها، قد صنعت صليبًا من الخشب وغشته بالأزهار، وتسللت إلى المدفن خفية ذات مساء ورشقته عند رأس القبر، وجعلت عند القدم باقة من نفس الأزهار فى وعاء فيه ماء لتبقى الأزهار نضيرة، وهل كان بأس فى أن يرى العابر منقوشاً على الوعاء كلمتى "مربى كيلول"؟ أما عين الأم المتطلعة إلى ما هو أسمى فلم تكن ترى تينك الكلمتين.

١٥

يقول رودجر أستشم: بالتجربة نصل إلى طريق قصيرة بعد رحلة طويلة ولكن تلك الرحلة كثيرًا ما تردنا عاجزين عن متابعة المسير، وماذا تكون فائدة التجربة عند ذلك؟ لقد كانت رحلة تس دربيفيلد من هذا الضرب المعجز الموبق، فقد عرفت فى النهاية ما يجب عمله، ولكن من ذا الذى يقبل منها اليوم عملاً؟

ولو أنها قبل ذهابها إلى بيت دربرفيل ألهمت الحزم فى اتباع حكم وأمثال مأثورة تعرفها هى ويعرفها غيرها من الناس، لما خدعت قط عن نفسها، ولكن لم يكن فى مقدور تس – ولا هو فى مقدور إنسان – إدراك كل ما فى المواعظ الذهبية من عمق، وما زال فى الإمكان الاستفادة منها، ولقد كان يحق لها – ولكثيرات غيرها – أن تضم صوتها إلى صوت القديس أوغسطين حين قال يخاطب ربه:

"لقد أشرت علينا باتباع طريق خير مما سمحت لنا باتباعه".

قضت تس شهور الشتاء فى دار أبيها، تتعهد الدجاج والديكة الرومية والإوز، أو تصنع لإخوانها وأخواتها ملابس من فاخر الأبراد التى كان دربرفيل أعطاها فنحتها جانبًا فى ازدراء، ولم ترض لنفسها أن تسأله عونًا؛ ولكنها كانت كثيرًا ما تتوقف عن عملها وتشبك يديها خلف رأسها وتستسلم للأفكار، وراحت تنظر نظرة فلسفية إلى التواريخ وهى تتعاقب على مدار السنة، من ليلة مصابها الأكبر فى ترنتردج فى غابة تشيس الظلماء، إلى ميلاد الطفل وموته، إلى ميلادها هى نفسها، إلى غير هاتيك من أيام معدودة لديها لحادث اقترنت به.

وإنها لتنظر إلى مثالها البديع فى المرآة عصر أحد الأيام، إذ تذكرت يومًا هو أهم لديها من جميع أولئك: يوم وفاتها الذى فيه تغيض كل هاتيك المحاسن، ذلك اليوم المراوغ المتوارى بين ثنايا العام، لا ينبهها بنأمة أو إيماءة كلما عبرته فى أطواء كل حول يحول، فأين هو؟ وما بالها لا تأخذها قشعريرة كلما قابلت ذلك

اليوم القار القاسى؟ وخطر لها قول جرمى تيلر إن معارفها سيقولون يومًا: "هذا هو اليوم الذى ماتت فيه تس"، ولا يرون فى ذلك عجبًا، لم تكن تدرى وذلك يوم انطوائها الأبدى أين موضعه من الشهر والأسبوع والفصل والعام.

هكذا تحولت تس طفرة من طفلة ساذجة إلى امرأة محنكة، وأصبحت أمارات التفكير تلوح على وجهها، ورنة الحزن تبين فى صوتها أحيانًا، وازدادت عيناها سعة وتعبيرًا، وما كان أجدر أن تدعى إذ ذاك امرأة ناضجة؛ فقد أضحى مظهرها معجبًا رائعًا، وراحها روح امرأة قصرت عن إفسادها وضعضعتها تجارب العام أو العامين المنصرمين، ولقد كانت تلك التجـــارب دروسًا حـــافلة. وإن كانت نظرة الناس إليها غير ذاك.

وكانت قد احتجزت منذ حين حتى كاد أمرها ينسى، ولم يكن قد ذاع من قبل كل الذيوع، ولكنها تبينت استحالة المقام فى بلد شهد إخفاق محاولة قومها التعلق بأسرة دربرفيل الغنية، ولم تعد تستسيغ المقام به حتى تمر أعوام طوال تعفى على شديد شعورها بذاك؛ بيد أن تس كانت لا تزال بعد هاتيك الكوارث تحس ثورة الحياة فى نفسها، ورأت أنها ربما رزقت السعادة فى ركن من الأرض غير مقرون بالذكريات، وعولت على أن تمحو الماضى بكل ما فيه، بالرحلة عن مسقط رأسها.

تقول الحكمة السائرة: "ما فُقد مرة فقد أبدأ"، فهل يصدق هذا على العذرة؟ بذلك كانت تس تتساءل، وكانت تحدث نفسها أنها تستطيع أن تكذب تلك الكلمة السائرة بإسدال الحجاب على الماضى، وتقول فى نفسها إن العذرة لن تستثنى عن قاعدة التجدد السائدة بين الأحياء والنبات العضوى؛ وظلت تس زمنًا تتحين الفرصة لبدء حياتها بدءًا جديدًا، حتى أتى الربيع أجمل منه سابق الأعوام، وكانت حركة التفتح تسمع فى البراعم، فحرك نفس تس كما حرك سائر الوحش، وجعلها تتوق إلى الرحيل.

وأخيرًا أتاها كتاب من صديقة لأمها قديمة، صبيحة يوم من أيام مايو، وكانت تس قد كاتبتها مستخبرة منذ زمان، وكان فحوى الكتاب أن صاحب مصنع ألبان على بعد أميال فى الجنوب محتاج إلى حالبة ماهرة أثناء أشهر الصيف ولم

يكن المكان بعيدًا البعد الذى كانت تس توده، ولكنها رأت أن بعده كاف إذ كان محيط حياتها وسمعتها صغيرًا، فالأميال فى نظر أولئك الذين يحيون حياة ضيقة تعادل درجات الطول والعرض الجغرافية، والأبرشيات تضاهى المقاطعات والمقاطعات تلوح كالأيالات والممالك.

وكانت تس موطنة النفس على ألا تكون فى حياتها المستقبلة أحلام وقصور هوائية تبتنى على نسب دربرفيل، وعلى أن تكون تس الحالية لا غير، وكانت أمها تعلم عزيمتها تلك علم اليقين وإن لم تتفاتحا فى الأمر، ومن ثم لم تعد أمها لذكر الأحساب والأعراق، ومع ذلك فقد سر تس - وكذلك تناقض الإنسان - أن المكان الجديد على مقربة من مقاطعة من مقاطعة أسلافها، فإن أسلافها الشرفاء لم يكونوا من أهل بلاكمور كما كانت أمها.

كانت مزرعة "تلبوثيز" تقوم على كثب من إحدى الضياع التى كان يملكها آل دربرفيل قديمًا، على مقربة من مدافن أجداد تس الفخام وجداتها، فكان فى مقدور تس أن تنظر إلى تلك المدافن وتذكر أن آل دربرفيل قد سقطوا كما سقطت بابل من قبل، وتذكر بجانب ذلك أن عفة إحدى سليلاتها قد ذهبت ذهابهم فلم يجزع لها أحد.

وكانت تناجى نفسها أينتج من مقامها على كثب من أرض آبائها خير غير منظور؟ وسرت فى روحها نشوة كما يتمشى عصير الحياة فى الأغصان، تلك كانت نشوة الشباب لم تخب، تنتبه بعد خمولها المؤقت، وتنبه معها الأمل، وتنبه تلك الغريزة التى لا تخمد: غريزة التمتع بالحياة.

التلاقـــى

١٦

رحلت تس عن وطنها للمرة الثانية فى صبيحة أحد أيام مايو، التى تعبق بروائح الصعتر وتحفل بإفراخ الأطيار، بعد عامين أو ثلاثة من عودتها من ترنتردج، وكانت تلك فترة استجمام وتناهض صامتين، وكانت قد حزمت متاعها ليرسل إليها فيما بعد، واكترت عربة صغيرة تحملها إلى ستوركسل، وكان لا بد لها من المرور بتلك البلدة فى رحلتها، وكانت وجهة هذه الرحلة مضادة تمامًا لوجهة الرحلة الأولى، ولما ارتقت بها العربة أول تل أرجعت البصر كاسفًا حسيرًا إلى مارلت ودار أبيها، رغم أنها كانت من قبل تتلهف إلى الرحيل.

ورجح لديها أن أهلها المقيمين هناك سيتابعون حياتهم اليومية كدأبهم، لا ينقص ذهابها وحرمانهم بسمتها من سرورهم ورضاهم فتيلا، وأن الأطفال سيعاودون ألعابهم فى حبور غير محسين بخلو مكانها، وكانت قد أيقنت أن فى مفارقتها لهم كل الخير لهم؛ فلو أنها ظلت معهم لرجح أن تضيرهم بقدوتها أكثر مما تنفعهم بتعاليمها.

واخترقت ستوركسل بلا تريث وتابعت طريقها إلى موضع تتلاقى عنده الطرق وهناك انتظرت مرور عربة بضائع تجرى صوب الجنوب الغربى، لأن سكة الحديد التى كانت تطوق ذلك الإقليم لم تكن قد نفذت إلى داخله بعد، بيد أنها ما لبثت أن بصرت بفلاح يستقل عربة صغيرة يدنو منها ويعرض عليها استصحابها فى عربته، وكان شاخصًا إلى نحو الجهة التى تقصدها، ورغم أنه كان غريبًا فإنها قبلت ما عرض، متجاهلة أنه إنما فعل ذلك زلفى إلى جمال محياها، وكان يقصد "وذربرى"، فإذا صحبته إليها أمكنها بعد ذلك أن تسير بقية المسافة، فيغنيها ذلك عن السفر فى العربة العامة عن طريق كستربردج.

ولم تلبث تس فى "وذربرى" إلا ريثما أصابت قليلاً من الطعام فى كوخ دلها الفلاح عليه، ثم اتخذت سمتها على قدميها وسلتها فى يدها صوب المرتفعات المكسوة بالحشائش الخشنة، والتى تفصل هذا الإقليم عن المروج فى الوادى المجاور التى يقوم فيها مصنع الألبان؛ ولم تكن تس قد زارت هذه الأصقاع من قبل، ومع ذلك فقد كانت تحس أن بينها وبين تلك المناظر صلة، وتبينت على مدى غير بعيد عن يسارها بقعة سوداء وقع فى ظنها أنها الأشجار المحيطة بكنجزبير، ولما سألت عن ذلك تأكد ظنها؛ وفى كنيسة تلك الأبرشية كانت ترقد عظام آبائها، آبائها الذين لا يغنون عنها شيئًا، وكانت قد فقدت كل اعتدادها بهم، بل كادت تكرههم لما ساقوها إليه من بلاء. ولم يكن فى يدها من كل تلادهم سوى الملعقة والخاتم العتيقين، وقالت فى نفسها: "تبا للغرور! إنى لأدين لأمى من نفسى بمثل ما أدين به لأبى، أدين لها بمحاسنى، ولم تكن أمى هذه إلا هذه إلا عاملة ألبان".

وبلغت "إجدن" فألفت السفر فيها أشق مما كانت تتوقع؛ فقد كانت ملآى بالارتفاع والانخفاض، وإن لم تزد مساحتها على بضعة أميال، وضلت طريقها مرارًا حتى لقد مرت ساعتان قبل أن تقوم على قمة تشرف على الوادى الذى طال نشدانها إياه، وادى مصانع الألبان الكبرى، الذى فيه يغزر اللبن والزبد، حتى يفوقا كل ما يعرف فى وطنها كمية، وإن لم يفوقاه حسن إنتاج وتجهيز، وكان يروى ذلك الوادى الأخضر نهر (فار) أو (فروم).

وكان ذلك الوادى يختلف اختلافا جوهريًا عن وادى مصانع الألبان الصغرى – وادى بلاكمور – الذى كان هو المنطقة الوحيدة التى عرفتها تس إلى اليوم، اللهم إلا ما شهدته فى رحلتها المشئومة إلى ترنتردج؛ كان العالم أرحب رقعة هاهنا فكانت حظائر البهائم تنبسط على خمسين فدانًا لا عشرة، وكانت المزارع أوسع أطرافًا، وقطعان الماشية أوفر عددًا، وقد رأت تس منها حين أرسلت بصرها من حالق آلافًا مؤلفة، لم تر مثلها من قبل مجتمعة فى صعيد واحد، وكان السهل الأخضر يعج بها كما تعج إحدى صور فان السلوت أو ساليرت بالقرويين، وكانت الألوان الناصعة على جلود البقر الحمراء والرمادية تعكس أشعة الغروب، بينما كانت الحيوانات البيضاء تعكسها وهاجة إلى موقف تس النائى الرفيع.

ولعل ذلك المنظر العام الذى كانت تستجلّيه لم يكن يبارى موطنها جمالاً ورواء غير أنه كان أبهج للنفس، فلم تكن له زرقة سماء منافسه الوادى الآخر ولا تربتّه الغنية ولا روائحه، ولكن هواءه كان صافيًا سجسجا منعشًا، حتى النهر الذى كان يسقى بقر تلك المصانع المشهورة وأعشابها، كان يخالف جداول بلاكمور: فقد كانت هذه تناسب فى مهل وسكون وتعلوها الكدرة أحيانًا، وكان قاعها طينيًا ربما انماث من دونك إذا حاولت اجتيازه فى غير حذر، وابتلعك على حين غرة، أما نهر فروم فكان صافى الأمواه صفاء نهر الحياة الذى رآه القديس يوحنا فى بعض رُؤاه سريعًا كفىء الغمامة، ضحضاحًا فى مواضع يخر بها حصاه مثرثرا تحت السماء سراة يومه، وكانت الأزهار المطرزة لجانبيه مخالفة لتلك التى تنمو فى غدران بلاكمور.

نشطت روح تس نشاطًا كبيرًا، إما لرقة هذا الهواء الجديد، وإما لشعورها بوجودها فى بقعة جديدة بعيدة عن عيون الرقباء، وامتزجت آمالها بشعاع الشمس امتزاجًا جميلاً فى ذلك الجو الرخيم الذى أحاط بها، وطفقت تعدو مستقبلة ريح الجنوب الرخاء، وكانت تسمع فى كل نسمة لحنًا مطربًا، وفى شقشقة كل طائر حبورًا يتراءى وكان وجهها منذ حين قد أضحى يتغير باختلاف الأحوال النفسية عليها؛ يبدو تارة مليحًا وأخرى عاديًا، بتراوح الأفكار السارة والمحزنة، فكانت تبدو يومًا متوردة كاملة الفتنة، ويومًا شاحبة كاسفة، كانت تتورد حين يهدأ شعورها وتشحب حين يعتلى، فكانت ملاحتها توأم سكون نفسها، وكانت تلك الملاحة تفيض إذا اشتدت برحاؤها، وكانت الآن تقابل ريح الجنوب بوجه ناضر وردى.

لقد تغلب على تس أخيرًا ذلك الميل الباطنى القاهر، الذى يتمشى فى جميع طبقات الحياة، من أدنأ الأحياء إلى أرقاها، ويدفعها إلى ارتياد المتعة حيث تكون، فقد كان من المحال – وهى لا تزال فتاة فى العشرين لم يكتمل بعد نموها الجسمانى والعقلى – أن تترك فيها أية حادثة أثرًا لا يتحول؛ وهكذا تزايد حبورها واشتد اغتباطها وتعاظمت آمالها، وراحت تترنم ببعض الأغانى الشعبية، ثم لم تجد فيها غناءها، حتى تذكرت كتاب المزامير الذى طالما عبرته عيناها قبل أن تجنى

ثمار التجارب، فأقبلت تنشد: "أيها القمران.. أيتها النجوم.. أيتها الأغراس الخضراء على الأرض.. أيتها الطيور فى الهواء.. أيتها السوائم.. أيها الأطفال والرجال.. إن الله يبارككم فاحمدوه وسبحوا له ما حييتم!"، ثم انقطعت فجأة وغمغمت: "ولكن يخيل إلى أنى لم أعرف الله بعد".

ولعلها إذ أنشدت تلك الأنشودة بغير وعى، إنما كانت تطلق العنان لخيالها، وتعبر عن حبها للطبيعة فى أغنية دينية تشيد بالوحدانية، فإن النساء اللواتى يخالطن مظاهر الطبيعة ويصاحبن قواها يحتفظن من خيالات أجدادهن وأوهامهم فى عصور الوثنية، بأثر أكبر مما يعين من الدين المنظم الذى لقنه قومها بعد ذلك بقرون، وأيا كان الأمر فإن تس وجدت بعض الراحة فى التعبير عن شعورها، بإنشادها تلك التسبيحة التى كانت تلثغ بها فى طفولتها.

لم يكن هذا التوجه إلى حياة مستقلة جديدة إلا عملاً يسيرًا عاديًا، بيد أن تس اغتبطت له كثيرًا، وكان ذلك من خلائق أسرة دربيفيلد، نعم كانت تس تخالف أباها فى حبها للاستقامة والجد، ولكنها كانت تشابهه فى القنوع بالقليل العاجل، والعزوف عن المجهود المتواصل بغية نيل المكانة الاجتماعية المحدودة، التى يقتضى بلوغها مجهودًا شديدًا من أسرة كأسرتها فى مثل ظروفها التاعسة.

لقد كان يتدفع فى عروق تس نشاط أسرة أمها التى لم تتدهور تدهور أسرة أبيها، ونشاطها الطبيعى فى سنها تلك، وفضلاً عن هذا وذاك فإن النساء عادة يخضن غمرات مثل ذلك الخطب المهين الذى امتحنت به ثم يستعدن عزائمهن ويجلن فى العالم من جديد نظرة المتطلع المتشوق، وليست تغيب الحكمة القائلة بأن لا يأس مع الحياة عن أذهان من خدعن من النساء، كما يريدنا بعض الفلاسفة المتحذلقين على تصديقه.

ومن ثم انحدرت تس دربيفيلد من مرتفعات إجدن إلى مصنع الألبان محط رحلتها، وهى ممتلئة عزمًا وإقبالاً على الحياة، وعند ذلك بدا لها الفرق الأخير بين الواديين المتنافسين: فقد كان سر وادى بلاكمور يكشف أحسن ما يكشف من المرتفعات المحيطة به، أما الوادى الذى كانت تراه الساعة حيالها فلم يكن يفهمه

حق الفهم إلا من يتوسطه، فلما توسطته رأت نفسها على بساط سوى يمتد شرقًا وغربًا إلى أبعد مدى النظر، ورأت النهر قد هبط إلى الوادى حاملاً فتات تلك المرتفعات، وراح يتمعج وقد نال منه الجهد والكهولة والضمور، وسط أسلابه التى أتى بها.

ولم تكن تس واثقة من وجهتها، فوقفت على ذلك السهل الأخضر المترامى المحاط بالمرتفعات، وكأنها فى صغر جرمها وضآلة شأنها ذبابة على مائدة للبليرد لا حد لها ولم يكن لقيامها على ذلك السهل الوادع من أثر إلا أن استرعت انتباه نحامة هبطت إلى الأرض غير بعيد، واشرأبت بعنقها تنظر إليها، وتعالت من جوانب السهل بغتة صحية مرجعة متطاولة: "واوو، واوو، واوو"، وانتشرت الصيحات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب انتشار العدوى، وكان يصحبها أحيانًا نباح كلب، ولم يكن ذلك إعلانًا من الوادى لشعوره بوصول تس الحسناء، بل كان الإعلان العادى لحلول وقت الحلب، وهو منتصف الخامسة، حين ينطلق العمال فى طلب الأبقار.

وكان على مقربة من تس قطيع من الأبقار بين حمراء وبيضاء، كلها تنتظر تلك الصيحة فى بلادة، فتقدمت إلى عرائشها فى الضيعة وحقائبها المفعمة باللبن تهتز من تحتها، فتبعتها تس ودخلت الضيعة من البوابة المفتوحة التى دخل منها البقر، وكانت بالحظيرة عرائش مغطاة بالكلأ تدور حولها، وكان ينمو على تلك السقوف طحلب أخضر ساطع، وترفعها قوائم خشبية قد بدت ناعمة ملساء، لطول ما احتكت بها جنوب الأبقار والعجول، التى تصرمت على وفاتها الدهور وغشاها النسيان، وبين تلك القوائم اصطفت الحلوبات، وقد بدت كل منها من الخلف للنظرة العابرة كأنها دائرة قائمة على عودين، يتدلى من مركزها خيط يتحرك يمنة ويسرة كالبندول؛ وانحدرت الشمس من وراء ذلك الصف من الأبقار الصبورات، وألقت ظلالها محكمة فوق الحائط، كانت الشمس تلقى ظلال تلك المخلوقات المتواضعة المغمورة كل أصيل، مبدية فى تصويرها من الدقة والعناية ما تبديه حين تلقى ظل صفحة غادة مخدرة على جدار قصر، وما كانت تبديه فى سالف الأزمان فى إلقاء ظلال الأبطال الأولمبيين على الواجهات الرخامية، أو ظلال الإسكندر وقيصر والفراعنة.

ولم يوثق من الأبقار إلا الصعبة المراس، أما السهلة القيادة فكانت تحلب فى وسط الفناء، وكان هناك منهن إذ ذاك جم غفير، وكلهن حلوبات فارهات لا ترى نظائرهن خارج ذلك الوادى، ولا ترى الكثيرات من مثيلاتهن داخلة، قد شبعن من الأعشاب المغذية التى ترويها المياه فى ذلك الفصل الفذ من فصول السنة؛ وكانت المنقطات منهن بالبياض يعكسن ضوء الشمس ساطعًا كاسفًا للأبصار، كما كانت تلتمع كرات الرصاص المجلوة على قرونهن فى هيئة عسكرية، وكانت ضروعهن الضخمة العروق تتدلى ثقيلة كحقائب الرمل، وأطباؤهن ناهدة كأنها أرجل جرة من جرار الغجر، وكان اللبن يشخب ويتقاطر على الأرض، وهن ينتظرن مجيء دورهن.

١٧

نزلت زرافات العمال والعاملات من مساكنهم وخرجوا من مصنع الألبان لدى عودة الأبقار من المروج، وكانت العاملات يلبس أحذية خشبية تحت نعالهن للمحافظة على النعال من أوضار الحظيرة، وإن لم يكن اليوم مطيرًا، وجلست كل فتاة على مقعدها الثلاثى الأرجل، واعتمدت على جنب البقرة بصفحة وجهها، وراحت تتأمل تس وهى مقبلة؛ أما العمال فكانو يرتدون قلنسوات قد جذبوا حافتها إلى أدنى، واعتمدوا على الأبقار بجباههم ونظرهم شاخص إلى الأرض فى أثناء العمل، فلم يلحظوا تس؛ وكان أحدهم كهلا مربوع الخلق يرتدى معطفًا أحسن وأنظف من شملات الآخرين، وسترته من دون ذلك تنم عن متاجر ذى شأن، ذلك هو رب المصنع الذى تبحث عنه تس، وكان ظهوره بمظهر مزدوج فى أثناء ستة أيام العمل: مظهر العامل الحالب، ومظهر صانع الزبد، ثم ظهوره يوم الأحد فى مقصورة أسرته فى الكنيسة فى أحسن بزة، كان ذلك موضع عجب القرويين حتى ألفوا فيه أغنية: "هو طول الأسبوع عامل الألبان (ديك)، أما يوم الأحد فهو مستر كريك".

رأى مستر كريك تس واقفة تنظر فمشى إليها، ومعظم عمال الألبان يكونون فى صورة غضب ساعة الحلب، ولكن مستر كريك كان مغتبطًا بحصوله على عاملة جديدة، لأن العمل كان متكاثرًا، ومن ثم قابلها بترحاب وسألها عن صحة أمها، وجميع الأسرة، ولم يكن ذلك إلا مجاملة، إذ لم يكن يعلم بوجود مسز دربيفيلد حتى أتاه كتاب مختصر تعرض عليه فيه خدمات تس؛ قال بلهجة حازمة: "لقد كنت فى طفولتى أعرف وطنك جيد المعرفة، وإن لم أزره منذ ذلك العهد، وقد أخبرتنى عجوز فى التسعين كانت تقيم على مقربة منا هنا، ولكنها قد ماتت منذ زمن طويل، أن أسرة يشابه اسمها اسمكم فى وادى بلاكمور قد هاجرت من هذه البقاع أول الأمر، وأنها كانت أسرة عريقة أوشكت أن تبيد، وإن لم يعلم أمرها أبناء الأجيال الحديثة، على أن الحق أنى لم أعر هذيان تلك العجوز التفاتًا"، قالت: "أصبت، مثل هذا الأمر غير جدير بالالتفات".

ثم انصرف الحديث إلى العمل، قال: "أتجيدين حلب أبقارى واستفراغ ضروعها، فإنى لا أحب أن تتضب ضروعها فى هذا الفصل من العام؟". فطمأنته من تلك الوجهة. وصعد فيها النظر وصوبه، وكانت قد قضت فى الدار عهدًا طويلاً حتى ارتد لون بشرتها رقيقًا، فعاد يقول: "أواثقة أنت أنك تستطيعين العمل هنا؟ إن العمال الأشداء لا يجدون هنا مشقة، ولكننا لا نعرف العيش الناعم"، فطمأنته مرة أخرى واستراح إلى ما أبدت من رغبة وإقبال، ثم قال: "والآن لا بد أنك فى حاجة إلى شىء من الغذاء، إلى قليل من الشاى أو نحو ذلك، ألست بحاجة إلى ذلك بعد؟ أنت وما تريدين، أما أنا فلو كنت سرت مسيرك اليوم لكنت الآن فى الرمق الأخير".

قالت تس: "سأشرع فى الحلب توا لأروض يدى"، وكرعت قليلا من اللبن استجمامًا، فنظر إليها كريك نظرة دهشة تشوبها شائبة ازدراء، كأنه لم يكن يتصور أن اللبن صالح للشرب، وقال وهو يحمل الوعاء الذى تكرع منه: "مادمت تستطيعين أن تعبى من هذا فأنت وشأنك، أما أنا فلم أذقه منذ سنين" وأشار إلى أقرب بقرة قائلاً: "لك أن تجربى يدك على هذه، إنها صعبة المراس، فلدينا كما لدى غيرنا صعاب المراس ولينات المقاد، وستكشفين ذلك بنفسك عما قريب".

استبدلت تس بقبعتها طرطورًا وجلست على مقعدها من دون البقرة، وشخب اللبن من بين قبضتيها متقطرًا فى الإناء، وعندها شعرت أنها وضعت أس مستقبلها وامتلأت ثقة وسكن روعها وأجالت بصرها فيما حولها، فرأت فيلقًا من الحالبين والحالبات، أولئك يتعهدون الحرون من البقر، وهؤلاء يباشرون السهل المنصاع وكانت الضيعة كبيرة تحوى مائة حلوبة تحت إشراف كريك، وكان هذا يحلب منهن ستا بنفسه أو ثمانى هن أصعب القطيع احتلابًا، لم يكن يعهد بهن إلى الحالبين غير الدائمين الذين يعملون عنده إلى أجل، مخافة ألا يستفرغوا كل ألبانهن إهمالاً، أو إلى الحالبات مخافة أن يقصرن عن ذلك لضعف قبضاتهن فتنضب ضروع البقر، فهو لم يأسى على القليل من اللبن الذى يترك فى ضروع البقر فى تلك الحال، بل كان يمنعه من ترك البقرات الست أو الثمانى لعناية عماله، علمه أن عدم استنزاف ألبانها فى كل حلبة يؤدى إلى تناقص كمياتها، ثم إلى نضوب معينها.

وبعد جلوس تس على مقعدها ساد الصمت، لا يقطعه إلا خرير الألبان فى الأوانى، وإلا جمل متقطعة تطالب فيها الأبقار بالدوران أو تؤمر بالسكون، ولم تكن هناك حركة إلا صعود أيدى الحالبين وهبوطها، وتلوى ذيول البقر، وهكذا انهمك الجميع فى العمل، تحيط بهم المروج الخضراء الرحيبة الممتدة إلى جوانب التلال، قائمة حيث كانت تقوم منذ أجيال مناظر طبيعية أخرى مخالفة كل المخالفة لما هى عليه اليوم.

قال صاحب الضيعة وهو ينهض فجأة عن بقرة فرغ من شأنها، مختطفًا مقعده فى يد وإناءه فى الأخرى، وماشيًا إلى بقرة أخرى صعبة الاحتلاب: "يخيل إلى أن البقر لا يسخو اليوم بلبنه كعادته، وإذ اطرد انحطاط إنتاج (ونكر) على هذا النحو، فسيصير من العبث الجلوس إليها بتاتا فى أواسط الصيف"، قال جوناتن كيل: "هذا راجع إلى وجود يد جديدة بيننا، وقد رأيت كثيرًا من هذه الشواهد من قبل"، قال الرئيس: "أصبت لعل الأمر كما تقول، وقد غاب عنى ذلك"، وقالت إحدى الحالبات: "لقد سمعت أن اللبن يصعد إلى قرون البقر فى هذا الأوان"، قال كريك فى ارتياب كأنه لم يصدق أن السحر يمكن أن يتغلغل فى بنية البقر: "أما هذا فلا علم لى به، أنا لا إخال ذلك صحيحًا لأن العديمات القرون يشححن بألبانهن أحيانًا كذوات القرون؛ هل تعرف ذلك اللغز المتعلق بذوات القرون يا جوناتن؟ لماذا تجود عديمات القرون بكمية من اللبن أقل مما تجود به ذوات القرون؟"، فاعترضت الحالبة تقول: "أنا لا أعرف، لماذا؟" قال الرئيس: لأنهن أقل عددًا"، ثم استطرد: "الحق أن هذه الأبقار الخبيثة تمسك عنا ألبانها اليوم، فعلينا يا توم أن نغنى لحنًا أو لحنين".

وكان الغناء وسيلة يلجأ إليها فى ضياع تلك الجهة، حين تبدى الأبقار امتناعًا عن السخاء بكمياتها المعتادة، وعند ذلك الطلب أنشأت الجماعة تغنى، وإن كان غناء متراخيًا فاترًا لا يبتغى منه إلا أداء الواجب، واعتقد القوم أن الغناء أتى بنتيجة، وبعد أن أنشدوا نحو عشرين بيتًا من أغنية شعبية مفرحة، تدور حول قاتل حال الخوف بينه وبين الرقاد، لأنه كان يرى لهبًا يموج حوله، قال أحد الحالبين:

"ما أشد ما يبلغ الجهد من المرء إذ يغنى منحنيًا، أولى لك يا سيدى أن تستحضر قيثارتك، وأحسن من ذلك أن تحضر كمنجة"، وحسبته تس يخاطب الرئيس وكانت مخطئة، فسرعان ما سمعت صوتًا كأنه صادر من جوف بقرة دكناء بين القوائم يقول: "ولم؟" وكان المتكلم حالبًا خلف البقرة لم تكن رأته تس بعد.

قال الرئيس: "نعم، الكمنجة خير وسيلة، بيد أنى أظن أن الثيران أكثر تأثرًا بالنغم من البقر، أوعلى الأقل هذا مادلتنى عليه تجاربى، فقد كان يقيم فى ملستك شيخ يدعى (وليم ديوى)، وكانت أسرته باعة متجولين، أتذكرهم يا جوناثن؟ وكنت أعرف الرجل بالنظر كما أعرف شقيقى، وكان مرة عائدًا من زفاف كان يعزف فيه على كمنجته، وكانتَ ليلةُ قمراء، وأراد اختصار الطريق فاخترق الحقل المسمى بالفدادين الأربعين، وكان فيه ثور يرعى، فما كاد يرى الرجل حتى اندفع فى أثره وقرناه إلى الأرض، ومع أن صاحبنا جرى بملء رئتيه، ولم يكن فى جوفه شراب أكثر مما ينتظر فى حفلة زواج فى أسرة غنية، فقد أيقن أنه لن يبلغ سياج الحقل ويتسلقه فى الوقت المناسب، فرفع كمنجته وضرب عليها نغمة رقص، وواجه الثور مستدبرًا ركنا من أركان الحقل، ففترت صورة الثور ووقف ساكنا يحملق فى وليم ديوى، الذى استطرد فى توقيعه حتى لمح على وجه الثور بسمة خفيفة".

قال مستر كريك مستطردًا: "ولكن لم يكد وليم يبطل التوقيع، ويدور ليتسلق السور وينجو بنفسه، حتى غاضت ابتسامة الثور ونكس قرنيه وسددهما إلى دبر صاحبنا، الذى اضطر إلى الرجوع إلى موقفه ومعاودة العزف، وكانت الساعة الثالثة صباحًا ولم يكن من المحتمل مرور أحد بتلك الناحية إلا بعد ساعات وكان الرجل مجهدًا خائرًا لا يدرى ما يصنع؛ وواصل العزف إلى الرابعة وعندها أحس أن لا بد له من الاستسلام، وقال فى نفسه: "لم يبق إلا هذا اللحن الأخير بينى وبين سعادة الدار الآخرة! ارحمنى يا رب وإلا فإنى لا محالة هالك!".

قال مستر كريك: "ثم تذكر وليم ديوى كيف كانت الماشية تبرك فى منتصف ليلة عيد الميلاد، ولم تكن ليلته تلك ليلة عيد الميلاد، ولكن خطر له أن يخدع الثور، فأقبل يعزف أغنية المولد، التى تغنى ليلة الميلاد وإذا الثور يخر على ركبه جاثيًا قد زين له جهله أنها ليلة الميلاد، ولم يكد ديوى يرى صاحبه ذا القرنين باركًا حتى دار ووثب ككلب السبق خلف السياج، قبل أن يتناهض الثور ليلاحقه، وكان ديوى بعد ذلك يقول إنه كثيرًا ما رأى سيماء البلاهة على وجوه الناس، ولكنه لم يرها قط كما ارتسمت على محيا ذلك الثور، حين علم أن شعوره الدينى قد عبث به لأغراض سيئة، وأن الليلة لم تكن ليلة الميلاد؛ نعم، ذاك اسمه: وليم ديوى، ويمكننى أن أعين لكم بالضبط مرقده فى مدفن كنيسة ملستك، فهو بين شجرة السرو الثانية وبين ممشى الكنيسة الشمالى"

ولما فرغ الرئيس من قصته غمغم الصوت الآتى من وراء البقرة الداكنة: "هذه قصة عجيبة تعود بنا إلى العصور الوسطى، أيام كان الوازع الدينى لا يزال حيًا!" وكانت تلك ملاحظة يغرب سماعها فى ضيعة ألبان، ولكن لم يفقه مغزاها أحد ولا اهتم لها أحد، إلا صاحب القصة فقد خيل إليه أن معناها التشكك فى صحة روايته فقال: "هذه قصة صحيحة يا سيدى صدقتها أو لم تصدقها، لقد كنت أعرف الرجل حق المعرفة"، فأجابه من وراء البقرة: "نعم، نعم، أنا لا أشك فى صدقها".

وهنا اتجه انتباه تس إلى محادث الرئيس، الذى لم تكن ترى منه إلا رقعة صغيرة لإطراقه برأسه خلف البقرة، ولم تفهم لم يخاطبه الرئيس نفسه بيا سيدى، وظل وراء البقرة مدة كانت تكفى لحلب ثلاث، وهو يفوه من حين إلى آخر بألفاظ مقتضبة كأنه غير موفق فى عمله حتى قال له الرئيس: "الأناة يا سيدى الأناة، هذا عمل مران لا عمل قوة"، فأجاب الآخر وهو ينتصب قائمًا مادًا ذارعيه: "إخالك مصيبًا، على أنى قد فرغت من أمرها وإن أجهدت أناملى".

وعندها ذلك أمكن تس أن تراه بوضوح، وقد كان يلبس ملابس الحالب العادية، وكانت نعلاه متقلتين بأوضار الضيعة، ولكن كان هذا كل ما يحمله من آثار الريف، ومن دون ذلك كان يبدو مظهر مهذب مثقف متحفظ رزين مخالف

للآخرين، بيد أنها غفلت عن تفاصيل منظره برهة إذ تذكرت أنها قابلته من قبل، وكانت الأيام قد تقلبت بتس منذ تلك المقابلة، فظلت وهلة لا تستطيع تذكر ظروف ذلك اللقاء، ثم تذكرت فى لمح البرق أنه هو ذلك العابر الذى اشترك فى الرقص فى مارلت، ذلك الغريب الذى أتى من حيث لا تعلم، ورقص مع أخريات غيرها وأهملها، ثم مضى مع رفيقه.

وأثارت الذكريات التى بعثتها هذه الصدفة خوفها من أن يعرفها ويقف على ماضيها، ولكن خوفها تبدد حين لم تلمح فى عينيه تذكره إياها، ولاحظت بعد حين أن وجهه السمح قد بدت عليه منذ لقائهما الأول الوحيد سيماء التفكير، وقد طر شاربه ونبتت له لحية وسيمة، ضاربة إلى الصفرة فوق عذاريه مشربة بالسواد دون ذلك، وكان يرتدى تحت ثياب الحلب سترة من القطن الناعم، وقميصًا أبيض منشى وبنطلون ركوب وجترا، فلم يكن أحد يميز صناعته إذا هو خلع ثوب الضيعة، فكان من الممكن أن يعد مالكًا غريب الأطوار أو فلاحًا متأنقًا، وكانت تس قد أدركت فى لحظة أنه لم يزل مبتدئًا فى أعمال المصنع، بعد أن أضاع كل ذلك الوقت فى احتلاب بقرة واحدة.

وكانت كثيرات من العاملات قد تبادلن قولهن: "ما أجملها"! وهن يشعرن نحو الطارقة الجديدة بإعجاب أكيد ومودة، وإن كن إذ يقلنها يتوقعن أن يعقب على مقالتهن السامع بما كن يهممن هن أنفسهن أن يضفنه إلى قولهن ذاك، فإن الجمال لم يكن هو الوصف الصحيح لما يقابل العين من هيئة تس؛ ولما انتهى الحلب دخل الجمع إلى حيث كانت مسز كريك تشرف على أوانى اللبن وغيرها، وكانت ترتدى جلبابًا ثقيلاً رغم حرارة الجو، لأن العلامات كن يرتدين ثيابًا خفيفة، وكانت تعد نفسها أجل شأنًا من أن تبرز للعمل كغيرها.

وعلمت تس أن اثنتين أو ثلاثا فقط من العاملات كن يقضين الليل فى دار المصنع، أما الأخريات فكن يأوين إلى بيوتهن؛ وعند العشاء لم تر الحالب الراقى الذى عقب ذلك التعقيب على قصة الثور، ولم تسأل عنه، وقضت بقية المساء فى تمهيد مكانها فى المخدع، وكان المخدع حجرة فسيحة فى أعلى الدار يناهز طولها

ثلاثين قدمًا، وكانت تحوى العاملات الثلاث الأخريات، وكن فتيات ناضرات إحداهن تصغرها سناً والأخريان تكبرانها، ولما حان موعد النوم كانت تس فى غاية التعب، وسرعان ما استغرقت فى النوم.

ولكن إحدى الفتيات كانت أشد تيقظًا من تس، وكانت تصر على أن تصف لها شتى تفاصيل المسكن الذى نزلته، واختلطت همساتها في مخيلة تس المهومة بالظلال. وخيل إلى تس أن ألفاظ الفتاة تتولد الظلام الذى تسبح فيه، ومضت صاحبتها تقول: "مستر إينجل كلير الذى يتعلم الحلب والذى يعزف على القيثارة لا يحادثنا كثيرًا، وهو ابن قسيس، وهو أشد استرسالا فى الفكر من أن يلتفت إلى البنات، وهو تلميذ الرئيس يتلقن عليه تعهد الضياع من جميع الوجوه، وقد تعلم تعهد الغنم فى مكان آخر، نعم إنه مولود فى أسرة راقية، وأبوه مستر كلير فى إمنستر على مدى أميال".

قالت تس وقد انتبهت: "نعم لقد سمعت به، أليس هو رجلاً شديد الورع؟" قالت: "نعم هو ذاك، هو أتقى أهل وسكس على ما يقولون، هو آخر أتباع الكنيسة الدنيا، أما من عداه فى هذه الأصقاع فتابعون لما يسمونه الكنيسة العليا، وكل أبنائه عدا مستر كلير قسس"، ولم يكن بتس الآن من رغبة الاستطلاع ما يدفعها إلى التساؤل لم لا يصير مستر كلير هذا أيضًا قسيسًا كإخوته وعاودها النعاس، وكلمات صاحبتها ترد إليها مع روائح الجبن الموضوع فى المخزن المجاور، ووقع قطرات ماء الجبن من المعاصر فى الطابق السفلى.

١٨

كان إينجل كلير شخصية غامضة بعض الغموض... كان له صوت حنون ونظرة طويلة تنبعث من عينين جامدتين مشردتين، وفم مستدق خفيف الحركة لعله أدق مما يعهد فى أفواه الرجال، وإن كان انزمام شفته السفلى من حين إلى حين يدل على قوة العزيمة، وينفى كل شبهة للتردد، ومع ذلك كان مظهر الغموض والذهول المرتسم على سيمائه وحركاته يوحى إلى الناظر أنه امرؤ لم يبت فى مستقبل عيشه بعد، على حين أنه كان كل من رآه فى طفولته يتنبأ له بمقدرة على النجاح فى كل عمل يزاوله.

وكان أصغر إخوته، وكان أبوه قسًا ذا خصاصة يقيم فى الجانب الآخر من الإقليم، وكان إينجل قد أتى إلى ضيعة الألبان لقضاء ستة أشهر فى التعلم، بعد أن طاف بضياع أخرى، وكان غرضه أن يحذق أعمال إدارة الضياع، كى يزاولها إما فى المستعمرات وإما فى ضيعة فى إنجلترا يستأجرها، حسبما تمكنه الظروف، وكان انخراطه فى سلك المزارعين خطوة فى حياته لم يتوقعها هو ولا غيره؛ وقد ماتت زوج أبيه الأولى فتزوج أخرى غيرها فى أخريات حياته، فولدت ثلاثة ذكور بين أصغرهم إينجل وبين الوالد قراب جيل مفقود، وكان إينجل هو الوحيد بين إخوته الذى لم ينل تعليمًا عاليًا، وإن كانت نجابته فى صغره تؤهله لذلك.

انقطع إينجل عن المدرسة، وواصل الدارسة فى البيت، وإنه لكذلك ذات يوم قبل ظهوره فى رقص مارلت سالف الذكر بثلاثة أعوام، إذ وصل إلى الدار طرد مرسل من كتبى البلدة معنون باسم القس جيمس كلير، ففضه القس فوجد به كتابًا شرع يتصفحه، وإذا هو يقفز من مكانه وقد تأبط الكتاب وقصد إلى الكتبى يسأله ملوحًا بالكتاب: "لماذا أرسل هذا إلى بيتى؟"فقال الرجل: "إجابة للطلب يا سيدى " قال: "لم أطلبه لا أنا ولا أحد من ذوى" فنظر الرجل فى دفتره وقال: "أنا المخطئ يا مولاى، لقد طلبه مستر إينجل كلير وكان ينبغى إرساله باسمه"، فبهت القس وعاد إلى داره ودعا إينجل إلى مكتبه.

قال: "انظر إلى هذا الكتاب: ماذا تعرف عنه؟" قال إينجل في هدوء: "أنا طلبته"، قال: "لم؟" قال: "لأقرأه"، قال "كيف تخطر لك قراءته؟" قال: "كيف؟ هذه فلسفة لا أعرف أحرص منها على قواعد الخلق والدين"، قال: "نعم لا ضير منه على الخلق، أما الدين.. أتقرؤه وأنت الذى تتهيأ للدعوة إلى تعاليم الإنجيل؟" قال: إينجل وارتسم الهم على وجهه: "أما إذ أثرت الأمر فأجمل بي أن أصارحك بأني لا أريد الانضواء إلى رجال الدين، إذ لا أستطيع أن أفعل ذلك مخلصًا، إني أحب الكنيسة حب الطفل أبويه، وسأحمل لها أصدق الحب دائمًا، وإني لأكن لتاريخها من الإجلال ما لا أكن لنظام آخر، ولكني لا أستطيع مخلصًا أن أكون خادمًا لها كأخوى ما دامت تأبى أن تحرر عقليتها من عقيدة تكفير المسيح عن ذنوب بنى آدم".

ولم يكن يخطر قط للقس الطاهر الساذج أن واحدًا من لحمه ودمه ينتهى إلى هذا، فصدم وأذهل وشل. وإذا كان إينجل لن ينضم إلى الكنيسة فما جدوى إرساله إلى كمبردج؟ وكان هذا الرجل المتصلب العقائد يعتقد أن الذهاب إلى الجامعة دون الانضمام إلى الكنيسة مثله مثل مقدمة بغير كتاب، ولم يكن رجلاً متدينًا فحسب بل كان راسخ الإيمان، لا بالمعنى الذى يستخدم فيه هذا اللفظ المشعوذون داخل الكنيسة وخارجها، بل بالمعنى العميق القديم الذى كان يعنيه الإيفنجيليون، كان رجلاً – كما تقول أنشودة دينية قديمة – يعتقد بهبوط الروح الخالد منذ ثمانية عشر قرنًا وحلوله في جسد المسيح.

راح والد إينجل يعالجه بالمجادلة والإقناع والتوسل، فكان جوابه: "لا يا أبى، لا أستطيع أن أوقع باسمى تحت المادة الرابعة فضلاً عن الأخريات، مقرا بأنى أؤمن بها إيمانًا حرفيًا كما يطلب منى الإعلان الكنسى الكبير، وعلى ذلك لا أستطيع أن أكون قسيسًا فى الظروف الراهنة؛ إن كل ميولى فى الشئون الدينية موجهة إلى الإصلاح، أو كما قال القديس أوغسطين فى رسالته إلى اليهود التى تحبها أنت وتؤثرها: "إلى إزالة تلك الأشياء المتداعية، والأخرى المفتراة، لكى تبقى الأشياء التى لا تتداعى".

وبدا على الأب من الغم ما اغتم له ابنه، وعاد أبوه يقول: "ما جدوى تقتيرى وتقتير أمك، وحرماننا نفسينا مما نشتهى لإرسالك إلى الجامعة، إن لم تكن غاية ذلك ابتغاء مرضاة الله وتعظيم شأنه؟" قال إينجل: "فلتكن غايته تعظيم شأن الإنسان"، ولو استمر إينجل فى جداله لرجح أن يفوز بالذهاب إلى الجامعة كما ذهب أخواه، ولكن اعتبار أبيه الجامعة خطوة إلى الكنيسة لا غير كان تقليدًا موروثًا فى الأسرة، ورأى الفتى بمرهف إحساسه أن التمادى فى الجدل معناه سوء استعمال وديعة موروثة وإساءة إلى أقطاب الأسرة الأتقياء الذين كانوا دائمًا مضطرين فى أيامهم – اضطرار أبيه وأمه – إلى التقتير لتنفيذ تلك الخطة المرسومة لتعليم أبنائهم؛ قال إينجل: "أنا متنازل عن كمبردج، إذ أشعر أن لا حق لى فى الذهاب إليها فى هذه الحال".

وما لبثت هذه المناقشة الخطيرة أن أفضت إلى عواقبها، وأنفق الشاب سنين طويلة فى أشتات الدراسات والتأملات والأعمال، وتمكن من نفسه ازدراء التقاليد والمظاهر الاجتماعية، وازداد احتقارًا للألقاب والثروة، بل لم يكن يأبه لعراقة أسرة ما، إلا أن يكون ممثلوها الحاليون يستحقون الإجلال؛ على أن هذا الخلق الوعر كانت له مغامزه اللينة؛ فإنه لما قصد لندن مرة بغية الاطلاع على العالم والبحث عن عمل، وقع فى أشراك امرأة تكبره بأعوام كثيرة، وإن يكن لحسن حظه قد نجا من أسوأ مغبات ذلك الحادث.

وكان طول اختلائه بنفسه بين أحضان الطبيعة قد غرس فى نفسه كرهًا عنيفًا لحياة المدن الحديثة لا يكاد يكون له داع، وحرمه من نجاح لعله كان يصبو إليه فى أعمال الدنيا، ما دام انصرافه إلى أعمال الآخرة محالاً. ولكن كان لا بد له من عمل يزاوله على أية حال، وكان قد أضاع سنين غوالى، وكان يعرف شابًا قد بدأ يمارس إدارة الضياع بنجاح فى المستعمرات، فمال إينجل إلى محاكاته، ورأى أن الاشتغال بالزراعة فى المستعمرات أو فى أمريكا أو فى وطنه، بعد استعداد جيد يهيئ له الاستقلال الذى ينشده دون أن يضحى بحريته الفكرية التى كان يضعها فوق مستقبله المادى.

ومن ثم نرى إينجل كلير وهو فى السادسة والعشرين هنا فى تلبوثيز يدرس البقر، ويقيم فى مسكن صاحب المزرعة، إذ لم تكن فى الجيرة مساكن تستأجر، وكانت حجرته فى أعلى المسكن تمتد بطوله، ولم يكن لها مرتقى إلا سلمًا يبدأ من مخزن الجبن، وكانت قد أهملت وأغلقت زمنًا حتى جاء فاختارها مقرًا، وكان له فيها متسع رحيب، وكثيرًا ما سمعته العاملات يذرعها ذهابًا وإيابًا وقد أوى الجميع إلى مضاجعهم، وكان جزء صغير منها قد خصص لفراشه تفصله عن جزئها الأكبر ستارة، وقد أثث هذا الجزء الأخير بما جعله حجرة جلوس مريحة.

وكان بادئ ذى بدء يقضى كل وقته فى ذروته تلك، يقرأ أو يدندن على قيثارة قديمة اشتراها من مزاد، وكان فى حالات كآبته يقول إنه ربما اضطر إلى كسب قوته بها يومًا فى الحارات؛ على أنه سرعان ما فضل أن يدرس الطبائع النفسية بتناول طعامه فى الحجرة العامة فى أسفل، مع صاحب المزرعة وزوجه والعاملات والعاملين، وكانت تلك زمرة يسودها الحبور، وكان كلما طال به المقام هنا قل نفوره من معاشريه ورغب فى مشاطرتهم أعمالهم، بل أدهشه أن غدا يطرب لمجالستهم، وسرعان ما محيت من مخيلته فكرته العتيقة عن أهل الريف؛ تلك الفكرة التى كانت تمثلها الدمية المسكينة المسماه هودج، التى يتخذها الحضر رمزًا للقرويين، فإنه لم يرَ شبها من هودج فيمن كان يعاشرهم عن كثب.

نعم كان فى بادئ الأمر، ولا يزال فكره متشبعًا بأحوال وسط متناقض لهذا الوسط، يرى هؤلاء القوم شيئًا عجبًا، ورأى أول الأمر فى مجالسة أعضاء تلك الأسرة على قدم المساوة حطة وغضاضة، ورأى أفكارهم وحالاتهم وبيئتهم بلهاء وضيعة، ولكن بمرور الأيام تجلى أمامه شكل جديد، وبدا له التنوع حيث كان يشكو التشابه الممل، وإن لم يتغير شىء فى واقع الأمر، وكان كلما ازداد معرفة بمضيفه ومضيفته وأسرتهما من العمال والعاملات، بدا الاختلاف عظيمًا بينهما كما يبدو بين العناصر فى عملية كيماوية، وتذكر قول بسكال: "كلما زاد حظ المرء من الذكاء رأى اختلاف شخصيات الخلق، أما أوساط الناس فلا يرون اختلافًا بين فرد وآخر".

ومن ثم نسى تلك الصورة التقليدية للريفى هودج الذى لا يتغير ولا يختلف عن سواه، وانقسم ذلك الهودج أشخاصًا متباينين تباينًا شديدًا، بعضهم طروب وكثير منهم رزين وقليل منهم كئيب، ومنهم من يبلغ ذكاؤه حد العبقرية، ومنهم الأغبياء وذوو العناد والغلظة، وعلى سيماء بعضهم الوداعة مخايل ملتن، وعلى سيماء الآخرين القوية معارف كرومول، ورأى أناسًا لكل منهم فى أصحابه رأى، كما كان له هو رأيه فى أصحابه، يقرظ أو يذم بعضهم بعضًا، ويتفكهون بذكر مغامز أصحابهم ورذائلهم أو يأسفون لها؛ رأى قومًا يسير كل منهم فى طريقه الخاص إلى الخاتمة المحتومة.

وإذا هو يعشق الحياة خارج حجرته عشقًا خالصًا بنجوة عن فائدتها فى تعليمه وإذا هو يتخلص من داء الكآبة وخلل الأعصاب الذى يتفشى اليوم بين الأمم المتمدينة التى وهن إيمانها بوجود قوة رحيمة، وراح لأول مرة منذ سنين يقرأ ما يهديه إليه ميله، دون قصد إفعام رأسه بالمعلومات التى تجديه فى مستقبل معيشته، فلم تعد الأسفار التى استحسن قراءتها فى دراسة الزراعة تشغل من وقته إلا قليلاً ونزع عن أفكاره القديمة ورأى وجه الحياة والإنسانية جديدًا، وعرف حق المعرفة ظواهر لم يعِ من أمرها من قبل إلا القليل المبهم، من تقلبات الفصول وتتابع الأصباح والأمساء، إلى مناظر الليل والقمر، إلى الرياح فى شتى أطوارها والأشجار والأمواه، والضباب والظلال والسكون وأصداء الجماد.

كان الجو لا يزال باردًا فى الصباح المبكر، فكانت النار توقد فى الحجرة حيث يفطرون، ولم تكن مسز كريك ترى من اللائق إجلاس إينجل إلى مائدة الجميع فأمرت فأعد له مجلس فى جانب الحجرة حيث الموقد الكبير، وكان طبقه وفنجانه يوضعان على لوح خشبى مثبت فى الحائط بجوار مرفقه، وكان الضوء الداخل من شباك كبير مقابل تعترضه حواجز حديدية يرتمى على ذلك الركن، ويساعده ضوء ثانوى أزرق ينعكس عن المدفأة، فكان يستطيع القراءة هنا كلما أراد، وكانت تقوم بينه وبين الشباك مائدة رفاقه، فكان يرى صفحات وجوههم مرتسمة أمام الزجاج، وفكوكهم تعلو وتهبط فى المضغ، وكان على أحد جانبيه باب

حجرة اللبن، تبدو منه الأوعية المربعة الشكل، صفوفًا صفوفًا مفعمة بألبان الصباح؛ وتبدو في أقصى الحجرة الممخضة تدور في غطيط مسموع، وقد لاحت القوة المحركة لها من زجاج الشباك، وكانت تلك القوة حصانًا خائر القوى يدور خلفه وليد.

ومضت أيام بعد وصول تس، وكلير لا يلاحظ وجودها على المائدة، لانهماكه في قراءة كتاب أو صحيفة أو دور موسيقى قد أتاه به البريد، وكانت هي نزرة الحديث بين مثرثرات؛ فلم يلاحظ في اللغط نغمة جديدة، وكان من طباعه الاهتمام من كل شيء بمنظره العام وإهمال تفاصيله، حتى كان يومًا يلحن في مخيلته دورًا موسيقيًا فغلبه الذهول وتطايرت ورقة الموسيقى ووقعت عند المدفأة، وشخص ببصره إلى المدفأة التي كان طعام الفطور قد طهي وشرابه قد غلى عليها، وكانت تتراقص فوقها شعلة واحدة توشك أن تخبو، وخيل إليه أنها ترقص مع النغمة التي تتردد في ذهنه، ونظر إلى القضبان المدلاة فوق النار والملوثة بالدخان المتراكم وخيل إليه أنها هي أيضًا تراقص النغمة، وإلى الإناء المملوء إلى النصف وخيل إليه أن غليانه يلائم النغمة كذلك.

ودخلت المناقشة المحتدمة على المائدة في هذه الفرقة الموسيقية التي ألفها خياله حتى حدثته نفسه: "ما أرخم صوت إحداهن! لعلها القادمة الجديدة"، وأدار بصره إليها ولم تكن ناظرة إليه، والحق أنه لطول صمته كان قد آض وجوده نسيًا منسيًا، وإنما كانت تقول إذ ذاك: "لا علم لي بالأشباح، إنما أعلم جيدًا أن أرواحنا قد تخرج عن نطاق أجسادنا في حياتنا"، فالتفت إليها صاحب الضيعة مملوء الفم وفي عينيه نظرات الاهتمام والتساؤل، وشوكته وسكينه الكبيرتان - أجل: كان تناول الفطور هنا تام المراسيم - قائمتان رأسيتان على المنضدة كأنهما بدء مشنقة تنصب، وقال: "ماذا؟ أحقًا يا عذرائي الصغيرة؟".

واستطردت تس: "من أسهل وسائل الشعور بخروجها، أن يضطجع المرء على العشب ليلا ويرفع بصره إلى نجم كبير ساطع، فإذا ركز ذهنه عليه شعر بأنه على مدى مئات من الأميال من جسمه، كأنما هو زاهد في ذلك الجسم كل زهادة"،

وأدار الرجل نظرته الحادة من تس إلى امرأته وقال: "أليس هذا عجبًا يا كريستينا؟ لقد ذرعت الأميال فى السنين الثلاثين الماضية فى ضوء النجوم، إما فى غرامى أو عملى أو فى طلب الطبيب أو الممرضة، ومع ذلك لم يخطر لى هذا الأمر قبل اليوم، ولم أشعر قط أن روحى ارتفعت قيد أنملة عن بنيقة قميصى ".

ولما رأت تس انتباه القوم وفيهم تلميذ صاحب المزرعة إليها، احمر وجهها خجلاً وقالت متخلصة إن ذلك لم يكن إلا وهما من أوهامها، وأكبت على طعامها وظل كلير يراقبها، وسرعان ما فرغت، ولشعورها بنظرته جعلت ترسم بسبابتها على مفرش المائدة أشكالا وهمية، وقد عراها من الحرج ما يعرو داجنا وديعًا أحس بأنه يراقب؛ وقال الشاب فى نفسه: "ما أبهى نضارتها وبكارتها بنت الطبيعة تلك!" وعند ذلك خيل إليه أنه رآها قبل ذلك فى ماضيه الطروب الغافل قبل أن تشوب صفاء سمائه غيوم الفكر، ولم يدر أين رآها وإن صح عنده أنه قابلها فى بعض طوافه فى الأرياف، ولم يهتم بالأمر، وإنما جعلته تلك الظروف يختار تس من بين غيرها من حسان العاملات حين كان ينزع إلى التأمل فى بنات حواء المحيطات به.

١٩

كانت الأبقار تحلب عادة فى غير نظام وبلا انتقاء، ولكن بعضها كانت تفضل بعض الأيدى على بعض، حتى كانت أحيانًا تأبى أن تسكن إلا إلى تلك الأيدى التى تفضلها، وتركل وعاء الواغل الدخيل بعيدًا، وكانت خطة الرئيس كريك أن يمحو هذه الضروب من المحاباة والمعاداة بدوام التغيير، لأنه كان يخشى أن توقعه فى صعوبة إذا ترك الضيعة بعض العمال والعاملات المصطفين، على حين كانت العاملات يرمين إلى عكس غرضه، فقد كانت كل منهن تؤثر أن تحلب كل صباح نفس البقرات السبع أو الثمانى اللاتى تعودن حلبها، لأن ذلك يجعل الحلب سهلاً يسيرًا.

وسرعان ما كشفت تس كزميلاتها أى الأبقار تميل إلى طريقتها فى المعالجة، وكانت أصابعها قد رقت بعد فترات الحبس فى الدار، التى كانت ألزمتها نفسها فى السنتين أو الثلاث الماضية، وكانت على استعداد لإرضاء ميول البقر فى هذا الصدد وكانت بين التسعين والخمس، ثمانى بقرات هن: دمبلن، وفانسى، ولفتى، ومست، وبرتى العجوز، وبرتى الصغيرة، وتدى، ولود، يسترحن إلى معالجتها حتى كان حلبهن مجرد لمس بالأصابع، رغم أن حلمات واحدة منهن أو اثنتين كانت ناشفة كالجزر، على أن تس لعلمها برغبة الرئيس كانت تحاول بوازع من نفسها أن تحلب أية أبقار صادفتها، ما عدا الصعبات الاحتلاب اللواتى لم تكن لها بهن طاقة بعد.

ولكنها سرعان ما رأت تلاؤمًا بين رغباتها فى هذا الصدد وبين النظام الاتفاقى الذى يتصادف ورود البقر فيه، حتى بدا لها أن ذلك النظام لا يمكن أن يكون محض صدفة، وكان تلميذ الرئيس قد اشترك أخيرًا فى جمع البقر، وفى خامس مرة أو سادسها أدارت عينيها إليه وهى مسندة رأسها إلى البقرة، وراحت تتأمله فى مكر، ثم صاحت وهى محمرة خجلاً: "مستر كلير! لقد رتبت البقر ترتيبًا!" وارتسمت على فمها وهى ترميه بتلك التهمة مخايل ابتسامة ارتفعت فيها

شفتها العليا بالرغم منها، حتى بدت أطراف أسنانها، وشفتها السفلى ثابتة فى مكانها، قال: "لا بأس فى ذلك، سوف تكونين هنا دائمًا لتحلبيها"، قالت: "أتظن ذلك؟ إنى لأرجوه وإن لم أكن على يقين".

وأنحت على نفسها بعد ذلك باللائمة، مخافة أن يكون قد فهم كلامها على غير ما أرادت، لجهله بالأسباب المهمة التى تحبها فى هذه الحياة المنعزلة، وكانت قد خاطبته بلهجة جادة كأنما وجوده أحد دواعى رجائها ذاك، واشتد جزعها حتى أنها لم تكد تفرغ من عملها عند الغسق، حتى راحت تتمشى وحدها بين الأغراس تواصل إنحاءها على نفسها باللوم لمصارحتها إياه باكتشافها اهتمامه بأمرها، وكان مساء من أمسية يونية المعهودة، قد اعتدل جوه وسرى سحره، حتى بدا كأن للجماد حواسًا ثلاثًا أو خمسًا، ولم يعد هناك فرق بين قريب وبعيد وكان السائر يحس أنه على اتصال بكل شىء فى مــدى البصر، وأحست تس بالســكون كأنه جسم كائن لا مجرد انقطاع الضوضاء، ولم يكن يقطعه إلا رنين أوتار.

كثيرًا ما كانت تس تسمع تلك النغمات فى الحجرة العليا فلا تخف لها، إذ كانت نغمات غامضة مبهمة ضئيلة فى سجنها العالى الذى تنبعث منه، أما الآن فقد أعجبتها إذ كانت تموج فى الهواء الساكن قويةً مجردة، كانت الآلة حقيرة والتوقيع رديئًا، ولكن كان لها وقع خاص فى نفس تس التى ظلت كالطائر المسحور لا تريد عن مكانها تحولا، بل اقتربْت من موضع العازف مستخفية وراء الأشجار كيلا يحدس وجودها.

كانت الأجزاء الخارجية من الحديقة التى وجدت تس نفسها فيها قد أهملت منذ حين فلم تزرع، وكانت إذ ذاك رطبة مغطاة بالحشائش الطويلة، التى تتطاير منها سحائب من البذور الدقيقة بمجرد لمسها، وبالأعشاب المزهرة تنبعث منها روائح كريهة، وإن كانت ألوانها الحمراء والصفراء والقانية تؤلف منظرًا بهيجًا بهجة الأزهار المزروعة المتعهدة؛ انسلت تس كالقطة بين هذه اللفائف تتلوث يداها وجلبابها بلعاب الحشرات وأحلاب النبات، وتتكسر القواقع تحت قدميها، وتتخضب ذراعيها آفات الزرعِ التى تبدو على جذوع أشجار التفاح بيضاء كالثلج. فإذا مست جلدها لطخته تلطيخا، وهكذا دنت من مقر كلير دون أن يراها.

ولم تعد تس تفكر فى الزمان أو فى المكان، وخالجها دون اجتهاد من جانبها ذلك السمو الروحى الذى قالت إنه يعترى المتطلع إلى النجوم، وراحت نفسها تتموج مع أنغام القيثارة المشتراة فى المزاد، وكانت نبراتها تنفذ إلى فؤادها كأنها النسمات، وتهيج الدموع فى مآقيها، وخيل إليها أن نثار البذور المتطاير هو نغمات العازف متجسمة، وأن رطوبة الحديقة إنما هى بكاء الحديقة لتأثرها بالنغمات؛ ورغم أن الليل كان وشيك الهبوط فقد كانت الأزهار البرية متفتحة زاهية، كأنها لشدة إنصاتها لا تريد انكماشها، وامتزجت تموجات اللون وتموجات الصوت.

وكان الضوء الوحيد الذى لا يزال منيرًا آتيًا من فرجة فى الغيوم المنتشرة فى الأفق الغربى، يلوح كأنه قطعة من النهار تخلفت غلطًا وقد اسودت حواشى الفضاء فى كل ناحية أخرى، وفرغ العازف من لحنة الشجى، وكان لحنًا سهلاً بسيطًا، وانتظرت لعل لحنًا آخر يتبعه، ولكنه كان قد سئم وأقبل يدور على غير هدى حول السياج حتى داناها من خلفها، وعندها اتقدت وجنتاها وانسلت مبتعدة بخطى وئيدة كأنها لا تتحرك بتاتًا، ولكنه لمح ثوبها الصيفى الخفيف، وسمعته يقول وإن كان على مدى منها: "لماذا تتسللين هكذا يا تس؟ أخائفة؟".

قالت: "كلا يا سيدى، ليس ثمة ما أخاف بين مناظر الطبيعة، لا سيما حين تنتشر الخضرة ويتساقط نوار التفاح"، قال: "فهل تخافين شيئًا فى غير مناظر الطبيعة؟" قالت: "نعم يا سيدى"، قال: "ماذا؟" قالت: "لا أستطيع القول"، قال "تخافين أن يختثر اللبن؟": قالت: "لا"، قال: "فهل تخافين الحياة فى مجموعها؟" قالت: "نعم يا سيدى" قال: "كذلك أفعل أحيانًا، إن هذا الوجود شيء جنونى مخيف، أليس كذلك؟" قالت: "نعم إذا شئت أن تصوغ القول على هذه الصيغة"، قال: "ولكنى لم أتوقع أن فتاة مثلك تفهم هذا الفهم فأنى لك ذلك؟" فسكتت مترددة فقال: "هلمى حدثينى وامنحينى ثقتك".

وحسبته يريدها أن تدلى إليه بنظرتها إلى مختلف الأشياء فأنشأت تقول فى خجل: "يخيل إلى أن للأشجار عيونًا متطلعة فضولية، ألا يخيل إليك ذلك؟ وأن النهر يقول لماذا تضايقيننى بنظراتك! وأنى أرى صفًا من الأيام المقبلة أولها

أكبرها وأضخمها، وبقيتها تتصاغر كلما بعد موقفها، ولكنها جميعًا تبدو شرسة قاسية كأن كلاً منها يقول: أنا آت! حذرٍ مني! ولكنك أنت يا سيدى تخلق بموسيقاك أحلامًا تطرد هذه الأوهام البشعة".

وأدهشه أن يرى هذه الفتاة تتصور هذه الصور المؤلمة، وهى التى كانت رغم أنها عاملة بسيطة، فذة فريدة بين أترابها على حال ربما حسدنها عليها، لقد كانت تعبر فى لهجتها الريفية تعينها معلومات سنيها الست فى المدرسة، عن مشاعر ليس من الإسراف إعتبارها مشاعر الجيل أو آلام العصر الحديث؛على أن دهشته فترتِ حين تذكر أن معظم تلك الأفكار التى تسمى عالية، إن هى إلا أحدث أنواع التعريف والتقسيم، ولا تزيد عن كونها تعبيرات دقيقة مملوءة بالمصطلحات اللاتينية والإغريقية، عن أحاسيس شعر بها الناس شعورًا عامًا منذ أجيال، ومع ذلك كان عجيبًا أن تساورها تلك الأفكار فى حداثتها تلك، وكان ذلك بجانب غرابته ممتعًا داعيًا إلى الاهتمام والعطف، ولما كان كلير يجهل السر فى ذلك فقد غاب عنه أن أبلغ التجاربِ أبعدها عمقًا لا أطولها أمدًا؛ لقد كانت الآفة التى ألمت بجسم تس فيما مضى داعية نضج عقلها.

وعجبت تس من ناحيتها لرجل مثقف منحدر من أسرة دينية مكفول المئونة يأسى علي مجيئه إلى هذا الوجود، لقد كان مثل هذا الأسى جديرًا بالشريدة المسكينة، أما هذا الرجل الشاعرى الجذاب فكيف يهبط إلى وادى الهوان ويشعر كما قال أخو الغز، وكما كانت تشعر هى منذ عامين أو ثلاثة: "إن روحى لتؤثر الشنق والموت على الحياة، إني لأمقتها ولا أطيق أن أحيا دائمًا أبدًا"، نعم إنه كان يحيا فى غير قومه، ولكن ذلك إنما كان رغبةً منه فى تعلم ما لا بد من معرفته، شأن بطرس الأكبر فى مصانع السفن، ولم يكن يحلب البقر لأن عليه أن يحلبها بل لأنه يعد نفسه ليصير مالكًا غنيًا ناجحًا، يزرع الضياع ويقنو القطعان فى أمـريكا أو أستراليا ويضحى كإبراهيم الخليل عاهلاً يسعى بين يديه الخدم والجوارى، على أنها كانت أحيانًا تعجب من إيثاره الزراعة على خدمة الكنيسة، وهو من هو علمًا وتفكيرًا وشغفًا بالموسيقى.

وهكذا عجب كل منهما، وحار فى أمر صاحبه وعجز عن الاهتداء إلى سره، وارتقب كل منهما أن تبدى له الأيام من أخبار الآخر ما كان جاهلاً، ولم يحاول أحدهما التطفل على ماضى الآخر، وكان كل يوم بل كل ساعة تقفه على بعض دخائلها ويقفها على بعض دخائله، وكانت تس تحاول أن تحيا حياة تزمت، ولكنها غفلت عن فرط حيويتها، وكانت فى بادئ الأمر تعده فكرًا أكثر مما تعده رجلاً، وترى بينها وبينه فى ذلك بونا كبيرًا، وكلما كشفت من بعد نظراته ناحية جديدة ورأت مسافة ما بين عقليتها الساذجة المتواضعة، وعقليته الشامخة شموخ جبال الأنديز، اشتد انقباضها وفترت عزيمتها عن الارتقاء إلى مستواه الرفيع.

ولاحظ انقباضها يومًا، وقد ذكر لها شيئًا جديدًا عن حياة الرعاة فى إغريقيا القديمة، وكانت وهو يحدثها تجمع من شاطئ النهر براعم تلك الأزهار المسماة "السادة والسيدات"، فقال لها: "ما هذا الجزع المفاجئ يعلو سيماءك؟" قالت فى ضحكة حزينة، وهى تقشر برعمًا فى اضطراب: "إنما أفكر فى نفسى وما كان يمكن أن يكون من أمرى، إذ يخيل إلى أن حياتى قد ذهبت هباء لإعواز الفرص الملائمة، فإنى حين أرى ما تعلم وما تحفظ وما تفكر فيه، أحس أنى شيء ضئيل كتلك المسكينة ملكة سبأ المذكورة فى الإنجيل، لا أزيد عليها فى العلم فتيلاً".

قال فى حماسة: "لا يحزنك ذلك يا تس، فإنه ليسرنى أن أساعدك فى درس التاريخ أو أى فن آخر تروقك دراسته.." فقاطعته وهى تنظر إلى البرعم الذى قشرته: "هذه أيضًا سيدة"، قال: "ماذا؟" قالت: "إنما أردت أن أقول إن السيدات أكثر من السادة فى هذه البراعم إذا قشرتها"، قال: "دعينى من السيدات والسادة، هل يروقك أن تدرسى فنًا ما؟ التاريخ مثلاً؟"، قالت: أحس أحيانًا أنى لا أريد أن أعلم أكثر مما أعلم"، قال: "لم؟"، قالت: "ما جدوى أن أعرف أنى لست إلا واحدة بين كثيرات مشبهاتى، وأن فى بعض الكتب القديمة ذكر امرأة مثلى تمامًا، وأنى لن أفعل إلا ما فعلته هى من قبل؟ ليس من وراء ذلك إلا إثارة غمى، وأولى للمرء ألا يعلم أن أعماله إن هى إلا صورة مطابقة لما عمله آلاف وآلاف، وأن حياته المقبلة لن تكون إلا صورة من حياة تلك الآلاف المؤلفة".

قال: "إذن أنت لا تريدين أن تعلمي شيئًا أبدًا؟" قالت وقد تهدج صوتها قليلاً: "أوثر أن أتعلم الأسباب: سبب إشراق الشمس مثلاً على الأبرار والأشرار معًا، ولكن الكتب لا تخبرني خبر ذلك"، قال: "ويحك يا تس من فتاة حقود!" وما قال ذلك إلا مجاراة لما يقال في ذلك الموقف، على حين أنه طالما خطر له ذلك الخاطر فيما سلف، وخيل إليه وهو يتأمل ذلك الفم وتينك الشفتين اللتين لم تلقنا العلوم والفنون، أن ابنة الطبيعة تلك إنما تردد ما تقول بغير وعي.

ومضت تس في قشر السيدات والسادة، ورمق كلير أهدابها المقوسة وهلة وهى مسترسلة على خدها الأسيل وقد أطرقت، ثم ابتعد عنها في بطء، وظلت في مكانها بعد ذهابه تقشر آخر برعم مفكرة، ثم انتبهت من أفكارها وألقت البرعم وسائر الأشراف الذين كانوا في يدها أرضًا،وقد بلغ منها الضجر، واحتدم غيظها من حماقتها واضطرم قلبها اضطراما، وخيل إليها أنه لا بد يظنها غبية شديدة الغباوة، ودفعها تحرقها إلى حسن ظنه بها إلى تذكر الأمر الذى كانت تناسته بعد أن اكتوت بناره، ألا وهو انتماؤها إلى آل دربرفيل، ورأت أن ذلك النسب على قلة جدواه وما ابتليت به من خطوب من جراء علمها به، ربما نال إجلال مستر كلير الذى ينتمى إلى أسرة راقية ويجل التاريخ، حتى لينسى عبثها الصبيانى بالسادة والسيدات، متى علم أن أولئك الراقدين تحت الرخام والمرمر في كنجزبير هم أسلافها، وأنها سليلتهم لحمًا ودمًا، وليست دعية فيهم كأسرة دربرفيل الأدعياء المقيمين في ترنتردج.

على أنها كانت في ريبة من الأمر، فراحت قبل أن تغامر بكشف الأمر له تسبر رأى صاحب الضيعة، فيما يكون نظر مستر كلير إلى تلك الحقيقة، ومدى تبجيله للأسرات العريقة التى أخنى عليها الدهر، فقال الرجل مؤكدًا: "إن مستر كلير ثائر متمرد عديم النظير، وليس كبقية أسرته، وأشد ما يمقت هو ما يسمونه الأسرات العريقة، فهو يرى أن تلك الأسرات أدت ما تستطيع تأديته من خدمة للمجموع في ماضى أيامها ولم يعد فيها خير، فهناك أسرات بيلت ودرينكرد وجراى والقديس كونتن وهاردى وجولد، التى كانت تملك أرجاء هذا الوادى، يمكنك اليوم أن تشترى ما تملك أيمانهم بأجر أغنية عتيقة".

واستطرد: "بل إن العاملة رتى بريدل تمت إلى أسرة باريدل العريقة، التى كانت تملك واسع الأنحاء عند كنجز هنتك، التى يملكها اليوم إرل إسكس، ولم يكن أحد فى تلك الأيام قد سمع به أو بأنسابه؛ وقد علم مستر كلير بهذا الأمر فكان يخاشن الفتاة بعد ذلك، قال لها يومًا: "لن تفلحى أبدًا فى أشغال الألبان! لقد استنزفت مهارتكم منذ قرون فى فلسطين، ولا بد لأسرتكم أن تخمل ألف عام حتى تسترد القوة والمقدرة على العمل، وجاءنا غلام منذ أيام يطلب عملاً وقال إن اسمه مات، ولما سئل عن اسم أسرته لم يعرفه، فلما سئل عن سبب ذلك قال إن أسرته لم تثبت ولم يصبح لها اسم خاص، فقال مستر كلير: أنت يا بنى طلبتى، ووثب فصافحه قائلاً: أنا أتنبأ لك بمستقبل ناجح، وأعطاه نصف كراون؛ الحق أنه لا يهضم الأسرات العريقة!".

ولما سمعت تس المسكينة هذا الملخص الهزلى لآراء كلير، حمدت الله على أنها لم تفاتحه فى لحظة ضعف فى شأن أسرتها ولم تكن أسرتها من القدم بحيث يصح أن يقال إنها قد دارت دورتها وعادت أسرة جديدة، وعلمت أن عاملة سواها تنافسها فى ذلك الشرف، فأسدلت حجاب الصمت على مدافن دربرفيل والفارس الذى رافق وليم الفاتح والذى أورثها اسمه، وتبين لها مما سمعت عن آراء كلير أنها إنما نالت الحظوة فى عينيه، لتوهمه أنها من أسرة محدثة.

٢٠

ازدهر الفصل ونضج، وقام فوج جديد هذا العام من الأزهار والأوراق والعنادل والعصافير، وغيرها من المخلوقات قصيرة الأعمار، محتلة المواقف التى كانت تقوم فيها زمرة أخرى غيرها فى العام الماضى، حين لم تكن هذه الزمر الجديدة إلا جراثيم وذرات فى عالم التكوين، وكانت أشعة الشمس قد فتحت البراعم ومدتها حتى غدت عيدانا طوالاً وأجرت الماء فى مساربها الخفية، وهدلت الأكمام وأفاحت الشذا من خفى القطرات والأنفاس.

وواصل ساكنو الضيعة من عمال وعاملات حياتهم الوادعة الساكنة، ولعلهم كانوا من أسعد طبقات المجتمع، فقد كانوا فوق ذوى الحاجة والخصاصة، ودون الطبقة التى يفسد فيها التأنق الشعور الطبيعى، ويطمح التحذلق إلى أكثر مما فيه الكفاية؛ وهكذا تقضى ذلك الأوان المونع الذى تورق فيه الأشجار وتملك مشاعر النظار، وكانت تس وكلير يدرس أحدهما الآخر عن غير وعى، وهما يوشكان أن يترديا فى وهدة الحب ولكنهما يحفظان توازنهما فلا يقعان، وإن كانا يزدادان كل يوم تقاربا وتلاقيا، يدفعهما قانون طبيعى لا يقاوم، كما يتلاقى رافدان فى واد.

ولم تشعر تس فى سنينها الأخيرة بمثل السعادة التى كانت تشعر بها الآن، ولعلها لن تشعر بها فيما بعد؛ فقد كان ذلك الوسط يلائمها جسمًا وروحًا، فإن تلك الشجيرة التى امتدت جذورها فى مغرسها الأول إلى طبقة سامة، قد نقلت إلى تربة أخرى أخصب وأعمق، هذا إلى أنها كانت تقف هى وكلير فى تلك المرحلة القلقة بين التعاطف والحب، لم تبلغ بعد مرحلة الجد والخطر، ولم تتألب عليها الأفكار ولم يلج بها التساؤل: "إلى أين يحملنى هذا التيار الجديد؟ ما يكون أثره فى مستقبلى؟ ما صلته بماضى؟".

ولم تكن تس عند كلير إلا ظاهرة عارضة، أو طيفًا ممتعًا جذابًا لم يزد على أن اكتسب فى خلده صفة الثبوت فسمح لفكره أن يتأمل فيها اعتقادًا بأن ذلك التأمل إن هو إلا نظرة الفيلسوف إلى نوع جديد من الأنوثة شائق يانع؛ وكانا يلتقيان بلا انقطاع، ولم يكن لهما عن ذلك معدى، فقد كانا يتقابلان كل يوم فى تلك الفترة الغريبة الساهمة فترة الغلس، وقد بدا الأفق قرنفلى اللون أو بنفسجيه، إذ كان النهوض المبكر ضروريًا لكشط القشدة عن اللبن، بعد الساعة الثالثة بقليل، قبل البدء فى الحلب.

وكان العمال والعاملات يتناوبون مهمة إيقاظ الباقين، بعد أن يستيقظ صاحب النوبة على رنين ساعة منبهة، ولما كانت تس أحدث العاملات قدومًا، وكان الباقون يثقون لذلك أنها لن تواصل النوم رغم رنين الساعة، فقد كان عمل الإيقاظ يعهد إليها عادة، فكانت حالما تسمع دق الساعة ورنينها تهرول من حجرتها إلى باب حجرة صاحب الضيعة، ثم تصعد السلم إلى حجرة إينجل تناديه فى همس مرتفع بعض الارتفاع، ثم تهبط لإيقاظ رفيقاتها، وبينما ترتدى تس ملابسها ينزل إينجل ويخرج إلى الهواء الرطب، أما العاملات الأخريات وصاحب الضيعة فكانوا يتقلبون فى مضاجعهم، ولا يهبون إلا بعد ربع ساعة.

وليس غبش الفجر كغبش المساء وإن تشابها لونًا؛ ففى الفجر يكون النور هو العامل الإيجابى والظلام هو العامل السلبى، على حين يكون الظلام هو الإيجابى المتزايد فى المساء، والنور هو السلبى المتناقص، وإذ كان كلير وتس أول ناهضين فى المزرعة – ولعل ذلك لم يكن دائمًا محض صدفة – فقد كان يخيل إليهما أنهما الإنسانان الوحيدان فى الوجود اليقظانان فى تلك الساعة؛ ولم تكن تس فى أول عهدها هنا تشارك فى كشط القشدة، بل كانت تخرج إلى الفضاء رأسًا، وهناك كانت تجده عادة منتظرًا، وكان ذلك الضوء الشاحب الطيفى المائج الذى يسود الفضاء ويخشى المروج يبعث فيهما الشعور بالعزلة كأنهما آدم وحواء، وكانت تس تبدو لكلير فى ذلك الوقت المبهم المستسر على جانب عظيم من قوة الخلق وقوة الخلق معًا، ولعل بعض السر فى اعتقاده ذلك أنه كان يعلم أن غيرها ممن لهن مثل

مفاتنها الجسمية، لم يكن ليظهرن فى الهواء الطلق أمام ناظريه فى ذلك الوقت المبكر غير المألوف، وندر جدًا من بنات إنجلترا من تحدثها نفسها بمثل ذلك، فإن الحسان ينمن إلى ما بعد الفجر صيفًا، أما هى فها هى ذى أمامه وليس للأخريات وجود.

وكان ذلك الظلام الفذ المختلط بالشعاع الطالع، وهما يسيران معًا إلى مراقد البقر، كثيرًا ما يذكره يوم البعث، ولم يخطر له قط أن مجدلين تسير إلى جانبه، وكان يحدق النظر إلى وجهها، وقد أضاء وسط ذلك الضباب المخيم كأنه قطعة من الفسفور، وكانت تبدو كأنها طيف أو كأنها ليست إلا روحا هائمة، وكان وجهها فى الحقيقة قد ارتسمت عليه أشعة الصباح الباردة المنبعثة من الشمال الشرقي وإن لم يبد كذلك، وكان وجهه هو وإن لم يشعر يبدو لها فى تلك الصورة.

فى ذلك الوقت كانت تقع تس من نفسه أعمق موقع، كما تقدم القول، فلم تكن إذ ذاك حالبة لبن بل كانت صورة مثالية للمرأة، كانت تتجمع فيها كل صفات جنسها وكان يداعبها فيدعوها (ارتميس) ويدعوها (ديمتر) وغير ذينك من الأسماء الأسطورية، فكانت تغضب لأنها لا تفهم مغزاها وتقول وهى تلحظه الخزر: "ادعنى تس"، فيجيبها إلى ما تريد؛ ثم يشرق الضياء رويدًا رويدًا، وتريد سيماؤها سيماء أنثى لا أكثر، وبعد أن كانت سيماء إلهة قادرة على منح السعادة تعود سيماء مخلوق ينشد تلك السعادة.

وكانا فى تلك الساعات الفذة ربما اقتربا من الطيور المائية أشد اقتراب دون أن يفزعاها، فكانت تدنو منهما بعض النحامات ضاربة أجنحتها فى ضجيج كضجة الأبواب والنوافذ تفتح على مصاريعها، خارجة من حرج كانت تأوى إليه بجانب المروج، فإذا كانت فى الماء التزمت موقفها فيه بشجاعة ترقب السائرين مديرة رءوسها على مهل فى حركة أفقية وئيدة، كما تدور العرائس اللولبية.

وكانا بعد ذلك يريان ضباب الصيف الخفيف، فى طبقات مستوية رقيقة كأنها الصوف المندوف، مقطعة تقطيعًا منتشرة على وجوه المروج، وتلوح على الحشيش المغطى بالندى المترقرق آثار رقود البقر ليلا، على شكل جزائر داكنات

الخضرة جافات فى حجم أجسام البقر، متفرقات فى محيط الندى المترامى، وكان يخرج من كل جزيرة أثر متعرج ممتد إلى حيث مشت البقرة للرعى بعد هبوبها من نومها وعند منتهى الأثر كان يجدانها، فإذا عرفتهما نفخت من منخريها نفخة تثير حولها ضبابًا خاصًا بها أكثف من الضباب المنتشر فى كل مكان، وعندها كانا يستاقانها عائدين إلى الحظيرة، أو يحلبانها فى مكانها، حسبما تقتضيه الظروف.

وكان ضباب الصيف أحيانا أشد انتشارًا منه فى العادة، تبدو فيه المروج كأنها نهر أبيض، بتصاعد منه الأشجار كأنها صخور العطب، وتطير فيه الطيور محلقة فى الطبقات العليا من الجو حيث شعاع الشمس، وتظل فى تدويمها تضحى فى دفء تلك الأشعة، ثم تهبط فتجثم على السياج الحديدى الذى يقسم المروج، والذى يلتمع إذ ذاك كقضبان من الزجاج؛ وكانت تعلق بأهداب تس ماسات دقاق من رطوبة الضباب المعلق، وتعلق بشعرها منه قطيرات كاللؤلؤ المنثور، فإذا ما بلغ اليوم أشده وصار منظره عاديًا، تبخرت تلك الحلى وفقدت تس فتنتها الأثيرية العجيبة، ووضحت أسنانها وشفتاها وعيناها فى ضوء الشمس، ولم تعد إلا عاملة الألبان الحسناء، ذات المنافسات الكثيرات.

وكانا حوالى هذا الوقت يسمعان صوت كريك يقرع العمال الآتين من بيوتهم على تأخرهم، ويوبخ العجوز (دبورا فياندر) على عدم غسلها يديها قائلاً: "ناشدتك الله يا (دب) إلا ما وضعت يديك تحت الطلمبة؛ تالله لو علم أهل لندن بعاداتك القذرة، لحاذروا وأحجموا عن تناول اللبن، وإن فيما أقول لعبرة"، ويطرد الحلب حتى يسمع كلير وتس وبقية العاملين مائدة الفطور الثقيلة يجرها مستر كريك من جانب الحائط فى المطبخ، شأنه قبل كل طعام، وشأنه بعد كل طعام إذ تعاد إلى موضعها فى صوتها المزعج المعهود.

٢١

ثارت ضجة فى البيت بعد الفطور، إذ ظلت الممخضة تدور على عادتها زمنًا طويلاً، ثم لم يظهر للزبد أثر، وكان ذلك إذا حدث شل حركة المصنع، وظل صوت اللبن يتردد فى الأسطوانة الضخمة: "سكويش، سكواش"، ولا يتلوه الصوت المنتظر، ووقف الرئيس كريك وزوجه والعاملات تس وماريان ورتى بريدل وإيزهيوت، والعاملات المتزوجات اللواتى أتين من مساكنهن فى الصباح، وكذلك مستر كلير وجوناتن كيل والعجوز دبورا، وقف الجميع ينظرون إلى الممخضة عاجزين، وحملق الغلام الذى يسوق الحصان فى الخارج، إظهارًا لتقديره حرج الموقف، حتى الحصان الكئيب بدا كأنه ينظر من خلال النافذة فى كل دورة قانطًا متسائلاً.

قال صاحب الضيعة فى التياع: "أنا لم أقصد ابن الراقى ترندل فى إجدن منذ أعوام طوال، وهو لا يقاس قط إلى ما كان عليه أبوه، ولقد قلت مرارًا ومازلت أقول إنى لا أعتقد فيه، وإن يكن حاذقًا باستنباط الماء من بواطن الأرض، بيد أنه لا مفر لى من أن أقصده إذا كان لا يزال على قيد الحياة، نعم لا بد أن أقصده إذا استمرت الحال على هذا المنوال!" وجزع الجميع لحالة الرجل حتى مستر كلير، وقال جوناتن كيل: "كان الراقى فول، من سكان الجانب الآخر من كستر بردج ماهرًا جدًا فى طفولتى، ولكنه اليوم رفات بالية"، وعاد مستر كريك يقول: "لقد كان جدى يقصد الراقى مينترن من أهالى أولز كوم، وكان يثنى على مهارته، ولكن أمثال أولئك الأفذاذ لا يوجدون فى هذا الزمان".

أما مسز كريك فلم تنس الأمر الذى هم بصدده، قالت تحاول تعليل ما حدث: "لعل بعض المقيمين بالبيت عاشقون، فقد سمعت فى صباى أن العشق ينجم عنه هذا، ألا تذكر يا كريك تلك العاملة التى كانت تعمل عندنا منذ زمان، وكيف جمد اللبن إذ ذاك؟" قال: "بلى، ولكن الأمر لم يكن على ما تصفين، ولم يكن للعشق فى اللبن أدنى أثر؛ إنى لأذكر كل ما كان جيدًا، وقد انتهى الأمر بتحطيم الممخضة"،

والتفت إلى كلير قائلاً: "كان يعمل عندنا يا سيدى شاب فاجر يدعى (جاك دولوب)، فغازل فتاة من أهل (ملستك)، وخدعها كما خدع كثيرات من قبل، ولكنه رأى نفسه هذه المرة أمام امرأة عسيرة الحساب، ولم تكن تلك هى الفتاة نفسها".

واستطرد: "كنا فى موقفنا هذا يوم الثلاثاء المقدس قبل شم النسيم، وإذا أم الفتاة تتفتل إلى الباب وفى يدها مظلة ذات يد حديدية تكفى لصرع ثور، وقالت: (هل يعمل جاك دولوب هنا؟ فإنى أريده ولى معه خصام طويل)، وكانت ابنتها تسير وراءها تبكى فى منديلها بكاء مرا، ورآهما جاك من الشباك فقال فى نفسه: (يا ويلتا هذا خطب جسيم! إنها قاتلتى لا محالة فأين المهرب؟ لا تخبروها بموضعى نشدتكم) وتسلل من الباب الخلفى واختبأ فى الممخضة، وإذا المرأة تندفع فى الدار صائحة: (أين الشقى؟ أين هو؟ لئن ظفرت به لأهشمن وجهه!) ودارت فى الحجرة تصب على جاك السباب واللعنات، وهو منكمش يكاد يختنق، والفتاة بالباب تقرح عينيها بالبكاء، ولن أنسى ذلك أبدًا فقد كان موقفًا يذيب الصخر! ولكنها لم تعثر عليه".

وسكت كريك برهة وعلق بعض الحاضرين على ما قص، وكانت قصصه تلوح كأنها انتهت ولما تنته بعد، فينخدع السامعون ويعقبون عليها تعقيب من قد سمع الخاتمة، أما أصدقاؤه القدماء فكانوا أعرف به؛ وعاد يقول: "ولست أدرى كيف خمنت المرأة مكانه، بيد أنها اهتدت إلى وجوده فى الممخضة، وكانت تدار باليد إذ ذاك، فتناولت المقبض دون أن تنبس ببنت شفة وأدارته، فراح جاك يلف فى داخلها، حتى أخرج رأسه يقول: (يا إلهى! أوقفوا الممخضة! دعونى أخرج وإلا استحلت خبيصًا!) وكان جبان القلب شأن أضرابه من الرجال".

قال مستر كريك: "فصاحت به أم الفتاة: لا أدعك تخرج حتى تكفر عن عبثك بعذرتها الطاهرة! فصرخ فيها: (أوقفى الإناء أيتها الساحرة العجوز!) فقالت (تدعونى بالساحرة العجوز أيها الخداع، وكان يجب طوال هذه الأشهر الخمسة الأخيرة أن تدعونى بحماتك!) ومضى الإناء فى دورانه وعظام جاك تتقضقض داخله، ولم يجرؤ أحد منا على التدخل، وأخيرًا وعد الشاب وعدًا أكيدًا أن يصلح ما بينه وبينها، وهكذا انقضى ذلك اليوم".

وبينما السامعون يبتسمون معقبين على قصته سمعوا حركة خلفهم، فالتفتوا، فإذا تس تمشى إلى الباب شاحبة الوجه، وقالت فى صوت لا يكاد يسمع: "ما أشد الحر اليوم!" وكان اليوم حارًا حقًا، ولم يعز أحد انسحابها إلى حكاية الرئيس، وسار هذا إليها بساعدها فتح الباب وقال مداعبًا: "عجبًا يا عذرائى الصغيرة! – وكان من دأبه مناداتها بذلك الاسم، غير دار بما فى ذلك من سخرية – إذا كان أول أنفاس الصيف يرهقك هكذا، فسوف نفقد أملح عاملاتنا فى أيام الحر المزهق، ألا ترى ذلك يا مستر كلير؟" فقالت تس فى فتور: " إنما أحس بدوار وسينعشنى الهواء الطلق"، وخرجت دالفة، ولحسن حظها تغير صوت اللبن الدائر فى الممخضة فى تلك اللحظة، وسمع لغطه واضحًا: "فليك، فلوك"، وصاحت مسز كريك: "ها هى الزبد!" وتحول انتباه القوم عن تس.

وسرعان ما استعادت رباطة جأشها، وإن ظلت كئيبة بقية نهارها، ولما انتهت حلبة المساء لم تجد بنفسها ميلا إلى مصاحبة الأخريات، وخرجت تمشى على غير هدى، وقد بلغ منها الغم مذ رأت زميلاتها يعددن حكاية صاحب الضيعة أفكوهة، ولم ينظر أحد سواها إلى جانب القصة المحزن، وكان من المحقق أن أحدا من السامعين لم يخطر له أن تلك القصة قد مست موضع الألم من ماضيها؛ وكانت الشمس الغاربة تبدو الآن قبيحة كأنها جرح ملتهب كبير فى الأفق، ولم يحيها إلا عصفور مبحوح الصوت يزقو من الشجيرات القائمة على ضفة النهر، فى رنة حزينة كئيبة كرفقة صاحبة لها قديمة قد عفت صحبتها.

وكانت العاملات ومعظم سكان الضيعة يأوون إلى مضاجعهم فى أيام يونية تلك المتطاولة عند غروب الشمس أو قبيله، إذ كان العمل الصباحى كثيرًا متراكمًا لكثرة الألبان، وكانت تس عادة ترافق زميلاتها فى الصعود، أما الليلة فقد سبقتهن إلى الحجرة المشتركة واستغرقت فى النوم قبل مجيئهن، ثم رأتهن يغيرن ملابسهن فى ضوء الشمس الغاربة البرتقالى. ثم غلبها النوم ثانية، ولكن أصواتهن أزعجتها مرة أخرى، وأدارت بصرها إليهن فى سكون، ولم تكن زميلاتها الثلاث أوين إلى فراشهن بعد، بل كن متجمعات بجانب الشباك حافيات فى ملابس نومهن، ولا تزال أواخر أشعة الشمس الغاربة تدفئ وجوههن وصفحات الجدران المحيطة بهن.

وكانت ثلاثتهن يراقبن شخصًا في الحديقة بشغف، وقد جمعن وجوههن واحدا إلى الآخر، وكان أحدها مستديرًا طروبًا، والثاني شاحبًا أسود الشعر، والوجه الثالث أشقر يعلوه شعر محمر.

قالت رتي الشقراء وكانت صغراهن، ولم تحول عينيها عن الشباك: "لا تزحميني فأنت تستطيعين أن ترى كما أرى تمامًا"، فأجابت ماريان ذات الوجه الطروب وكانت كبراهن في لهجة ماكرة: "لا فائدة لك كما لا فائدة لي من حبه فإن فكره موجه إلى خدين غير خديك!" وكانت رتي تواصل النظر، وعادت الأخريان إلى التحديق، وقالت إيزهيوت الفتاة الشاحبة ذات الشعر الأسود الرطب والشفتين الحادتين: "ها هو ذا يعود!" فأجابتها رتي: "أطبقي فمك فقد رأيتك تقبلين ظله!" قالت ماريان: "ماذا كانت تصنع؟".

قالت رتي: "كان واقفًا أمام ماعون ماء الجبن يدير الصنبور لينصب الماء، وقد ارتمى ظله خلفه على مقربة من إيز، وكانت هناك تملأ إناء، فاعتمدت على الحائط بيديها وقبلت ظل فمه، وقد رأيتها وإن لم يرها هو"، فقالت ماريان: "مرحى يا إيزهيوت!" فظهرت في وجنة إيز نقطة حمراء، وقالت متظاهرة بعدم المبالاة: "لا ضير في ذلك، وإذا كنت أحبه فإن رتي أيضًا تحبه وكذلك أنت يا ماريان"، ولم يكن وجه ماريان المللئ ليحمر أكثر من تورده العادي، وقالت: "أنا؟ يا لها من أكذوبة! آه ها هو ذا مرة أخرى! لهف نفسي على تينك العينين! لهف نفسي على ذلك الوجه! لهف نفسي عليك يا مستر كلير!".

قالت الأخرى: "ها أنت ذي تعرفين!" قالت ماريان في صراحة لا تبالي: "وكذلك أنت، وكلنا جميعًا، ومن الحماقة ادعاء غير ذلك، وإن لم ينبغ أن نصرح بذلك إلى غيرنا، وددت لو أتزوجه غدا!" فغمغمت إيز: "هذا ما أوده أنا أكثر منك". وهمست رتي وكانت أشد حياء: "وأنا أيضًا"؛ واشتد تيقظ المصغية إلى هذا الحديث. وقالت إيز: "لا يمكن أن نتزوجه جميعًا"، قالت الكبرى: "ولن تتزوجه إحدانا أبدًا، وهذا شر ما في الأمر، ها هو ذا ثانية"، وأرسلن إليه قبلة صامتة، وقالت رتي في لهفة: "ولم؟" فقالت ماريان خافضة صوتها: لأنه أكثر حبًا لتس دربيفيلد، لقد راقبته كل يوم حتى تبين لي صحة ما أقول".

وساد سكوت وتفكير، وأخيرًا تنفست رتى الصعداء وقالت: "ولكن أتحبه هى؟" قالت ماريان: "يخيل إلى أحيانًا أنها تفعل"، قالت إيز متململة: "يا لحماقتكما، من المسلم به أنه لن يتزوج إحدانا ولن يتزوج تس نفسها، وهو ابن أسرة راقية مقبل على مستقبل رفيع! وأقرب إلى المعقول أن نعمل عنده فى ضياعه بكذا فى العام!".

وتنهدت إحداهن، وتنهدت الأخرى، وصعدت ماريان تنهدة كبيرة ملء جسمها البدين، وتنهدت فتاة رابعة راقدة فى الفراش على كثب، وتصاعدت الدموع إلى عينى رتى صغراهن الحسناء الشقراء، آخر زهرات آل باريدل ذوى المكانة العظمى فى صحائف تاريخ المقاطعة؛ وواصلن النظر برهة أخرى ورءوسهن لا تزال مجتمعة، وألوان شعورهن متآلفة، ولكن مستر كلير الذى لم يكن يلاحظ شيئًا مما يجرى كان قد دخل ولم يرينه بعدها، وبدأ الظلام يزحف فتسللن إلى الفراش، وبعد دقائق سمعنه يصعد الدرج إلى حجرته، وسرعان ما ارتفع غطيط ماريان، أما إيز فلم يدركها النعاس بتلك السرعة، وأما رتى بريدل فلم تنشج حتى غلبها النوم. أما تس التى كانت أعمقهن شعورًا فلم يمس الكرى جفونها، وقد كانت تلك المحادثة ثانى جرعة مرة أرغمت على تجرعها فى ذلك اليوم، ولم تكد تحس بأدنى غيرة، فقد كانت واثقة من سبقها فى ذلك المجال، إذ كانت أجمل تكوينا وأحسن تعليمًا وأكمل أنوثة من صاحباتها وإن لم تصغرها منهن إلا رتى، ومن ثم كانت لاتحس بحاجة إلى مجهود كبير من أجل الاستئثار بعطف إينجل دون صاحباتها الوفيات أولاء؛ أما المعضلة التى كانت تمضها فهى: هل ينبغى لها أن تفعل؟

لقد كان من الثابت ألا سبيل لأية منهن جميعًا أن تحل منه مكانًا دائمًا، ولكن كان هناك أمل من اجتذاب إحداهن نظره واستئثارها برعايته مدى إقامته، وكثيرًا ما أدى مثل هذا التآلف – رغم عدم تساوى المتآلفين فى المكانة الاجتماعية – إلى الزواج، وقد سمعت تس مستر كريك مرة يقول إن مستر كلير تساءل يومًا ضاحكًا عن جدوى زواجه سيدة نبيلة الطبقة، يوم تجب عليه مباشرة عشرة آلاف فدان فى

المستعمرات، وتعهد القطعان وحصاد المحصول، وقال إن امرأة فلاحة هى الزوج الملائمة له؛ ولكن تس لا تدرى إن كان جادًا فيما قال، ولم تدر إن كان لها الحق -- وهى التى لا يسمح لها ضميرها أن تدع رجلا يتزوجها بعد ما كان، والتى وطنت عزمها أى توطين على ألا تفعل - فى أن تحول نظر مستر كلير عن الأخريات، لكى تتمتع تلك المتعة القصيرة بصحبته ما أقام فى تلبوثيز.

نزل القوم فى الصباح التالى يتثاءبون. ولكن أعمال كشط القشطة والحلب مضت على سنتها المعتادة، ثم دخل الجميع لتناول الفطور، وإذا الرئيس كريك يذرع الحجرة ضاربًا الأرض بقدميه، فقد أتاه كتاب من أحد عملائه يقول إن زبده حامز، وكان كريك يحمل فى يده سلخة خشب عليها قطعة زبد، وهو يقول: "قسمًا إنه لعلى حق، ذوقوا!" وتجمع حوله منهم نفر، وذاق مستر كلير. وذاقت تس وزميلاتها فى المخدع، وتذوق عامل أو عاملان،، وأخيرًا غادرت مسز كريك مائدة الطعام المنتظرة وجاءت فتذوقت، وصح لديهم أن للزبد طعمًا حريفًا.

وشرد صاحب الضيعة بذهنه بعيدًا ليدرك كنه الطعم، ويتهدى إلى نوع العشب الخبيث الذى هو سببه، وصاح فجأة: "هو الثوم! وقد كنت أحسبه استؤصل من تلك المروج عن آخر عود!". وعندها تذكر بعض العمال القدماء أن حقلاً معينًا جافًا سرحت فيه الأبقار حديثًا، كان فيما مضى سببًا فى إفساد الزبد على هذا النحو، ولم يفطن صاحب الضيعة فى ذلك العهد إلى الحقيقة. وظن الزبد مسحورًا، قال كريك: "يجب أن نفحص ذلك الحقل ثانيًا، لا بد من وضع حد لهذا!".

وتسلح الجميع بالسكاكين القديمة وخرجوا، وكان العثور على ذلك النبات المؤذى يكاد يلوح مستحيلاً وسط الحشيش النامى المتكاثف، إذ لا بد أن وجوده كان مقصورًا على مواضع ضئيلة جدًا ما دام قد فاتت ملاحظته النظر العادى، على أنهم اسقاموا جميعًا صفًا واحدًا، وتعاونوا كلهم لأهمية البحث، وكان صاحب الضيعة على رأس الصف، وبجانبه مستر كلير الذى تطوع للمساعدة، يليهما تس وماريان وإيز ورتى، يلى أولئك "بل لويل" و"جوناثن" والعاملات المتزوجات، وفيهن "بك نبز" ذات الشعر الأسود الصوفى والعينين المختلجتين و"فرانسس" الشقراء المسلولة من جراء رطوبة الشتاء المنبعثة من المروج الممتدة على ضفاف النهر.

وزحفوا فى بطء على قسم من الحقل وعيونهم مشدودة إلى الأرض حتى إذا بلغوا نهايته عادوا على نفس الوجه، بحيث لا تفوتهم بوصة من الأرض إلا أصابتها عين أحدهم، وكان عملاً مضجرًا جدًا، إذ لم يكشف فى الحقل كله أكثر من ستة عيدان من الثوم، ولكن كان طعم ذلك النبت من الخبث، بحيث كانت عضة بقرة واحدة على عود منه، كافية لإكساب منتجات المزرعة كلها فى يوم ذلك المذاق.

ومضوا فى زحفهم وانحنائهم وتحديقهم، على اختلاف بعضهم عن بعض طباعًا وأطوارًا، ومضوا فى صف مستقيم موحد يسير سيرًا هادئًا آليًا، ولو مر بهم عابر غريب ورآهم على تلك الحال، لكان له العذر إذا دعا كل فرد منهم "هودج"، وكان يرتسم على وجوههم – وهم فى زحفهم منحنون أشد انحناء ليتبينوا العيدان – وهج أصفر رقيق منعكس من زهرات "فناجين الزبد"، فكانوا يلوحون كأنهم عفاريت سارية فى ضوء القمر، وإن كانت الشمس تضرب فى ظهورهم على أشد ما يكون الظهر وقدًا.

وكانت نزعة إينجل كلير الاشتراكية قد حدت به إلى مشاركة القوم السراء والضراء، وكان الآن يرفع بصره من حين إلى حين، ولم يكن محض صدفة أن كان يسير إلى جنب تس، وأخيرًا تمتم إليها: "كيف أنت؟" قالت: "بخير وشكرًا يا سيدى"، وبدا هذا السؤال التعارفى وجوابه أمرًا غريبًا؛ إذ كانا منذ نصف ساعة فقط يتبادلان الحديث فى أصرح المواضيع، على أنهما الآن لم يتعديا ذلك الحد فى الكلام، وتابعا الزحف وذيول سراويلاتها تلامس حذاءه، وذراعه يحتك بذراعها أحيانًا.

وأخيرًا صاح صاحب الضيعة بجوارهما وقد عيل صبره: "قسمًا إنى لأحس أن هذا الانحناء يفتح ظهرى فتحًا ويقفله إقفالاً"، وتناهض وعلامات التألم فى وجهه حتى اعتدل قائمًا، وقال يخاطب تس: "وأنت يا عذرائى الصغيرة تس لقد كنت منحرفة منذ يومين، وهذا الانحناء سيورثك دوارًا ظريفًا! كفى إذا كنت تشعرين بالدوخة وعلى الآخرين أن يتموا العمل"، وانسحب كريك، وتأخرت تس، وخرج

مستر كلير من الصف، وبدأ يبحث عن العيدان خبط عشواء، ولما دنا منها دفعها اهتمامها لما سمعته البارحة إلى الكلام، قالت: "ما أجملهما!". قال: "ما أجمل من؟". قالت "إيزهيوت ورتى".

وكانت تس فى صورة حنقها على نفسها قد أجمعت رأيها على أن إحدى هاتين الفتاتين تصلح زوجًا مختارة لمزارع، وعولت على تزكيتهما لديه لتغطيا أمام ناظريه على محاسنها العاثرة الجد؛ قال: "ما أجملهما؟ نعم، هما جميلتان، هما ناضرتا الطلعة، هذا ما رأيته دائمًا". قالت: "ولكن يا لسوء طالعهما! ليس الجمال بباق!". قال: "أجل، ذلك محزن". قالت: "هما أيضًا عاملتان حاذقتان". قال: "نعم، وإن لم تكونا أحذق منك" قالت: "هما أحذق منى بكشط الزبد" قال: "أحقًا؟" وظل كلير يراقبهما، وكانتا تبادلانه نظرًا بنظر، وقالت تس بلهجة الظفر: "لقد تورد وجهها". قال: "وجه من؟" قالت: "وجه رتى بريدل"، قال: "ولم؟" قالت: "لأنك تنظر إليها".

ومهما كان ميل تس إذ ذاك إلى التضحية والإيثار، فلم يكن فى إمكانها أن تزيد قائلة: "تزوج إحداهما إن كنت حقًا تريد عاملة ألبان لا سيدة نبيلة المنبت، ولا تفكر فى زواجى!" وتبعت صاحب الضيعة، وسرها وآلمها معًا أن تخلف كلير، ومنذ ذلك اليوم كانت تتحاماه ولو كان تقابلهما محض اتفاق؛ ومنحت الثلاث الأخريات كل فرصة.

واستنبطت تس من غضون تصريحاتهن لها أن شرف جميع العاملات كان تحت رحمته، وقد أجلته تس لما رأت من حرصه على تجنب ما يمس سعادتهن أدنى مساس، ولم تكن تتوقع مثل ذلك الشعور بالواجب ومثل ذلك الضبط لجماح النفس فى فرد من أفراد الجنس الآخر سواء أكانت مخطئة فى ذلك أم كانت مصيبة، ولولا نبل عاطفة كلير لانفطرت قلوب كثيرات من المحيطات به، ولركبن فى الحياة طريقًا وعرًا.

٢٣

هجم حر يوليه على القوم من حيث لا يشعرون، وخيم على الوادى المنبسط جو ثقيل راكد، شمل الضيعة إنسانها وحيوانها وأشجارها، وهطلت الأمطار ساخنة تزيد الأعشاب التى ترعاها الأبقار ترعرعا. وتعطل صنع الكلأ فى الحقول الأخرى؛ وفى صباح أحد أيام الآحاد، بعد أن حلبت الأبقار وعادت العاملات المتزوجات إلى مساكنهن، راحت تس وصويحباتها الثلاث يلبسن أحسن ثيابهن على عجل، وكن قد اتفقن على زيارة كنيسة ملستك، على مدى أميال ثلاثة أو أربعة. وكانت تس قد أقامت فى الضيعة شهرين، وهذه أولى رحلاتها.

وكانت العواصف قد أبرقت وأرعدت عصر اليوم السابق، حتى جرفت بعض الكلأ من الحقول إلى النهر؛ أما فى هذا الصباح فقد أعقب ذلك الطوفان شمس مشرقة بهجة وجو صاف سجسج، وكان الطريق المتعطف المؤدى إلى "ملستك" تجرى بعض أجزائه فى أشد الوهاد انخفاضًا؛ فلما بلغت الفتيات أخفض موضع إذا السيول المنهمرة قد غمرت الطريق حتى رسَّغت مسافة خمسين ذراعًا، ولم يكن ذلك ليعرقل سبيلهن فى أيام العمل، بل كن يخضن تلك البركة بأحذيتهن العالية غير مكترثات. أما فى هذا اليوم يوم التباهى والظهور، الذى يغازل فيه الجسمُ الجسمَ رغم التظاهر بالانصراف إلى شئون الروح، وفى هذه المناسبة التى يلبسن لها جواربهن البيضاء وأحذيتهن الرقيقة، وأبرادهن بين أبيض وقرنفلى وأرجوانى، التى تظهر على أديمها أصغر نقطة من وحل، أما فى هذه الظروف فكانت البركة عائقًا خطيرًا، وكن يسمعن ناقوس الكنيسة على مدى ميل وقد بدأ يدق.

وصعدن إلى قمة ضفة الطريق ووقفن عليها موقفًا خطرًا، يردن أن يواصلن السير على ذلك النشز حتى يجاوزن البركة. وقالت ماريان: "من كان يتوقع فيضان النهر على هذا النحو فى الصيف؟" وتوقفت رتى يائسة وقالت: "لا سبيل إلى الوصول إلا أن نخوضها أو أن نأخذ طريق تيرنبايك الطويلة، فنصل متأخرات

جدًا!" قالت ماريان: "وإني لأتندى خجلاً حين أدخل الكنيسة متأخرة والأحداق مصوبة إلي، فلا يسكن روعي حتى يبدأ النشيد" وإنهن لفي حيرتهن تلك إذ سمعن رشاشا، وبدا إينجل كلير من المنعطف يخوض الماء صوبهن وعندها خفقت قلوب أربعة في وقت معًا.

وكان ملبسه بعيدًا عن المظهر الديني في ذلك اليوم المقدس، شأن أبناء الورعين المتزمتين من القسس، فقد كان مرتديًا ملابس العمل في الضيعة وحذاءه العالي وفي قبعته ورقة كرنب يبرد بها رأسه، وفي يده منجل تتم به أبهة منظره؛ قالت ماريان: "هو غير ذاهب إلى الكنيسة" ثم غمغمت: "ليته يذهب!" والحق أن إينجل كلير كان يؤثر منابر الصخور على منابر الكنائس في أيام الصيف الصاخبة – سواء أكان مصيبًا أم كان مخطئًا في ذلك، كما يقول المتناظرون المتحفظون – هذا إلى أنه قد خرج في هذا الصباح لينظر إن كان التلف الذي أنزله السيل بالكلأ جسيمًا، وكان قد لمح الفتيات من بعد وإن شغلهن ما هن فيه عن ملاحظته، وكان يعلم أن الماء قد طغى في تلك الناحية وأنه سيعترضن طريقهن ومن ثم أسرع إليهن وفي ذهنه فكرة لم تنضج بعد عن طريقة مساعدتهن، ولا سيما إحداهن.

وبدت الحسان الأربع المتوردات الخدود المتألقات العيون فاتنات في ثيابهن الصيفية الخفيفة، وهن متعلقات بجانب المرتقى كالحمائم ببعض الأعراش، فوقف وهلة يتأملهن من مدى قبل أن يدانيهن، وكانت أذيالهن الرقيقة قد علقت جما غفيرًا من ذباب الحشائش وفراشاتها، وظلت تلك الهوام عاجزة عن الخلاص محبوسة في النسيج الشفاف كأنهن منه في أقفاص، واستقرت عين إينجل أخيرًا على تس وراء الثلاث الأخريات، وكان وجهها يفيض ضحكًا من غمتهن تلك، فقابلت نظرته وسيماؤها تتألق حبورًا.[1]

وتقدم حتى قام من دونهن في الماء، ولم يبلغ الماء أعلى حذائه الطويل، ووقف يتأمل الذباب والفراش المحبوس، وقال يخاطب ماريان التي كانت في الطليعة، ويعني الأخريين الواقفتين خلفها ويتجنب تس: "هل أنتن شاخصات إلى الكنيسة؟ قالت: "نعم يا سيدي، والوقت متأخر جدًا، وإني لأتندى خجلاً حين..."

فقاطعها قائلاً: "سأحملكن واحدة واحدة عبر البركة" فتوردت وجوههن جميعًا كأن قلبًا واحدًا خفق فيهن جميعًا، وقالت ماريان: "لا إخالك تستطيع يا سيدي"، قال: هذه هي السبيل الوحيدة لمروركن، اثبتن في مكانكن، يا للحماقة! لستن من الثقل بحيث يعجزني حملكن؛ بوسعي أن أحمل أربعتكن معًا، والآن انتبهي يا ماريان وضعي ذراعيك حول كتفي هكذا، هلمي، امسكي جيدًا، هكذا".

هبطت ماريان إلى ذراعه وكتفه كما أشار، وسار بها إينجل وقد بدا قوامه النحيل من خلفه كأنه عود باقة هي من فوق مجموعة أزهارها، حتى اختفيا خلف منعطف المرتفع، ولم يعد ينبئ بموضعهما إلا حفيف خطاه في الماء والشريط الأعلى في قبعة ماريان، ثم لاح ثانية بعد دقائق، وكانت إيزهيوت الثانية في ترتيب الوقوف فتمتمت: "ها هو ذا عائد، وعلي أن أطوق عنقه بذراعي، وأنظر في وجهه كما فعلت ماريان" فأجابتها تس: "لا ضير في ذلك"، واستطردت إيز غير حافلة بما قالت تس: "لكل شيء أوان؛ فللعناق أوان، وللامتناع عن العناق أوان، وقد حل الأوان الأول" قالت تس: "تبًا لك يا إيز! أهكذا تقتبسين فقرات الإنجيل؟" قالت إيز: "نعم نعم، إني لأستوعب كل ما أسمع في الكنيسة من الآيات الظريفة".

ولم تكن ثلاثة أرباع هذه المهمة التي أخذها إينجل كلير على عاتقه إلا عملاً عاديًا من أعمال المروءة، وتقدم إلى إيز فهبطت بين ذراعيه في أناة وعيناها تحلمان ومضى بها بخطى مصممة، ولما سمعت خطاه عائدًا كاد قلب رتي يطفر من فوقها خفقانا، ومشى إلى هذه الفتاة الحمراء الشعر؛ وبينما كان يتناولها رنا إلى تس بنظرة أفصح من شفتيه مقالاً: "سأكون أنا وأنت وحدنا عن قليل" وبدا على وجهها أنها قد فهمت، ولم يكن بوسعها إخفاء ذلك، فقد كان بينهما تعاطف.

وكانت رتي المسكينة – على أنها أخف من الأخريات كثيرًا – أشق عبء احتمله كلير في ذلك النهار، وقد كانت ماريان كأنها غرارة من الشعير ثقيلة اختلجت في حملها ساقاه، وكانت إيز من بعدها هادئة معقولة، أما رتي فكانت شعلة من الاضطراب؛ على أنه تخلص منها وتركها في مكانها وعاد؛ وكانت تس تستطيع أن ترى من خلف سياجٍ صويحباتها، الثلاث مجتمعات حيث وضعهن على المرتفع التالي.

والآن جاء دورها، وهالها أن تحس في نفسها عند دنو عيني مستر كلير وأنفاسه ضعف ما أنكرت من تهيج صويحباتها، وكأنها أرادت أن تخفي اضطرابها بالتمنع فقالت: "لعلي أستطيع تسلق جانب النشز، إني أمهر منهن تسلقًا ولا بد أنك تعب جدًا يا مستر كلير"، فقال على الفور: "كلا يا تس"، وقبل أن تشعر كانت جالسة في ذراعيه مستندة إلى كتفه، وهمس إليها ملمحًا إلى الإنجيل: "ثلاث لياهات من أجل راشيل واحدة"، فأجابت متشبثة في حزم بعزيمتها التي وطنت النفس عليها من قبل: "هن فتيات خير مني"، قال: "في غير عيني"، ورآها تتورد لذلك فسار خطوات بلا كلام، حتى قالت: "أرجو ألا أكون شديدة الثقل"، قال: "كلا، فما تكون ماريان؟ يا لها من عبء! إن أنت إلا موجة قد أدفأتها الشمس، وهذا الثوب الموصلي هو الزَّبدَ"، قالت "ما أجمل هذا إن كنت هكذا تراني!".

قال: "ألا تعلمين أني حملت مشقة ثلاثة أرباع هذا العمل لأجل الربع الرابع؟" قالت: "لا"، قال: "أنا لم أكن أتوقع هذا الأمر اليوم"، قالت: "ولا توقعته أنا، لقد طغى الماء فجأة"، بيد أن تردد أنفاسها قد كذب دعواها حين تظاهرت بأنها إنما ظنته يشير بقوله إلى طغيان الماء، وقال: "ويحك يا تس!" واتقدت وجنتاها ولم تعد لاضطرام عواطفها تستطيع النظر إلى عينيه، فخيل إليه أنه يستغل موقفًا عارضًا استغلالا غير كريم، فلم يزد، ولم تكن كلمات الحب قد جرت على لسانيهما بعد، ورأى الأجمل الوقوف عند ذلك الحد، على أنه سار على مهل كي يطيل المسافة جهد المستطاع.

وأخيرًا وصلا إلى المنعطف وأصبحا بمرأى من الأخريات، ثم بلغ الأرض الجافة وأنزلها، ورأت تس صاحباتها ينظرن إليها وإليه بعيون متأملة مستطلعة، وبدا لها أنهن كن يتحدثن في أمرها، وحياهن على عجل وانفتل راجعًا يخوض الماء، وتقدم الأربع من جديد حتى قطعت ماريان الصمت بقولها: "الحق ألا أمل لنا إزاءها"، ونظرت إلى تس في وجوم، فقالت هذه: "ماذا تعنين؟"، قالت: "هو أشد إيثارًا لك وشغفًا بك، لقد رأينا ذلك واضحًا وهو يحملك، وكان بوده لو يقبلك لو شجعته أدنى تشجيع"، فقالت تس: "لا،لا".

وزايلهن الاغتباط الذى بدأن به رحلتهن، على أنه لم يكن بينهن حسد أو حقد، فقد كن فتيات كريمات النقيبة، فقد نشأن فى أركان الريف المنعزلة حيث يسود الاعتقاد بالقضاء والقدر، فلم يلمنها بل آمنَّ أن تقدمها عليهن قدر محتوم؛ أما تس فكانت فى مضض شديد، فلم يكن يخفى عليها أنها تحب إينجل كلير حبًا جمًا، لعل مرجع بعضه علمها أن الأخريات يحملن له نفس الحب، فإن عاطفة الحب تعدى لا سيما بين النساء، بيد أن هيامها هى زاد الأخريات حرارة، وقد قاومت تس ذلك الميل بما طبعت عليه من وفاء، ولكن كانت مقاومتها ضعيفة تلتها النتيجة المحتومة.

ولما احتوتهن حجرة النوم فى ذلك المساء قالت لرتى ودموعها تجرى: "لن أقف فى سبيلك ولا فى سبيل أية واحدة منكن، إن هذا الأمر يعجزنى، فلست أحسبه يفكر فى الزواج ألبتة، ولكن هبى أنه سألنيه فسأرفضه كما سأرفض أى رجل"، فعجبت رتى وقالت: "ترفضين؟ لماذا؟"، قالت تس: "هذا محال، ولكن دعينى أصارحك أنه حتى ولو لم أكن هنا لم يكن ليختار أية منكن"، فقالت رتى فى زفير: "لم أتوقع ذلك يومًا ولا خطر لى ببال أنه يفعل، ولكن... ليتنى مت قبل هذا!".

كانت الفتاة المسكينة نهب شعور لا تعرف كنهه، والتفتت إلى الأخريين وقد ظهرتا صاعدتين فى الدرج وقالت: "نحن وهى صديقات من جديد، إنها لا تأمل أن يتزوجها أكثر مما نأمل"، وهكذا ارتفع لثام التحفظ وأقبلن يتحدثن فى صراحة وحرارة، قالت ماريان وقد بلغ منها الوهن: "أنا لم أعد أبالى ما أصنع، لقد كنت أنوى زواج عامل ألبان فى ستكلفورد، تقدم إلى مرتين، ولكنى والله أوثر أن أبخع نفسى على أن يبنى بى الآن! لماذا لا تتكلمين يا إيز؟" فغمغمت إيز: "أنا أعترف أنى كنت واثقة أنه سيقبلنى هذا الصباح وأنا فى ذراعيه، وقد سكنت فى حضنه مستسلمة للأمل لا أتحرك، ولكنه لم يفعل، أنا لم أعد أطيق البقاء هنا فى تلبوثيز، وسأعود إلى بلدى".

وكان جو الحجرة كأنه يخفق خفقان عاطفة الفتيات البائسة، ورحن يتململن ويتحرقن تحت كل تلك العاطفة القاهرة، التى أرهقتهن بها سنة الطبيعة، تلك العاطفة التى لم يتوقعنها ولم يردنها، وقد أظهرت حادثة ذلك اليوم النار التى كانت تضطرم تحت أضلاعهن وأبرزت شعلتها، ولم يعدن يطقن اصطبارا، ومحت هذه العاطفة المشتركة ما بينهن من فروق فردية، ولم تعد كل واحدة منهن إلا جزءًا من مجموع هو الجنس، وكانت الصراحة مطلقة بينهن والغيرة معدومة، لأن الأمل كان مفقودًا.

كانت كل منهن على جانب من حسن البصر بالأمور، لا يعميها عن الحقائق غرور، ولا تنكر حبها ولا تدعى ما ليس فيها تحاول الظهور على الأخريات، وقد أورثهن تمام إدراكهن عقم غرامهن وعدم تجاوب صداه فى الجانب الآخر، وإعواز كل مبرر لوجوده فى نظر المدينة، وإن لم يعوزه شيء فى نظر الطبيعة، وتحليقه بهن إلى عنان العاطفة المتحكمة – أورثهن كل ذلك تسليما وسمو نظرة كان يقضى عليهما قضاء مهيبًا لو كان لديهن أمل فى الظفر بصاحبهن والفوز بزواجه.

ورحن يتقلبن فى مضاجعهن الصغيرة، وقطرات ماء الجبن تتساقط من الآلة فى الطبقة السفلى من البيت تساقطًا راتبًا مملاً، وبعد نصف ساعة همست إحداهن: "أما تزالين يافظة يا تس؟" وكان ذلك صوت إيزهيوت، فأجابت تس إثباتًا، وعندها قذفت رتى وماريان غطاءيهما عن جسديهما وتنهدتا قائلتين: "ونحن أيضًا!" وقالت إحداهن: "ليت شعرى كيف تلك السيدة التى يقال إن أهله اختاروها له؟ أنا لم أسمع بها من قبل" قالت: "نعم هذا ما يشاع همسًا، وهى سيدة من طبقته، أبوها دكتور فى الإلهيات يقيم على كثب من أبرشية أبيه، ويقال إنه لا يهواها ولكن من المحقق أنه سيتزوجها".

ولم يكن قد سمعن عن هذا الأمر إلا النزر اليسير، ولكنه كان كافيًا ليشدن منه هياكل ضخمة من الرؤى المؤلمة تحت حاشية الليل، وتخيلن تفاصيل إقناع أهليه إياه بالقبول، وحفلة الزفاف، وسعادة العروس، وثوبها، وخمارها، وبيتها السعيد معه، وقد سحب عليهن وعلى هيامهن به ذيل النسيان، وهكذا استطردن فى الحديث والتأوه والنحيب حتى مسح النوم برقاه أحزانهن.

وبعد اطلاع تس على ذلك السر ودعت كل خاطر أحمق يحدثها بأن وراء احتفاء كلير بها طائلا أو مغزى مقصودًا، إن هو إلا إعجاب بوجهها لمجرد الإعجاب سيذهب بذهاب الصيف، وكان أوجع ما وخزها من تلك الفكرة الأليمة إحساسها أنها – وهي التي تحظى دون الأخريات بإيثاره، والتي تعلم أنها أجمل وأبرع وأعمق شعورًا منهن جميعًا – كانت في نظر العرف واللياقة أقل جدارة به من المتواضعات اللواتي أعرض عنهن.

٢٤

كان من المحال، وقد نضجت الطبيعة فى وادى فروم، وسرت الحرارة فى أوصالها، وكاد يسمع دبيب الماء فى عيدانها وصوت التفتح والإخصاب فى أوراقها وبراعمها، ألا تتحول أنفه العواطف حبًا حارًا، وقد زادت القلوب المتفتحة اضطرامًا بفعل ذلك الوسط، وتصرم شهر يوليو، وتلته أيام كأنها مجهود من الطبيعة تبذله لتأليف القلوب فى ضيعة تلبوثيز، وآض هواء ذلك المكان الراكد ثقيلاً على الأعصاب، بعد أن كان منعشًا فى الربيع وأوائل الصيف، وعادت روائحه شديدة الوطأة؛ وإذا ما حلت الظهيرة بدت الطبيعة كأنها نشوى، وجففت تلك الحرارة المحرقة مراعى المنحدرات العليا، بينما ظلت ضفاف الغدران خضراء زاهية، وكان كلير واقعًا بين نارين: حر الطبيعة من الخارج، وحر هيامه من داخل نفسه بتس الوديعة الصامتة.

كانت المرتفعات قد جفت بعد إقلاع السماء، فكانت عربات عجلة كريك إذا قفل من السوق مسرعًا تلعق تراب الطريق السافى، ويتبعها حيث مضت شريطان طويلان من الغبار كأنهما سلكان أوقدا لإشغال قنبلة؛ وكانت الأبقار تتوثب هائجة على بوابة الحظيرة ذات القضبان الخمسة، وقد أطارت صوابها وخزات الذباب الكبير؛ وكانت ذراعا كريك دائمًا مشمورتين من الأثنين إلى السبت، ولم يعد فتح النوافذ يكفى للتهوية إلا أن تفتح معها الأبواب، وكانت العصافير تزحف فى الحديقة زحف ذوات الأربع لا توثب ذوات الجناحين، وانتشر الذباب فى المطبخ كسلان متطفلا محنقًا، يزحف فى كل مكان من الأرض إلى الأدراج إلى ظهور أيدى الحالبات، وكان الحديث يدور غالبًا حول ضربة الشمس، وكاد يستحيل صنع الزبد بلا حفظه؛ وأصبح القوم لا يحلبون إلا فى المروج طلبا للبرودة والسهولة، بدل سوق الأبقار إلى الداخل، وكانت البهائم هناك طول اليوم تدور صاغرة ذليلة مع ظل أصغر شجرة كلما تقدم النهار، ولا تكاد تقر فى مكانها ساعة الحلب من لدغات الهوام.

فى عصر أحد تلك الأيام اتفق وقوف أربع بقرات أو خمس ناحية من بقية القطيع خلف ركن السياج، وكانت بينهن دمبلن وبريتى العجوز اللتان تؤثران يدى تس، وفرغت تس من حلب بقرة أخرى ونهضت، وكان إينجل كلير يراقبها منذ حين، فعرض عليها حلب البقرات سالفات الذكر، فوافقت فى صمت ويممتهن، حاملة مقعدها فى ذراعها الممدودة وحلابها بيدها الأخرى مسندًا إلى ركبتها، وسرعان ما تصاعد من خلف السياج خرير لبن بريتى العجوز فى الوعاء، ورأى إينجل أن يذهب هو أيضًا وراء الركن ليفرغ من حلب بقرة حرون قد تسربت هناك. وكان قد حذق ذاك حذق صاحب الضيعة نفسه.

وكان جميع الحالبين وأكثر الحالبات عند العمل يجعلون جباههم فى جانب البقرة وينظرون إلى الحلاب، ولكن بعض النساء ولا سيما الشواب كن يسندن صفحات وجوههن إلى البهائم، وتلك كانت عادة تس، فكان جانب وجهها ملتصقًا إلى جانب البقرة ونظرتها ذاهبة إلى أقصى المرج، كأنها غارقة فى التأمل، وكانت تحلب بريتى العجوز، وقد سقطت أشعة الشمس على جلبابها القرنفلى وقلنسوتها البيضاء وصفحة وجهها، فكأن صفحة وجهها حجر ثمين متألق اللون رصع به أديم البقرة الأدكن.

ولم تكن تعلم أن إينجل قد تبعها، وأنه كان جالسًا إلى بقرته يراقبها وكان رأسها وملامحها ساكنة على حال رائعة، وكانت عيناها مفتوحتين ولكن كأنهما لا تبصران وكأنها فى غيبوبة، ولم يكن يتحرك فى تلك الصورة إلا ذيل بريتى ويدا تس القرنفليتان، وكانت يداها تتحركان فى رفق كأنهما تتابعان توقيعًا موسيقيًا، وكأنهما تتحركان حركة تلقائية كنبض القلب، وما كان أحب وجهها إليه إذ ذاك، على أنه لم يكن وجها أثيرى المنظر بل كان حقيقيًا يفيض حرارة وحياة.

وطالما رأى إينجل عيونًا عميقة ناطقة كعينيها من قبل، وخدودًا كخديها ناضرة، وأهدابًا مقوسة وذقنًا وجيدًا صقيلين، ولكنه لم ير فمًا يحكى فمها أبدًا: فقد كان ارتفاع وسط شفتيها العليا ساحرًا جذابًا يبعث الجنون إلى رأس أقل الشبان حرارة، ولم ير قبلها شفتين وأسنانًا تذكره دائمًا بتشبيه الشعراء الإليزابثيين للفم

بوردة حشيت بردًا. ولعله كان لتوقد حبه يعد شفتيها وأسنانها صورة للكمال، ولكن الحق أنها لم تكن كذلك، وقد كان تقصيرها دون الكمال وإشرافها مع ذلك على بلوغه مرجع تلك الملاحة، لأن ذلك كان مظهر الإنسانية فيها.

وقد درس كلير تينك الشفتين مرارًا حتى صار من السهل عليه استحضارهما فى مخيلته، والآن إذ رآهما أمامه مرة أخرى يكسوهما الضوء والحياة، فقد أرسلا إليه خلجة كاد يقشعر لها بدنه، وأثرت فى جسمه تأثيرًا خفيًا انتهى بعطاسه، وعند ذلك انتبهت إلى أنه يراقبها، ولكنها لم تظهر ذلك بأدنى حركة، وإن زايل محياها ذلك السهوم العجيب الشبيه بالحلم، وكان فى استطاعة من يراها من أمم أن يلاحظ اشتداد تورد وجهها، ثم انقشاع ذلك التورد إلا أثرًا منه ضئيلاً.

أما الشعور الذى سرى فى كلير كأنه وحى من السماء فلم ينقشع، وانخذلت إرادته وتصميمه وكبحه للنفس والتزامه للحكمة ومخاوفه، كما تتخذل كتيبة مهزومة، ووثب من مقعده، وخلف محلبه عرضة للانكفاء إذا فكرت البقرة فى رفسه، وأسرع إلى قبلة ناظريه، وركع بجانبها وضمها بين ذراعيه، وأخذت تس على غرة فاستسلمت لعناقه بلا وعى، وإذ تحققت أنه محبوبها لاغيره هو الذى أقبل عليها على ذلك النحو، انفرجت شفتاها وارتمت عليه فى غبطتها الغاشية، صائحة صيحة ارتياح خافتة، وأوشك أن يقبل ذلك الثغر المغرى ولكنه ازدجر بوازع نفسى.

وهمس إليها: "مغفرة يا عزيزتى تس: كان ينبغى لى أن أستأذن، ولكنى لم أع ما كنت أفعل، ولم أقصد التهجم عليك ولكنى متيم بك يا عزيزتى تس مخلص القلب"، وكانت ريتى العجوز قد التفتت متعجبة، وإذ رأت شخصين جاثمين دونها وعهدها من قديم ترى شخصًا واحدًا، رفعت خلفيتها فى غضب، فصاحت تس: "إنها غاضبة، هى لا تدرى ما نفعل وسوف تكفأ اللبن!" قالت ذلك وهى تحاول فى رفق أن تتخلص من ذراعيه، وعيناها تتابعان حركات البهيمة وقلبها أشد انشغالاً بأمرها هى وكلير، وهمت قائمة وقام بجانبها، وما زالت ذراعه تطوقها، وشخصت عينا تس إلى بعيد وترقرقت فيهما الدموع، قال: "لماذا تبكين يا عزيزتى؟" فغمغمت: "لا أدرى".

وثابت إلى نفسها قليلا وشعرت بموقفها فاضطربت وحاولت الانسحاب، فقال وهو يتنهد تنهدة يائسة كمن غلبته عاطفته على حكمته: "لقد بحت بشعورى يا تس أخيرًا، وما بى حاجة أن أقول إنى أحبك حبًا صادقًا حارًا، ولكنى لن أزيد، لأنى أرى ذلك يحزنك، وإنى لمدهوش دهشتك، إنما أرجو ألا تحسبينى مستغلاً ضعفك ولا تعدينى متهورًا مندفعًا" قالت: "لا، لا أدرى".

وكان قد أرسلها، وما هى إلا وهلة حتى عاد كلاهما إلى الحلب، ولم يكن أحد قد لاحظ تقارب الاثنين وصيرورتهما واحدًا، ولما جاء صاحب الضيعة بعد دقائق إلى تلك الناحية لم يكن هناك أدنى دليل على أن بين ذينك الشخصين المتباعدين فى الجلسة تباعدًا بينًا، أكثر من معرفة سطحية، ولكن شيئًا كان قد حدث منذ رآهما كريك لآخر مرة، فغير وجه الكون أمامها، شيئًا كان يحتقره ذلك الرجل العملى لو علم به، وإن يكن أعمق غورًا وأوطد أساسًا من ألف مطلب مما يسمى بالمطالب العملية؛ لقد أميط اللثام، واتجهت سيرة كل منهما إلى أفق جديد، يتجهان إليه زمنًا يطول أو يقصر.

النتيجـــة

٢٥

زحف الليل وبلغ الملال من كلير، فخرج فى الظلام وقد أوت صاحبة هواه إلى مضجعها، وكان الليل ساخنًا جافًا كالنهار، لا رطوبة إلا على العشب، وكانت الطرق وممashى الحديقة وواجهة المنزل وجدران الحظيرة ساخنات كالمواقد، تعكس الحرارة التى كسبتها فى الظهر على وجه ذلك المدلج؛ وجلس على البوابة الشرقية للفناء، ولم يدر كيف يفكر فى نفسه فقد محق شعوره فكره فى ذلك اليوم، وقد ظل المحبان متنابذين بعد تلك المعانقة منذ ثلاث ساعات، وقد أذهلها ما حدث ولعله هالها، وأزعجته جدة الحادث ومفاجأته وتغلب الظروف على إرادته رغم ما هو عليه من إدمان للتفكير وإحجام عن التهور، ولم يكد يدرك بعد ما بينهما من علاقة، وكيف ينبغى لهما أن يظهرا أمام الآخرين من الآن فصاعدًا.

لقد جاء إينجل إلى هذه الضيعة متتلمذًا ظانًا أن مقامه بها سيكون أتفه مراحل حياته، يمر بها سريعًا وينساها وشيكًا، جاء إليها ليرقب من ملجئها المنعزل الهادئ دنيا الناس الخارجية العجاجة، ويخاطبهم بقول وُوْلْت ويتْمَنْ: "يا جماعات الرجال والنساء المرتدية ملابسها العادية: ما أعجبك فى عينى!" ويصمم على خطة للانغمار فى العالم من جديد؛ ولكن ما راعه إلا أن يسعى إليه العالم العجاج حيث هو، واستحال العالم الخارجى إلى مشهد سحيق مقفر من المتعة غير جدير بالاهتمام، على حين اضطرم فى نفسه من المشاعر الجائحة فى هذا المكان المغمور البادى الإقفار، ما لم يضطرم فيها من قبل فى أى مكان.

وكانت نوافذ المنزل مفتوحة جميعًا، فكان فى وسع كلير أن يسمع أخفت حركات القوم داخله وهم يأوون إلى مراقدهم، وكان ذلك المنزل من الحقارة وضيعة الشأن بحيث لم يهتم قبل اليوم بالنظر إليه؛ واعتباره جزءًا ذا بال من المنظر الطبيعى المحيط به، ولم يكد يعده إلا مقامًا له فى رحلة قصيرة المدى

محدودة الغرض أما الآن فكيف استحال؟ لقد بدت شرفاته العتيقة المغطاة بطفيلي النبات كأنها تناجيه: "أقم!" وكأن النوافذ تبسم والباب يداعبه ويستدعيه، والنبات المتسلق متورد خجلاً من اشتراكه في السر؛ لقد كانت داخل المنزل شخصية لها من التأثير البعيد المدى ما ينتشر في الآجر والملاط، بل في السماء التي تظله، وتجعل جميع ذلك يتوقد حرارة وشعورًا، شخصية من تلك؟ شخصية عاملة ألبان.

لقد أصبح لحياة تلك الضيعة المغمورة منزلة في نفسه عجيبة، وكان الحب الجديد بعض السر في ذلك، ولكنه لم يكن كل السر، وقد أدرك الكثيرون قبل إينجل أن عظم الحياة لا يقاس بضخامة أحوالها وظروفها المحيطة بل بعمق تجارب المرء الشخصية، فحياة الفلاح الرقيق الحس أرحب وأعمق وأحفل من حياة ملك بليد الطبع، ولما أدرك إينجل تلك الحقيقة أيقن أن الحياة يمكن أن تبلغ من العظم في هذا المكان مثل التي تبلغ في مكان آخر.

وكان كلير على زيغ عقيدته ومغامزه ومثالبه رجلاً حي الضمير، فلم يكن يعد تس مخلوقة حقيرة الشأن يلهو بها ثم يصرفها، بل امرأة تحيا حياة ذات قيمة، حياة تقاسيها أو تنعم بها، ولها في نظرها من الخطر والكبر ما لحياة أعظم العظماء في نظر نفسه، فقد كانت الدنيا في نظر تس متوقفة على مشاعرها، ووجود الآخرين في نظرها نتيجة لتجاربها، ولم يوجد هذا الكون في فكرها إلا في نفس السنة ونفس اليوم الذي ولدت فيه.

على هذا الشعور في الوجود وغل كلير: على فرصة تس الوحيدة في الحياة التي منحها إياها باريها فكيف يعدها أقل شأنًا من نفسه ويراها شيئًا جميلاً تافهًا يغازله حينًا ثم يسأمه؟ وكيف لا يجد أشد الجد في معالجة تلك العاطفة التي كان واثقًا أنه قد أثارها في نفسها، بعدما رأى من بليغ تأثرها وعظيم وجدها رغم تحفظها الشديد؟ إنه إن لم يفعل أدخل على نفسها الألم وجرها إلى الوبال.

وهما إذا استمرا على التلاقي كل يوم ازداد الأمر بينهما توثقًا، واشتد هيامهما ما داما يعيشان على قرب، ولا طاقة للحم والدم بمقاومة ذلك؛ ولما لم يكن قد استقر رأيه على قرار في عاقبة هذا الميل، فقد صمم على الانقطاع في الوقت

الحاضر عن كل عمل يجمع بينهما، ولم يكن الأمر قد تفاقم بعد، على أن ذلك التصميم كان متعذر التنفيذ؛ فقد كانت كل نبضة من نبضات قلبه تدفعه إليها، ففكر فى زيارة أصدقائه لعل عندهم فى ذلك رأيًا؛ ولم يكن باقيًا على انقضاء مقامه فى هذه الضيعة إلا خمسة أشهر، وبعد أشهر أخرى فى ضياع أخرى يصبح تام البصر فى الشئون الزراعية كفؤاً لبدء حياته المستقلة، أفلا يحتاج الفلاح إلى زوج؟ وهل ينبغى أن تكون زوج الفلاح فتاة ناعمة حلس منتديات أم امرأة حاذقة بالفلاحة؟ رد السكون على تساؤله هذا ردًا أرضاه، ولكنه صمم مع ذلك على الرحيل.

قالت إحدى العاملات وقد جلس الجمع إلى مائدة الفطور ذات صباح إنها لم تر مستر كلير ذلك اليوم، فقال كريك: "لقد ذهب مستر كلير إلى بلدة إمنستر ليقضى أيامًا بين أهله" فانكسف ضوء الشمس فجأة فى عيون المتيمات به من بين الجالسين، وخفضت الأطيار فى مسامعهن أصواتها، ولكنهن لم يبدين جزعهن بقول أو إشارة، واستطرد صاحب الضيعة فى غفلة لم يدر سوء موقعها على السامعات: "لقد أوشكت إقامته عندى أن تنتهى، ويظهر أنه قد بدأ يرسم خططه فى جهات أخرى" وكانت إيزهيوت هى الوحيدة بين الزمرة المحزونة التى تجاسرت على الكلام دون أن تخشى أن يخونها صوتها، قالت: "كم من الزمن سيقضى معنا؟" وانتظرت الأخريات جواب الرئيس كأن الحياة تتوقف عليه، ورتى منفرجة الشفتين تحملق إلى غطاء المائدة، ووجه ماريان الأحمر يتقد حرارة وتس خافقة القلب شاخصة الطرف إلى المروج فى الخارج.

قال كريك فى قدَامته المعهودة التى لا تطاق: "لا يمكننى تحديد اليوم حتى أنظر فى مذكراتى، وربما حدث تغيير بسيط وسيبقى هنا حتى يتمرن على نتج البقر فهو باقٍ إلى انصرام الحول على ما أظن" فأيقن الفتيات بأربعة شهور حافلة بالصبابة واللوعة، أو باللذة المشوبة بالألم، ثم يعقب ذلك ليل حالك.

وكان إينجل كلير فى تلك الساعة راكبًا يقطع طريقًا ضيقًا على مدى عشرة أميال من أولئك الجالسين إلى فطورهم، يقصد مسكن أبيه القس، يحمل فى صعوبة سلة تحوى بسيسة وزجاجة فيها نبيذ ريفى، قد حملتهما إياه مسز كريك إلى والديه

مشفوعتين بأكرم تحياتها، وكان الطريق الأبيض ممتدًا أمامه وعيناه شاخصتين إليه؛ إنه يهواها: أفيتزوجها؟ أيجرؤ أن يتزوجها؟ ماذا يقول أبوه وأخواه؟ ماذا يقول هو نفسه بعد عامين من الزواج؟ لقد كان هذا يتوقف على توثق الألفة الروحية بينهما بجانب العاطفة العارضة، أو الاقتصار على الولوع بحسنها الجسدى ولوعًا سطحيًا وشيك الذهاب.

أخيرًا ارتفعت أمام عينيه بلدة أبيه المحاطة بالتلال، وبرج الكنيسة المبنى من القرميد على الطراز التيودورى، والأجمة القائمة بجانب مسكن القس، وساق مطيته إلى البوابة المعهودة، وقبل أن يدخل رمى ببصره ناحية الكنيسة، فرأى زمرة من البنات واقفة أمام حجرة المسوح فى الكنيسة، كأنهن ينتظرن قادمة أخرى، وسرعان ما لاحت هذه من بعد وكانت أسن من أولئك التلميذات ترتدى قبعة عريضة الحافة وجلبابًا صوفيًا ناعمًا منشى، وفى يدها كتابان وكان كلير يعرفها حق المعرفة، ولم يدر ألا حظته أم لا، وود ألا تكون لمحته لأنه لم يكن يريد أن يذهب إليها ويحادثها، وإن لم يكن فيها عيب، وجعلته كراهيته لتحيتها يقرر أنها لم تره، وكانت تلك مس ميرسى تشانت، وحيدة جارهم وصديقهم التى كان أبواه يأملان أن يتزوجها يومًا، وكانت جيدة البصر بالإنجيل تقول مع القائلين إن أحكام العهد الجديد تنسخ ما عداها، وكانت على ما يظهر آتية لإعطاء درس فى ذلك؛ وطار فكر إينجل عائدًا إلى سكان وادى فار غير المثقفين الغارقين فى وهج الصيف، الموردى الخدود، القليلى الاحتفاء بالمذاهب الدينية، المستوفزى الشعور، ولا سيما واحدة منهن هى أحدّ الجميع شعورًا.

كان إينجل قد قرر بغتة أن يشخص إلى إمنستر، ومن ثم لم يكن قد أخطر أبويه، ولكنه كان يقصد أن يصل ساعة الفطور قبل أن يخرجا إلى واجباتهما فى الأبرشية، على أنه تأخر قليلاً وكان القوم قد جلسوا إلى المائدة، فما كاد يدخل حتى وثبوا يرحبون به، وكان الحاضرون أبويه وأخاه القس فيلكس قس إحدى البلدان المجاورة، وقد جاء يقضى نحو أسبوعين، وأخاه كثبرت العالم بالآداب القديمة وأحد العمداء والزملاء بكليته، وقد جاء من كمبردج فى زيارة طويلة وكانت أمه ترتدى قلنسوة ونظارة فضية، وكانت تبدو على أبيه سيماؤه الحقيقية: سيماء الرجل الجادّ

الذى يخشى الله، وكان يميل إلى النحافة فى نحو الخامسة والستين، وجهه شاحب قد غضنته السنون والأفكار، وكانت تتدلى على رءوسهم صورة أخت إينجل، كبرى الإخوة التى تكبره بست عشرة سنة، وكانت قد تزوجت مبشرًا ورحلت إلى إفريقيا.

كان مستر كلير الأكبر قسًا من طراز بدأ يندثر فى الأعوام العشرين الأخيرة؛ فلقد كان خليفة روحيًا لويكليف وهوس ولوثر وكلفن رجال الإصلاح الدينى، شديد التعلق بالإنجيل واهبًا نفسه لنشر تعاليمه، يمارس بساطة الحواريين فى فكره ومعيشته، قد ارتضى لنفسه فى صباه آراءً جازمةً فى كل مشكلات الوجوه، ثم أبى بعد ذلك أن يقبل فيها جدالاً، وكان أبناء جيله ومدرسته أنفسهم يعدونه متطرفًا، على أن معارضيه كانوا لا يسعهم إلا الإعجاب بمضاء إيمانه وانصرافه بكليته عن مناقشة المبادئ إلى تطبيقها، وكان العهد الجديد فى نظره يمت إلى بولس بأكثر مما يمت إلى المسيح، ويبدو له نشوة روحية لا معرضًا للجدال النظرى، وكان يؤمن بالجبر إيمانًا صارمًا كاد يرتد رذيلة، وكان إيمانه هذا من جانبه السلبى فلسفة إنكارية شبيهة بفلسفة شوبنهاور وليوباردى، وكان يحتقر الطقوس والرموز فى الدين، وكان يقسم بالمواد التسع والثلاثين التى يتألف منها قانون الكنيسة الإنجليزية، وكان على تناقض تلك المواد لا يرى فى إيمانه بها أى تناقض، على أنه أية كانت آراؤه كان مخلصًا فى اعتناقها.

ولو عرف بالتساؤل أو بالتخيل تلك الحياة الطبيعية التى كان يحياها ابنه إينجل منذ حين فى وادى فار، بمتعاتها الحسية الوثنية وعنصرها النسائى الناضج المستوفز، لثار عليها ضميره غضبًا وأنكرها إنكارًا؛ وكان إينجل قد ساقه نحس الطالع إلى أن قال لوالده يومًا فى ساعة ضيق، إن الناس كانوا يكونون أسعد حالاً اليوم لو أتاهم دينهم من بلاد الإغريق لا من فلسطين، وغضب لذلك أبوه وكمد أشد الكمد دون أن يظن أقل الظن أن ابنه ربما كان قد أصاب ذرة من الصواب، وإنما ظل بعد ذلك يثقل على ابنه بالوعظ؛على أن طيبة قلبه كانت تأبى أن يطول به الحنق، وقد استقبل ابنه اليوم ببسمة بارة كبسمات الأطفال.

وجلس إينجل وأحس أنه فى داره، بيد أنه لم يعد يرى نفسه واحدًا من أعضاء تلك الأسرة المجتمعة، وكان يشعر بهذا الافتراق كلما زارهم، وقد بدت له حياتهم فى هذه المرة أشد اختلافًا عن حياته مما عهدها من قبل، فكانت مثلهم العليا المؤسسة من حيث لا يشعرون على نظرة إلى الحياة عتيقة، تعد الأرض مركز الكون من فوقها الجنة ومن تحتها النار، بعيدة عن فكره كأنها أحلام قوم يعيشون على كوكب آخر، فقد كان منذ حين يعيش فى أحضان الطبيعة ويشعر بنبض هذا الوجود الرحب، لا تغلله ولا تنوء به تلك العقائد الحمقاء، التى تحاول أن تمحق غرائزنا حيث تقضى الحكمة بمجرد تنظيمها.

ولاحظوا هم من جانبهم اختلافًا شديدًا فيه عن إينجل القديم، ولاحظ أخواه خاصة اختلاف عاداته ومسلكه؛ فقد تطبع بأحوال الفلاحين يجلس منفرج الرجلين كجلستهم، وصارت عضلات وجهه أظهر تعبيرًا، وعيناه تشاركان لسانه فيما يقول أو تزيدان عليه، وقد كاد يغيض مظهر طالب العلم المثقف، بله مظهر الشاب المهذب حليف المجالس، فلو رآه متحذلق بالعلم لقال إنه فقد ثقافته، أو متأنق فى المسلك لقال قد انقلب فظًا غليظًا، وهكذا أعدته مساكنة فلاحى تلبوثيز وآرامها.

وبعد الفطور خرج يتمشى مع أخويه، وكانا شابين ذوى عقيدة متزمتة، مثقفين مصبوبين فى قالب واحد مصقولين إلى الغاية أنيقين إلى النهاية، من ذلك الطراز من المتعلمين الكاملين الذين يخرجون متماثلين من قوالب التعليم المحكمة؛ وكان كلاهما ضعيف النظر قليلاً، فكانا يلبسان عوينة واحدة حين كانت تقتضى العادة لبس عوينة واحدة ذات خيط مسترسل، ثم لبسا عوينتين حين قضى العرف بلبسهما بغض النظر عن حاجة أعينهما؛ وحين كان وردزورث فى إقبال شهرته كانا يحملان طبعة جيبية من ديوانه، وإذا شنت الغارة على شلى، تركا ديوانه يخلق على الرف، وإذا أطرى أحد صور (الأسرة المقدسة) لكورجيو أطريا (الأسرة المقدسة)، فإذا حط من شأن ذلك المصور وقدم فيلاسكويز عليه فعلاً مثل ذلك بلا تردد ولا غضاضة. وإذا كان هذان قد لاحظا شذوذ إينجل الاجتماعى المتزايد، فقد لاحظ هو تزمتهما العقلى المتفاقم؛ فلم ير فى شخص فيلكس إلا الكنيسة، ولا فى

شخص كثبرت غير الكلية، ذاك بعد اجتماعاته الدينية وزوراته لأبناء أسقفيته أساس الكون، وهذا يرى كمبردج ذلك الأساس، وكان كلاهما يقرران مخلصين أن فى المجتمع المتمدين عددًا عديدًا من الملايين العديمى القيمة؛ ممن لا يمتون إلى الجامعة ولا إلى الكنيسة، ويريان أن أولئك قوم يصبر على وجودهم ويحتمل، وإن كانوا لا يولون إجلالاً ولا اعتدادًا.

وكان ابنين بارين يزوران أبويهما فى مواقيت معلومة، وكان فيلكس بين أغصان دوحة الكنيسة غصنًا أحدث تفرعًا من أبيه، ولكنه كان أقل إنكارًا للذات فى سبيل الكنيسة، وانقطاعًا لمبادئها، وكان أرحب من أبيه صدرًا بآراء من يخالفه، لا يعدها كما يعدها أبوه خطرًا على صاحبها، ولكنه كان أشد تأففًا منها من أبيه، يرى فيها ازدراء بتعاليمه لا يغتفر؛ أما كثبرت فكان على العموم أوسع الأخوين فكرًا وأنفذهما نظرة، وإن كانا أبلدهما شعورًا.

وعاود إينجل، وهم يسيرون بجانب سفح التل، شعوره القديم بأنهما مهما فاقاه فى بعض النواحى، فهما لا يريان الحياة على حقيقتها، ولا يعبران عنها كما هى، وكان يرى أنهما قد أعوزتهما فرص ملاحظتها وتجربتها وإن واتتهما فرصة تعلم التعبير عنها، فلم تكن منهما خبرة بالعوامل المتشابكة التى تعمل خارج الوسط الناعم المهذب الذى يضطربان فيه هما وأضرابهما، ولا كان أى منهما يميز بين الحقيقة المحلية والحقيقة العامة، أو يدرك أن ما يقال فى عالمها الكنسى والجامعى يخالف أشد المخالفة ما يراه العالم الخارجى.

راح فيلكس يخاطب أخاه الأصغر فى شتى الأمور، مرسلاً بصره فى نظرة صارمة إلى الحقول من تحت نظارته، قال: "لعله لم يعد أمامك اليوم إلا الفلاحة يا صاح، ما لنا عن ذاك محيد، بيد أنى أناشدك أن تبقى ما استطعت على صلة بالمثل العليا، نعم إن الفلاحة تستتبع الاخشيشان ولكن التفكير العالى والحياة الساذجة يمكن مع ذلك أن يتفقا"، قال إينجل: "طبعًا ذلك ممكن، ألم يتأت ذلك مرة منذ تسعة عشر قرنًا – إذا غفرت لى وغولى على مجالك؟ لماذا تظن يا فيلكس أنى أهجر تفكيرى العالى ومثلى الخلقية؟" قال: "لقد خيل إلى – ولعل هذا لا يعدو حد الوهم – بعد

قراءة وسائلك والاستماع إلى حديثك، أن عقليتك فى اضمحلال، ألم تلاحظ ذلك يا كثبرت؟" قال: إينجل فى لهجة جافة: "اصغ إلى يا فيلكس: نحن كما تعلم صديقان حميمان، يتخذ كل منا طريقه فى الحياة، أما إذا جاء حديث العقلية فأولى لك أن تدع عقليتى وشأنها وأن تسائل نفسك فى أمر عقليتك أنت، وأنت ذلك القانع بعقائده، يقلد فيها تقليدًا أعمى".

وعادوا أدراجهم لتناول الغداء، الذى حدد موعده فى أية ساعة يفرغ فيها أبواهما من أعمالهما فى الأبرشية، وكان آخر ما يفكر فيه مستر ومسز كلير المتفانيان فى عملهما، راحة من يزورهما بعد الظهر، وإن كان الإخوة الثلاثة يقولون جميعًا بوجوب مراعاة أبويهم عادات العصر، وكان المشى قد أجاعهم لا سيما إينجل الذى أصبح رجل حقل متعودًا مائدة مستر كريك المحملة بالمطاعم فى غير نسق، ولكن الوالدين لم يكونا قد عادا بعد، ولم يعودا إلا وقد عيل صبر أبنائهما؛ وكان الزوجان المضحيان بالنفس يعالجان بعض مرضى الأبرشية، يحاولان فتح شهيته، يريدان استبقاءه مسجونًا فى سجن اللحم؛وإن كان فى ذلك مناقضة لتعاليمها، وقد نسيا شهية نفسيهما.

وجلس الجميع إلى المائدة، ووضعت أمامهم أكلة هزيلة قوامها اللحم البارد، ودار إينجل بعينيه يبحث عن بسيسة مسز كريك التى طلب أن تهمك له كما تهمكها مسز كريك، وكان يريد أبويه أن يمتدحا مذاقها ويستطيبا توابلها كما يستطيبها هو. حتى قالت مسز كلير: "أنت تبحث عن البسيسة يا بنى، ولكن لعلك إذا أخبرتك بالحقيقة لا يحزنك التنازل عنها كما لا يحزن أباك أو يحزننى، فقد اقترحت عليه أن نأخذ هدية مسز كريك الجميلة إلى أبناء الرجل العاطل المصاب بالتّبيغ من أثر الشراب، فوافق أبوك على أن ذلك يفرحهم كثيرًا، وهذا ما فعلناه"، قال إينجل مبتسمًا: "نعم ما فعلتما"، والتفت يبحث عن النبيذ فقالت أمه: "وقد وجدت ذلك الشراب كحوليًا إلى درجة لا يصلح معها أن نتعاطاه، وإنما رأيت أنه قد يصلح دواءً فوضعته فى صيدلية المنزل"، وأضاف والده: "مبادئنا لا تسمح بتناول الكحول على هذه المائدة".

قال إينجل: "ولكن ماذا أقول لزوج صاحب الضيعة؟" قال أبوه: "تقول لها الحق بلا تردد" قال: "لقد كنت أحب أن أقول لها إننا استطبنا حلواءها وشرابها جدًا، فهى امرأة كريمة طروب ستبادهنى بالسؤال حالما أعود" قال مستر كلير فى هدوء: "لن يمكنك أن تقول ذلك مادمنا لم نفعل"، قال إينجل: "طبعًا لا"، وأردف معربًا عن استطابته ذلك النبيذ فى لفظ ريفى لم يفقهه أخواه فصاحا معًا: "ماذا؟" فاحمر وجه إينجل وقال: (ذلك تعبير يستعملونه فى ضيعة تلبوثيز)، ورأى أن أبويه مصيبان فى تنفيذ مبدئهما، وإن أخطآ فى عدم مراعاة شعور الآخرين، وسكت.

٢٦

لم يتح لإينجل كلير أن يختلى بأبيه يفاتحه فى موضوع أو موضوعين يشغلان نفسه إلا فى المساء، بعد فراغ الأسرة من الصلاة، وكان قد جمع عزمه لذلك الغرض وهو راكع خلف أخويه على البساط، يتأمل المسامير فى كعوب نعالهما. ولما انتهت الفريضة خرجا وبقى هو وأبوه وحدهما؛ وباحث الشاب أباه أولاً فى خططه التى ترمى إلى اتخاذه مزارع واسعة النطاق، إما فى إنجلترا أو فى المستعمرات، وقد قال له والده إنه وقد أعفى من الإنفاق على دراسته فى كمبردج، قد شعر أن واجبه أن يدخر كل عام قدرا من المال قصد شراء أرض أو استئجارها له يومًا، كيلا يظن أنه قد فرط فى حقه، واستطرد: "ولا شك أنك – فيما يتعلق بالثروة المادية – ستفوق أخويك كثيرًا بعد قليل".

وشجعه هذا الاهتمام والكرم من جانب أبيه، على الاستطراد إلى الموضوع الذى هو أعلق بشغاف قلبه، فقال لأبيه إنه قد بلغ السادسة والعشرين، وأنه متى بدأ حرفة الفلاحة احتاج إلى معين يشرف على شئونه ويتعهد منزله حين يكون هو فى الحقل؛ وسأل ألا يجدر به فى تلك الحال أن يتزوج؟ فاستحسن أبوه الفكرة، فسأل إينجل: "فأى النساء أصلح لفلاح مجد مقتصد؟" فقال أبوه: "امرأة مسيحية تقية؛ تعينك وتريحك فى خروجك ودخولك، وكل ما عدا ذلك لا يهم، ومثل هذه يسهل الاهتداء إليها، والحق أن صديقى وجارى الجليل الدكتوا تشانت.... " فقاطعه إينجل: "ولكن ألا ينبغى أن نتعرف كيف تحلب البقر وتصنع الزبد والجبن، وترقد الدجاج وتربى الكتاكيت، وتدير العمال فى الحقل إذا قضت الضرورة، وتقدر أثمان الأغنام والعجول؟".

قال أبوه ولم يكن قد فكر فى هذه الأمور من قبل: "طبعًا، طبعًا امرأة فلاح، طبعًا يجمل بها ذلك، وقد كنت أريد أن أزيد أنك إذا أردت امرأة طاهرة نقية، لم تجد امرأة ترضيك وترضينى أنا وأمك كصديقتك (ميرسى) التى كنت دائمًا تميل إليها؛ نعم إنها قد اقتبست أخيرًا عادة الناشئين من رجال الدين حولنا هنا، أعنى

عادة تزيين منضدة الاجتماع الكنسى – التى هالنى منذ أيام أن سمعتها تسميها المذبح – بالزهور وغيرها فى أيام الاحتفالات، ولكن أباها الذى يعارض تلك البدع معارضتى يقول إن من الممكن معالجة ذلك، وأنا لا أراها إلا نزعة صبيانية طائشة لن تطول"، قال إينجل: "نعم، نعم ميرسى تقية طاهرة، أنا أعلم ذلك جيدًا، ولكن ألا تظن يا أبى أن امرأة طاهرة طهارة مس تشانت، فاضلة مثلها، ولكنها تعرف شئون الضيعة معرفة الفلاح، وإن كانت تنقصها خبرة مس تشانت الإكليروسية، هى أصلح له حليلة؟".

وأصر أبوه على أن الخبرة بمطالب المزرعة ذات أهمية ثانوية، إذا قيست بالنظر إلى الإنسانية نظرة القديس بولس، وكان إينجل رغم اندفاعه حريصًا على إجلال شعور أبيه، حريصًا مع ذلك على تزكية لبانة نفسه، فتلطف وقال إن القدر أو العناية قد ألقت فى طريقه امرأة تجمع كل المواهب التى يجب أن تتوفر فى زوج الفلاح، وهى مع ذلك امرأة على خلق عظيم، وليس يدرى أمن أتباع مدرسة أبيه هى أم لا، يعنى مدرسة الكنيسة السفلى، ولكنه يعلم أن من السهل ضمها إلى تلك المدرسة، فإنها فتاة دينة مواظبة على الذهاب إلى الكنيسة، ساذجة الإيمان، مخلصة القلب، فطنة ورشاقة، طاهرة بارعة الجمال.

وكانت أمه قد تسللت فى الحجرة، وراعها ما سمعت فقالت: "أهى من أسرة تليق بك، أو بالإيجاز هل هى نبيلة؟" فأجاب إينجل فى حزم: "ليست نبيلة بالمعنى الذى تستعمل فيه تلك الكلمة، فإنى فخور أن أقول إنها ابنة كوخ، ولكنها رغم ذلك نبيلة الطبع والشعور"، قالت: "ميرسى تشانت من أسرة طيبة جدًا"، قال: "أف لهذا! ما جدوى ذلك يا أم؟ كيف تغنى الأسرة الطيبة عن زوج فلاح عليه أن يحيا حياة خشنة؟" فأجابته أمه شاخصة إليه من خلال نظارتها الفضية: "ميرسى مهذبة مكملة، وفى ذلك من الجاذبية ما فيه".

قال: "أما تهذُّبُ المظهر وكمال المنظر فما غناؤه حيث أنا ذاهب؟ وأما الاطلاع فأمر أستطيع أن أنهض به، وستكون صاحبتى تلميذة نجيبة، وستحكمين بذلك إذا رأيتها فإنها تفيض شعرًا، شعرًا واقعيًا إن صح هذا التعبير، إنها تحيا

الحياة التى إنما يدونها شعراء الطروس مجرد تدوين، وأنا واثق أنها مسيحية لا غبار على عقيدتها، ولعلها من ذلك القبيل، أو القالب، أو النوع الذى تعملان على نشره" قالت: "ويحك يا إينجل، أنت تتندر علينا"، قال: "عفوًا يا أم، إنما الحقيقة أنها تثابر على الذهاب إلى الكنيسة كل أحد، وأنها مؤمنة مخلصة، ولا ريب أنكما تغضيان عن قصورها الاجتماعى فى سبيل تلك الفضيلة، وتدركان أنى ربما اخترت من هى دونها"؛ وهكذا أطنب إينجل متحمسًا فى تقريظ ذلك الإيمان التقليدى الذى تتحلى به محبوبته تس، ولم يكن يحلم من قبل أن إيمانها ذاك سيفيده فى يوم من الأيام، فائدته الآن، وإنما كان قبل ذلك يبتسم منه حين يراها هى وزميلاتها مقبلات على أداء فرائضه، إذ كان يراه مظهرًا زائفًا وسط حقائق الطبيعة وإيمانها الصحيح.

وقد ارتاح مستر ومسز كلير إلى تحلى الفتاة المجهولة بذلك الإيمان الذى كان يحزنهما ارتيابهما فى تخلى ابنهما به، ورأيا أن سلامة عقيدتها مزية لا يستهان بها، لا سيما وقد اعتقدا أن العناية هى التى جمعت بينها وبين الشاب؛ إذ لم يكونا يعتقدان أن إينجل من تلقاء نفسه يشترط صحة العقيدة فيمن يميل إلى زواجها؛ وأخيرًا قالا بأن لا داعى للتعجل وأنهما لا يمانعان فى رؤيتها، ومن ثم لم ير إينجل سببًا لزيادة الحديث عنها، وكان يرى أن أبويه على صفاء طويتهما وسعيهما فى سعادة الغير، يحملان من التعصب لطبقتهما الاجتماعية ما لا يتغلب عليه إلا الحكمة، فإنه وإن كان حرًا فى حدود القانون أن يفعل ما يشاء، وكانت صفات زوجه لا تؤثر فى حياة أبويه أدنى تأثير، إذ الأرجح أنها ستعيش بعيدة عنهما، فقد كان بره بهما يأبى له أن يجرح شعورهما فى أهم خطوة يخطوها فى حياته.

وتنبه إينجل إلى تناقضه بإطنابه فى ذكر حقائق من حياة تس كأنها خصائص جوهرية، على حين أنه إنما كان يحبها من أجل نفسها وقلبها وطبيعتها، لا لمهارتها فى صناعة الألبان، ولا لاستعدادها للتتلمذ عليه، ولا لمراعاتها فى سذاجة شعائر دينها، فهو لم يكن بحاجة إلى طلاء التقاليد يحسنّ إلى نفسه طبيعتها

الطلقة المرسلة، فقد كان يعتقد أن التعليم لم يؤثر بعد تأثيرًا يعتد بِهِ فى العواطف والنوازع التى تتوقف عليها سعادة البيت، وكان يرجح أن وسائل التعليم الخلقى والعقلى إذا حسنت على مدى الأجيال، أمكن أن ترفع طبائع الإنسان المستعصية وغرائزه غير الواعية إلى مستوى محمود مشهود، ولكنه كان يرى أن التعليم إلى عهده لم يؤثر إلا فى اللحاء العقلى من حياة أولئك الذين وقعوا تحت تأثيره، وقد ثبتت عقيدته تلك تجربته للنساء، وقد انتقلت تلك التجارب من الطبقة الوسطى المثقفة إلى المجتمع الريفى، فعلمته أن الفرق الجوهرى بين امرأة عاقلة مستقيمة فى إحدى الطبقتين، وأخرى عاقلة مستقيمة فى الطبقة الثانية، أقل جدًا من الفرق بين العاقلة والحمقاء، أو بين المستقيمة والفاسدة فى الطبقة الواحدة.

وجاء يوم رحيله، وكان أخواه قد خرجا فى رحلة على الأقدام إلى الشمال، يفترقان بعدها، هذا إلى جامعته وذاك إلى مكتبه، وكان فى وسع إينجل أن يرافقهما ولكنه آثر أن يعود إلى حبيبته فى تلبوثيز، وعلم أنه يكون نابى المكان فى تلك الرحلة، لأنه وإن كان أصدق إخوته نزعة إنسانية وأسماهم فكرة دينية، بل أوسعهم علمًا بتاريخ المسيحية، كانت قد حلت الوحشة بينه وبين أخويه منذ تمرد على المستقبل الذى أُعد له، حتى أنه لم يفاتح أيا منهما فى حديث تس.

وأعدّتْ له أمه قطعًا من السندوتش، ورافقه أبوه جزءًا من الطريق على مهرته، وكان إينجل قد زكى حاجته لدى أبيه تزكية حسنة، فاستراح إلى أن يصغى فى صمت إلى وصف أبيه لمتاعبه فى الأبرشية، وتجافى زملائه القسس الذين أحبهم، لتشدده فى تفسير العهد الجديد على ضوء عقيدة كانوا يرونها عقيدة كلفنية متزمتة، قال فى لهجة احتقار صاعدة من صميم قلبه: "متزمتة!" ومضى يستعرض التجارب التى تفند آراءهم، وتحدث عن العدد العديد ممن اهتدوا أو تابوا على يديه من فقراء وأغنياء؛ واعترف صراحة بإخفاقه فى مواطن أخرى.

وذكر مثالاً لإخفاقه شابًا ثريًا ناشئ النعمة يدعى دربرفيل، يعيش على مدى أربعين ميلاً فى أرباض ترنتردج، فقال ابنه: "أهو سليل آل دربرفيل الراقدين فى كنجزبير وغيرها، تلك الأسرة التاريخية العجيبة البائدة، ذات الخرافة المرعبة التى

تدور حول المركبة والجياد الأربعة؟" قال أبوه: "كلا، لقد انقرض أولئك من ستين أو ثمانين عامًا على ما أعلم، أما هذه فأسرة على ما يظهر جديدة دعية انتحلت اللقب، وآمل أن تكون كذلك، وإلا كانت عارًا على فرسان دربرفيل الأقدمين، بيد أن من العجيب أنك تهتم بالأسرات القديمة، لقد حسبتك أقلَّ احتفالاً بها حتىٰ منى أنا".

قال إينجل فى شىء من التململ: "أنت تسىء فهمى يا والدى، أنت كثيرًا ما تسىء فهمى، أما من وجهة السياسة فأنا أشك فى قيمة عراقة تلك الأسرات، وبعض العقلاء مهنم هم أنفسهم يتنصلون من منتماهم كما يقول هَملِت، وأما من وجهة الأدب والتاريخ فلى بهم أرق الصلات" ولم يكن هذا تمييزًا دقيقًا يعسرُ فهمه، بيد أنه كان دقيقًا فى نظر مستر كلير الأكبر فعجز عن فهمه، ومضى فى قصته التى كان بدأها، وفحواها أنه بعد موت المدعو دربرفيل الأكبر، فجر ابنه وفسق مع أن له أمًا عمياء كان يتوقع أن تردعه حالها عما جنح إليه، وقد بلغت أخباره مسامع مستر كلير حين كان يعظ فى تلك النواحى، فلم يتردد فى محادثة الشاب المستهتر فى شأن نفسه، فقد أحس بأن ذلك واجبه، رغم أنه كان غريبًا يقوم على منبر غيره، واقتبس أمام الشاب قول القديس لوكاس: "أيها الأحمق! ستطلب منك روحك هذه الليلة!" فثار الفتى على هذه الصدمة، وتلت ذلك معركة كلامية، لم يتورع فيها الشاب عن سب مستر كلير علنًا، دون رعاية لوقار شيبه.

وعند ذلك احمر وجه إينجل ألمًا وقال: "نشدتك يا أبى ألا تستهدف لهذا الإيلام يصيبك به الفجار!". قال أبوه وقد تهللت أساريره طربًا بإنكاره ذاته: "الإيلام؟ أنا لم يؤلمنى إلا حالته هو، يا ويح الحدث الغر المسكين! أتحسب كلماته الحادة بل ضرباته كانت تؤلمنى؟ (نحن إذا شتمنا باركنا، وإذا اضطهدنا احتملنا، وإذا أهنًا توسلنا، نحن خلقنا من نطفة مهينة وما زلنا أخبث الأشياء طينة) هذه الكلمات النبيلة التى وجهت إلى آل كورنثة لا تزال صحيحة إلى ساعتنا هذه".

قال إينجل: "أرجو ألا يكون قد تمادى إلى الضرب؟" قال: "لا لم يفعل، وإن كنت طالما تلقيت ضربات السكارى" قال: "لا!" قال: "عشر مرات يا بنى، وما فى ذلك؟ إننى نجيتهم بذلك من قتل أبناء لحمهم ودمهم، وقد عاشوا حتى شكرونى وحمدوا الله". قال إينجل فى حرارة: "لعل الله يهدى ذلك الشاب إلى مثل هذا، وإن كان كلامك يوحى بغير ذلك" قال مستر كلير "لنأمل ذلك على كل حال، وأنا لا أنقطع عن الدعاء من أجله، وإن كان الأرجح أننا لن نتلاقى على هذا الجانب من القبر، ولكن لعل كلمة من صوالح كلمى تنبت فى صدره وتصير غرسًا مباركًا يومًا ما".

وكان الأب يبدو إذ ذاك – كما كان يبدو دائمًا – مخلصًا ساذجًا كالطفل وكان ابنه – وإن لم يؤمن بعقائده الموروثة – يجل مسلكه ويراه بطلاً فى زى قسيس، ولعله صار أشد إجلالاً له الآن إذ رآه وهما يتحدثان فى أمر تس لا يتساءل أموسرة هى أم مفلسة وقد كان هذا الزهد منه فى حطام الدنيا سبب اضطرار إينجل إلى كسب رزقه بالزراعة، وسيكون على الأرجح سبب خصاصة أخويه ما عاشا، ولكن إينجل رغم ذلك كان يجل هذا الزهد، والحق أن إينجل – على زيغ عقيدته – كثيرًا ما رأى نفسه أشبه بأبيه إنسانية من كلا أخويه.

٢٧

واصل إينجل طريقه زهاء عشرين ميلاً يرفعه نجد ويهبط به غور، وقد توهجت حوله الظهيرة، حتى انتهى عصرًا إلى تل منفرد على مدى ميل أو ميلين، غربى تلبوثيز، ومنه أطل ثانية على تلك المساحة الخضراء المريعة الرطبة، المسماه وادى فار أو فروم، ولم يكد يأخذ فى الهبوط إلى تلك التربة الخصبة الدسمة حتى شعر بثقل الجو، فقد كانت العطور الكثيفة وفاكهة الصيف والضباب والكلأ والأزهار، تؤلف فى ذلك الوادى بركة مترامية من الرائحة، تبعث الخمول فى أجسام الحيوان بل فى النحل والفراش.

وكان كلير قد صار تام الخبرة بذلك المكان، حتى لقد عرف كل بقرة باسمها حين رآها من بعيد متفرقة فى أطراف المروج. وشعر بالغبطة إذ رأى قدرته على النظر إلى الحياة من داخلها فى هذه الأنحاء، على حال لم يكن له بها عهد أيام دراسته، ورغم شديد حبه لأبويه أحس أن عودته من بينهما إلى هذا الوادى، هى بمثابة إماطة اللفائف والأغلال عن نفسه، لاسيما وقد كانت تلبوثيز حرة من ذلك النير الذى يظل المجتمعات الريفية الإنجليزية، فلم يكن لها سيد مالك مقيم فيها.

ولم يكن خارج الضيعة فى تلك الساعة إنسان، بل كان كل يحظى بقيلولته التى كان الاستيقاظ المبكر فى الصيف يجعلها ضربة لازب، وكانت المحالب ذات الأطواق الخشبية المتشبعة بالماء المبيضة من كثرة الحك، معلقة كأنها القبعات على مشجب مركب فوق جذع بلوطة مقشور مهيأ هناك لهذا الغرض، وكلها مجهزة لحلبة النساء، ودخل إينجل واجتاز مماشى الدار الساكنة إلى جانبها الخلفى حيث أنصت برهة فسمع غطيطًا متواصلاً آتيًا من غرفة العربة حيث ينام بعض الرجال، وسمع لغط الخنازير آتيًا من مكان أبعد، وكان الكرنب والروند الكبير الأوراق نائمين أيضًا، وقد تراخت أعضاء تلك النباتات العريضة فى الشمس كأنها مظلات مقفلة نصف إقفال.

وخلع عن حصانه الشكيمة، وقدم له العلف وعاد إلى الدار، ودقت الساعة الثالثة، وكانت تلك ساعة كشط الزبدة بعد الظهر، فلم تكد تدق حتى سمع صرير السقف الخشبى، ثم صوت خطى تهبط الدرج، وكانت تلك تس، وما هى إلا وهلة حتى استوت أمام عينيه، ولم تكن قد سمعته يدخل، ولا كانت تعلم بوجوده هنا، وتثاءبت حتى رأى داخل فمها أحمر كفم الثعبان، ورفعت إحدى ذراعيها فوق شعرها المركوم حتى رأى نعومتها السندسية فيما يلى الجزء الذى تلوحه الشمس منها، وكان وجهها محمرًا إثر النوم، وجفونها مرتخية على مقلتيها؛ لقد كانت تتجسم فيها روح المرأة أكثر مما تتجسم وقت آخر، وحين يعرب الجمال الروحانى عن نفسه فى شكل جسمانى، ولا يكون للجنس فى ذلك الإعراب إلا دور ثانوى.

ثم تألقت تانك العينان من خلال جفونهما الرقيقة المتثاقلة قبل أن يتم تيقظ بقية وجهها، فارتسمت عليها سيماء الفرح والخجل والدهشة مؤتلفة ائتلافًا عجيبًا وقالت: "أو! مستر كلير! شد ما أفزعتنى!" ولم يكن قد أتيح لها الوقت لتفكر فى علاقاتهما الجديدة التى أقامها بينهما تصريحه، ثم تصاعد الشعور التام بتلك العلاقات إلى وجهها حين لمحت النظرة الرقيقة المرتسمة على وجه كلير، وهو يمشى إلى الدرجة السفلى من السلم، وهمس: "عزيزتى تس: "ناشدتك ألا تدعينى مستر بعد اليوم، لقد عجلت بالعودة من أجلك".

خفق قلب تس السريع التأثر بجانب قلبه كأنما يجاوبه، ووقفا على بلاط المدخل الأحمر، وأشعة الشمس تنبسط من النافذة على ظهره، وتنبسط على وجهها المطرق وشرايين صدغها الزرقاء، وذراعها العارى وجيدها وفى أعماق لفائف شعرها؛ وإذ كانت قد نامت فى ثيابها العادية، فقد كانت دافئة كقطة قد اصطلت الشمس، وكانت بادئ الأمر تأبى أن ترفع بصرها إليه، ولكن سرعان ما ارتفعت إليه عيناها، وشخصت عيناه فى أعماق حدقتيها الدائمتى التغير، المترقرقتين عن أخضر الألوان وأسودها وداكنها وبنفسجيها، وهى ترمقه كما لعل حواء قد رمقت آدم فى يقظتها الثانية.

قالت: "يجب عليّ أن أذهب لكشط القشدة، وليس لى معين اليوم إلا (دب) العجوز، فقد ذهبت مسز كريك ومستر كريك إلى السوق، ورتى عليلة، وقد خرج الآخرون ولن يعودوا إلا وقت الحلبة الثانية" وبينما هما عائدان إلى حجرة الحلب ظهرت دبورا فياندر على الدرج هابطة، فقال كلير رافعًا إليها بصره: "لقد عدت يا دبورا ويمكننى أن أساعد تس فى الكشط، وما دمت أنت تعبة فلا حاجة بك إلى النزول حتى يحين وقت الحلب".

لم تكشط القشدة فى مزرعة تلبوثيز على الأرجح كشطًا جيدًا فى ذلك اليوم؛ فقد كانت تس فى حلم تلوح فيه الأشياء ذات ألوان وظلال وحيز، ولكن ليس لها شكل محدود، وكلما حملت المكشط تحت صنبور الماء تبرده ارتعشت يداها، فقد كانت تنتفض تحت حرارة حبه الوهاجة، كما ينقبض النبات فى وقدة الشمس، ولما فرغت من إجالة سبابتها داخل حوافى الأوانى لفصل حروف القشدة، نظف صاحبها سبابتها بالطريقة الطبيعية، فقد ألف كلير عادات تلبوثيز.

وعاد يقول فى رفق: "يجدر بى أن أفاتحك الآن بلا توان، فى أمر عملى خطير ما زلت أفكر فيه منذ ذلك اليوم فى الأسبوع الماضى فى المروج؛ فسأحتاج إلى الزواج عما قريب، وسأحتاج ما دامت مزارعًا إلى امرأة تحذق إدارة المزارع، فهل لك أن تكونى تلك المرأة يا تسى؟" وقد صاغ سؤاله فى تلك الصورة، كيلا تتوهم أنه يتقدم إليها فى نزوة هوجاء ينكرها عقله فيما بعد، وعند ذلك ارتسم على وجهها الجزع والغم الشديد، فقد كانت رضخت للنتيجة المحتومة لمعاشرته عن قرب، وهى الهيام به، ولكنها لم تتوقع هذه النتيجة الأخرى التى عرضها عليها كلير نفسه، دون أن يقصد أن يتسرع على هذا النحو.

أحست أن قلبها ينماث لوعة وغصة، وتمتمت بالجواب الذى حدتها أمانتها وشرفها إلى إعداده ردًا على مثل طلبه: "مستر كلير! لا يمكننى أن أكون زوجًا لك، هذا محال!" فدهش لمقالها، وقال وهو يشدد عناقها فى شغف: "عجبًا يا تس! أترفضين؟ ألا تحبيننى؟" قالت: "بلى، وإنى لأوثرك زوجًا على كل رجل آخر، ولكن لا يمكننى أن أتزوجك!" فبسط ذراعيه بها ونظر إليها من بعيد وقال: "أنت إذن مخطوبة لآخر"، قالت: "كلا"، قال: "فلم ترفضيننى؟" قالت: "لا أريد أن أتزوج! أنا لم أفكر فى الزواج بعد!ولا يمكننى أن أفعل! لا أريد إلا أن أحبك!".

قال: "ولكن لماذا؟" فاضطرت أن تتذرع بذريعة فقالت: "إن أباك قسّ ولن ترضى أمك بمثلى لك زوجًا، بل هى تريد أن تزوجك سيدةً نبيلة"، قال: "هذا كله هراء، لقد فاتحتهما فى الموضوع وهذا بعض سبب ذهابى إليهما"، قالت: "لا يمكننى أبدًا.... أبدًا" قال: "هل فاجأتك بالأمر يا حسنائى؟" قالت: "نعم... لم أكن أتوقعه"، قال: "إذا غفرت لى ذلك يا تس فسأمنحك الوقت اللازم للتفكير، لقد كنت متعجلاً مفاجئًا إذ فاتحتك فى هذا بمجرد عودتى، وسأمسك عن هذا الأمر حينًا".

وعادت إلى المكشط اللامع فرفعته تحت الصنبور وراجعت عملها، ولكنها على فرط ما اجتهدت لم تعد تستطيع أن تصيب الجزء الذى يلى سطح القشدة مباشرة بالمهارة اللازمة، فكانت تضرب فى اللبن حينًا وفى الهواء طورًا، ولم تعد ترى، إذ امتلأت عيناها بعبرتين كبيرتين مترقرقتين، أرسلهما إلى جفونـــها حزن عميق لا تستطيع أن تبسطه لأبر صديق لها وأوفى محام عنها؛ قـــالت وهى تشيح عنه: "لا أستطيع العمل، لا أستطيع العمل!" وأراد إينجل الأريب أن يعيد إليها سكونها وانبساطها بطرق مواضيع عامة، قال: "أراك لا تفهمين نفسية والدىّ، إنهما لأبسط الناس طبيعة وأشدهم تواضعًا، وهما يمتان إلى المذهب الأفنجيلى المنقرض، هل تمتين إلى ذلك المذهب يا تس؟". قالت: "لا أدرى"، قال: "أنت تثابرين على غشيان الكنيسة، وقد سمعت أن قسيسها ليس من أتباع الكنيسة العليا المتطرفين"، وبدا لتس أن معلومات كلير عن مذهب القسيس الذى لم يستمع إليه قط، أوضح وأدق من معلوماتها هى التى تنصت إلى وعظه كل أسبوع، فقالت قولاً مبهمًا معممًا تهرب من الرد على ملاحظته، قالت: "ليتنى أستطيع أن أركز انتباهى على كل ما أسمع هناك أكثر مما أفعل، إن قصورى عن ذلك كثيرًا ما يحزننى"، وقد تكلمت بسذاجة جعلت إينجل يتأكد أن أباه لن يعارض فى زواجه بها لسبب دينى، وإن لم تدر أمذهبها مذهب الكنيسة العليا أم السفلى أم العريضة.

وكان كلير واثقًا أن عقائدها الحقيقية مزيج من المذاهب والطقوس معقد مبهم لقنته فى طفولتها، على أن آخر ما كانت تحدثه به نفسه أن يعكر عليها صفو تلك العقائد، مهما كان من اختلاطها وتناقضها، بل كان يتمثل بقول القائل: "دع أختك

وشأنها حين تنهض لصلاتها التى شبت عليها، وتسعد بعقائدها المطمئنة، ولا تكدر عليها بإشارة منك مريبة حياة مؤتلفة الأيام فى غبطة وسلام" وقد كان من قبل يحسب تلك النصيحة مقالاً عذب الصيغة ولكنه فاسد المشورة، أما الآن فارتاح إلى اتِّباعها.

ومضى يسرد أنباء رحلته، ويصف حياة أبيه وحماسته لمبادئه، فعاودها جأشها وذهب اضطراب يدها فى الكشط، وكانت كلما انتقلت من إناء إلى إناء تبعها وجذب الصمام لينسكب اللبن، وأخيرًا تجرأت على أن تقول ولا تزال حريصة على تجنب موضوعها: "لقد خيل إلى أنك كنت منقبضًا وأنت داخل"، "أجل ، لقد كان أبى يحدثنى فى مصاعبه ومتاعبه، وهذا موضوع تتقبض له نفسى، فإن فرط حماسته يعرضه أحيانًا للإهانة والرد القبيح من جانب مخالفيه فى الرأى، ولست أحب أن أرى رجلاً فى مثل سنه يهان، لا سيما وأنا أعتقد أن الاجتهاد لا يجدى إذا بولغ فيه"

واستطرد: "لقد وصف لى مشهدًا حديثًا كان له فيه موقف غير حميد؛ فقد ذهب منتدبًا من بعض الجماعات الدينية فى أرباض ترنتردج، على مدى أربعين ميلاً من مكاننا هذا، وأخذ على عاتقه أن يحاور شابًا مستهترًا مبتذلاً لقيه هناك، وهو بن صاحب أملاك فى تلك الناحية، وأمه مبتلاة بالعمى، وقد جبه أبى الفتى بما لا يحب وكانت ضجة، والحق أن أبى كان مخطئًا فى مخاطبته رجلاً لا يعرفه، وهو يعلم أن جدوى ذلك قليل، ولكن هذا دأبه، إذا اعتقد أن واجبه يقضى بعمل عمله، مناسبًا كان أو غير مناسب، ومن ثم يخلق لنفسه أعداء، لا بين الفجرة الفسقة فقط، بل بين المتسامحين المتساهلين الذين يستنكفون أن يضايقهم إنسان، وهو يفخر بما كان ويأمل أن ينتج خيرًا آجلاً، ولكنى أود لو أبقى على نفسه وهو يتقدم فى السن، وترك أولئك الخنازير فى حمآتهم".

تقلصت معارف وجه تس، وإن لم تبد اضطرابًا، وشحب فمها القانى، وكان كلير فى شغل بذكريات أبيه فلم يلاحظها؛ وهكذا استمرا فى تقدمهما أمام صف الأوانى حتى فرغا منها واستفرغا كل ما بها، وعندها عادت العاملات الأخريات،

وأخذن محالبهن، وجاءت (دب) العجوز تدفئ الأوانى استعدادًا للبن الجديد، وبينما تس تنسحب تبغى الذهاب إلى الحقل قال لها فى رفق: "ومطلبى يا تس؟" قالت: "لا لا! مستحيل"! قالها بصوت اليائسة التى سمعت كل مأساة ماضيها من جديد، حين أشار فى حديثه إلى دربرفيل.

ومشت إلى المروج، ولحقت بالأخريات قافزة كأنها تريد الهواء الطلق أن ينفض عنها حزنها وانقباضها، وتقدمت الفتيات إلى حيث كانت الأبقار ترعى فى آخر مرج، يسرن بخطوات نشيطة كخطوات الحيوان البرى، فى حركة النساء المندفعات المتعودات على الفضاء الرحب الذى لا حد له ولا قيد، الذى فيه يمنحن أجسامهن للهواء كما يمنح السابح جسمه للماء؛ ورأى كلير وقد عاود النظر إلى تس أن من الطبيعى البديهى أن يختار لنفسه زوجًا من الطبيعة المطلقة، لا مما تهب الصناعة المتأنقة.

٢٨

كان رفض تس أمرًا غير منتظر، ولكن كلير لم يجزع له طويلاً، فقد كان ذا خبرة طويلة بالنساء، يعلم جيدًا أن السلب فى أكثر الأحايين إن هو إلا مقدمة للإيجاب، على أن خبرته كانت أضيق من أن توحى إليه أن فى هذه الحالة سببًا استثنائيًا غير التمنع والدلال؛ وزاده وثوقًا باعتقاده ذاك كونها سمحت له بمغازلتها، ولم يدر أن الغزل فى المروج والحقوق يعد غاية فى ذاته، وأنه هنا يطلب للذته وعذوبته، على حين تفسد فكرة الاستقرار على بنات الأشراف الطامحات إلى المستقبل؛ المتعة الصحيحة بالعاطفة فى حد ذاتها.

عاد كلير يسأل تس بعد أيام: "تس: لماذا أجبتنى (لا) بذلك الجزم القاطع؟" فأجفلت وأجابت: "لا تسلنى لماذا، لقد أخبرتك بجل السبب، أنا لا أليق لك، أنا غير جديرة بك"، قال: "كيف؟ ألا تليقين بى لأنك لست نبيلة؟" فتمتمت: "نعم، ذلك هو السبب على وجه التقريب،سيزدرينى ذووك"، قال: "الحق أنك لا تفهمين أبى وأمى أما أخواى فلا أبالى..."

وهمت أن تفلت منه، فاعترض طريقها قائلاً: "أنت لا تجدين فى رفضى، هذا محال، لقد أقضضت مضاجعى حتى لم أعد أستطيع القراءة ولا العزف ولا أن أعمل شيئًا آخر، أنا لا أتعجلك يا تس، ولكنى أريد أن أتأكد، أريد أن أسمع من شفتيك الحارتين أنك ستكونين لى يومًا، أى يوم تختارين".

ولم يسعها إلا أن تهز رأسها وتحول عنه بصرها، فحملق فى وجهها يستقرئ معارفها كأنها رموز هيروغليفية، ولاح له أن الرفض رفض صادق، فقال: "لا ينبغى لى إذن أن أمسك بك هكذا، ليس لى الحق فى هذا أو فى البحث عنك ومسايرتك، أصدقينى يا تس: هل تحبين غيرى؟" قالت وما زالت تجاهد نفسها: "كيف يخطر لك هذا السؤال؟" قال: "أكاد أجزم بأنك لا تحبين سواى، ولكن لماذا تذودينني عنك؟" قالت: "أنا لا أذودك، ويطربنى أن أسمع كلمات الحب منك،

لك أن تصرح لى بحبك أيان تذهب، فلن أنكر ذلك منك"، قال: "ولكنك لا ترضيننى زوجًا؟" قالت: "هذا شىء آخر، إنما أرفضك من أجلك، ثق أنى أفعل ذلك حبًا لك! لا أستطيع أن أنال سعادة الوعد بتزوجك، لأنى موقنة أنه لا ينبغى لى أن أعد"، قال: "ولكن زواجى بك يسعدنى" قالت: "هكذا تظن ولكنك لا تدرى!"

وكان يخشى أن يكون رفضها راجعًا إلى شعورها المتواضع بقصورها عنه فى المنزلة الاجتماعية والتهذب، فكان يؤكد لها أنها مثقفة مرنة العقلية جدًا، وكان صادقًا؛ فإن نباهتها وإعجابها به جعلاها تقتبس تعبيراته، ولهجة خطابه وشذرات من عمله إلى درجة عجيبة؛ وكانت بعد هذه المناوشات التى تخرج منها ظافرة، تنتبذ مكانًا قصيًا تحت بقرة منفردة إذا كان الوقت وقت الحلب، أو تتغلغل فى المروج أو تأوى إلى حجرتها إذا كان وقت فراغ، وهناك تطلق لأشجانها العنان ولما تمض دقيقة على رفضها إياه، رفضًا ظاهره الغفلة وعدم المبالاة.

لقد كان ذلك نضالاً عنيفًا؛ إذ كان قلبها هى مظاهرًا لقلبه، تظاهر القلبان على مناضلة ضميرها الأعزل المسكين، فراحت تدرع العزم جهد ما تستطيع؛ وكانت قد جاءت إلى تلبوثيز بعزيمة مجتمعة على ألا تخطو بأى حال خطوة تكبد من يتزوجها مرير العذاب فيما بعد جزاء على غفلته، والآن أصرت على أن ما اعتزمه عقلها أيام كان طلقًا نزيهًا، يجب ألا يغلبها عليه اعتبارٌ ما؛ قالت فى نفسها: "ما بال أحد لا يخبره خبرى؟ إنما كان الخطب على مدى أربعين ميلاً فلم لم يصل إلى هنا؟ لا بد أن إنسانًا ما يعرف الحقيقة!".

ولكن لم يبد أن أحدًا يعلم، ولم يخبره أحد، وتصرم يومان أو ثلاثة، وأدركت من سيماء الوجوم على وجوه زميلاتها فى المخدع أنهن يدركن أنها لا تحظى لديه بالإيثار فقط، بل بالاختيار أيضًا، ولكنهن كن يعلمن جيدًا أنها لم تتصد له؛ ولم يمر بتس زمن كان فيه حبل حياتها مفتولا على هذا النحو من جديلتين متناقضتين: إحداهما اللذة المفرطة، والأخرى الألم المبرح.

ووجد العاشقان نفسيهما وحيدين مرة أخرى عند صنع الجبن، وكان مستر كريك يعاونهما، ولكنه هو وزوجه كانا قد بدآ يحسان بما بين الاثنين من تواصل، وإن كان العاشقان قد سارا بمنتهى الحذر حتى لم تحم حولهما إلا أوهى الشبهات، وعلى كل حال تركهما صاحب الضيعة ومضى، وكانا يكسران كتل الخثارة قبل وضعها فى الجرار، فكان ذلك أشبه بتحطيم كميات هائلة من الخبز الجاف، وكانت يدا تس تبدوان قرنفليتين ناصعتين وسط بياض الخثارة الساطع، وكان إينجل يضع الخثارة فى الجرار بحفنتيه، فأمسك عن ذلك ووضع يديه على يديها، وكان كماها مشمورين إلى ما فوق زنديها، فانحنى وقبل الشريان الباطنى من ذراعها الناعمة.

وكان صباحًا دافئًا فى سبتمبر، ولكن ذراعها لملامستها الخثارة كانت باردة رطبة على فمه كالعشب الجنى، وكان عليها طعم ماء الجبن، ولكن تس كانت شديدة التأثر كأنها حزمة من الإحساسات، فاستحثت لمسته ضربات قلبها، واندفع الدم إلى أطراف أصابعها، واحمرت ذراعاها بعد أن كانتا باردتين، ورفعت إليه طرفها كأنما قلبها يقول: "أيجدى التمنع بعد هذا؟ ما أخلق أن يسود الصدق بين المرأة والرجل، كما يسود بين الرجل والرجل"، ولمعت عيناها إزاء عينيه ببريق الإخلاص، وارتفعت شفتها العليا مفترة عن ابتسامة خفيفة رقيقة.

قال: "أتعلمين يا تس لماذا فعلت هذا؟" قالت: "لأنك تحبنى جدًا!"

قال: "نعم، وتمهيدًا لمعاودة التوسل إليك"، قالت: "لا تعد!"وبدا عليها الجزع من أن يخونها عزمها، واستطرد: "تسى! لست أدرى لماذا تعذبيننى هكذا! لماذا تخيبين أملى؟ يكاد يخيل إلى أنك فتاة لعوب تتلون كما تتلون بنات المدن كالحرباء، وهذا آخر ما يتوقعه المرء فى بقعة منعزلة مثل تلبوثيز" ثم عاد يستدرك وقد لاحظ كيف آلمها مقاله: "ومع ذلك أنا أعلم يا عزيزتى أنك أصدق امرأة عاشت وأنقاها، فكيف يخطر لى أنك امرأة غزلة؟ خبرينى يا تس لماذا تزهدين فى زواجى ما دمت تهويننى على ما أرى؟"

قالت: "لم أقل قط إنى أزهد فى زواجك، وأنى لى أن أقول ذلك وهو غير صحيح؟" وأرهقها الموقف فاختلجت شفتها العليا واضطرت إلى الابتعاد عنه وبلغ من كلير الألم والدهشة حتى جرى وراءها ولحق بها فى الممشى، وضمها بحرارة وقد نسى تلوث يديه بالخثارة وقال: "خبرينى! قولى لى إنك لن تكونى لإنسان سواى!" فقالت: "أؤكد لك ذلك، وسوف أعطيك جوابًا شافيًا إذا تركتنى الآن، سوف أخبرك بكل تجاربى، وكل ما يتعلق بشخصى، وكل شىء!" قال مداعبًا فى لطف: "كل تجاربك يا عزيزتى، طبعًا أى عدد منها تشائين، لا بد أن عزيزتى تس قد مر بها من التجارب العديدة مثل ما مر بزهرة اللبلاب تلك التى تفتحت على وشيع الحديقة هذا الصباح، خبرينى بما شئت ولكن دعى ذلك القول الممقوت بأنك غير جديرة بى" قالت: "سأحاول، وسأنهى إليك كل أسبابى غدًا... الأسبوع القادم"، قال: "يوم الأحد؟" قالت: "نعم، يوم الأحد".

وأخيرًا أطلقها، فلم تتريث فى فرارها حتى بلغت أشجار الصفصاف المشذب فى الجانب المنخفض من الحظيرة، حيث تستطيع الاختفاء التام، وهنا ارتمت تس على لفائف الأعشاب الخشنة كأنها ترتمى على فراشها، وظلت كذلك خافقة القلب يعركها الألم وتخطف أمامها لمحات من الحبور لم يستطع خوفها من النهاية أن يطفئها. والواقع أنها كانت منساقة إلى الموافقة، فإن كل نفس من أنفاسها المترددة، وكل دفعة من دمها، وكل خفقة فى أذنيها، كانت عوامل تظاهر الطبيعة فى ثورتها على مبادئها التى اتخذتها لنفسها، كان الحب يشير عليها بقبول زواجه بلا تبصر ولا تريث، والاقتران به أمام المذبح دون أن تبوح بشىء، مستهدفة فى ذلك للفضيحة، واختطاف حظها من السعادة النامية قبل أن تسحقها أنياب الألم، وخيل إلى تس وهى بين الفزع والحبور أن مشهورة القلب هى التى ستسود فى النهاية، رغم شهور عزلتها وانحنائها على نفسها، ورغم عراكها وتأملاتها وخططها التى دبرتها لمستقبل منعزل صارم.

ومرت ساعة وهى فى الصفصاف، وسمعت قعقعة الأوانى وهى تؤخذ من مشاجبها، ونباح الكلاب أثناء جمع البقر، ولكنها لم تنهض للحلب، فقد كانت تخشى أن يرى القوم اضطرابها ويعزوه صاحب الضيعة إلى الحب وحده فيداعبها فى طيبة قلبه المعهودة، ولم تكن لها طاقة بذلك العذاب. ويظهر أن حبيبها قد حظر حالتها المؤسية فانتحل عذرًا لعدم ظهورها، فإن أحدًا لم يبحث عنها أو يناديها. ودلفت الشمس فى منتصف السابعة إلى الأفق كأنها أتون هائل فى السماء وبعد قليل ظهر على الجانب الآخر قمر عظيم الجرم كأنه يقطينة، ولاح الصفصاف الذى أوسعه المشذبون قضبًا وتحيفًا كأنه وحوش طويلة سلكية الشعور، وهو مائل أمام القمر؛ ودخلت تس وصعدت فى الظلام.

ومر يوم الأربعاء وتلاه الخميس، وكان كير يتأملها من بعد مليًا، ولكنه لم يغل على حريتها وكأن ماريان وصاحبتيها شعرن أن أمرًا ما يجرى، فلم يلحفن عليها فى المقال فى حجرة النوم وتصرم الجمعة وجاء السبت؛ غدًا فصل الخطاب! وسمعت تس وهى فى فراشها إحدى الفتيات تتنهد باسمه فى فراشها إحدى الفتيات تتنهد باسمه فى منامها، فقالت تس وقد أدركتها الغيرة واتقد وجهها على الوسادة: "سأوافق وأرضى بزواجه، فليس فى طوقى غير ذلك! لا يمكننى أن أدع غيرى تفوز به! ولكن هذه إساءة إليه وربما قتله اكتشافها فيما بعد! يا لقلبى! واشقوتاه".

جلس صاحب الضيعة كريك فى الغد إلى مائدة الفطور، وأجال فى العمال المنهمكين فى المضغ نظرة المعجزة وقال: "من تظنون أرسل إلى كتابًا هذا الصباح؟" وخمن عامل أو عاملان ولم تخمن مسز كريك لأنها كانت تعلم، قال صاحب الضيعة: "ذلك الوغد الفاجر جاك دولوب، لقد تزوج أرملة منذ عهد قريب"، فقال بعض العمال: "جاك دولوب؟ ذلك الفاسق؟ يا للعجب!" وكان ذلك الاسم سريع النفاذ فى خاطر تس، لأنه اسم الرجل الذى جنى على فتاته ثم تناولته بعد ذلك يد أمها العسراء وهو فى الممخضة.

قال إينجل فى غير انتباه وهو يقلب صفحات جريدة أمام مائدته الصغيرة، التى كانت مسز كريك تنفيه عندها حرصًا منها على سمو مكانه:

"هل تزوج ابنة تلك المرأة الشجاعة كما وعد؟" فقال مستر كريك: "هيهات يا سيدى! ما كان ينوى قط أن يبر بوعده؛ أما هذه الأرملة فكانت ذات يسار، إذ كان يدخل يدها خمسون جنيهًا فى العام أو نحو ذلك، وهذا كل ما كان يطمع فيه، وتعجلا بالزواج، وعندها أخبرته أنها بزواجها قد فقدت دخلها، فتصوروا حالة صاحبنا حين سمع ذلك! إنهما يعيشان عيشة القط والكلب منذ الوقت، وهذا جزاء صارم يستحقه، ولكن يا للمرأة المسكينة! إنها لفى بلاء عظيم".

قالت مسز كريك: "كان يجدر بالحمقاء أن تخبره قبل ذلك أنه إن تزوجها فسيزعجه شبح زوجها الأول"، قال زوجها فى تردد: "نعم، نعم، ولكن الحقيقة واضحة: وهى أنها كانت تبغى لنفسها بيتًا عامرًا، ولم تكن تحب أن تغامر بفقدان صاحبها، ألا تحسبن أن الأمر جرى على هذا النحو يا فتيات؟" ونظر إلى صف العاملات، فقالت ماريان: "كان يجب أن تخبره قبل نهوضهما إلى الكنيسة، حين كان يتعذر عليه التقهقر"، قالت إيز: "نعم كان بجب عليها ذلك"، وقالت رتى فى اندفاع: "كان يجب عليها أن تفهم أى رجل هو، وأن ترفضه"، قال كريك لتس: "وأنت يا عزيزتى ماذا ترين؟" قالت وفمها ممتلئ بالخبز والزبد: "أرى أنه كان يجدر بها أن تخبره بحقيقة الحال، أو ترفضه، لست أدرى".

قالت (بك نبز)، وهى عاملة متزوجة تأتى من دارها كل يوم:

"لعنة الله علىّ لو فعلت شيئًا مما تصفن، المثل يقول إن الغاية تبرر الواسطة فى الحب والحرب، ولو كنت فى مكان تلك الأرملة لتزوجته كما تزوجته، فإذا لامنى على عدم إفضائى إليه بشىء عن رجلى الأول لم أرد إخباره به من تلقاء نفسى، هويت عليه بالنشابة فبطحته أرضًا، وكل امرأة تستطيع أن تفعل به ذلك الفعل، وهو ذلك القزم الضئيل"، وأعقب هذا المقال المتدفق ضحك لم تشترك فيه تس إلا ببسمة حزينة، فقد كان مأساة فى نظرها ما يرونه مهزلة تكد تطيق على حسورهم صبرًا.

ونهضت، وكانت تحس أن كلير سيتبعها، فاتخذت سمتها فى ممشى متعرج تتوثب فى اندفاعها حول قنوات الرى، حتى وقفت بجانب نهر فار الرئيسى، وكانت تمر بها كتل من الأعشاب المائية طافية قد اقتطعها الفلاحون فى أعالى النهر فكانت تبدو كأنها جزر خضراء من الطحلب عائمة، يخيل إلى تس أنها تستطيع أن تقف عليها، وقد تجمعت ضفائر من تلك الأعشاب حول الأعمدة المدقوقة فى النهر لمنع البهائم من العبور خوضًا. وراحت تس تستعيد فى مخيلتها ذلك الموقف الممض حيث يتضاحك القوم من تلك المأساة المفجعة، مأساة امرأة تبوح بقصتها وتكابد أشق ألم فى حياتها، كأنما يحق للناس التضاحك من شهيد؛ وإذا كلير يناديها من خلفها وهو يعبر القناة قفزًا ويهبط بجانبها: "تس! يا زوجى... عما قريب فقالت "لا! لا! لا أستطيع، من أجلك أنت يا مستر كلير، من أجلك أنت أقول لا!" قال: "تس!" قالت: "ما زلت أقول لا!".

ولم يكن يتوقع ذلك. ومن ثم كان أجال ذراعه بعد مخاطبتها حول خصرها تُوين شعرها المسترسل؛ وكانت عاملات الضيعة يتناولن فطورهن مهدلات الشعور صباح الأحد، ثم يرجلها ويصففنها تصفيفًا عاليًا قبل الذهاب إلى الكنيسة، ولم يكن يتأتى ذلك قبل أن يحلبن البقر، إذ يضطرهن الحلب إلى إسناد رءوسهن إلى البقر؛ ولو كانت تس قالت بدل لا لكان قبلها، تلك كانت نيته على الأرجح، ولكن رفضها الجازم جعله يحجم بوازع نفسى، إذ كان يراها لاضطرارها إلى

مساكنته فى الضيعة فى مركز حرج، لأنها كانت وهى المرأة مجبرة على ملاقاته من حين إلى آخر، فكان يرى أن من الحيف أن يحاول الضغط عليها أو إغراءها بلطيف المغازلات، وما كان ليحجم عن مثل تلك المغازلة البريئة لو أن تس كانت أمنع موقفًا وأقدر على تجنبه، لذلك كله أطلق خصرها وأحجم عن تقبيلها.

وكان إطلاقه إياها فصل الخطاب، فإنها لم تستعر جلدها على الرفض فى تلك الساعة إلا من قصة الأرملة التى حكاها صاحب الضيعة، وكان ذلك الجلد سيخونها لو استمر الموقف دقيقة أخرى، ولكن إينجل لم يزد؛ بل ظهرت الحيرة فى وجهه وانصرف. ومر يوم بعد يوم وهما يتلاقيان، وإن قل تلاقيهما عن ذى قبل قليلاً، وتصرم أسبوعان أو ثلاثة، وقارب سبتمبر نهايته، وكانت تس ترى فى عينيه أنه ربما عاود السؤال.

على أن كلير قد غير خطته، وكأنه قد اقتنع أن رفضها إنما يرجع إلى الدلال ومفاجأة الطلب لها وهى لا تزال صبية جاهلة، وقد زاده اقتناعًا بذلك ما كان يعروها من اضطراب وتبديه من تملص كلما فاتحها، ومن ثم سلك إليها سبيلاً ألين، فبذل جهده فى استمالتها واجتذابها دون أن يجاوز حد القول أو يعاود عناقها، وألحف فى ملاحقتها فى نبرات لينة كأنها خرير اللبن فى المحلب، وتعقبها بجانب الأبقار وعند كشط القشدة وعند صنع الزبد وعمل الجبن، ووسط الدجاج الراقد وبين الخنازير القذرة، فلم يتعقب مثله أبدًا عاملة ألبان كما تعقبها.

وأيقنت تس أنها ستنوء وترضخ، ولم يعد يجدى شعورها الوجدانى بأن لعلاقتها بالرجل الأول قيمة خلقية تجعل تلك العلاقة قائمة إلى اليوم، ولم يعد يجدى إصرار ضميرها على أن تكون أمينة، فقد كانت تحب إينجل حبًا متيمًا، وكان يبدو لها ملكًا كريمًا؛ وكانت على ضآلة تعليمها دقيقة المشاعر بطبيعتها، فكانت تريده أستاذًا ومرشدًا، وعبثًا كانت تردد على نفسها قولها: "لا يمكن أن أتزوجه" وكان نفس نطقها بذلك دليلاً على ضعفها، فلو كانت لها القوة لصممت على ذلك فى هدوء، وكانت حالما تسمع نبرة صوته يعاود الموضوع القديم تتناهبها الغبطة والفزع، وكانت تحن إلى مفاتحاته قدر ما تخشاها، وكان مظهره – كمظهر كل

رجل في موقفه – مظهر امرئ غايته الوحيدة أن يحبها ويرعاها ويدفع عنها، فى أى ظروف أو تقلبات أو شبهات أو حقائق تجد، فكان همها يتقشع وهى تضحى فى حرارة عطفه.

واقترب الاعتدال الخريفى، وكان الجو لا يزال جميلاً ولكن النهار تقاصر، وبدأ القوم يستضيئون بالشموع فى العمل الصباحى؛ وعاد كلير إلى توسلاته ذات صباح بين الثالثة والرابعة، وكانت قد هرعت إلى حجرته العليا فى ثوب نومها توقظه كالعادة، ثم كرت راجعة ترتدى ملابسها وتوقظ الأخريات، وبعد عشر دقائق خرجت إلى السلم وفى يدها شمعتها، ونزل هو فى نفس الوقت فى قميصه بغير معطف، واعترض السلم بذراعه وقال في حزم: "الآن قبل أن تنزلى ياربة الحسن والدلال، أنا لم أفتح فمى منذ أسبوعين، ولم يعد هذا يطاق، يجب أن تفصحى عن نيتك وإلا وجب على أن أهجر هذا الدار، لقد كان بابى منفرجًا الساعة فرأيت قوامك، فمن أجل سلامتك أنت يجب أن أذهب، أراك حائرة، خبرينى: أهى نعم أخيرًا؟"

فزمت شفتيها وقالت: "أنا لم أنتبه إلا منذ قليل يا مستر كلير، ومن الحيف إرهاقى فى هذا الأوان المبكر، ولا ينبغى أن تدعونى بذات الدلال، فذلك ظلم وقسوة، انتظر ساعة، أرجوك أن تنتظر ساعة، فسوف أفكر فى الأمر تفكيرًا جديًا، والآن خل سبيلى"، وكانت تحمل الشمعة جانبًا، وحاولت أن تزيل مسحة الجد البادية على قولها ذاك بالابتسام، فبدا عليها كأنها حقًا كما وصفها، قال: "ادعينى إينجل إذن لا مستر كلير"، قالت: "إينجل!" قال: "عزيزى إينجل! لماذا لا تدعينى بذلك؟" قالت:"ألا يكون معنى ذلك أنى أوافق؟" قال: "لا يكون معناه إلا أنك تحبيننى، وقد تكرمت بمصارحتى بذلك منذ زمان، حتى وإن لم تستطعى أن تتزوجينى" قالت: "حسنًا إذن، عزيزى إينجل إن لم يكن بد".

غمغمت بذلك وهى تنظر إلى شمعتها، وحامت حول فمها بسمة خبيثة رغم اضطرابها، وكان إينجل قد عول على ألا يقبّلها حتى يحظى بوعد منها، ولكنه لم يسعه – وهى واقفة موقفها ذاك فى جلباب الحلب المجموع حول جسمها فى

رشاقة، وشعرها مكوم فوق رأسها فى غير نسق حتى يتاح لها الوقت لترجيله بعد الفراغ من الحلب والكشط – إلا أن يتناسى عزمه، فوضع شفتيه على خدها وهلة، وأسرعت تهبط الدرج غير ملتفتة إليه ولا قائلة شيئًا،

وكانت العاملات الأخريات قد نزلن من قبل، وانقطع حديثهن لدى ظهور إينجل وتس، ونظرن ما عدا ماريان إليهما فى اكتئاب وارتياب، وسط أشعة الشموع الحزينة الصفراء، تقابلها من خارج الحجرة أوائل أشعة الفجر الباردة؛ ولما انتهى الكشط – وكانت عمليته تتناقص يومًا فيومًا بتناقص اللبن منذ دخل الخريف – خرجت رتى والأخريات وتبعهما الحبيبان، وهمس إليها وهو يرمق شخوص الفتيات الثلاث تدلف فى ضوء القمر الشاحب: "ما أشد اختلاف حياتنا المضطربة عن حياتهن!" قالت: "لا إخال هناك كبير اختلاف"، قال: "لم؟" قالت: "ندر من النساء من ليست حياتها... مضطربة"، قالت الكلمة الأخيرة فى بطء كأنها قد راعتها، واستطردت: "إن لهؤلاء الفتيات من المواهب فوق ما تتصور" قال: "ما مواهبهن؟" قالت: "لعل أيتهن تكون زوجًا أليق منى ولعلهن يحببنك حبى إياك"، قال: "لا يا تس!".

وبدا عليها أنها ارتاحت لسماع احتجاجه على ما قالت، وإن كانت أصرت أشد إصرار على أن تمكن من نفسها لكرم طبعها، وقد كان لها ما أرادت، ولكنها لم تستطع أن تعاود النيل من نفسها فى تلك الساعة، ولحقت بهما عاملة آتية من دارها، وأمسكا عن الكلام فى ذلك الموضوع الذى يعنيهما أشد عناية، ولكن تس أيقنت أن ذلك اليوم سيشهد البت فى الأمر.

وفى العصر ذهب القوم يحلبون الأبقار فى مواضعها، وكانت كمية اللبن تتضاءل منذ حملت الأبقار وتخلص صاحب الضيعة من الأبقار الزائدة عن حاجة الفصل، التى كان يستبقيها فى فصل النماء والاخضرار، ومضى القوم فى عملهم على مهل، وكان كل حِلاب يمتلئ يفرغ فى أوان مستطيلة فوق عربة أحضرت لهذا الغرض، وكانت الأبقار متى حلبت سارت حيث شاءت، وكان مستر كريك يرتدى شملة ناصعة البياض على حين كانت السماء مدجنة، ونظر فجأة إلى ساعته

الثقيلة وقال: "نحن متأخرون عما كنت أظن، وهيهات أن نبلغ المحطة بهذا اللبن فى الوقت المناسب إلا أن نسرع، وليس لدينا متسع من الوقت لأخذه إلى الدار لمزجه بغيره، بل يجب أن يذهب إلى المحطة رأسًا، فمن يقوم بذلك؟".

وتطوع مستر كلير لذلك، وإن لم يكن ذاك من شأنه، ورغب إلى تس أن تصاحبه، وكان المساء على غياب شمسه حارًا وخيمًا فى ذلك الفصل،وكانت تس قد جاءت لابسة قلنسوة الحلب فقط، عارية الذراعين بلا سترة، فلم تكن مستعدة للخروج فأجابته بالنظر إلى ملابسها القذرة، ولكنه ألحف فى رفق، فوافقت بأن ناولت المحلب والمقعد إلى رب الضيعة لكى يحملهما عنها إلى الدار، وصعدت بجانب كلير.

٣٠

انطلقا فى الطريق المعبد بين المروج، وكانت المروج تمتد أميالاً وتبدو داكنة فى البعد، تحدها على الأفق منحدرات إجدن هيث السوداء السريعة الهبوط، وكانت تقوم على قمم تلك المنحدرات آجام من أشجار الشربين مخروطية الشكل تبدو رءوسها بما فيها من ثغرات كأنها بروج ذات فجوات، تتوج حصوناً سحرية سوداء المقادم.

وبلغ من اغتباطهما بقرب أحدهما من الآخر أن أمسكا عن الكلام رَدَحًا من الزمن، لا يقطع السكون إلا تَضَرُّب اللبن فى جوانب المدلجات الطويلة القائمة خلفهما، وكانت الطريق غير مطروقة. فكان اللوز معلقًا على أغصانه حتى يتساقط من قشوره من تلقاء نفسه، وكان التوت الأسود متجمعًا فى عناقيد كبيرة وكان إينجل أحيانًا يجتذب عنقودًا بسوطه ويقطفه ويدفعه إلى صاحبته.

وبدأت السماء المتلبدة تفصح عن غرضها بإرسال طلائع من رذاذ، وتحول نسيم اليوم الراكد هواء هائجًا يلعب حول وجهيهما وزايل سطوح الأنهار والبرك منظرها الزئبقى، فبعد أن كانت مرايا عريضة منيرة، ارتدت صفائح من الرصاص قاتمة ذات سطح كأنه المبرد، على أن ذلك المنظر لم يؤثر فى هم تس الشاغل، وكان وجهها الذى لوحته حرارة الفصل قد ازداد احمرارًا تحت ضربات القطر، وتلزج منه شعرها حتى شابه أعشاب البحر، وكان احتكاكه بجنب البقرة قد هدله وأخرجه عن قلنسوتها القطنية.

تمتمت وهى تنظر إلى السماء: "لم يكن ينبغى أن أجيء"، قال: "أنا آسف لنزول المطر، ولكن ما أسعدنى بوجودك معى!" واختفت إجدن فى بعدها وراء غبش الظلام ورطوبة الجو، واشتدت الظلمة وكانت تعترض الطريق بوابات، فكان من الخطر زيادة السرعة على المشى العادى، وكان الهواء باردًا، قال: "أخاف أن يصيبك البرد وذراعاك وكتفاك عارية، التصقى بى لا يصيبك الرذاذ، لقد كان ألمى

يزداد لو لم أعلم أن هذا المطر يساعدنى على غايتى"، وزحفت فى بطء إلى جانبه، ولفها معه فى خرقة كبيرة مقطوعة من شراع مركب، كانت تستعمل فى حجب الشمس عن المدلجات، وإذ كانت يداه مغلولتين فى السوق تولت تس المحافظة عليها أن تسقط عنه أو عنها.

قال: "كل شىء على ما يرام الآن! لا، ليس كل شىء على ما يرام! مازال المطر يصيب عنقى ولا شك أنه أشد إصابة لعنقك، هذا أحسن، إن ذراعيك كعمودين من الرخام مبتلين، فامسحيهما فى الخرقة، الآن إذا سكنت فى موضعك لم تصبك قطرة واحدة، ثم خبرينى يا عزيزتى عن مطلبى المعهود، وذلك السؤال القديم العهد!" ولم يسمع جوابًا إلا ضربات حوافر الحصان على الطريق المبتل، وتدافع اللبن فى أوانيه، فعاد، يقول: "هل تذكرين ما قلت لى؟" قالت: "نعم"، قال: "يجب أن يكون ذلك قبل أن نعود إلى الدار" قالت: "سأجتهد"، ولم يزد.

وبرز أمامها فى الظلام أطلال قصر ريفى يرجع إلى العهد الكارولينى، وبلغاه وجاوزاه، فقال يحاول إيناسها: "هذا بناء له قصة ممتعة، فهو أحد المساكن الكبيرة التى كانت تسكنها أسرة نرمندية، كانت فيما مضى ذات نفوذ عظيم فى هذه المقاطعة، وهى أسرة ذات شهرة عظيمة، وإن تكن شهرة إقطاعية طاغية متغطرسة"، قال تس: "نعم".

وتقدما فى بطء وسط الظلام الشامل إلى نقطة بدأ يتراءى فيها ضوء خافت، وعند تلك النقطة كان يرتسم أحيانًا أثناء النهار خط ضئيل أبيض من البخار، فوق الحقول الخضراء الداكنة المترامية، فيدل على اتصال هذا العالم المنعزل الذى يعيشان فيه بالعالم العصرى الخارجى، فقد كانت الحياة العصرية ترسل إلى هذه البقعة خرطومًا بخاريًا صغيرًا من خراطيمها العديدة، ثلاث مرات أو أربعًا كل يوم، تحس به حياة الريفيين ثم تسحبه ثانية كأنها لم تستطب ما تحسسته. وبلغا الضوء الخافت الذى كان منبعثًا من محطة صغيرة ملوثة بالدخان، كأن ذلك الضوء نجم أرضى حقير، على أنه كان أهم من النجوم السماوية فى نظر صاحب ضيعة تلبوثز وغيره من الناس؛ وأنزلت المدلجات تحت المطر المنهمر، بينما كانت تس

لائذة بشجرة هناك، ثم سمع صليل القطار الذى جاء منزلقًا على القضبان المبتلة ووقف فى غير جلبة، وارتمى ضوء القاطرة وهلة على شخص تس دربيفيلد وهى منكمشة فى مكانها، فما كان أشد التباين بين عدد القاطرة وعجلاتها اللامعة، وبين هذه الفتاة الساذجة ذات الذراعين المفتولتين العاريتين، والوجه والشعر المبتلين، وهى فى ترقبها كأنها نمرة أليفة، وعليها جلبابها الرخيص العديم الزى، وقلنسوتها القطنية منحدرة على جبهتها.

وصعدت ثانية إلى جانب حبيبها فى صمت المحبة المخلصة الطيعة، وغطيا رأسيهما بالخرقة مرة أخرى وعادا يشقان الظلام المحلولك، وكانت تس سريعة التأثر، فظل أثر الدقائق المعدودة التى قضتها على اتصال بجلبة التقدم المادى ماثلاً فى خاطرها، قالت: "سيشربه أهل لندن غدًا، أولئك الذين لم نرهم فى حياتنا، أليس كذلك؟" قال: "بلى، ولكنهم لن يشربوه كما أرسلناه إليهم، بل بعد أن تقتل حدته فلا يصعد فى رءوسهم"، قالت "نبلاء ونبيلات وسفراء وضباط، وسيدات وتاجرات وأطفال، ممن لم يروا بقرة قط"، قال: "نعم، لا سيما الضباط"، قالت مستطردة: "لا يعرفون عنا شيئًا ولا يعلمون من أين يأتى، ولا دروا أننا قطعنا هذه المسافة فى الظلماء والمطر كى يصل إليهم فى الوقت المناسب".

قال: "لم نقطع هذا الطريق لمجرد إرضاء أهل لندن الأعزاء، بل لغاية فى أنفسنا نحن، لأمر ذى بال إخالك يا عزيزتى تس ستريحينه من كثرة البحث، والآن اسمحى لى أن أصوغ الأمر هذه الصيغة: أنت لى أليس كذلك؟ أعنى أن قلبك لى"، قالت: "أنت تعلم مثل ما أعلم، نعم، نعم، نعم!"، قال: "فإذا كان قلبك لى فلم لا تكون يدك لى؟" قالت: "لسبب واحد يتعلق بك، يتعلق بمسألة؛ عندى شىء أفضى إليك به..." قال: "ولكن إذا كان هذا مما يؤدى إلى سعادتى التامة وراحتى؟" قالت: "نعم إذا كان يؤدى سعادتك وراحتك، ولكن حياتى قبل أن أجىء إلى هنا... أريد أن...".

قال: "أنا واثق أن هذا يؤدى إلى سعادتى وراحتى، فإذا صارت لى مزرعة كبيرة، سواء فى إنجلترا أو فى المستعمرات، فإن نفعك لى إذا تزوجتنى لا يقدر ولا يقاس به نفع امرأة آتية من أفخم قصور البلاد، فأنا أرجوك وأتوسل إليك يا تس

العزيزة، أن تطهرى ذهنك من فكرة أنك تقفين فى سبيلى"، قالت: "ولكن تاريخ حياتى يجب أن تعلمه، يجب أن تدعنى أخبرك به، وعندها لن تحبنى بمقدار ما تحبنى الآن!" قال: "أخبرينى إذن يا عزيزتى ما دمت تريدين، هاتى تاريخك النفيس، هيه ولدت فى كذا بعد الميلاد...".

قالت مستعينة بكلماته وإن يكن قد قالها مازحًا: "ولدت فى مارلت وفيها نشأت، وكنت فى السنة السادسة بالمدرسة حين انقطعت عنها، وكانوا يقولون إن لى استعدادًا للتدريس واختيرت لى تلك المهنة، ولكن أسرتى كانت فى عسر إذ لم يكن أبى مجتهدًا فى عمله وكان يشرب قليلاً"، قال وهو يضمها إلى جانبه: "نعم، نعم مسكينة يا بنيتى ليس هذا بالشىء الجديد"، قالت: "ثم... ثم كان أمر غريب... أمر غريب يتعلق بى..." ولهثت، فقال: "نعم، نعم، يا عزيزتى تس، لا تثريب عليك".

قالت: "ليس اسمى دربيفيلد بل دربرفيل، أنا سليلة تلك الأسرة التى كانت تملك ذلك المسكن الذى عبرنا به، وقد هوينا إلى الحضيض!" قال: "دربرفيل؟ أحق ما تقولين؟ وهل هذا كل ما فى الأمر؟" قالت بصوت ضعيف: "نعم " قال: "ولم يقل حبى إذا علمته؟" قالت: "لقد أخبرنى صاحب الضيعة بأنك تمقت الأسرات القديمة" فضحك وقال: "هذا صحيح إلى حد ما، أنا أمقت مبدأ الأرستقراط الذين يجعلون الدم فوق كل شىء، وأرى من المنطق ألا نبجل إلا النسب الروحى نسب العقلاء والفضلاء، دون نظر إلى المنتمى الجسدى، ولكنى مغتبط بهذا النبأ إلى غاية ما تتصورين! وهل يروقك أنت انتماؤك إلى ذلك النسب الرفيع؟".

قالت: "لا، بل ذلك أمر يؤسينى، لا سيما منذ قدومى إلى هذا المكان، إذ علمت أن كثيرًا من التلال والحقول التى أراها كانت ملك أسرة أبى فيما مضى، ولكن تلالا أخرى وحقولاً كانت ملك آباء رتى، ولعل غيرها كانت ملك آباء ماريان، ومن ثم أنا لا أعتد بالأمر كبير اعتداد"، قال: "أجل: من المدهش أن كثيرًا من عمال الأرض اليوم كانوا يمتلكونها قديمًا، وأحيانًا أعجب لماذا لا يستغل هذه الحقيقة حزب جديد من الساسة، ولكن لعلهم يجهلونها.... وأنا أعجب أيضًا لعدم ملاحظتى مشابهة اسمك لاسم دربرفيل، وعدم انتباهى إلى ما اعتور الاسم الأخير من فساد، وأخيرًا هذا هو السر الفظيع!".

لم تخبره بما أرادت، إذ خانتها شجاعتها فى آخر لحظة، وخشيت أن يؤنبها على أن لم تخبره قبل ذلك، وتغلب حرصها على سعادتها على رغبتها فى الصراحة والأمانة واستطرد كلير فى غفلته: "طبعًا كنت أفضل أن تكونى منحدرة من صلب الشعب الإنجليزى الصبور الصامت المغمور، لا من الأقلية الأنانية التى ارتقت إلى القوة على هامات الآخرين، ولكن حبى لك يفسد علىَّ مبدئى يا تس، ويجعلنى أنا أيضًا أنانيًا"، وضحك واستطرد: "فمن أجلك أنت أنا مغتبط بنسبك؛ إن المجتمع شديد النفاق، ولعل عراقة نسبك تساعد مساعدة كبيرة على قبول المجتمع إياك زوجًا لى، بعد أن تقرئى من الكتب ما أحب لك، وأمى العزيزة أيضًا ستسر أعظم السرور حين تعلم بذاك، يجب يا تس أن تنطقى باسمك منذ اليوم على وجهه الصحيح: دربرفيل".

قالت: "بل أوثر الوجه الآخر" قال: "ولكن يجب يا عزيزتى! يا للعجب إن عشرات الأغنياء المحدثين ذوى الملايين ليتحرقون شوقًا إلى مثل ثروتك! ولهذه المناسبة أقول إن أحدهم قد انتحل هذا الاسم فعلاً، أين سمعت به يا ترى؟ فى جهة تشيس على ما أظن، أجل هو ذلك الرجل الذى كانت بينه وبين أبى تلك المشادة التى أخبرتك خبرها، ما أعجبها صدفه!" قالت: "إينجل: أوثر ألا أتخذ الاسم، يخيل إلى أنه شؤم!" قال: "مهلاً يا سيدتى النبيلة تيريزا دربرفيل، لقد وقعت فى قبضتى: اتخذى اسمى تفلتى من اسمك! لقد بحت بالسر ففيم ترفضيننى بعد؟".

قالت: "إذا كان محققًا أن زواجى سيسعدك، وكنت تشعر أنك تريد جدًا أن تتزوجنى..." قال: "طبعًا أريد ذلك يا عزيزتى!" قالت: "أعنى أن رغبتك فىّ وكونك لا تستطيع الحياة بدونى مهما كانت مثالبى، هذا وحده هو الذى يجعلنى أشعر أنه ينبغى لى أن أوافق". قال: "نعم، توافقين! توافقين! ستكونين لى إلى الأبد!" وضمها بشدة وقبلها وقالت: "نعم!" ولم تكد تقولها حتى أجهشت باكية بكاء مرًا عنيفًا يكاد يمزق صدرها، ولم تكن تس فتاة عصبية بحال، فدهش وقال: "ما يبكيك يا عزيزتى؟".

قالت: "لا أرى تمامًا! إنما أنا فرحة... بكونى لك وبأنى أسعدك! " قال: "ولكن هذا لا يشبه الفرح كثيرًا يا تسى!" قالت: "أعنى أنى أبكى لأنى حنثت فى يمينى، فقد كنت آليت أن أموت عانسًا"، قال: "ولكنك إذا كنت تحبيننى فإنك تحبين أن أكون زوجك!" قالت: "نعم، نعم، نعم، كم أتمنى أحيانًا لو لم أولد!" قال: "اسمعى يا عزيزتى تسى... لو لم أعلم أنك مضطربة جدًا وأنك غير مجربة، لرأيت فى قولك هذا تنقصًا لى، كيف تتمنين ذلك إذا كنت تحبيننى؟ هل تحبيننى؟ ليتك تثبتين ذلك بوجه ما!" قالت وهى تفيض عاطفة نحوه: "كيف أثبته أكثر مما أثبته؟ هل يثبته هذا إثباتًا جديدًا؟" وطوقت عنقه، ولأول مرة عرف كلير كيف تكون قبلات امرأة متيمة على شفتى من تحبه من أعماق قلبها، وقالت وقد احمر وجهها وجعلت تمسح عينيها: "هاك! أتصدق الآن؟" قال: "نعم، وما شككت قط، أبدًا، أبدًا".

وهكذا استطردا فى طريقهما تحت الظلام، وهما حزمة واحدة تحت الخرقة والحصان يمشى على رسله، والمطر يلاطمهما؛ لقد وافقت، وكان سواء لو وافقت من بادئ الأمر، ولم تكن شهوة التمتع بالحياة التى تسرى فى جميع الأحياء – تلك القوة الهائلة التى تخضع الإنسانية لمشيئتها، كما يثنى المد واهى الأعشاب – لتقهر أمام الهراء والهذيان بحديث الأنساب وطبقات المجتمع.

قالت تس: "يجب أن أكتب إلى أمى فهل تمانع"؟ قال: "طبعًا لا يا طفلتى العزيزة، أجل طفلة أنت فى نظرى يا تس إذ لا تدركين وجوب الكتابة إلى أمك فى مثل هذا الوقت، وشدة افتتانى إذا أنا مانعت، أين تسكن؟" قالت: "فى نفس القرية، مارلت، على الجانب الأقصى من وادى بلاكمور"، قال: "أنا إذن رأيتك قبل هذا الصيف كما ظننت..." قالت: "نعم؛ فى ذلك الرقص فوق الخضرة؛ ولكنك لم تختر مراقصتى. أرجو ألا يكون ذلك فألا سيئًا لنا الآن!".

٣١

كتبت تس إلى أمها فى صباح الغد رسالة مؤثرة، وفى نهاية الأسبوع أتاها كتاب بخط جوان دربيفيلد المتعرج، على أسلوب القرن الماضى.

"عزيزتى تس: أكتب إليك هذه الكلمات آملة أن تجدك بصحة جيدة كما تغادرنى والحمد لله؛ عزيزتى تس.. كلنا مسرورون لكونك ستتزوجين حقًا عما قريب، أما فيما سألتنى عنه، فإنى أخبرك يا تس بينى وبينك، سرًا مكتومًا ولكن فى توكيد وتحقيق، أنه لا ينبغى لك أن تقولى له كلمة واحدة بحال من الأحوال عن مصابك القديم، وأنا لم أخبر أباك بكل شىء لأنه شديد الاعتداد بمقامه، ولعل خطيبك أيضًا كذلك؛ لقد أصابت نساء كثيرات غيرك – وفيهن نساء من أرفع الطبقات فى البلاد – مصائب كمصيبتك، فلماذا تعلنين خطبك ويكتمن خطوبهن؟ لن تفعل ذلك فتاة عاقلة، لا سيما وقد تصرم على الأمر زمنٌ طويل، ولم يكن الخطأ خطأك قط.

"أنت إذا سألتنى نفس سؤالك خمسين مرة أجبتك نفس جوابى، ثم اذكرى أنى لعلمى بسذاجتك العجيبة التى تجرى على لسانك كل ما فى قلبك، قد جعلتك تعدين ألا تبوحى بالسر قولا ولا فعلاً، حرصًا على سعادتك، وقد وعدتنى بذلك وعدًا أكيدًا قبل أن تبرحى هذا الباب، وأنا لم أذكر هذا الأمر ولا زواجك المنتظر لأبيك، علمًا بأنه لحماقته سوف يثرثر بالأمر فى كل مكان؛ عزيزتى تس.. تشجعى، وسنرسل إليك زجاجة من شراب التفاح من صنف (هود جهدز) يوم زفافك، علمًا بأنه صنف نادر فى ناحيتكم وأن ليس عندكم إلا الأصناف الرديئة، هذا كل ما أردت أن أقول الآن، وتحيتى إليك وإلى فتاك، من أمك المحبة.

ج. دربيفيلد"

غمغمت تس: "أماه! يا أماه!" وقد أدركت خفة موقع أفظع المواقف على نفس أمها المستهينة بالأمور، التى لا تنظر إلى الأمور نظرتها هى، ولا تعد ذلك الحادث القديم إلا أمرًا عارضًا؛ ولكن لعل أمها مصيبة فيما أشارت باتباعه أيه كانت الأسباب التى تتذرع بها، فقد كان يلوح لتس أن السكوت هو خير ما يتبع طلبًا لسعادة حبيبها العزيز، فليكن السكوت إذن خطتها.

هدأ بال تس، وقد سدد خطاها إرشاد الشخص الوحيد الذى كان له أدنى حق فى توجيهها فى الحياة وأزيح عنها الشعور بالمؤاخذة، واستراح قلبها راحة لم يعرفها منذ أسابيع، وشهدت أواخر الخريف التى تلت موافقتها على الزواج بدءًا من أكتوبر، عهدًا من حياتها سعدت فيه بغبطة روحية لم تسعد بمثلها فى وقت آخر، ولم تكن تشوب حبها لكلير شائبة، بل كانت فى وثوقها ونقاء طويتها تعده مثال الكمال، وتراه عالمًا بكل ما يعلمه فيلسوف ومرشد لها وصديق، وتعتبر كل سمة من سمات شخصه مثالاً لجمال الرجل، وترى روحه روح قديس وذهنه ذهن عالم بالغيوب، وكان اعتدادها بحبها إياه يزيد اعتدادها بنفسها فكانت تحس أن على مفرقها تاجًا، وكانت حرارة حبه إياها – كما كانت تتجلى لها – تجعلها تخلص له وتفديه، وكان أحيانًا يفاجئ عينيها الواسعتين البعيدتى القرار، تنظران إليه من أعماقهما نظرة عبادة، كأنما تتأملان كائنًا خالدًا.

وطردت الماضى من حياتها، ووطئته بقدميها وأخمدته كما يطأ المرء جمرة متقدة خطرة، ولم يكن خطر لها من قبل أن من الرجال من يتصف بهذا الكرم والإيثار والرعاية فى محبته للمرأة، وما كان أبعد إينجل كلير عما توهمت فيه من هذه الصفات ولكنه فى الحق كان روحًا أكثر مما كان جسدًا، كان مالكًا لزمام نفسه مبرءًا من الغلظة والخسة، ولم يكن بارد الطبع بيد أنه لم يكن حاره، إنما كان صحو المزاج، كان أقرب إلى شلى منه إلى بيرون، قد يتيمه الحب ولكنه حب أقرب إلى الخيال أثيرى، فكان حبه عاطفة نقية تكاد تحمله على حماية محبوبته حتى من نفسه، وقد راع ذلك تس وملأها حبورًا، وكانت تجاربها إلى اليوم تاعسة شقية، فاندفعت من النقيض إلى النقيض، من الزراية على الجنس الخشن إلى العبادة لكلير.

وأصبح كل منهما يجد فى طلب صحبة الآخر، وكانت لصراحتها وإخلاصها له لا تحاول إخفاء رغبتها فى مصاحبته، وإذا أمكن إيجار شعورها فى هذا الأمر فهو أنها كانت ترى أن التمنع الذى هو شيمة جنسها والذى يغرى عامة الرجال، ربما مجه هذا الرجل الكامل بعد أن صارحته أنها تحبه، إذ يكون التصنع فيه محسوسًا، ولم تكن تعرف إلا العادة الريفية عادة الصحبة التامة بين الخطيبين خارج الدار ولم تكن ترى فى ذلك غرابة، أما هو فكان يعد ذلك سبقًا للحوادث عجيبًا، حتى رأى كيف أنها هى وغيرها من أهل الضيعة يعدونه شيئًا مألوفًا.

ومن ثم راحا فى شهر أكتوبر هذا ذى الأصائل الجميلة يضربان فى الحقول، ويسلكان الطرق المتسحبة على ضفاف الجداول المترقرقة، ويعبرانها ذهابا وإيابًا على قناطر صغيرة، يطرق سمعها حيثما ذهبا خرير منحدر مائى يأتلف لغطه مع ثرثرتهما وقد انبسطت أشعة الشمس أفقية موازية للمرج ذاته، مكونة فوقه غيابة متألقة، وكانا يريان قطعًا صغيرة من الضباب فى ظلال الأشجار والشجيرات، بينما أشعة الشمس تسطع فى كل الجهات، وكانت الشمس من الدنو إلى الأفق والمروج من الانبساط، بحيث كان ظلا تس وكلير يمتدان أمامهما ربع ميل، كأنهما إصبعان طويلتان تشيران إلى حيث تلتقى الخضرة اليانعة بجوانب الوادى المنحدر.

وكان الفلاحون يعملون هنا وهناك، فقد كان ذلك أوان تعميق القنوات استعدادًا للرى الشتوى، وترميم جوانبها حيث هدمتها أرجل البقر، وكان النهر قد جلب تلك التربة حفنة حفنة أيام كان متسعًا اتساع الوادى كله، وتركها سوداء كالإثمد مؤلفة من خلاصات الأعصر الخالية، مركزة مكررة منقاه خصبة غنية؛ وظل كلير مطوقًا تس بذراعه فى غير مبالاة أمام العمال، فعل المتعود تلك المشية المدللة أمام الأنظار، وإن يكن فى الحقيقة لا يقل خجلاً عن صاحبته التى كانت تلحظ الرجال الخزر كالوحش الحذر وشفتاها مفترتان.

قالت مغتبطة: "أنت لا تأنف أن تظهرهم على أنى صاحبتك!" قال: "كلا!" قالت: "ولكن هب ذويك فى إمنستر سمعوا أنك تسايرنى وأنا عاملة الألبان." قال: "أسحر عاملة ألبان على ظهر الأرض"، قالت: "ربما عدوا ذلك إهانة لكرامتهم"، قال: "أتضع سليلة دربرفيل من كرامة سليل كلير؟ إن نسبك لحجة دامغة أبقيها سرًا حتى يتم زواجنا، وعندها أحصل على البراهين القاطعة بصحته من القس ترنجم، ويكون لذلك وقعه العظيم، زيدى على ذلك أن حياتى المستقبلة ستكون بنجوة عن ذوى، ولن تؤثر حتى فى سطح حياتهم، وسوف نرحل عن هذا الجانب من إنجلترا، بل ربما هجرنا إنجلترا قاطبة، وكيف يضيرنا إذ ذاك ما يقول الناس عنا؟ ألن يسرك الرحيل؟".

ولم تزد أن ردت عليه إيجابًا فى أبسط لفظ، فقد بلغ منها الحبور لدى تصور الرحلة معه فى أقطار العالم فى ألفة محكمة وثيقة، حتى كاد الحبور يملأ أذنيها كلغط الأمواج ويطغى على عينيها؛ ووضعت يدها فى يده وواصلا السير إلى بقعة تتوهج فيها أشعة الشمس منعكسة من النهر إلى أسفل قنطرة فوقه تلمع لمعان المعدن المذاب فتكسف بصريهما، وإن كانت الشمس ذاتها مختفية وراء القنطرة، ووقفا مكانهما فارتفعت على سطح الماء الأملس رءوس صغار يغطيها الفراء والريش، ولكنها حين رأت الشخصين اللذين أزعجا هدوءها قد وقفا ولم يمضيا، اختفت ثانية؛ وطال لبثهما فوق حافة النهر حتى بدأ الضباب يلفهما، وكان الضباب سريع الهبوط مساء فى ذلك الفصل، وتبلور على أهدابها وعلى شعره وحاجبيه.

وكانا فى أيام الآحاد يطيلان نزهتهما بعد هبوط الليل، وكان بعض أهل الضيعة يتنزهون كذلك مساء أول يوم أحد أعقب خطبتهما، فسمعوا حديثها متهدج النبرات مقطع العبارات لفرط حبورها وانفعالها، وإن كانوا أبعد مدى من أن يعوا كلماتها، ولاحظوا صمتها أحيانًا وضحكها أحيانًا ضحكًا طروبًا كأنما روحها تعتلى فيه، ضحك المرأة فى صحبة الرجل الذى تحب والذى استخلصت من دون جميع النساء، فهو ضحك فريد عديم النظير، ولاحظوا حبور خطواتها كأنها خفقات الطائر لم يجثم على الغصن بعد.

لقد أصبح حبها إياها روح وجودها وقوامه؛ محيطًا بها كالهالة متساميًا بها حتى نسيت ماضيها الحزين، ذائدًا عنها تلك الأشباح التى كانت تصر على مهاجمتها، أشباح الشك والخوف والكآبة والهم والعار، وكانت تعلم أن هاتيك الأشباح جميعها قابعة كالذئاب خارج دائرة الضوء المحيطة بها، ولكن كانت تعاودها رجعات طويلة من قوة الإرادة، تستطيع بها أن تدرأها عن نفسها وتبقيها فى مكانها صاغرة جائعة، سكنت نفسها من تلك الآلام، أما عقلها فكان يعلم علم اليقين بوجود تلك الأشباح على كثب، كانت تسير فى الضياء المنير ولكن تلك الأشباح كانت تقاربها يومًا وتباعدها يومًا.

وتخلف كلير وتس ذات مساء فى الدار يعنيان بها وقد خرج الآخرون، وبينما هما يتحدثان نظرت إليه متأملة وقابل بصرها عينيه المعجبتين، ثم وثبت فجأة من مقعدها وكأنما أفزعها تتيمه بها وفرط سعادتها بذلك، فصرخت: "لا! لست أهلاً لك!" وعزا كلير اضطرابها إلى الأمر الذى لم يكن إلا جزءًا صغيرًا من السبب، قال: "لست أحب أن تقولى هذا يا تس! فليس النبل هو البراعة فى اتباع مجموعة من التقاليد الحمقاء، ولكن هو الانتماء إلى زمرة ذوى الأمانة والصدق والعدل، والطهارة والرقة ونقاء الصحيفة، وإليهم تنتمين".

وحاولت تس مغالبة البكاء الذى جاش فى صدرها، فقد راعها أن تراه يذكر هذه الصفات التى طالما أوجع قلبها سماعها فى الكنيسة، وقالت وهى تشبك يديها فى انفعال: "لماذا لم تبق معى وتحبنى يوم كنت فى السادسة عشر أيام كنت أحيا مع أشقائى الصغار، وحين جئت ترقص على الخضرة؟ لماذا لم تبق؟ لماذا؟". وجعل إينجل يسكن روعها ويطمئنها، وقد رأى ما راعه من تقلب حالاتها، وأدرك أنه سيضطر إلى كثير من الحكمة فى معاملتها، يوم تتوقف سعادتها عليه هو وحده، قال: "لماذا لم أبق؟ هذا ما أسأل نفسى أنا به، ليتنى كنت أدرى ولكن علام يذهب بك الندم كل هذا المذهب؟" وعاودتها طبيعة التستر التى فطر عليها النساء، فحولت عنان الحديث بقولها: "لو فعلت لاستمتعت بحبك أربع سنين أكثر مما يمكننى الآن، وإذن لما أضعت وقتى سدى كما أضعته ولطالت سعادتى أى طول!".

وما كانت المسكينة التى تتجرع هاتيك الغصص بامرأة ذات ماض مظلم مملوء باجتراح الآثام، وإنما كانت صبية ساذجة لم تبلغ بعد واحدًا وعشرين ربيعًا قد أخذت على غرة قبل أن يتم تمامها كما يؤخذ العصفور فى الفخ؛ وأرادت أن تسكن نفسها تمامًا فنهضت خارجة من الحجرة، وكفأ ذيل ثوبها مقعدها وهى ذاهبة وبقى هو بجانب المدفأة وكانت تتوهج، والأعواد تتكسر فيها بطقطقة سارة، وتئز فى أطرافها فقاقيع من عصيرها، ثم عادت تس وقد استرجعت تمام جأشها.

قال ملاطفًا وهو يمهد لها حشية ويجلس بجوارها على المقعد: "ألا ترين أنك غريبة الأطوار والبدوات قليلاً؟ لقد كنت أريد أن أسألك شيئًا، وإذا أنت تنفتلين خارجة" قالت: "بلى، إخالنى كذلك"، ثم دنت منه وجعلت يديها على كلتا ذراعيه وقالت: "لا يا إينجل، ولست بغريبة الأطوار فى الحقيقة، أعنى أنى لم أخلق كذلك". وأرادت أن تزيده توكيدًا، فضمت نفسها إليه واتخذت من كتفه مسندًا، ثم قالت فى خضوع: "ماذا كنت تريد أن تسألنى؟ ثق أنى سأجيبك عليه" قال: "أنت تحبيننى، وقد وافقت على زواجى، والخطوة الثالثة هى أن تخبرينى عن يوم الزواج"، قالت: "أفضل أن أظل هكذا".

قال: "ولكن لا بد أن أتهيأ للشروع فى عملى المستقبلى فى بدء العام الجديد، أو بعده بقليل، وأحب أن أحصل على شريكة حياتى قبل أن آخذ فى تفاصيل عملى التى لا تحصى"؛ فأجابت فى توجس: "ولكن أليس الحزم ألا يكون زواج إلا بعد ذلك؟ وإن كنت لا أطيق تصور رحيلك وتركك إياى هنا".

قال: طبعًا لا تطيقين ذلك، ولا هو بأحسن ما يفعل فى هذه الحالة، فأنا محتاج إلى معونتك فى شتى الأمور عند البدء، فمتى؟ بعد أسبوعين؟"، فارتسم الجد على وجهها وقالت: "لا، هناك أشياء كثيرة يجب أن أفكر فيها أولاً"، قال وهو يضمها إليه: "ولكن..".

وأفزعها شبح الزواج إذ لاح قريبًا، وقبل أن يستطردا فى حديث الزواج دخل الرئيس كريك دالفًا إلى جوار الموقد، وظهر فى ضوء النار المتوهج، وبجانبه مسز كريك وعاملتان، فوثبت إلى قدميها كأنها كرة مطاط، واحمر وجهها وبرقت

عيناها فى وهج الموقد، وقالت فى حنق: "لقد توقعت هذا إذا جلست بجواره، وقلت لنفسى لا بد أنهم سيفاجئوننا! ولكنى فى الحقيقة لم أكن جالسة على ركبته وإن خيل إليكم ذلك" قال مستر كريك: "مادمت بدأت الكلام فالحق أننا لو لم تخبرينا لما عرفنا أنك هنا على الإطلاق لخفوت هذا الضوء"، ثم التفت إلى زوجه وقال فى سيماء الجمود التى يتسم بها الجاهل بما يتعلق بالحب من عواطف: "هذا مما يثبت لك يا كرستينا أنه لا يليق بالمرء أن يحمل على الناس ما لم يفكروا فيه، إنى لم أكن لأعلم أين مجلسها لولا تكلمت".

قال كلير فى غير اكتراث: "سنقترن عما قريب"؛ قال صاحب الضيعة: "أحقًا؟ هذا يسرنى كثيرًا يا سيدى، لقد كنت أتوقع هذا منذ زمن، وإنها لأرفع من أن تكون عاملة، وهذا ما حدثت به نفسى منذ رأيتها أول مرة، وأنها لأهل لخير بعل، وهى إلى ذلك خليقة أن تكون زوجًا للمزارع صاحب الأملاك، لا يرى نفسه وهى بجانبه تحت رحمة مدير أعماله"؛ واختفت تس من حيث لا يشعر أحد، وقد أزعجها نظر العاملتين إليها، فوق أخجلها إطراء كريك الفدم، وبعد العشاء أوت إلى مخدعها وكانت زميلاتها قد سبقتها إليه، وكن جالسات فى فراشهن والحجرة مضاءة، يرقبن مجىء تس شاحبات وكأنهن صف من الأرواح المنتقمة، ولكنها سرعان ما تبينت أنهن لا يضمرن حقدًا، فإنهن لم يكدن يشعرن بفقدان شىء لم يتوقعن يومًا أن يملكنه، وإنما كن يفكرن فى أمرهما.

قالت رتى، وعيناها مشدودتان إلى تس: "سيتزوجها! ما أبين ما يبدو ذلك فى وجهها!" قالت ماريان: "أستتزوجينه؟" قالت تس: "نعم" قالت: "متى؟"، قالت: "يومًا ما"، وعزون قولها ذاك إلى مجرد التخلص، قالت إزهيوت مرددة: "نعم ستتزوجه! ستتزوج سيدًا نبيلاً!"، وزحفن من فراشهن واحدة بعد واحدة كالمسحورات وسرن إلى تس ووقفن حولها؛ ووضعت إيز يديها على كتفى تس كأنها تريد الاستيثاق من تجسد صاحبتها أمامها بعد وقوع تلك المعجزة، وطوقت الأخريات خصرها بذراعيهما، وكلهن ينظرن فى وجهها.

قالت إيزِ: "هذا عجيب فوق ما أتصور!"، وقبلت ماريان تس وقالت وهى ترفع عنها شفتيها: "نعم"، قالت إيز لماريان بجفاء: "أحبًّا لها تقبلينها أم لأن شفتين أخريين كانتا على وجهها منذ هنيهة؟" فقالت ماريان فى بساطة: "لم أكن أفكر فى ذلك، إنما كنت أستمرئ كل ما فى الأمر من طرافة، إذ ستصبح هى دون غيرها زوجه؛ ولست أعترض ولا واحدة منا تعترض، فإننا لم نتوقع أن نحظى به، وإنما كنا نحبه، ومع هذا فلن تتزوجه سيدة منعمة تميس فى الخز والديباج، بل هذه التى تحيا كما نحيا".

قالت تس فى صوت منخفض: "أواثقات أنتن أنكن لا تمقتننى من أجل ذلك؟" فتكأكأن حولها فى ثياب نومهن البيضاء كأنما يتوقعن أن يكون جوابهن فى عينيها وتمتمت رتى: "لست أدرى، لست أدرى، إنى أريد أن أكرهك فلا أستطيع!" وأجابتها إيز وماريان كلتاهما: "هذا ما احس به أنا، أنا لا أستطيع أن أكرهها، فإنها تمنعنى أن أكرهها"، وغمغمت تس: "يجدر به أن يتزوج إحداكن"، قلن: "لم؟" قالت: "لأنكن جميعًا خير منى"، فقلن فى صوت بطىء منخفض: "نحن خير منك؟ لا، لا يا عزيزتنا تس"، قالت مصرة: "بلى! بلى".

وتخلصت من حلقتهن فجأة وانخرطت باكية بكاء حارًا، وهى منحنية على الصوان تردد: "بلى!بلى" ولم تستطع وقد غلبها البكاء أن تضع له حدًا، واستطردت: "كان ينبغى أن يختار إحداكن! ولعله ينبغى لى أن أحمله على ذلك الآن! وأكبر ظنى أن واحدة منكن خير له من... أنا لا أدرى ما أقول!" وسرن إليها واحتضنها ولكن البكاء كان لا يزال يمزق صدرها، قالت ماريان: "علىَّ بقليل من الماء، لقد أهجنا نفسها، ويح المسكينة!" وأرجعنها فى رفق إلى فراشها حيث قبلنها تقبيلاً حارًا.

قالت ماريان: "أنت خير من تصلح له، أنت أنبل منا وأكثر ثقافة، لا سيما بعد أن تلقنت عنه ما تلقنت، ولكن حتى أنت يجب أن تتيهى به وتفخرى"، وقالت: "أجل أنا به مزهوة فخور، ويخجلنى أن أجهش بالبكاء هكذا"، وعدن جميعًا إلى مضاجعهن وأطفئ النور وهمست إليها ماريان: "أرجو أن تذكرينا إذا ما صرت حليلته، وتذكرى كيف صارحناك بحبنا إياه، وكيف حاولنا أن نكرهك لأن اختياره وقع عليك، ولم نأمل يومًا أن يختارنا".

ولم يدر بخلدهن أن تلك الكلمات أرسلت الدموع مرة أخرى على وسادة نس أليمة مريرة، وأنها صممت بقلب محترق على أن تبوح لإينجل كلير بكل ماضيها، رغم نصح أمها، كى يحتقرها إذا شاء وهو الذى تحيا من أجله وتتنفس، وكى تعدها أمها حمقاء، فهى تؤثر كل ذلك على التمادى فى صمت تخشى أن يكون خيانة له، وتتوهم أنه إساءة إلى هؤلاء الفتيات.

٣٢

جعلها هذا التندم تؤجل يوم الزفاف، حتى حل نوفمبر وذلك اليوم لا يزال معلقًا، رغم أن إينجل كان يسألها عنه فى أشد المواقف إغراء، ولكن تس كانت كأنما تفضل عهد خطبة مستمرة تظل فيها الأحوال على ما هى عليه؛ وكانت المروج قد بدأت تتغير، ولكن حرارة الجو كانت لا تزال تسمح بالتنزه هناك عصرًا قبل الحلبة الثانية، وكانت قلة أعمال الضيعة فى ذلك الفصل توفر الوقت للتنزه.

وكانا ربما أرسلا بصريهما فوق الأديم المخضل حيال الشمس، فيريان فى وهجها أمواجًا لامعة كأنها القمر منبسطًا على اليم، وكان البعوض الغافل عن قصر حياته وغبطتها يسبح فى هذا الأديم اللامع، ويشع ضوءًا كأنما يحمل فى باطنه نارًا ثم يخرج من تلك الدائرة فيختفى وكان إينجل يذكرها وهما ينظران إلى تلك المخلوقات أن يوم الزفاف لا يزال سرًا.

أو ربما سألها ليلاً وهو يرافقها فى مهمة تخترعها مسز كريك لتتيح لهما الفرصة، وكانت تلك المهمة عادة الذهاب إلى بيت المزرعة المشيد على المنحدرات فوق الوادى، لاستطلاع حال البقر العشار التى نقلت إلى العريش المقام هناك، فقد كان ذلك فصلاً حافلاً بالتغيرات فى أحوال البقر، فكانت ترسل منها زمر كل يوم إلى ذلك المستشفى، حيث ترقد على القش حتى تنتج، فإذا ما أصبح الفصيل قادرًا على المشى أعيد هو وأمه إلى ضيعة الألبان، ولم يكن يحلب لبن كثير حتى تباع العجول، وعندها تعود أعمال الحلب إلى سالف عهدها.

وكانا عائدين ليلة من إحدى هذه الرحلات، فبلغا تلا عظيمًا مغطى بالحصى قائمًا وسط السهل، فوقفا منصتين، وكانت الأنهار ملأى بمياهها تتدفق على الجنادل وتخر تحت البرابخ، وكانت القنوات الصغرى مترعة فلم يكن هناك سبيل لاختصار الرحلة، وكان السائرون على الأقدام مضطرين إلى اتباع الطرق العادية الطويلة، وكان يطرق مسامعها صدى مختلط آت من جوانب السهل الممتد، خيل إليهما أن تحت أقدامهما مدينة راقدة، ذلك اللغط هو تصايح آهليها.

قالت تس: "يخيل إليّ أنهم آلاف مؤلفة، مجتمعون في أسواقهم بين جدال وخطابة وشجار، ونحيب وأنين وصلاة وسباب". ولم يكن كلير ملقيًا إلى ذلك باله، إنما قال: "هل حادثك كريك اليوم في عدم احتياجه إلى كبير مساعدة في الشتاء القـــادم؟"، قـــالت: "لا"، قال: "لبن البقر يشح بسرعة "، قالت: "نعم لقد ذهبت ست أو سبع إلى المستشفى أمس، وثلاث أول من أمس، حتى صار في المستشفى نحو عشرين، آه! ألا يريد مساعدتي أثناء النتج؟ ويحي! ألم تعد به حاجة إلي؟ ولكم حاولت أن..." قال: "لم يقل كريك إنه لم يعد في حاجة إليك، وإنما قال في أجمل قصد وأدب لهجة – إذ كان يعلم ما بيننا – إنه يظن أني سأستصحبك في رحيلي قراب عيد الميلاد، فلما سألته أيستغني عنك أجاب بأنه يستغني عن مساعدة معظم عاملاته أثناء هذا الفصل، والحق أن الخبث بلغ مني أن فرحت إذ رأيته يرغمك على الذهاب معي".

قالت: "لم يكن يجمل بك أن تفرح يا إينجل، فإن من المحزن دائمًا أن يعلم المرء أنه غير مرغوب فيه، حتى ولو جاء ذلك وفق هواه" قال: "أجل هذا وفق هواك! لقد اعترفت!" ووضع يده على خدها وقال: "آه" قالت: "ماذا؟" قال: "أشعر باحمرار وجهك لاعترافك على غرة منك! ولكن لماذا نهزل كل هذا الهزل؟ ليست الحياة هزلاً بل هي جدّ مرّ"؛ قالت: "هي كذلك، ولعلي تعلمت ذلك قبل أن تتعلمه".

وتبين لها موقفها: فهي إذا رفضت الاقتران به إطاعة للعاطفة التي ثارت بها ألبارحة، وتركت الضيعة، فستضطر إلى الذهاب إلى مكان غريب ليس بمصنع ألبان، لأن الحاجة إلى عاملات الألبان كانت قليلة في هذا الفصل فصل التعشير، وإنما تذهب إلى مزرعة ليس فيها كائن إلهي مثل إينجل كلير؛ وقد كرهت تلك الفكرة، وكانت أشد كراهة للعودة إلى قريتها.

واستطرد: "فإذا كنا نبغي الجد فأولى لك ما دام الأرجح أنك سترحلين عن هذه الضيعة حوالي عيد الميلاد، أن أحملك معي ملكًا لي، هذا إلى أنك لا بد ترين أن من المحال استمرارنا على هذه الحال، إلا أن تكوني أشد من عرفت تجاهلاً للحقائق" قالت: "ليتنا نستطيع الاستمرار، ليت الفصل دائمًا إما صيف أو خريف،

وليتك دائمًا تتقرب إلى وتعنى بى كما كنت تعنى فى الصيف الفائت" قال: "سأظل أعنى بك ما حييت"، فصاحت وقد تملكها وثوق حار بصاحبها: "أجل، أنا واثقة أنك ستعنى بى دائمًا، إينجل: سأحدد اليوم الذى أغدو فيه ملكًا لك إلى الأبد!".

وهكذا قرر الأمر بينهما فى تلك الرحلة الليلية، وسط أصداء الماء المتضاربة عن يمينها وعن شمالها، ولما بلغا الدار أخبرا مستر كريك ومسز كريك توا، وطلبا إليهما أن يُسرا الأمر، فقد كانا كلاهما يريد أن يبقى سرًا؛ وكان صاحب الضيعة ينوى أن يصرف تس عما قليل، أما الآن فتظاهر بالأسف البالغ لفقدها، وتساءل عمن يتولى عنه كشط القشدة وصنع أقراص الزبدة المنقوشة، التى ترسل إلى عقائل (إنجليزى) و(ستدبورن)؛ وهنأت مسز كريك تس بانتهاء عهد التردد وقالت إنها حالما وقعت عيناها على تس أول مرة تنبأت لها بزوج ليس من غمار الناس، فقد كانت سيماء الإباء تبدو عليها وهى تسير فى الحظيرة يوم وصولها، وتدل على أنها تمت إلى أسرة كريمة؛ والحق أن مسز كريك قد لاحظت من بادئ الأمر رشاقة تس وحسن طلعتها، أما الإباء وكرم المحتد فلعلهما أمران تولدا فى مخيلتها بعد طول معاشرتها.

والآن ألفت تس نفسها مندفعة فى تيار الحوادث بغير إرادة، وقد أعطيت الكلمة وحدد اليوم، وكانت قريحتها الوقادة قد بدأت تؤمن بغلبة القدر إيمان أهل الريف ممن هم أكثر مخالطة لمظاهر الطبيعة منهم لأبناء جنسهم من البشر، ومن ثم وطنت نفسها على قبول كل ما يقترحه عليها حبيبها؛ على أنها عادت فكتبت إلى أمها تخبرها فى الظاهر بيوم الزواج وغرضها فى الباطن طلب نصيحتها مرة أخرى، فلعل أمها لم تكن قد أدركت تمامًا أن خاطبها سيد راق، ربما لا يغضى على الحقيقة إذا أخبرته بها بعد الزواج، كما يغضى بعض الدهماء، ولكن مسز دربيفلد لم تجب.

ورغم الحجج التى كان يدلى بها كلير إلى تس وإلى نفسه تبريرًا للتعجيل باقترانهما، فقد كانت تلك الخطوة لا تخلو من تسرع، كما اتضح فيما بعد؛ لقد كان يحبها حبًا عظيمًا، وإن كان حبه مثاليًا خياليًا لا كحبها الحار المتدفق، ولم يكن قد

خطر له يوم وطن نفسه على حياة الفلاحة والعمل اليدوى أنه سيعثر على فتاة ساحرة فاتنة كهذه، ولم يكن يدرى كيف تروع النفس بساطة الطبع حتى أتى إلى هذا المكان؛ ولكنه رغم ذلك كله لم يكن على بينة من مستقبل حياته، وكان لا يزال أمامه عام أو عامان قبل أن يستطيع القول بأنه قد بدأ حياته المستقلة، وكان السر فى ذلك راجعًا إلى عنصر الإهمال وعدم المبالاة الذى تسرب فى حياته منذ شعوره بأنه قد حيل بينه وبين المستقبل الجدير به، بسبب أوهام والديه الدينية.

سألته يومًا فى خشوع: "ألا تظن أنه كان يجمل أن ننتظر حتى تستقر فى مزرعتك فى الأقاليم الوسطى؟" وكانت الفكرة إذ ذاك متجهة إلى اتخاذ مزرعة فى تلك الأقاليم، قال: "الحق يا عزيزتِي تس أنى لا أحب أن أدعك بنجوة عن رعايتى وعطفى"، وقد كان هذا سببًا معقولاً إلى حد بعيد؛ فإنه كان قد أثر فيها تأثيرًا بليغًا، حتى اقتبست طباعة وعاداته وطرق خطابه وعباراته، وحاكته فيما يحب وما يكره، فإذا هو تركها تعمل فى مزرعة تخلفت ثانية وبعدت عن مشربه؛ وكان هناك سبب غير هذا يدعوه إلى استبقائها فى رعايته: فقد كان والداه قد أبديا رغبتهما فى رؤيتها مرة على الأقل قبل أن يحملها إلى بلد بعيد، ولما كان لا يريد أن يعارضاه معارضة تجعله يقلع عن نيته، فقد رأى أن مقامه معها شهرين فى مسكن أثناء بحثه عن عمل يمنحها من الخبرة الاجتماعية ما يهون عليها الصعوبة التى ستمتحن بها حين يقدمها إلى أمه فى دار أبيه القس.

وعنّ له أن يدرس كيفية إدارة مطحن للحبوب، إذ كان يفكر فى أن يشفع زراعته القمح بإدارة مطحن له، وعرض عليه مالك مطحن مائى كبير قديم فى (ولبردج) كان فيما مضى مطحن الكنيسة، أن يطلع على طريقته العتيقة فى العمل، وأن يساهم فى العمل أيامًا، حينما تروقه زيارته، وكان المطحن على مدى أميال، فشخص إليه كلير ليستخلص بعض المعلومات وعاد فى المساء، فإذا هى تراه مصممًا على قضاء زمن فى ولبردج، وإلام كان ذلك التصميم راجعًا؟ لم يكن راجعًا إلى رغبته فى حذق عمليات الطحن، قدر رجوعه إلى اكتشافه عرضًا أن من الممكن استئجار مسكن فى نفس ذلك البناء الريفى، الذى كان قبل أن تتدهور به الحال مقرًا لأحد فروع دربرفيل.

تلك كانت طريقة كلير فى الفصل فى المسائل العملية. كان ينزع فيها عن عواطف لا علاقة لها بتلك المسائل، وعول الخطيبان على الإقامة هناك عقب اقترانهما بعد التجوال بين المدن والفنادق، قال: "وبعد ذلك نذهب لفحص بعض المزارع على الجانب الآخر من لندن، وفى مارس أو إبريل نزور أبى وأمى"؛ وهكذا بحثا خطط المستقبل وبتا فيها، واقترب شبح ذلك اليوم العجيب يوم تصير له، وكان تاريخه الحادى والثلاثين من ديسمبر، اليوم السابق لعيد رأس السنة، قالت تسائل نفسها: أحقًا ستصير حليلته؟ أحقًا ستأتلف نفساهما تشاطره كل شيء ولا يفرق بينهما مفرق؟ ولم لا يكون ذلك؟ ومع ذلك لم يكن؟

وعادت إيزهيوت صباح أحد أيام الآحاد وقالت لتس فى خلوة: "لم ينادَ اسمك فى الكنيسة اليوم لأول مرة، ألست تريدين عقد القران فى آخر أيام السنة؟" فأجابت تس إثباتًا، قالت إيز: "ويجب أن ينادى اسمك ثلاثة آحاد متوالية، والآن لم يبق إلا يوما أحد اثنان"، فشعرت تس بامتقاع خديها، إذ كانت إيز على صواب، وقالت فى نفسها لعله نسى، فإذا كان الأمر كذلك فسيؤجل الزواج أسبوعًا، وذلك فأل سيىء، فكيف تذكر حبيبها؟ وارتدت - وهى التى كانت محجمة مترددة - تتحرق شوقًا وحرصًا على عدم إفلات حبيبها الذى فازت به.

وسكن قلقها حين أنهت إيز الخبر إلى مسز كريك التى أخذت على عاتقها مفاتحة إينجل باعتبارها ربة البيت، قالت: "هل نسيت أمر المناداة؟" قال: "لا، لم أنس"، وحالما اختلى بتس طمأنها قائلاً: "لا يروعنك ما يقولون فى أمر المناداة؛ فالزواج المدنى أنفى للجلبة، وقد عولت عليه بغير مشورتك، فإذا ذهبت إلى الكنيسة يوم الأحد القادم فلن تسمعى اسمك إذا كان سماعه يروقك"، قالت فى صراحة: "لا، لم يكن سماعه ليروقنى" وتنفست الصعداء إذ علمت أن الأمور تجرى مجراها الطبيعى، وكانت تخشى أن يعترض على الزواج معترض يستند إلى تاريخها، وبدا لها أن الحوادث تحابيها أعظم المحاباة، على أنها قالت فى نفسها: "لست مستريحة كل الاستراحة، فلعل كل هذا التوفيق السعيد ستغتصبه المصائب منى فى المستقبل، وهذا دأب الأقدار، فليتهم نادوا باسمى فى الكنيسة!".

على أن كل شيء سار على ما يرام، وساءلت تس نفسها: أيرضى أن تزف إليه في ثوبها الأبيض، أم ينبغي لها أن تشترى ثوبًا جديدًا؟ وكان هو قد سبقها إلى جواب هذا السؤال، إذ وصلت باسمها عدة طرود، وجدت تس داخلها مجموعة من الملابس: من القلنسوات إلى الأحذية، وفيها ثوب للصباح بالغ غاية الجمال، يوافق أتم الموافقة ذلك الزفاف الهادئ الذى قر عليه قرارهما، ودخل الدار بعد وصول الطرود بقليل، وسمعها وهى تحل رباطها فى أعلى، وبعد هنيهة نزلت وقد احمر وجهها واغرروقت عيناها، وقالت وخدها على كتفه: "ما أكرمك! حتى القفازات والمناديل!" قال: "ليس فى ذلك فضل ولا كرم، ولم يتعد الأمر كتابًا إلى خياطة فى لندن".

وليصرفها عن المغالاة فى تقدير صنيعه أشار عليها أن تصعد وتقيس الملابس على مهل وترى إن كانت تناسبها، فإن لم يناسبها شيء دعت خياطة القرية لإجراء ما يلزم من تغيير، فعادت أدراجها صاعدة، وارتدت ثوب الخز ووقفت أمام المرآة مدة تنظر إلى صورتها، فتبادرت إلى ذهنها أغنية أمها عن الثواب السحرى "الذى لا يناسب العروس التى ارتكبت خطيئة" وكانت أمها تنشدها إياها فى حبور أيام طفولتها، وقدمها على المنز تهز مع النغم، وساءلت تس نفسها: ما تصنع إذا نم عنها هذا الثواب كما نم ثوب الملكة جينفر عنها؟ ولم تكن تلك الأغنية قد مرت ببالها منذ مجيئها إلى الضيعة.

أراد إينجل أن يقضى معها يومًا قبل الزواج بنجوة عن الضيعة، لتكون تلك آخر رحلة يقومان بها وهما لا يزالان مجرد حبيبين، فى جو من العواطف لن يعود، وهما يرقبان ذلك اليوم العظيم الذى يسطع أمامهما من أمم؛ ومن ثم اقترح عليها فى الأسبوع الماضى أن يخرجا لشراء بعض الحاجيات فى أقرب بلد، وانطلقا معًا؛ وكانت حياة كلير فى الضيعة حياة عزلة عن أبناء طبقته تعبر به شهور دون أن يهبط بلدًا، فلم يكن يملك مركبة، بل كـــان يستأجـــر عربة كريك أو حصانه، واليوم خرجا فى العربة، وللمرة الأولى فى حياتيهما اشتراكا فى شراء ما يريدان، وكان اليوم هو السابق لعيد الميلاد، فكانت الحوانيت ملأى بأغصان الميسلتو، والبلد غاصًا بالزائرين الوافدين من جميع أنحاء الإقليم، وكانت تس تشق طريقها بينهم وذراعها فى ذراعه، ووجهها يفيض جمالاً وحبورًا، فكان عقابها على ذلك أن كانت تحدجها العيون.

وفى المساء عاد إلى الفندق الذى نزلا به، وانتظرت تس داخل الباب حتى يعود إينجل بالعربة والحصان، وكانت حجرة الجلوس تعج بالناس خارجين وداخلين، وكان كلما انفتح الباب وانغلق خلف أحدهم وقع الضوء على وجه تس؛ وكان فى الخارجين رجلان حملق فيها أحدهما من فرعها إلى قدمها مدهوشًا، وقام بظنها أنه من أهل ترنتردج، وإن تكن تلك البلدة على مدى بعيد لا يكثر قدوم لا يكثر قدوم أهلها إلى هذا المكان، وقال الرجل الآخر: "ما أجملها"، قال الأول: "بلا شك ولكن إذا لم اكن مخطئًا..." وسكت فلم يزد.

وكان كلير قد عاد من الإسطبل وقابل الرجل وجهًا لوجه، وسمع ما قال ورأى انكماش تس، وهاجه أن يراها تهان، فسرعان ما لكم الرجل على ذقنه لكمة قوية ترنح لها الرجل فى الطرقة، ثم أفاق وكر عائدًا، ووقف كلير خارج الباب متأهبًا للدفاع، ولكن خصمه راجع الحكمة فنظر إلى تس مرة أخرى وهو يمر بها، وقال لكلير: "عفوك يا سيدى، أنا مخطئ، لقد حسبتها امرأة أخرى تعيش على مدى

أربعين ميلاً" وأحس كلير أنه تسرع وأنه كان أخطأ بتركها هناك، ففعل ما كان يفعل دائمًا في تلك الأحوال؛ فنقد الرجل خمسة شلنات تعويضًا، وافترقا مصطلحين وتبادلا التحية، وحالما تناول كلير العنان من السائق وانطلق هو وفتاته، انصرف الرجلان في الاتجاه المضاد، وقال الرجل الثاني: "أكنت مخطئًا حقًا؟" قال: "كلا، وإنما أبيت أن أجرح شعور صاحبها".

وقالت تس في الطريق بصوت كئيب: "ألا يمكن تأجيل الزواج قليلاً؟ أعني إذا شئنا؟" قال: "لا يا عزيزتي، هدئي روعك، أتعنين أن الرجل ربما قاضاني لتعدّي عليه؟" قالت: "لا، إنما أعني... إذا لزم تأجيل الزواج"، ولم يدر ما تعني، ونصح لها بالإقلاع عن تلك الهواجس، فأطاعت إلى غاية ما استطاعت، ولكنها ظلت عابسة طوال الطريق حتى قالت في نفسها: "سنبتعد عن هذه الربوع أميالاً، وعندها لا يتكرر هذا الأمر ولا يتعقبنا شبح من الماضي".

وافترقا على السلم تلك الليلة افتراق الحبيبين، وصعد كلير إلى حجرته العليا، وقامت تس تعد بعض الحاجات، مخافة ألا يتسع الوقت في الأيام القليلة الباقية، ولما جلست سمعت ضوضاء في حجرة إينجل فوق رأسها، وصوت عراك وسقوط، وكان جميع من في البيت نائمين، وخافت تس أن يكون بكلير سوء، فاندفعت صاعدة وقرعت بابه وسألته ماذا حدث، فأجاب: "لا شيء يا عزيزتي، ويؤسفني أني أزعجتك، ولكن السبب الحقيقي مضحك؛ فقد غلبني النعاس ورأيت كأني أعاود مقاتلة ذلك الرجل الذي تهجم عليك، ولم يكن ما سمعت إلا صوت لكماتي التي كلتها لحقيبتي التي كنت أعدها للسفر، وهذه أحوال تعاودني في نومي أحيانًا فعودي إلى فراشك ولا تفكري في الأمر ".

وكان هذا آخر درهم لازم لترجيح كفة قرارها، ولم تكن تستطيع أن تنهي إليه خبر ماضيها شفاها، ولكن كانت هناك طريقة أخرى، فأوجزت في أربع صفحات صغار تاريخ تلك الحوادث التي تعاقبت منذ ثلاث سنين أو أربع، وغلفتها وعنونتها باسمه، ثم دلفت حافية وصعدت لتوها مخافة أن يخونها العزم، ودفعت الرسالة تحت باب حجرته، وقضت ليلة مفزعة، وارتقبت سماع أول حركة ضئيلة فوق رأسها، وسمعت تلك الحركة كالعادة، وهبط كالعادة، وهبطت وقابلها عند أسفل السلم وقبلها وأحست أنها قبلة حارة دون مراء.

وكان يبدو عليه القلق والنحول قليلاً، ولكنه لم يفه بكلمة فيما كاشفته به حتى فى خلوتهما، فهل عثر على رقعتها؟ ولم تكن تستطيع أن تقول شيئًا ما لم يفاتحها فى الموضوع، وهكذا انقضى اليوم ولاح لها أنه لا ينوى أن يبوح برأيه أيًا كان رأيه، ومع ذلك ظل صريحًا مخلصًا فى معاملتها كدأبه، فهل كانت شكوكها شكوكًا صبيانية؟ هل صفح عنها؟ هو يحبها لذاتها على علاتها ولم يزد على أن ابتسم إلى جزعها وعده كابوسًا سخيفًا؟ هل التقط رقعتها حقًا؟ وألقت فى حجرته نظرة فلم تر لها أثرًا، فلعله غفر لها؛ وشعرت فى ثقة حارة مفاجئة أنه صافح عنها غافر لها وإن يكن لم يحرز رقعتها، وظل إينجل كالعهد به صباح مساء، حتى حل اليوم السابق لعيد رأس السنة، وهو يوم الزفاف.

ولم ينهض الحبيبان للحلب، وكانا قد منحا خلال هذا الأسبوع الأخير من مقامهما فى تلبوثيز، منزلة كمنزلة الضيوف، ومنحت تس شرف التفرد بحجرة، ولما هبطا للفطور راعهما ما استجد فى المطبخ الواسع منذ رأياه للمرة الأخيرة، من معالم الاحتفال بهما؛ فقد كان صاحب الضيعة أمر مبكرًا فطلى الموقد بالحمرة وطلى ركنه الفاغر فاه بالبيض، وعلق ستار أصفر من النسيج الدمشقى على القبو، محل الستار القطنى الأزرق القديم ذى النقش الأسود المزركش، ولما كان ذلك الركن هو مطمح الأعين من تلك القاعة فى صباح كل يوم شات مدجن، فقد كسبت الحجرة بتجديده على هذا النحو منظرًا بشوشًا، وقال صاحب المصنع: "لقد كنت مصمما على عمل شيء ما ابتهاجًا بهذا الأمر، وإذ أبيتما استدعائى فرقة موسيقية بأبواقها وكمنجاتها، كما كنا نفعل فى ماضى الزمن، فلم يبق لدى ما أفعله بغير ضوضاء سوى هذا".

وكانت صديقات تس وذووها يقيمون على بعد لا يتيسر لهم معه أن يحضروا اليوم حتى لو دعوا. على أنه لم يدع أحد من مارلت، أما أسرة إينجل فكان قد كتب إليهم فى الوقت المناسب يخبرهم بالميعاد، وأكد لهم أنه يسره أن يرى واحدًا منهم على الأقل فى ذلك اليوم إذا راق أحدهم الحضور، فأما أخواه فأمسكا

عن الرد بتاتًا كأنهما حانقان، وأما والداه فردا ردًا حزينًا يندبان فيه تسرعه بالزواج، ولكنهما يتعزيان بقولهما إنهما - وإن لم يتوقعا قط أن تغدو عاملة ألبان كنة لهما - يريان أن أبنهما قد بلغ السن التى يصبح فيها خير حكم.

ولم يحزن إينجل لهذا الفتور من جانب قرابته بعض ما كان يحزن لولا حجته الدامغة، التى ينوى أن يفاجأهم بها عما قريب، وكان قد رأى أن استخراج تس من الضيعة، وإبرازها للناس على أنها سليلة دربرفيل على أنها سيدة نبيلة، عمل لا يخلو من تهور ومغامرة، ومن ثم كتم نسبها حتى يبصرها بأحوال الدنيا فى أشهر يقضيانها فى الرحلة والقراءة، وعندها يستصحبها لزيارة والديه، ويبوح بالسر ويقدمها إليهما والظفر ملء جوانحه سيدة جديرة بتشريف نسبها. كان ذلك حلم عاشق إن لم يزد على ذلك، ولعل إينجل كان الوحيد بين العالمين الذى يغالى بنسب تس.

رأت تس أن شعور إينجل نحوها لم يتغير فتيلاً بعد رسالتها، فأحست كأنها خاطئة وارتابت فى حصوله على الرسالة، فنهضت قبل أن يفرغ من طعامه وأسرعت صاعدة، وقد خطر لها أن تعاود النظر فى الحجرة المعتمة العجيبة التى كانت عرينًا أو عشًا لإينجل كل ذلك الوقت الطويل، ووقفت بالباب المفتوح تتأمل وتتدبر، ثم انحنت إلى العتبة حيث كانت قد دفعت الوريقات فى عجلتها منذ يومين أو ثلاثة وكان طرف البساط يقارب أسقفة الباب، وتحته لمحت هامش الرقعة الأبيض الشاحب، ورجح لديها أنه لم يرها قط، إذ كانت فى استعجالها قد دفعتها تحت الباب وتحت البساط معًا.

سحبت تس الرسالة وقد خدرت مفاصلها، فإذا هى كما تركتها مختومة، وإذا الجبل لم يزحزح بعد، ولم تكن تستطيع الآن أن تطلعه عليها والدار تعج بمظاهر الاحتفال، وهبطت إلى حجرتها ومزقت الرقعة، ولما رآها إينجل ثانية كانت ممتقعة هاله، وكانت قد أذهلت لما كشفت من أمر الرقعة، وعدت ذلك حائلاً يحول دون الاعتراف، وإن أحست فى قرارة نفسها بأن الأمر على نقيض ذلك وأنه ما زال هناك متسع من الوقت؛ ولكن الحركة فى الدار كانت على قدم وساق، وكان على

كل امرئ أن يظهر فى خير ثيابه، وكانا قد رغبا إلى مستر كريك وزوجه أن يصحباهما ليكونا شاهدى زواجهما، وكان التفكير أو الحديث المستفيض فى ذلك متعذرًا.

ولم تستطع تس أن تختلى بصاحبها إلا وهلة التقائهما على السلم، فقالت وهى تتظاهر بعدم أهمية الأمر: "كم أود أن أحدثك واعترف لك بكل أخطائى وعيوبى" قال: "لا، لا، لا يمكن التحدث فى الأخطاء، يجب اعتبارك كاملة هذا اليوم على الأقل، وأرجو أن يتاح لنا الوقت فيما بعد لنفصح عن معايبنا، وسأفصح عن نصيبى منها". قالت: "ولكنى أستحسن أن أفصح الآن كيلا تقول..." قال: "إذن تنهى إلىَّ كل شىء يا عزيزتى بمجرد استقرارنا فى مسكننا، أما الآن فلا، وسأبوح لك بأخطائى، ولكن لا نفسدن بها يومنا، فإنها ستكون موضوعًا شائقًا فى يوم كآبة". قالت: "أنت إذن لا تريدنى أن أتكلم؟" قال: "الحق أنى لا أريد يا تس".

ولم تترك زحمة اللبس والانطلاق متسعًا من الوقت لأكثر من هذا، وتأملت فيما قال فرأت فى مقاله ما يدعو إلى الطمأنينة، واندفعت فى الساعتين المشهودتين اللتين أعقبتا ذلك محمولة فى تيار من هيامها به، وكان هيامها جارفًا سد السبيل دون متابعة التفكير، وقد جاءت رغبتها الوحيدة التى طالما قاومتها – رغبتها فى أن تجعل نفسها له وتدعوه مالكها ومِلْكَها معًا، ثم تموت إن لم يكن بد – جاءت تلك الرغبة تنتشلها من طريق تأملاتها الموحل، وكانت وهى تلبس ثيابها تجول فى غمامة خيالية مثالية متعددة الألوان، تكسف بلألائها كل هاجسة ممضة.

وكانت الطريق إلى الكنيسة طويلة، فاضطروا إلى الركوب لا سيما وقد كان الفصل شتاء واستحضرت عربة مقفلة من أحد الفنادق، وكانت عربة متروكة هناك من عهد الانتقال بالعربات والخيول، وكانت عجلاتها صلبة القوائم ثقيلة الإطارات، وكان لها قاع مقوس ضخم وسيور ولوالب عظيمة، وذراع فى مقدمتها كأنها الدبابة التى تدك بها أبواب الحصون. وكان سائقها شيخًا فى الستين قد وقع فريسة لداء المفاصل من جراء تعرضه فى الصغر لتقلبات الجو، ومحاولته علاج ذلك بالإفراط فى الشراب، وكان قد قضى خمسًا وعشرين سنة، منذ بطل الاحتياج إلى مهنته،

واقفًا بباب الفندق لا يصنع شيئًا. كأنما ينتظر رجعة الزمان الذى مضى، وكان بظاهر ساقيه اليمنى جرح لا يزال داميًا، قد شقه دوام احتكاك ساقه بأنزع مركبات الأشراف، فى السنين الطوال التى قضاها يعمل بفندق "كنجز آرمز" فى "كستربردج".

فى هذا الهيكل الثقيل الواهى المتعثر، وخلف هذا السائق المتهدم، جلست الرفقة الرباعية: العروس والعريس ومستر كريك ومسز كريك، وكان إينجل يود لو حضر أحد أخويه على الأقل فكان رفيقًا له، ولكن صمتهما بعد إشارته إلى ذلك فى خطابه إشارة لطيفة، كان دليلا على رغبتهما عن الحضور. ولم يكونا ليشهدا الزواج وهما غير موافقين عليه، ولعل غيابهما كان خيرًا؛ فإنهما وإن لم يكونا بالمترفهين لم يكونا ليستسيغا الانغمار فى وسط عمال الضيعة، مع ما هما عليه من الترفع والتأبى، بغض النظر عن رأيهما فى الزواج ذاته.

أما تس التى كانت مشغولة اللب بخطر الموقف، لم تكن تفكر فى شىء من هذا، ولا كانت ترى شيئًا أو تعرف الطريق التى كانوا يجتازونها إلى الكنيسة، إنما كانت تعلم أن إينجل بجوارها، وكل ما عدا ذلك كان ضبابًا براقًا، تحس أنها شخص سماوى شعرى، وأنها إحدى تلك الآلهات الكلاسية التى كان كلير يحادثها فى شأنها وهما يتنزهان.

وإذا كان الزواج زواج عقد مدنى لم يكن بالكنيسة إلا أفراد قلائل، ولو كانوا ألفًا لما استرعوا انتباهها، فقد كانوا بعيدين عن دنياها الحاضرة بعد الكواكب، وأقسمت على الوفاء له فى حرارة وإخلاص تتضاءل حيالهما كل الميول الجنسية، وساد الصمت وهلة، فمالت إليه عن غير وعى وهما راكعان معًا حتى مست كتفها ذراعه، وكانت قد أفزعتها فكرة خاطرة، فتحركت تلك الحركة الآلية، كأنها تطمئن إلى وجوده بجانبها وتؤكد اعتقادها بأن وفاءه لها سيكون حرزًا منيعًا لها ضد كل مخوفة؛ وكان كلير يعلم أنها تحبه، إذ كانت كل انحناءة فى تكوينها تنطق بذلك، ولكنه لم يكن يعلم إذ ذاك عمق تفانيها فى حبه وتوفرها عليه وخفضها جناحها إليه، وما تضمر من استعداد لتحمل المشاق، وطول الولاء والاصطبار ورعى الذمام.

وعند منصرف الجمع أطلق القارعون النواقيس فدقت ثلاث دقات متواضعة، وكان بناة الكنيسة قد قدروا أن ذلك العدد المحدود كاف للتعبير عن أفراح تلك الأبرشية الصغيرة، وأحست تس عند مرورها هي وزوجها بجانب البرج في طريقهما إلى البوابة، بحفيف الهواء مندفعًا في دائرة من الصوت من قبة الأجراس ذات المنافذ، فكان ذلك الحفيف مشابهًا للجو النفسي المحتدم الذي تعيش فيه.

وظلت تخامرها هذه الحالة النفسية التي فيها تحيط بها هالة ملائكية لمجاورتها كلير - كأنها ذلك الملاك الذي رآه القديس حنا في الشمس - حتى تخافتت أصوات النواقيس، وسكن الاضطراب الذي صحب مراسيم القران، وعندها استعادت عيناها القدرة على إبصار تفاصيل الأشياء، وكان مستر كريك وزوجته قد أمرا أن تلحق بهما عربتهما كي يتركا المركبة للعروسين، ولاحظت تس شكل المركبة وتكوينها لأول مرة وجلست تحدق فيها صامته.

قال إينجل: "أراك مكتئبة"، قالت وهي تمسح جبينها: "نعم، أنا مشفقة من أشياء كثيرة خطيرة، من ذلك أني رأيت هذه المركبة من قبل وأني أعرفها جيدًا، ولا بد أني رأيتها في حلم فهي غريبة جدًا"، قال: "لابد أنك سمعت خرافة مركبة دربرفيل، الذائعة في هذا الإقليم عن قومك أيام كانوا مطمح قلوب الأهالي، ولا بد أن هذه المركبة الضخمة تذكرك بذلك"، قالت: "لم أسمع تلك الخرافة قط، فما هي؟" قال: "أوثر ألا أفصلها لك الآن، ولكن مجملها أن أحد أبناء دربرفيل في القرن السادس عشر أو السابع عشر، اقترف جريمة في مركبة أسرته، ومنذ ذلك العهد يرى أبناء الأسرة المركبة أو يسمعونها كلما... بل أخبرك بذلك يومًا آخر، فهي خرافة بشعة ولا بد أن هذه المركبة الوقور قد أعادت إلى مخيلتك معرفة ضئيلة قديمة بهذه الأسطورة"

قالت: "لا أذكر أني سمعتها من قبل، أيرى أبناء أسرتي العربة عند إشرافهم على الموت أم عند اقترافهم إثمًا؟" قال: "مه يا تس!" وأسكتها بقبلة، ولم يبلغا الدار إلا وقد نال منها التأثم والجزع؛ لقد أصبحت حقًا مسز كلير، ولكن ألها حق أدبي في حمل ذلك اللقب؟ أليس أجدر أن تدعى مسز إسكندر دربرفيل؟ وهل تبرر حرارة الحب ما قد يدعوه ذوو الطوية النقية صمتًا آثمًا؟ لم تكن تدري ما ينبغي للنساء في مثل تلك الحال صنعه، ولم يكن لها ناصح مشير.

على أنها حالما انفردت بنفسها فى حجرتها – وكان ذلك آخر يوم تدخلها فيه – جثت تصلى، وحاولت أن تصلى لله، ولكن زوجها استأثر بدعواتها، فقد كانت تقدس ذلك الرجل تقديسًا خافت هى نفسها أن يكون مشئوم العقبى وكانت تحس بذلك الشعور الذى عبر عنه القس لورنس بقوله: "هذه السعادة العنيفة تنتهى نهاية عنيفة"، فلعل تلك السعادة أشد غرامًا وانطلاقًا واحتدامًا، من أن تدوم فى ظروف بنى الإنسان الحاضرة، وراحت تهمس فى وحدتها: "يا حبيبى! يا حبيبى لماذا أحبك كل هذا الحب؟. إن التى تحبها ليست إياى، بل هى امرأة فى رسمى، هى المرأة التى يمكن أن أكونها!".

ومضى الظهر وأزفت ساعة الرحيل، وكانا قد عولا على تحقيق فكرة قضاء بضعة أيام فى المسكن القائم فى الضيعة العتيقة قرب طاحون ولبردج، حيث كان ينوى الإقامة أثناء دراسته العملية للطحن، وما حانت الساعة الثانية حتى تعين الانطلاق. وكان جميع خدم الضيعة متجمعين بالمدخل المبنى من الطوب الأحمر لوداعهما، وتبعهما صاحب الضيعة وزوجه إلى الباب، ورأت تس زميلاتها فى المخدع بجانب الحائط مطرقات فى تأمل، وكانت قد شكت فى أنهن يظهرن ساعة الذهاب، ولكن ها هن أولاء متجملات متجلدات إلى النهاية وكانت تعلم جيدًا لماذا تبدو ريتى الرقيقة عليلة، وإيز حزينة والهًا، وماريان واجمة.

ونسيت تس عناء نفسها الناصب وهلة ريثما تنظر فى عنائهن، وهمست فى أذن زوجها: "ألا تقبل المسكينات قبلة واحدة هى الأولى والأخيرة؟" ولم يجد إينجل ضيرا فى مثل هذه المجاملة الظاهرة فى موقف الوداع – ولم يكن يراها إلا مجاملة – وحين مر بهن قبلهن واحدة واحدة قائلاً لكل منهن: "وداعًا"، ولما بلغا الباب دفعت تس أنوثتها إلى الالتفات وراءها، لترى أثر تلك القبلة المتكرم بها، ولم يكن يبدو الظفر فى عينيها كما يبدو فى عينى سواها فى مكانها ولو كانت فى عينيها نظرة ظفر لتلاشت حالما رأت فعل القبلة المؤلم فى الفتيات، فقد نبهت منهن مشاعر كن يجتهدن فى إرقادها، أما كلير فكان فى غفلة عن كل ذلك.

ولما بلغا البوابة الصغيرة صاح صاحبي الضيعة، وأعرب للمرة الأخيرة عن شكره على عنايتهما، وتلت فترة صمت قبل انطلاق المركبة، ولم يقطع ذلك الصمت إلا صياح ديك، فقد كان الديك الأبيض ذو العرف الأحمر قد جاء وجثم على السور الخشبى أمام الدار على مدى أذرع من الجميع، ودوت صيحته فى آذانهم، وتخافتت رويدًا رويدًا كما تتضاءل الأصداء فى واد صخرى، فقالت مسز كريك: "يا للعجب! أصياح ديك بعد الظهر؟" وكان رجلان واقفين بجانب البوابة الكبيرة يفتحانها، فهمس أحدهما للآخر فى صوت لم يخله يصل إلى آذان الجمع الواقفين بالبوابة الصغيرة: "هذا فأل سيئ".

وصاح الديك صيحة أخرى فى وجه كلير، فقال صاحب.. الضيعة: "واعجبا!"، وقالت تس لزوجها: "لست أحب صياحه مر السائق بالانطلاق.. وداعًا. وداعًا" وصاح الديك ثالثة، فالتفت صاحب الضيعة إليه يدفعه بعيدًا وهو يصيح به محنقًا: "أطبق فمك واغرب وإلا دققت عنقك"، ولما انقلب راجعًا إلى الدار هو وزوجه قال لها: "ما أعجب حدوث هذا فى يومنا هذا! أنا لم أسمع صياح الديك بعد الظهر طوال هذا العام!" فقالت: "لا يدل هذا إلا على تغير فى الطقس، وليس يدل على ما تظن، فذاك محال!".

انطلقا على الطريق المعبد الذى يخترق الوادى، مسافة أميال حتى بلغا ولبردج، فجانبا القرية منعطفين إلى اليسار عابرين الجسر المبنى على الطراز الإليزابيثى، الذى اشتق من اسمه نصف اسم القرية، وكان يقوم خلف الجسر تمامًا البيت الذى استأجرا فيه مسكنهما والذى كان منظره الخارجى معروفًا حق المعرفة لدى جميع السائحين فى وادى فروم، وكان فيما مضى جانبًا من قصر بعض الأشراف من آل دربرفيل، ثم تهدم وصار منزلاً ريفيًا، وقال كلير وهو يساعدها على الترجل: "فلتشرفى أحد قصور أجدادك"، ثم عاد فندم على تلك الدعابة إذ رآها أقرب إلى السخرية.

ولما دخل وجد أن صاحب المنزل كان قد انتهز فرصة إقامتهما فى الدار فى الأيام المقبلة، ورحل لزيارة بعض أصدقائه لمناسبة عيد رأس السنة، تاركًا الدار كلها لهما، مع أن كلير لم يستأجر إلا غرفتين اثنتين، وترك الرجل امرأة قاطنة ببعض الأكواخ المجاورة لتدبير حاجتهما القليلة، فسرهما تفردهما بالمنزل، ووجدا نفسيهما لأول مرة مستقلين مجتمعين تحت سقف واحد، بيد أن كلير لاحظ أن ذلك المسكن القديم المتداعى أدخل الكآبة على نفس عروسه، ولما ذهبت المركبة صعدا الدرج ليغسلا يديهما والخادم تقودهما، فإذا تس تقف على بسطة فى السلالم مجفلة.

قال: "ما بالك؟" قالت مبتسمة: "تانك المرأتان المخيفتان أفزعتانى!" فرفع بصره فإذا صورتان بالحجم الطبيعى منقوشتان فى صلب الجدار، وكانتا – كما يعرف رواد المنزل – تمثلان امرأتين نصفين يرجع عهدهما إلى مائتى عام مضت هيهات ينسى هيئتهما من رآهما، بل تعتامه فى منامه ملامح إحداهما الحادة وعينها الضيقة، وابتسامتها الخبيثة الناطقة بالخديعة التى لا تبقى ولا تذر، وأنف الأخرى الأقنى وأسنانها الكبير، وعينها الجريئة المفصحة عن الكبرياء البالغة حد الفظاعة.

سأل كلير الخادم: "صورتا من هاتان؟" قالت: "حدثنى بعض الشيوخ أنهما لامرأتين من آل دربرفيل أصحاب هذا المنزل الأقدمين، لم تمكن إزالتهما لكونهما محفورتين فى صلب البناء" وكان أفظع ما فى الأمر – فضلاً عن سوء موقع رؤيتهما فى نفس تس – أن الشبه كان واضحًا بين ملامحها السمحة وبين تلك الملامح المبالغ فى تصويرها، على أن كلير لم يشر إلى ذلك بقول، وندم على اختياره هذا المنزل لقضاء شهر العسل.ومشى إلى الحجرة المجاورة، وكان المكان قد أعد لهما فى عجلة، فاضطرا إلى غسل أيديهما فى حوض واحد، ولمس يديها تحت الماء ثم رفع بصره قائلاً: "أية هذه يداى وأيتها يداك؟ لقد اختلطت جميعًا"، فأجابته فى رشاقة عذبة: "كلها لك!" وحاولت أن تظهر من السرور أكثر مما تبطن، ولم يكن كلير استاء من استرسالها فى التفكير فى تلك المناسبة، فقد كان من الطبيعى أن تسترسل أية امرأة فى التفكير فى مثل ذلك الموقف، ولكنها أحست أنها قد أفرطت، وحاولت أن تتغلب على وجومها.

وكانت الشمس منخفضة فى ذلك الأصيل القصير الذى هو آخر أصائل السنة فكانت تضىء من ثغرة صغيرة ويمتد منها خيط ذهبى إلى ذيل ثوب تس، ينقش على ثوبها نقطة كأنها طلاء؛ وسارا إلى حجرة الجلوس القديمة لتناول الشاى، وهنا تقاسما أول أكلاتهما المشتركة على انفراد، وبلغ من عبثهما، أو بالأحرى من عبثه هو، أن راقه أن يستعمل وإياها طبقًا واحدًا للخبز والزبد، وأن يمسح الفتات عن شفتيها بشفتيه، وعجب إذ لم تجب على هذه المداعبات بمثل حماسته.

وأدمن النظر إليها ثم قال فى نفسه كأنه يتخير أوفق الألفاظ للتعبير عن فكرة وعرة المتناول: "تس هذه ما أجملها وأعزها لدى! هل أنا أعى إلى مدى يتوقف مستقبل هذه الجارية على سعود جدى أو عثاره؟ يخيل إلى غير ذلك ويخيل إلى أنى لن أستطيع أن أعى ذلك إلا أن أكون امرأة أنا نفسى، مكانى فى المجتمع مكانها، ومصيرى مصيرها، وما لا قبل لها به لا قبل لى به، وهل ترانى مهملها يومًا أو مدخلاً الألم على نفسها أو ناسيًا مرضاتها؟ معاذ الله أن أقترف مثل تلك الخطيئة!"

وجلسا فوق مائدة الشاى ينتظران أمتعتهما، وكان صاحب الضيعة قد وعد بإرسالها قبل هبوط الظلام، ولكن بدأ الليل يزحف ولم تصل الأمتعة، ولم يكونا أحضرا شيئًا سوى مايكسو بدنيهما، ولما غربت الشمس تغير سكون ذلك اليوم الشاتى، وخفقت خارج الدار أصوات كأنها حفيف الخز يتضرب بعضه فى بعض وأثيرت أوراق الخريف المنصرم الميتة، فراحت تتخبط وتتلاطم فى تثاقل، وتضرب مصاريع النوافذ، وسرعان ما نزل المطر، فقال كلير: "لقد كان ذلك الديك يعرف أن الجو سيتغير".

وكانت المرأة التى هيأت لهما حاجاتهما قد ذهبت تقضى الليل فى كوخها، ولكنها كانت قد وضعت شموعًا على المائدة فأضاءاها، فراحت شعلاتها تتمايل نحو المدفأة، وقال إينجل: "هذه المساكن القديمة قوية التيار"، وكان ينظر إلى اللهب وإلى دموع الشموع تتساقط على جوانبها، واستطرد: "لست أدرى ماذا حل بمتاعنا، وليس معنا حتى فرجون ولا مشط"، فأجابت وذهنها شارد: "لست أدرى"، فقال: "لا أراك مسرورة الليلة يا تس ولا أرى أثرًا من حبورك المعهود، لقد انقبضت نفسك لرؤية تينك العجوزين الحيزبونين فى الطابق العلوى، وليتنى لم آت بك إلى هذا المكان ولست على يقين إن كنت حقًا تحبيننى".

وكان على يقين أنها تحبه ولم يكن الجد ظاهرًا فى نبرات صوته، ولكن نفسها كانت تعج بالانفعالات، فجعلت كأنها وحش طعين ولم تتمالك أن اغرورقت عيناها بالرغم منها، فقال نادمًا: "لم أعن ما قلت، وكل ما فى الأمر أن غياب متاعك يشغل بالك، وليتنى أدرى ما عاق الشيخ جوناتن أن يأتى به، وقد بلغت الساعة السابعة، آه! ها هو ذا!"، وكان الباب قد دق، ولما يكن هناك من يجيب خرج كلير، وعاد إلى الحجرة وفى يده حزمة صغيرة وقال: "لا، لم يكن ذاك جوناتن" قالت: "أف لهذا!".

وكان قد جاء بالحزمة رسول خاص وصل إلى تلبوثيز آتيًا من إمنستر بعد انطلاق العريس وعروسه مباشرة، وانطلق على آثارهما إذ كان مأمورًا أمرًا قاطعًا ألا يترك الحزمة إلا فى أيديهما ووضع كلير الحزمة فى الضوء وكان طولها لا

يبلغ القدم، مغلّقة بالخيش وعليها خاتم والده بالشمع الأحمر، معنونة بخط والده إلى (مسز إينجل كلير) فقال وهو يدفعها إليها: "هى هدية زفاف صغيرة لك يا تس، ما أكرمهما!" وتناولتها تس فى حيرة ثم أعادتها إليه قائلة: "أوثر أن تفضها بيدك يا حبيبى، فلست أحب أن أفض تلك الأختام الهائلة، فإن لها منظرًا خطيرًا، فتكرم بفتحها لى!" ففض الغلاف فإذا به حقيبة من الجلد المغربى على رأسها رقعة ومفتاح، وكانت الرقعة موجهة إلى كلير وهذا نصها:

"بنى العزيز: لعلك تذكر أن جدتك مسز (بتتى) حين ماتت وكنت لا تزال طفلاً، تركت إلىَّ – تلك المرأة الطيبة الساذجة – جزءًا من محتويات حقيبة جواهرها، وديعة لك ولمن تختارها زوجًا إن أنت اخترت أحدًا، وقد وفيت بتلك الوديعة وحفظت تلك الماسات لدى صيرفى منذ ذلك العهد، وأرى – كما لا بد أنك ترى – حقًا علىَّ أن أدفع الوديعة إلى المرأة التى تستحق الآن أن تنتفع بها مدى حياتك – وإن بدا عملى هذا مضحكًا متناقضًا فى هذه الظرف – ومن ثم بادرت بإرسالها – وهى وديعة تتوارث فى الأسرة على مضى الأجيال كما تنص وصية جدتك، وقد أرفقت بهذا نص العبارة التى تشير إلى ذلك"

قال إينجل: "أجل، الآن أذكر وإن كنت قد نسيت تمامًا من قبل"، وفتحا الحقيبة فإذا عقد ذو واسطة وأساور وأقراط وحلى أخرى دقيقة، ونفرت تس فى بادئ الأمر من لمس تلك الأشياء، ولكن عينيها برقتا بريق الجواهر حين بسطها كلير، وسألت غير مصدقة: "أهى لى؟" قال: "هى لك بغير شك" وأطرق نحو المدفأة، وتذكر أيام كان غلامًا فى الخامسة عشرة، كيف جزمت جدته بمستقبل باهر ينتظره، وكانت السيدة زوج شريف المقاطعة، وهى الشخص الغنى الوحيد الذى عرفه كلير، وقد تنبأت له بحياة ناجحة، فلا عجب أن وقفت تلك الجواهر الثمينة على زوجه وذريتها؛ ولكن كان فى بريق الحلى الآن شيء من السخرية، على أنه قال فى نفسه: "ولكن لم؟ "وبدا له أن المسألة مسألة غرور من بادئ الأمر إلى نهايته، يستوى فيها طرفا المعادلة، فإن زوجه سليلة دربرفيل فأى النساء أجدر بالجواهر منها؟

ورفع رأسه فجأة وقال فى حماسة: "البسيها يا تس، البسيها!" والتفت إليها يساعدها، ولكنها كانت قد لبستها بسرعة سحرية، لبست العقد والأقراط والأساور وكل ما هنالك، قال: "ثوبك لا يملائمها يا تس، بل يجب أن يكون أعلاه أقل بروزًا"، قالت: "أحقًا؟" قال: "نعم" وأشار عليها بضم أعلى ثوبها حتى يقارب تفصيل ثوب السهرة، فلما فعلت وتدلت واسطة العقد وحيدة على جيدها الناصع تقهقر يتأملها وقال: "يا إلهى! ما أجملك؟"

وبدهى أن الريش الجميل يكسب الطير منظرًا جميلاً، وإذا كانت ريفية تسترعى نظر الرائى بعض الاسترعاء فى ثيابها الساذجة ومظهرها المرسل، فإنها لتبدو مليحة ساحرة فى زى سيدة قد حباها الفن كل ما يستطيع، على أن إحدى الحسان من رائدات الحفلات الساهرة لن تبدو إلا زرية هجينة إذا اشتملت بشملة الريفية، ووقفت فى حفل لفت فى يوم عبوس قمطرير؛ ولم يكن كلير قد قدر قبل الآن كمال تناسب أعضاء تس وملامحها، قال: "آه لو ظهرت فى صالة رقص! ولكن لا، لا يا حبيبتى، أنت أحب إلىّ فى قلنسوتك المجنحة وثوبك القطنى، وإن كنت لتزينين هذه الحلى الفاخرة"

وكانت تس لشعورها بوجاهة مظهرها قد توردت مزهوة وإن لم تغتبط، قالت: "سأخلعها لئلا يرانى جوناتن، فهى لا تناسبنى، وأولى أن نبيعها، ألا ترى ذلك؟" قال: "استبقها، قليلاً، نبيعها؟ أبدًا! تلك خيانة للعهد"، وغيرت رأيها وامتثلت بما قال، وخطر لها أن تلك الأشياء ربما ساعدتها على ما هى مقبلة على البوح به، فجلست وعليها الجواهر، وعادا يفترضان الفروض لمآل جوناتن والأمتعة، وكانت الجعة التى صباها له قد مهوتْ لطول ما انتظرت، وما لبثا أن بدآ عشاءهما وكان مجهزًا على مائدة جانبيه، وقبل أن ينتهيا تراجف دخان الموقد واندفعت غمامته فى الحجرة؛ كأن ماردًا وضع يده على قمة المدخنة، وسمعت خطوات ثقيلة فى الطرقة فخرج إينجل.

وكان القادم هو جوناتن أخيرًا، قال: "لم أستطع بالطرق أن أسمع أحدًا، وإذ كان المطر منهمرًا فتحت الباب، لقد أحضرت الأشياء يا سيدى"، قال إينجل: "يسرنى أن أراها ولكنك تأخرت كثيرًا"، قال: "أجل يا سيدى، أجل"، وكانت فى صوته رنة اتضاع لم تكن به طول اليوم. وقد غضن جبينه الهم فوق ما غضنته السنون، واستطرد: "لقد عنانا خطب كاد يكون وخيم العاقبة، بعد أن فارقتمانا أنت وزوجك – وقد أصبح هذا لقبها الآن – أتذكر صياح الديك بعد ظهر هذا اليوم؟" قال كلير: "ياالله! ماذا.." قال جوناتن: "من الناس من يستنبط من صياح الديك بعد الظهر شيئًا ومنهم من يستخرج منه شيئًا آخر، ولكن الواقع الذى حدث أن المسكينة رتى بريدل قد حاولت أن تنتحر غرقًا" قال: "لا! أحقًا؟ كيف وقد ودعتنا مع الآخرين..."

قال: "أجل، ولكن بعد انطلاقكما يا سيدى ارتدت رتى وماريان قلنسوتيهما وخرجتا، وإذ كان العمل قليلاً هذا المساء السابق لرأس السنة، وليس للناس شاغل عدا الأكل والشرب، لم يلحظهما أحد، وذهبتا إلى حانة (ليوإفررد) حيث تناولتا شرابًا، ثم انطلقتا حتى بلغتا ملتقى الطرق عند (درى آرمد) حيث افترقتا على ما يظهر، فاخترقت رتى المروج التى تشقها الجداول، كأنها تريد العودة إلى الدار، وواصلت ماريان سيرها إلى القرية المجاورة التى بها حانة أخرى ولم يسمع عن رتى خبر حتى كان خفير المياه سائرًا إلى داره شيئًا بجانب (البركة الكبرى)، وإذا قلنسوتها وشالها محزومين، وفى الماء عثر على الفتاة، وجاء بها هو ورجل آخر إلى الدار، وقد حسباها ميتة، ولكنها عادت إلى صوابها رويدًا رويدًا".

وتنبه إينجل فجأة إلى أن تس تسمع تلك الرواية الفظيعة، فبادر إلى إغلاق الباب القائم بين الطرقة والحجرة المؤدية إلى حجرة الجلوس، التى كانت تس فيها ولكن زوجه كانت قد اشتملت بشال وخرجت إلى الحجرة الأمامية تصغى إلى قصة الرجل، وعيناها شاخصتان فى شرود إلى المتاع وإلى قطرات المطر المترقرقة عليه، واستطرد جوناتن: "والأدهى من ذلك قصة ماريان، فقد عثروا عليها فاقدة النطق سكرًا فى أعشاب المستنقع، وهى الفتاة التى لم يعرف عنها من قبل أنها قاربت شيئًا عدا الجعة الرخيصة، وإن كانت فى الحق امرأة مبطانا كما يبدو فى وجهها، والظاهر أن جميع الفتيات قد فقدن صوابهن!".

قالت تس: "وإيز؟" قال": "إيز تغدو وتروح فى الدار كعادتها، ولكنى أعلم حق العلم لم حدث ما حدث، وهى أيضًا شديدة الأسى ولا غرو، وإذ حدث كل ذلك يا سيدى ونحن نحزم أمتعتك ومجسد زوجك وأثوابها على العربة فقد تعطلنا"، قال كلير: "حسن، أصعد الحقائب واشرب كأسًا من الجعة، ثم أسرع بالإياب فلعلهم فى حاجة إليك"، وكانت تس قد عادت إلى حجرة الجلوس وجلست بجانب النار مطرقة نحوها ساهمة، وهى تسمع خطى جوناثن صاعدًا هابطًا، حتى وضع المتاع فى مكانه، وسمعته يعبر عن شكره على الجعة التى أخرجها إليه زوجها، والنقود التى نفحه بها، ثم تخافتت خطواته بالباب وانطلقت عربته فى صرير.

ودفع إينجل الحاجز البلوطى الضخم الذى يغلق به الباب، ودخل إليها حيث كانت جالسة، وضغط خديها بين يديه من خلفها، وكان يتوقع أن تقفز فى حبور وتحل أدوات الزينة. التى كانت مهمومة من أجلها كل ذلك الهم، ولكنها لم تتحرك، فجلس بجوارها فى وهج النار، وقد بلغ من وهن ضوء الشموع القائمة على مائدة العشاء، أنه لم يطغ على ذلك الوهج، وقال: "آلمنى أن سمعت قصة تينك الفتاتين المؤسية. ولكن لا تغتمى لها فقد كانت رتى بطبيعتها سوداوية"، قالت تس: "بغير داع، على حين أن أولئك الذين تتوفر لديهم دواعى السوداوية، يخفونها ويتظاهرون بغيرها".

وكانت هذه الحادثة قد رجحت كفة ميزانها: فأولئك فتيات بريئات عصفت بهن يد الحب الجائح، كن يستأهلن معاملة خيرًا من هذه على يد القدر، وكانت هى تستأهل شرًا، فإذا هى تفوز باصطفائه، فمن اللؤم أن تخطى بكل شىء بلا ثمن، بل لا بد أن تدفع إلى آخر درهم، ولا بد لها أن تبوح بكل شىء فى ذلك المكان فى تلك الساعة، صحت عزيمتها على ذلك، وهى مطرقة فى النار ويدها فى يده.

وكان الجمر قد خبا لهيبه وراتمى وهجه الساطع على جوانب المدفأة وعمدانها المجلوة، والكماشة الكبيرة التى لا تلتقى ذراعاها أبدًا، وكان أسفل رف المدفأة متوهجًا فى ذلك الضوء الساطع، وكذلك كانت رجلا المائدة القريبتان من المدفأة، وكانت نفس تلك الحرارة تنعكس على وجه تس وجيدها، وترتد على كل جوهرة من جواهرها ثريًا يتطاير منها ابيضاض فى احمرار فى اخضرار، تتبدل ألوانها كلما دق نبضها دقة.

ولما استرسلت في جمودها قال فجأة: "أتذكرين ما قلناه هذا الصباح في شأن البوح بأخطائنا؟ لعلنا كنا نمزح ولعلك أنت لم تعني ما قلت، أما أنا فلم أكن في الحق بالمازح، بل أريد أن أعترف لك بشيء يا حبيبتي"، ولاح لها هذا العرض المفاجئ من جانبه كأنه مدد إلهي، فقالت مسرعة في غبطة وانبساط: "تريد أن تعترف بشيء؟" قال: "ألم تتوقعي مثل هذا الأمر؟ لقد كنت أحسن ظنًا بي من أن تتوقعيه، ولكن اسمعي: ضعي رأسك هنا لأني أريدك أن تصفحي عني لا أن تغضبي لأني لم أخبرك من قبل، ولعله كان يجدر بي أن أفعل".

كان ذلك غريبًا جدًا، وبدا لها أنه صورة منها، ولم تتبس بكلمة واستطرد: "لم أذكر هذا الأمر من قبل مخافة أن أخاطر بأملي فيك يا عزيزتي، يا منية حياتي الكبرى، يا درجتي الجامعية إن صح أن أدعوك هكذا، لقد نال أخي درجته من جامعته، ونلت درجتي في مصنع ألبان تلبوثيز ولم أرد أن أغامر بها، وقد هممت أن أخبرك منذ شهر يوم وافقت على زواجي، ولكني جبنت وخشيت أن ينفرك ذلك مني، فسوفت، ثم بدا لي أن أخبرك أمس كي أمنحك فرصة على الأقل للفرار مني، ولكني لم أفعل، ولم أفعل هذا الصباح حين اقترحت على الدرج أن نبوح بأخطائنا، فيا لي من أثيم! ولكن لم يعد لي عن ذلك معدى إذ أراك على هذا العبوس، فهل يكون نصيبي الصفح؟".

قالت: "أجل، اطمئن..."، قال: "أرجو أن يكون ذلك، ولكن مهلاً فلست تعلمين، ولأبدأ عند البداية. إني أومن بالأخلاق الفاضلة إيمانك يا تس، وإن ظن أبي أني ملعون أبد الدهر لزيغ عقيدتي، وكنت آمل أن أكون معلمًا لبني الإنسان، وأحزنني كثيرًا أن عجزت عن الانضمام إلى الكنيسة، وكنت دائمًا أعجب بنقاء الصفحة وإن لم أتحل به، وأمقت الدنس وما زلت أمقته، وأيًا كان رأى المرء في الطهر الروحي فلا ندحة له عن الإيمان بقول بولس: (فلتكن قدوة في اللفظ والخطاب والبر والنزعة والعقيدة والنقاء)، فذلك معتصمنا الوحيد معشر بني آدم الضعفاء، وقد قال شاعر الرومان وما أبعد ما بينه وبين بولس: (الرجل المستقيم

السيرة المنزه عن الأوزار فى غنى عن قوس البربرى وحربته)، وإنما الأعمال بالنيات، ويمكنك أن تدركى مدى ندمى حين ذلت بى القدم أنا نفسى على حين أعد العدة بكل تلك الحماسة لأعظ غيرى".

ثم باح لها بذلك الفصل من حياته الذى تقدمت الإشارة إليه، حين كان يتخبط فى لندن فى تيار الشكوك والمصاعب، كقطعة من الفلين بين اللجج، ثم انغمس فى حمأة المجون مع امرأة يومين، قال: "وكان من حسن حظى أن تنبهت حالاً إلى حماقتى، فبادهتها بالقطيعة وقفلت إلى بلدى ولم أعد لمثلها، ولكنه بدا لى أن أعاملك بأتم صراحة وأمانة، ولا يكون ذلك إلا بالاعتراف، فهل تغفرين؟" فكان جوابها أن شدت على يده، قال: "إذن ننبذ ذلك الأمر ظهريًا حالاً وإلى الأبد! فما أمض ذكره فى هذا المقام، ولنخض فى غير هذا الحديث".

قالت: "إينجل: ما أسعدنى! الآن يمكن أن تصفح عنى أيضًا، أنا لم أعترف اعترافى بعد، تذكر أنى أخبرتك أن لى اعترافًا"، قال: "نعم، نعم، هاتيه أيتها الصغيرة الخبيثة!" قالت: "ربما مزحت ولكن الأمر خطير خطر اعترافك أو هو أخطر"، قال: "لا إخاله يكون أخطر يا عزيزتى"، قالت، "لا، لا يمكن!" وطفرت فرحًا إذ أشرق عليها ذلك الأمل، واستطردت: "لا يمكن أن يكون أخطر، بل الأمران سيان! سأخبرك الآن!" وعادت إلى جلستها.

وكانت أيديهما لا تزال متشابكة، وكان ضوء النار ينبعث من تحت الرماد، وكان وهج الجمر الأحمر يرتمى على وجهه ويديه ووجهها ويديها، ويتخلل خصلتها المدلاة على حاجبها، ويسطع على جلدها الرقيق من دون ذلك، يخيل إلى الناظر أنه وهج اليوم الآخر؛ لما يعلوه من فترة، وكان ظل جسمها يرتمى على الحائط والسقف، وانحنت إلى الأمام فبرق كل حجر ثمين فى حليها برقة خبيثة، كغمزة عين الضفدعة، وجعلت تس جبينها إلى عذار زوجها، وأخذت فى سرد قصة اتصالها بألك دربرفيل وما أفضت إليه، تنطق بكلماتها فى غير جزع، وأهدابها مرسلة.

المـــرأة تــكفــر

٣٥

انتهت من قصتها ومن تعقيباتها واستدراكاتها، ولم يكد صوتها يرتفع فى أثناء سردها عما كان عليه عند بدئها، ولم تعترض سردها تبرئة لنفسها أو اعتذار ولم تبك. ولكن مظهر الأشياء المحيطة بهما كان يزداد تغيرًا كلما استرسلت فى مكاشفتها؛ فاتخذت النار منظرًا شيطانيًا خبيثًا متعابثًا، وكأنها لا تعبأ فتيلاً بمأساة الفتاة، وتكشر السياج المحيط بالنار ضاحكًا فى غير اكتراث، وانعكس الضوء عن الدورق لا يعنيه إلى أن يتشعع وينير، وراحت كل مظاهر المادة المحيطة تعلن فى تكرار فظيع براءتها من كل مسئولية. ومع ذلك لم يكن شىء تبدل منذ تلك الدقائق التى كان يقبلها فيها، أو بالأحرى لم تكن مادة الأشياء قد تغيرت ولكن روحها قد تبدل.

ولما سكتت بدا كأن آثار صوتيهما المحملة بألفاظ المحبة والإعزاز تتهارب إلى زوايا ذهنيهما، وتتردد هناك كأنها أصداء عهد حماقة وعمى لا مثيل لهما. وتشاغل كلير بإثارة النار، ولم تكن الأنباء قد هبطت إلى قرارة نفسه بعد، وبعد أن حرك الجمر مثل واقفًا، وقد نفذت فى نفسه كل قوة تصريحاتها وذبل وجهه وراح يذرع الجمرة واطئًا أرضها فى عنف، وهو يفكر جاهدًا أن يجمع شتات ذهنه ويركزه، ولما تكلم تكلم فى صوت مجدب مقفر من تلك النبرات المعبرة التى كانت تعهدها منه.

قال: "تس!" قالت: "نعم يا عزيزى!" قال: "أتريديننى أن أصدق هذا؟ إن هيئتك توحى إلىَّ أنه الصدق، ولكن لعلك قد مستك جنة! ولكن لا.... زوجتى! تسى! ألا تشعرين بأعراض جنون؟" قالت: "ليس بى جنون"، قال: "ومع ذلك..." وحملق فيها واجمًا ثم استطرد وقد دارت به الأرض: "لم لم تخبرينى من قبل؟ أجل، أجل. لقد كنت تريدين إخبارى على نحو ما، ولكنى منعتك، أنا أذكر ذلك!" ولم تكن هذه الأقوال وأمثالها إلا فقاقيع طافيه على السطح ومازال القاع متجمدًا،

وأشاح عنها واعتمد على كرسى، وتبعته تس إلى وسط الحجرة، ووقفت شاخصة إليه بعينين جامدتين، وما عتمت أن خرت جاثية عند قدميه مجمعة جسمها كأنه كومة، وقالت بصوت أجش: "باسم حبنا، اغفر لى، لقد غفرت لك مثل ذنبى!"

فلم يجب، فعادت تقول: "أعف عنى كما عفى عنك، لقد عفوت عنك يا إينجل!" قال: "عفوت عنى، نعم، لقد عفوت عنى"، قالت: "أفلا تعفو أنت عنى؟" قال: "تسى! لا ينطبق العفو على هذه الحالة! لقد كنت إنسانًا فأصبحت الآن إنسانًا آخر، يا إلهى، كيف ينطبق العفو على خدعة بشعة كهذه؟" وصمت يتدبر هذا التعريف، ثم انفجر مقهقهًا قهقهة فظيعة منكرة قبيحة كأنها منبعثة من جهنم، فقالت: "كف! كف! إنك تقتلنى! رحماك بى! رحماك!".

ولم يجب، وانتفضت واقفة ممتقعة الوجه كالعليلة وقالت: "إينجل! إينجل! ماذا تعنى بهذا الضحك؟ أتدرك حقيقة شعورى فى هذا الأمر؟" فهز رأسه، فقالت: "لقد كنت أبغى أن أُسعدك وأتمنى ذلك وأصلى من أجله! وقد كنت أتمثل ما فى ذلك من دواعى الغبطة، وأدرك أنى إن لم أسعدك كنت زوجًا غير جديرة بك! هذا ما كنت أشعر به يا إينجل وما زلت أشعر به!" قال: "أعلم ذلك"، قالت: "وقد كنت أحسبك تحبنى، تحبنى أنا نفسى، فإن كنت إياى تحب فليت شعرى كيف تنظر إلىّ هكذا وتخاطبنى على هذا النحو؟ إن هذا يفزعنى! إنى وقد اعتنقت حبك سوف أحبك أبدًا مهما تغيرت الحال أو ناب خطب مزر، لأنك أنت أنت ولست أريد غير ذلك، فكيف يا زوجى العزيز تعرض عن حبى؟" قال: "لقد قلت إن المرأة التى كنت أحبها ليست إياك"، قالت: "فمن هى إذن" قال: "امرأة أخرى فى صورتك".

ورأت فى أقواله تحقيق مخاوفها وتصوراتها السالفة؛ رأته يعدُّها مخادعة ويراها امرأة آثمة فى زى امرأة طاهرة، ولما تبين لها ذلك تجسم الرعب فى وجهها فترهل خدها وتكور فمها كأنه ثقب صغير، وترنحت لهول إحساسها برأيه فيها، واندفع نحوها وقد خشى أن تسقط وقال فى رفق: "اجلسى، اجلسى، لا جرم أنت عليلة"، وجلست وهى لا تدرى أين هى، وما زال وجهها متقلصًا وعيناها يقشعر لنظرتهما جلده، وقالت فى يأس: "أنت إذن براء منى يا إينجل! لم أكن أنا بل امرأة أخرى موضع حبه هكذا يقول".

وتجسم لها ذلك فرثت لنفسها إذ أحست أنها قد استغلت، واغرورقت عيناها إذ استرسلت فى تأمل موقفها، وانتحت ناحية، وأجهشت بالبكاء رحمة لنفسها ورثاء، فارتاح كلير إلى هذا التبدل؛ فقد كان تأثير هذه التطورات الأخيرة فى نفس تس قد أدخل عليه همًا لا يقل إلا عن همه لاعترافها، وسكن مصطبرًا غير مبال حتى هدأت مرارة حزنها، وتبدل نشيجها العنيف شهقات متفرقة، وإذا هى تقول فى نبراتها العادية وقد زايلها ذلك الصوت الأجش الجنونى المفزع: "إينجل: أتراني أدنس من أن تعاشرنى؟" قال: "لا أستطيع بعد أن أعرف ما يمكننا صنعه".

قالت: "لن أسألك أن تأذن لى بمعاشرتك إذ لا حق لى فى ذلك! ولن أخبر أمى وإخوتى بأننا قد اقترنا كما وعدت، ولن أكمل الثوب المنزلى الذى فصلته وكنت أنوى الفراغ منه فى هذا المثوى"، قال: "أحقًا؟" قالت: "لن أصنع شيئًا أو تأمرنى به، وإذا ذهبت عنى فلن أتبعك، وإذا قاطعتنى فلن أسألك عن السبب إلا ان تبيح لى مساءلتك"، قال: "فإذا أمرتك أن تفعلى شيئًا؟" قالت: "أطيعك طاعة الأمة التاعسة، حتى لو أمرتنى أن أستلقى وأنتظر حتفى"، قال: "أنت طيبة ولكن يروعنى الفرق بين نزعة التضحية الغالبة عليك الآن، ونزعة الأثرة التى تسلطت عليك فيما مضى".

وكانت هذه أولى كلمات المخاصمة؛ بيد أن إلقاء هذه السخريات المحكمة الصوغ فى وجه تس، لم يكن إلا كإلقائها فى وجه قطة أو كلبة؛ فإنها لم تكن تفقه بلاغتها وإحكامها، وإن أحست من لهجتها المخاصمة أن الغضب كان يسود بينهما، وظلت صامتة لا تعلم أنه يخنق حبه لها. ولم تكد تلمح دمعة قد انحدرت على خده، كبيرة حتى لتُكَبِّر مسام الجلد التى جرت عليها كعدسة المجهر، ثم عاود تصور التبدل التام الفظيع الذى تبدلته حياته وكونه بعد اعترافها، وعبثًا راح يبحث عن طريقه فى هذه الظروف الجديدة التى رأى نفسه فيها، كان يحس بضرورة عمل ما، ولكن ما هو؟

قال فى أرفق لهجة: "تس.. لست أطيق البقاء بهذه الحجرة فى هذه الساعة فأنا خارج للمشى قليلاً" وخرج فى هدوء، وظلت كأسا الخمر اللتان كان ملأهما لعشائهما – له واحدة ولها الأخرى – مكانهما على المائدة لم تمسا، وهكذا كان

مصير أفراحهما، وهما اللذان تناولا الشاى من فنجان واحد منذ ساعتين أو ثلاث وسط معابثات الحب، واصطفق الباب خلفه فى رفق، ولكن اصطفاقه أثار تس من ذهولها، وإذا هو قد ذهب وإذا هى لا تستطيع البقاء، فرمت معطفها على كتفيها فى عجلة وخرجت فى أثره، بعد أن أطفأت الشموع فعل من لن تعود أبدًا، وكانت السماء قد أقلعت وصحا الجو.

وسرعان ما لحقت به إذ كان يسير متمهلاً على غير هدى، ولاح شخصه بجانب شخصها الأشهب أسود غاضبًا غضوبًا، وأحست بلمسات الجواهر التى ازدهيت بها وهلة منذ قليل فكأنها تتهكم بها، والتفت كلير حين أحس بوقع خطواتها ولكن شعوره بحضورها لم يؤثر فيه أدنى تأثير، وواصل السير فوق الجسر ذى الأقواس الضخمة الفاغرة أفواهها أمام الدار، وكانت الحفرات التى تركتها حوافر الخيل وأظلاف البقر فى الطريق قد أفعمت بالماء، إذ كانت غزارة المطر كافية لملئها غير كافية لمحوها، وكانت النجوم تومض فى هذه البرك الصغيرة كلما عبرتها تس، ولم تكن تس لتنتبه إلى سطوع النجوم فى عُلْو لو لم ترها فى تلك الأمواه، لو لم تر أضخم أجرام الكون مرتسمة فى تلك الحفر المزدراة.

وكان هذا المكان الذى جاءا إليه الليلة يقع فى نفس الوادى الواقعة فيه تلبوثيز ولكنه كان على مدى أميال منها فى اتجاه مصب النهر، وإذ كان أديم الأرض فى تلك الجهة مكشوفًا فقد ظل صاحبها فى متناول بصرها، وكان الطريق يبتعد عن الدار ويتعرج فى المروج وراحت تتابع زوجها دون أن تحاول قط أن تدركه أو تسترعى التفاته، وإنما تدفعها أمانة عجماء بكماء، على أنها ما لبثت أن رأت نفسها تحاذيه، ولكنه ظل صامتًا وكانت نزعة الصرامة بالغة منه منتهاها، شأن الوفى الطبع إذا اطلع على انخداعه، وكان هواء المساء المنعش على ما يظهر قد نزع منه كل رغبة فى العمل المتسرع.

وأيقنت أنه يراها مجردة عاطلة من كل حلية، وأن القدر يتلو على رأسها مزمار سخريته: "إذا ما أسفر وجهك قلاك من كان يهواك، وإذا ما أفل نجمك غاضت ملاحة وجهك، ولتنفقن حياتك كما تنفق ورقة الشجر، ولتراقن كما يراق

ماء المزن، وليغدون الحزن خمارًا لوجهك والألم تاجًا لرأسك" وكان كلير لا يزال منهمكًا فى التفكير، ولم تعد لصحبتها القدرة على قطع حبل تأمله فما أوهى سلطان حضورها عليه اليوم، ولم يسعها إلا أن تخاطبه: "ماذا جنيت أنا؟ ماذا جنيت؟ أنا لم أفض إليك بشىء ينافى حبى إياك أو يكذبه، فهل تحسبنى قد قصدت ذلك عمدًا؟ إنما أنت حانق لأمر فى فكرك، لا لذنب أنا قارفته، ليس الذنب ذنبى ولست أنا تلك المرأة الخادعة التى تتوهما!".

قال: "لا، لست امرأة خادعة ولكنك لم تعودى نفس المرأة التى كنت أتصورها ولكن لا تحملينى على ملامتك فقد آليت ألا ألومك، وسأتجنب ذلك ما استطعت"، ولكنها مضت تتوسل فى غير وعى حتى تفوهت بأشياء كان أولى لو أسدل عليها حجاب الصمت. قالت: "إينجل! إينجل! لقد كنت طفلة حين حدث ما حدث ولم تكن لى خبرة بالرجال". قال: "أنا أعترف بأنك لم تجنى بمقدار ما جنى عليك". قالت: "ألا تصفح عنى إذن؟". قال: "بلى، ولكن الصفح ليس كل ما هنالك". قالت: "وتحبنى؟" فلم يجب. قالت: "إينجل، إن أمى تقول إن هذا الأمر كثير الحدوث، وإنها تعرف نساء كن أتعس منى حظًا، ولكن لم يكن يحفل بذلك أزواجهن، أو على الأقل استطاعوا أن يتغاضوا عما كان؛ مع أن أولئك النساء لم يُحببن أزواجهن حبك" قال: "مه يا تس، كفى عن المجادلة، إن الطباع تختلف باختلاف الطبقات، إنك تكادين تحملينى على الاعتقاد بأنك ريفية ساذجة غافلة عن حقائق المجتمع، ولا أراك تفقهين ما تقولين". قالت: "أنا ريفية بطبقتى لا بطبيعتى!". قالت ذلك فى نزعة نحو الغضب لم تلبث أن فارقتها.

قال: "هذا من سوء حظك، وأرى أن ذلك القس الذى كشف عن نسبك كان يحسن صنعًا لو طوى الخبر، وليس يسعنى إلا أن أرى علاقة بين انحلال أسرتك وبين ضعف إرادتك، وذلك شأن الأسر المنحلة دائمًا يصحبها انحلال العزائم، واحسرتاه! لماذا حدوتنى إلى الإمعان فى ازدرائك باطلاعى على أمر نسبك؟ لقد كنت أحسبك نباتًا ناجمًا جديدًا أخرجته يد الطبيعة إذا أنت ثمرة متخار خلقتها أرستقراطية واهنة". قالت: "حظ أسرتى كحظ أسرات كثيرة فقد كان آباء رتى

أشرافًا ذوى أملاك شاسعة، وكذلك كان آباء العامل (بيلت) وأسرة (دبيهاوس) صانعو العربات كانوا فيما مضى (آل دى بايوس)؛ وأضرابى كثيرون تجدهم حيث سرت، فإن هذه الظاهرة من خصائص إقليمنا هذا ولا يد لى فى ذلك". قال: هذا من سوء حظ الإقليم".

وكانت تتقبل هذا التقريع منه فى إجماله لا فى تفصيله، تفقه منه أنه لم يعد يحبها كما كان يحبها ولا تعى مما عدا ذلك شيئًا، وتابعا مسيرهما فى صمت، وذاع بعد ذلك أن أحد سكان ولبردج كان قد خرج فى تلك الليلة يبغى طبيبًا، فرأى حبيبين يسيران فى الأعشاب على مهل صامتين – يتبع أحدهما الآخر – كأنهما يشيعان ميتًا، ولاح من نظراته الخاطفة إلى وجهيهما أنهما كانا فى حرق وعناء، وفى عودته قابلهما ثانيًا، ولا يزالان يمشيان مشيتهما البطيئة غير عابئين بتصرم الليل ولا باكفهرار الجو، وما صرف باله عن ذلك الأمر إلا انشغاله بأمر نفسه وأمر المريض الراقد فى داره، على أنه تذكرّ الحادثة فيما بعد.

وكانت تس قد قالت لصاحبها فى الفترة بين ذهاب الرجل وإيابه: "لست أدرى كيف أحول دون تكدير صفو حياتك، على أن النهر دوننا وفى استطاعى أن أقصى فيه نحبى ولن أجبن عن ذلك"، قال: "لا أحب أن أزيد القتل فى عداد حماقاتى الأخريات". قالت: "سأترك ما يدل على أنى فعلت ذلك بنفسى. سأترك وصفًا لمخزيتى وعندها لا يلومك لائم". قال: "كفى عن هذا الهراء فلست أحب أن أسمعه، فمن الحمق أن تخامرك هذه الأفكار فى مثل هذه الحالة التى هى أجدر بضحك السخرية منها بأن تكون مأساة، أنت لا تدركين قط أى ضرب من المصائب هذا، هذا مصاب لا يقابله تسعة أعشار الناس إذا كشف لهم إلا بالتندر، ناشدتك أن تمنّى علىّ بالعودة إلى المسكن والإيواء إلى فراشك". قالت فى رضوخ: "سمعا وطاعة".

وكانا قد ركبا طريقًا مؤديًا إلى الخرائب المشهورة، خرائب كنيسة سسترس القائمة خلف الطاحون، وكانت تلك الطاحون قد ضمت إلى مبانى الدير، وقد واصلت الطاحون عملها، إذ كان الطعام حاجة دائمة، واندثر الدير، إذ كانت العقائد

خيالات، وهكذا كثيرًا ما نرى شعائر الشيء الفانى أطول أمدًا من شعائر الأمر الخالد؛ وإذ كان العروسان يسيران فى خط دائر لم يبعدا كثيرًا عن الدار وحين أرادت تنفيذ أمره لم يكن أمامها إلا أن تسير إلى الجسر الصخرى الضخم الذى يعبر النهر الرئيسى، ثم تتابع الطريق مدى أذرع.

ولما بلغت الدار وجدت كل شيء على ما تركته، وكانت النار لا تزال مشتعلة ولم تلبث إلا هنيهة فى الطابق الأرضى، ثم صعدت إلى مخدعها حيث كان متاعها قد وضع، وهنا جلست على حافة الفراش تصرف عينيها فيما حولها واجمة، ثم بدأت تخلع ثيابها، وأدنت الشموع من فراشها فارتمت أشعتها على الكلة القطنية فإذا شيء مدلى منها، فرفعت الشمعة لترى ما هو فإذا هو غصن مسلتو، وكان إينجل قد وضعه هناك، أدركت ذلك فى لمح البصر، وأدركت أن ذلك هو سر تلك الفنيقة التى استغرقت جهدًا عظيمًا لربطها ونقلها، وأبى أن يخبرها بمحتوياتها قائلاً إن الزمن كفيل بإخبارها، وكان قد علق الغصن فى ساعة حبوره وحماسته وما كان أرذل منظر الغصن الآن وأسخفه.

ولم يعد ثمت ما تخشاه، ولم يكد يبقى لها ما تأمله، إذ لم يكن ثم أدنى شاهد على أنه سيعدل عن خطته، فاستلقت هنالك فى جمود؛ وحين يفقد الحزن عنصر التفكير يبتدر النوم فرصته، وإذا كانت بعض الأحوال النفسية السعيدة تذود الكرى فإن تس كانت فى حالة أليمة ترحب به. وسرعان ما نسيت تس الوجود فى وحشتها تلك، تخيم عليها السكينة وتضوع حولها العطور، فى تلك الحجرة التى ربما كانت فيما مضى مشهد زفاف بعض أقربائها الأقدمين.

ورجع كلير أيضًا أدراجه بعد حين، ودلف إلى حجرة الجلوس فأخذ شمعته ومشى مشية من هيأ كل شيء فى فكره، ونشر أغطيته على الأريكة القديمة المحشوة بشعر الخيل، ومهدها للنوم؛ وقبل أن يرقد انسل صاعدًا حافيًا وتسمع بباب حجرتها. فدله تنفسها المنتظم على أنها مستغرقة فى نوم عميق، فقال: "حسن" ومع ذلك أمضه إحساسه – وكان مصيبًا فى ذلك بعض الإصابة لا كلها – بأنها وقد ألقت عبء حياتها على كتفيه راحت تنام ملء جفونها.

ودار يبغى النزول، ثم عاد مترددًا يواجه بابها، فلمح إحدى السيدتين المنتميتين إلى آل دربرفيل، وكانت صورتاهما فوق المدخل المؤدى إلى مخدعها مباشرة، وقد ازداد الرسم فى ضوء الشمعة بشاعة، ولاحت على وجه المرأة نظرة خبث وتفنن فى النكاية بأبناء الجنس الخشن، هكذا تمثلت له وكان أعلى ثوب المرأة منخفضًا كما كان ثوب تس حين أصلحه لها كى يلائم العقد، وأمضه مرة أخرى الشعور بتشابههما، وصدمه ذلك صدمة أرجعته عن قصده، فعاد أدرجه هابطًا.

وظل رابط الجأش متزنًا، يدل فمه الصغير المنضم على امتلاكه زمام نفسه، تكسو وجهه تلك السيماء المقفرة المنقبضة التى ارتسمت عليه منذ اعترافها، سيماء رجل تحرر من ربقة العاطفة وإن لم يغتبط لهذا التحرر، وإنما كان يتأمل فى مفاجآت حياة الإنسان وعجائب الأيام، لقد كانت تس زمن عبادته إياها أنقى الأشياء وأطهرها وأحبها، إلى ما قبل سوبعات مضت ولكنها: "نقصت ذرة فما أعظم الفارق!".

ولقد أخطأ القياس حين زعم لنفسه أن قلبها لا يرتسم فى نضارة وجهها، ولكن لم يكن لتس مدافع يهديه سواء السبيل، وراح يسائل نفسه أمن الممكن أن تينك العينين اللتين لا تنم نظرتهما عن أدنى انحراف عما ينطق به اللسان، كانتا دائمًا مشرفتين على دنيا أخرى مخالفة لدنياها الظاهرة متناقضة لها؟ واضطجع على الأريكة فى حجرة الجلوس وأطفأ النور، وهبط الليل ومد رواقه كعادته غير حافل؛ ذلك الليل الذى افترس سعادته وكان الآن يهضمها فى استهتار، وكان مستعدًا لافتراس سعادة ألف رجل آخرين بلا اكتراث ولا تبدل فى سيمائه.

استيقظ كلير فى ضوء فجر لاح ضئيلاً حائلاً كأنه مثقل بالخطيئة، وقابل عينيه الموقد ملآن ببقايا النار الخامدة، ومائدة العشاء الممدودة يقوم فيها كأسا الخمر المفعمتان لم يذقهما ذائق، وقد ماعت خمرتها وفقدت صورتها، ومقعده الخالى ومقعدها، وقطع الأثاث الأخرى يلوح عليها طابع عجزها عن تدارك ما حدث، وتساؤلها عما كان يمكن عمله لتفادى ما وقع، ولم يكن فى الطابق العلوى صوت، ولكن سرعان ما دق الباب، فتذكر أن الطارق لابد أن يكون ربة الكوخ المجاور التى أخذت على عاتقها تعهد حاجاتهما مدى إقامتهما هناك.

وأحس أن وجود شخص ثالث فى الدار فى ذلك اليوم لا يطاق، وكان قد ارتدى ملابسه، ففتح النافذة وصاح بالمرأة قائلاً إنهما يستطيعان تعهد شئونهما فى ذلك اليوم، وكان بيدها ملبن أمرها بتركه بالباب، ولما ذهبت بحث فى مؤخرة المسكن عن وقود وسرعان ما أوقد نارًا، وكان فى مخزن الدار قدر وفير من البيض والزبد والخبز، ولم يلبث كلير أن أعد الفطور، وكانت خبرته فى مصنع الألبان قد بصرته بشئون البيت، وتصاعد دخان الخشب الموقد من المدخنة خارج الدار، كأنه عمود على ذؤابته زهرة لوتس، ورآه أبناء الجيرة المارون وتذكروا العروسين فغبطوهما على سعادتهما.

وأخيرًا أجال إينجل بصره فيما حوله، وسار إلى أسفل السلم ونادى بصوت عادى: "الفطور جاهز" وفتح الباب الخارجى وخطا خطوات فى هواء الصباح، ولما عاد بعد قليل وجدها فى حجرة الجلوس تصلح وضع أوانى الفطور فى حركة آلية، وإذ كانت كاملة الملبس ولما تمض على مناداته إياها إلا دقيقتان أو ثلاث، كان من الواضح أنها قد ارتدت ثيابها قبل أن يذهب لدعوتها، وكانت قد كومت شعرها على قمحدوتها وارتدت أحدث الأثواب الجديدة، وكان ثوبًا من الصوف شاحب الزرقة ذا أفواف بيضاء حول العنق، وكانت يداها ووجهها تبدو باردة، إذ كانت قد جلست فى مخدعها زمنًا طويلاً مرتدية ثيابها بغير مدفأة، ولعل الرفق الذى رن فى نبرات كلير وهو يناديها قد أحيا فى نفسها وميضًا من الأمل ولكنه سرعان ما خبا حين نظرت إلى وجهه.

لقد أصبحا كلاهما رمادًا سافيًا متخلفًا عن نارهما الخابية، فقد تلا الخمود توهج أشجان البارحة، وبدا كأن شيئًا كائنًا ما كان لن يستطيع أن ينفث الحرارة فى شعور أحداهما بعد اليوم، وجعل يخاطبها فى رفق فتجيبه فى لهجة متضعة، وأخيرا سارت إليه وحملقت فى وجهه المتهجم المعارف، فعل من لم تدر أن وجهها أيضًا عبرة للمتأمل، وقالت: "إينجل" ثم صمتت، ولمسته بأناملها لمسًا خفيفًا كالنسيم، كأنها لا تكاد تصدق أن بإزائها الذى كان فيما مضى حبيبها وكانت عيناها تبرقان وخدها على شحوبه يبدو فى استدارته المعهودة، وإن تركت المدامع التى لم تجف بعد تمام الجفاف آثارها فيه، وكان فمها الذى طالما بدا ناضجًا قانيًا، يلوح شاحبًا شحوب خدها – كانت الحياة لا تزال تتدفع فى نفسها، ولكنها كانت تتدفع فى اضطراب تحت وقر آلامها، تكفى أقل زيادة فى ذلك الوقر لتمكين الداء منها وإذبال عينيها الأخاذتين وإضمار ثغرها.

وبدت كاملة الطهارة، وكانت الطبيعة الخبيثة الساخرة قد وسمت تس بميسم العذرة، فحملق فيها كلير مشدوهًا ثم قال: "تس! قولى إن ذلك غير صحيح! لا يمكن أن يكون ذاك صحيحًا!" قالت: "بل هو صحيح"، قال: "كل كلمة" قالت: "كل كلمة" فنظر إليها مستعطفًا كأنه ويود لو ترضيه بأكذوبة يقنع بها على علمه بأنها أكذوبة، ولكنها كررت قولها: "هو صحيح"، قال: "وهل لا يزال حيًا؟" قالت: "لقد مات الطفل"، قال: "والرجل؟"، قالت: "ما زال حيًا" فارتسم على وحهه اليأس الأخير وقال: "هل هو فى إنجلترا؟" قالت: "نعم".

ومشى خطوات على غير هدى، ثم أنشأ يقول: "إن موقفى هو هذا: لقد ظننت – كما يحق لأى إنسان أن يظن – أنى وقد تغانيت عن زواج امرأة نبيلة الطبقة غنية خبيرة بالعالم، سأفوز بالطهارة الريفية فوزى بالخدود المتوردة، وإذا بى... ولكنى لا ألومك وإن لامك غيرى"، وأدركت تس موقفه تمام الإدراك ولم تعد به حاجة إلى إتمام مقاله، وكان ذلك أفجع ما فى الخطب، فقد رأت أنه فقد كل شىء.

فقالت: "إينجل.. ما كنت لأدع الأمر يصل إلى حد الزواج لولا وثوقى، أن أمامك سبيلا للخلاص، وإن كنت أؤمل أنك لن..." وتهدج صوتها، وقال: "سبيلا للخلاص؟"، قالت: "أعنى للتخلص منى، وأنت على ذلك قدير"، قال: "كيف؟"، قالت: "بطلاقى"، قال: "ياالله! كيف تبلغ بك السذاجة هذا المبلغ؟ أنى لى بطلاقك؟" قالت: "أليس ذلك فى وسعك بعد أن كاشفتك؟ لقد كنت أعتقد أن اعترافى يمنحك الذريعة اللزمة"، قال: "يا لك يا تس من غرة غافلة! لست أفهمك أبدا، أنت تجهلين القانون، أنت لا تفهمين!" قالت: "أليس ذلك فى وسعك؟"، قال: "كلا".

فارتسم الجزع والخزى على وجهها وتمتمت: "لقد كنت أحسب، لقد كنت آه.. الآن أرى مقدار دناءتى فى نظرك! صدقنى. قسمًا لقد كنت أعتقد أن ذلك فى مقدورك، لقد كنت آمل ألا تفعل ولكنى كنت أعتقد بلا أدنى ريب أن فى وسعك نبذى إذا أردت وإذا انتهيت عن حبى"، قال: "كنت مخطئة"، قالت: "إذن كان ينبغى أن أنهى الأمر البارحة، ولكن أعوزتنى الشجاعة وذلك ديدنى" قال: "فيم أعوزتك الشجاعة؟" فلم تجب فأمسك بيدها وقال: "فيم كنت تفكرين؟" قالت: "فى إنهاء حياتى"، قال: "متى؟" فتغضن وجهها أسى لهذا الإلحاف منه فى مساءلتها، وأجابت: "تحت غصن الميسلتو"، قال مقطبًا: "يا إلهى! كيف؟" قالت جازعة: "سأخبرك إن لم تغضب علىَّ. حاولت ذلك برباط صندوقى ولكنى لم أستطع أن أعمل العمل الأخير، لقد خفت أن أدنس اسمك بعار".

واعترته هزة لهذا الاعتراف الذى اعتصره منها اعتصارًا، ولم تُدْلِ به طواعية وخيارًا، ولكنه استبقى يدها فى يده، وحول نظرته عنها وقال: "أصغى إلىَّ؛ يجب ألا تفكرى فى هذا الأمر البشع أبدًا! كيف جرؤت على التفكير فى هذا؟ عدينى وأنا زوجك ألا تحاولى هذا الأمر ثانية". قالت: "أعدك بلا تردد، ولم يغب عنى قبح مثل هذه الفعلة" قال: "قبحها! هذه فعلة لا تليق بك"، قالت وهى تحدق فيه فى سكون وإيثار: "ولكنى لم أفكر فيها يا إينجل إلا من أجلك انت، لأعفيك من معرة الطلاق الذى حسبتك مضطرًا إلى اللجوء إليه، ولم أكن لأفكر فى ذلك الأمر من أجل نفسى، على أنى لا أستحق شرف تنفيذ هذا العمل بنفسى، والأجدر أن تقوم

انت يا زوجى المنكوب بالإجهاز علىَّ، وإخالنى أزداد لك حبًا – إذا كان هذا ممكنا – إذا أجمعت عزمك على ذلك العمل، ما دام هو السبيل الوحيد لخلاصك، وإنى لأشعر أشد الشعور بحقارتى واعتراضى طريقك!".

قال: "صه"، قالت: "لا أعترض على رغبة لك"، وكان يعلم أنها صادقة فى إقلاعها فقد هبطت قواها بعد مجهود البارحة إلى درجة الصفر، ولم يعد ثمت خوف من أن تندفع إلى عمل جنونى؛ وعادت تس تتشاغل بإصلاح أوانى المائدة، وجلس كلاهما على جانب واحد من المائدة فلم تكن نظراتهما تتلاقى، وشعرا ببعض الحرج فى بادئ الأمر لدى سماع كل منهما صوت مضغ الآخر وشرابه، ولكن لم يكن عن ذلك معدى، ولم يصب أى منهما إلا القليل؛ ولما انتهيا نهض وأخبرها بساعة عودته للغداء، وانطلق إلى الطاحون ينفذ خطة دراسة ذلك العمل تنفيذًا آليًا، وقد كانت تلك الدراسة هى السبب العملى الوحيد لمجيئه إلى هذه البقعة.

ولما مضى وقفت تس بالشباك، وسرعان ما رأت شخصه يعبر الجسر الحجرى الكبير المؤدى إلى مبانى الطاحون، وانحدر وراءه وعبر السكة الحديدية وغاب، وعندها عادت – دون أن تصعد زفرة واحدة – إلى الحجرة ترفع الصحاف عن المائدة وترتب الأثاث، وسرعان ما أقبلت الخادم فكان وجودها مضايقًا لتس فى بادئ الأمر ثم عاد مؤنسًا لها، ولما انتصفت الساعة الواحدة تركت مساعدتها فى المطبخ وعادت إلى حجرة الجلوس ترقب ظهور شخص إينجل وراءالجسر. وفى الساعة الواحدة تراءى شخصه، فاحمر وجهها وإن كان على بعد ربع ميل، وهرعت إلى المطبخ تعد الطعام ليكون فى انتظاره ساعة دخوله، ومشى أولاً إلى الحجرة التى غسلا فيها أيديهما معًا فى اليوم السابق، وحالما خطا فى حجرة الجلوس ارتفعت أغطية الأطباق كأن حركته هو ترفعها فقال: "ما أشدها مواظبة!" قالت: "أجل، رأيتك تجتاز الجسر".

وتناولا الطعام فى محادثات سطحية عما كان يصنع ذلك الصباح فى الطاحون وعن طرق نخل الدقيق، والآلات العتيقة الطراز، وكان يخشى أن كل ذلك لن يفيده كبير خبرة بالأساليب العصرية إذ كان واضحًا أن تلك الآلات هى

التى كانت تستخدم لطحن القمح لرهبان الدير المجاور، الذى أضحى ركامًا من الأنقاض. وخرج إينجل مرة أخرى بعد ساعة ولم يعد إلا فى غسق الظلام، فأكب يدرس أوراقه، وخشيت تس أن تكون قذى لصفوه، فلما انصرفت الخادم ارتدت إلى المطبخ حيث تشاغلت زهاء ساعة، ثم ظهر شخصه بالباب وقال: "لا ينبغى أن تجهدى نفسك هكذا، أنت زوجى لاخادمى".

فانبسطت أساريرها قليلاً وأجابت كأنها تهزأ من نفسها هزءًا يستحق الرثاء: "ألى أن أعد نفسى كذلك؟ إنما أنت تعنى أنى زوجك اسمًا، ولست أطمح إلى ما فوق ذلك"، قال: "أجل. لك أن تعدى نفسك كذلك، إنك لزوجى فماذا تقصدين بقولك هذا؟" قالت على عجل وقد تهدج صوتها: "لست أدرى، إنما عنيت أنى... لكونى لا أليق، لقد أخبرتك منذ بعيد أنى لا أليق لك، وأنى لذلك لا أريد أن أتزوجك، ولكنك ألحفت"، وانفجرت باكية وولته ظهرها وكان ذلك كافيًا لعطف قلب أى رجل عدا كلير؛ إذ كان إينجل يكن فى أعماق جبلّته – على وداعته وحنانه – جذورًا متحجرة من المنطق كأنه قضيب من المعدن الصلد مستطرق فى ناعم الطمى، يفل غرب كل نصل يحاول اختراطه؛ عليه تثلم أمر التحاقه بالكنيسة وتثلم ارتضاؤه لتس، هذا إلى أن حبه كان حبًا شديد الوهج غير شديد الحرارة، فمتى بطل إيمانه بإحدى بنات الجنس اللطيف بطل احتفاؤه بها، مناقضًا فى ذلك بعض ذوى الطبائع السريعة التأثر، الذين يظلون مفتتنين افتتانًا حسيًا بما تزدريه عقولهم.

سكنت حتى كفت عن الانتحاب، فقال وقد انفجر حنقه على جنس النساء طرا: "وددت لو أن نصف نساء إنجلترا يماثلنك لياقة وشرفًا، ليس الأمر أمر لياقة إنما هو أمر مبدأ!" وكان يجيبها بهذه الأقوال مدفوعًا بالنفور الذى يغشى النفوس الصريحة فيملؤها مرارة، إذا تطلع فجأة على أن الحقائق تسخر من أحلامها. نعم كان من دون هذا كله تيار من الشفقة والرثاء، كان فى إمكان امرأة أريبة أن تنفذ منه إلى عطفه فتجذبه، ولكن تس لم تكن تلك المرأة، إنما تقبلت كل شىء معتقدة أنها تستحق كل ما ينزل بها ولم تفتح فاهًا. لقد كان إخلاصها الوطيد لصاحبها يستدر الرحمة، فلم تكن وهى السريعة الغضب لتضيق بشىء مما يقول، ولا لتفكر فى الانتصاف لنفسها، ولا لتثور حفيظتها، ولا لتنقم منه معاملته إياها، فكادت أن تحاكى طهارة الأحبار والحواريين، فى عصرنا هذا الحديث عصر الأثرة.

تقضى هذا المساء وهذه الليلة ثم هذا الصباح، كما تقضت سابقاتها، ولم تجرؤ تس - التى كانت فيما مضى حرة مستقلة، فغدت رهن مشيئته - على محاولة اجتذاب عطفه إلا مرة واحدة، وكان ذلك حين هم للمرة الثالثة أن يخرج بعد الطعام قاصدًا إلى الطاحون، إذ قال وهو ينهض عن المائدة:"إلى الملتقى"، وأجابته بمثل قوله وهى تميل بشفتيها على فمه، فلم يلب هذه الدعوة وقال وهو ينفتل ناحية: "سأعود فى وقتى المعهود"، وانكمشت تس كأنما لطمت؛ لطالما حاول الوصول إلى تينك الشفتين على غير رغبة منها، وطالما قال ضاحكًا إن فمها ونفسها طعمهما طعم الزبد واللبن والبيض والعسل التى كانت قوام غذائها، وإنه يمتص منهما غذاءه، إلى آخر تلك المداعبات، أما الآن فبه عن شفتيها صدفة؛ ولاحظ انكماشها فقال فى ترفق: "لابد أن أفكر فى مسلك، لقد كان حتمًا أن نبقى سويًا زمنًا، تفاديًا للعار الذى يلحق بك إذا افترقنا توًا، ولكن لا يغيب عنك أن هذا كله إنما هو إبقاء على الظواهر"، قالت فى شرود: "نعم".

وخرج، وفى طريقه إلى الطاحون توقف وود لو كان جاملها وقبلها مرة على الأقل؛ وهكذا عاشا هذه اليومين الهائلين، تحت سقف واحد، نعم، ولكنهما كانا أشد تنائيًا مما كانا قبل أن يتحابا، وكانت ترى جليًا أنه يحيا كما قال حياة مشلولة ريثما يستنبط مسلكًا يتبعه، وقد هالها أن تكشف تلك العزيمة الوطيدة من دون ذلك اللين الظاهر، وأحست بقسوة تصميمه ولم تعد تطمع فى عفوه، وفكرت غير مرة فى هجرانه أثناء غيابه فى الطاحون، ولكنها خشيت أن يعرف ذلك فيضيره ويلحق به عارًا بدل أن ينفعه.

وكان إينجل فى نفس الوقت مثابرًا على التفكير فى غير انقطاع، حتى أسقمه الفكر وأنواه وأضواه، وأجنه وأخرجه عن حلاوة شمائله المعهودة، فأصبح أنى ذهب يسائل نفسه: "ما العمل، ما العمل؟" وسمعته صدفة فدفعها ذلك إلى تمزيق حجاب الصمت الذى ساد بينهما فى شأن مستقبلهما فقالت: "لا إخالك مقيمًا معى طويلاً يا إينجل"، وكان هبوط جانبى فمها ينم عن اصطناعها ذلك الهدوء المرتسم على وجهها، قال: "لا أستطيع، أو أحتقر نفسى، وأحتقرك هو أنكى، أعنى طبعًا أنى لا أطيق الإقامة معك بالمعنى المعروف، أما الآن فأيًا كان شعورى فلست أحتقرك".

واستطرد: "دعينى أتكلم فى صراحة، وإلا غابت عنك المصاعب التى تواجهنى: أنى لنا أن نقيم معًا وذلك الرجل حى، وهو زوجك الطبيعى ولست أنا به؟ ولعل الموقف كان يختلف عما هو عليه الآن لو كان الرجل قد مات، وليست هذه بالصعوبة الوحيدة، بل هناك صعوبة تعترض مستقبل أناس سوى شخصينا؛ فتدبرى اختلاف السنين ونمو أبنائنا وافتضاح هذا الأمر وهو لابد مفتضح، فكل بقعة فى الأرض مهما نأت يطرقها الطارقون وينزع منها النزاع، وتصورى أبناء لنا تاعسين من لحمنا يترعرعون فى ظل تلك الوصمة، يشتد إحساسهم بوطأتها كلما شبوا فما أمضها من مفاجأة لهم! وما أبشعه من مستقبل ينتظرهم! هل يسعك بعد هذا التأمل أن تريدينى على البقاء؟ ألا ترين أن الأجدر بنا أن نقاسى آلامنا الحاضرة بدل أن نخف إلى سواها؟".

وظلت مطرقة مثقلة الأجفان بالهم وقالت: "لا يسعنى أن أريدك على البقاء، لم أكن قد تدبرت هذا من قبل"، والحق أن أمل تس الأنثوى كان شديد الاستماتة والتعلق بإصلاح ما فسد، فجعلها تتصور أن أطول المعاشرة والملابسة سيتغلب على نفور صاحبها بالرغم منه، ولم تكن تس فتاة لعوبًا ولكنها لم تكن ناقصة الإدراك، ولو لم تهدها غريزتها إلى ما فى التقارب من قدرة على الإقناع لكان ذلك دليلاً على نقص فى أنوثتها، وكانت موقنة ألا شىء يغنى عنها إن لم يغن عنها ذلك التقارب، وكانت تحدث نفسها أحيانًا بأن من اللؤم أن تبنى أملها على ذلك الضرب من الاحتيال، ولكنها لم تستطع أن تنزع ذلك الأمل من نفسها.

أما الآن فقد أدلى بوجهة نظره النهائية، فرأت على ضوئها موقفًا جديدًا كما قالت، والحق أن فكرها لم يكن استرسل إلى تلك الغاية، فلما صور لها جليًا احتمال إنجابها أبناء يأنفون من الانتساب إليها، اقتنعت أتم اقتناع وحز ذلك فى قلبها المفعم بحب الإنسانية، وكانت التجارب وحدها قد علمتها أن هناك شيئًا هو خير فى بعض الأحوال من حياة النقاء، وهو أن يعفى الإنسان من الحياة إطلاقًا وكان يخيل إليها – شأن من أكسبتهم معاناة الخطوب بعد النظر – أنها تسمع حكمًا بالأشغال الشاقة، كما يقول مسيو سولى بوودوم فى هذا الأمر: "لتولدن"، ولا سيما إذا وجه ذلك

الأمر إلى ذرية يحتمل أن تعقبها، ومع ذلك فقد بلغ من مكر الطبيعة – تلك العجوز الخبيثة التى تزرى بمكر الثعلبان – أن تس غطى على بصيرتها إلى الآن حبها كلير، فأنسيت أن ذلك الحب ربما أعقب أحياء ينكبون غيرهم بمثل النكبة التى لا تزال تندبها.

ومن ثم عجزت عن مقاومة حجته، ولكن نهض فى ذهن كلير نفسه جواب على تلك الحجة، شأن الرجل المرهف الحس يميل بطبعه إلى الإنحاء على نفسه، وقد أوجس خيفة من ذلك الجواب؛ كان ذلك الجواب مبنيًا على تكوينها الجثمانى الخاص، وكان فى مقدورها أن تستفيد من ذلك، وكان فى مقدورها أن تزيد فتقول: "من عسى يعلم أو يحفل بمصابى على حزون استراليا أو فى بطاح تكساس؟ أو من عسى يلومنى أو يلومك؟" ولكنها – شأن معظم بنات جنسها – قبلت الصورة التى عرضها أمامها على أنها المصير المحتوم، ولعلها أصابت، فإن قلب المرأة الملهم لا يشعر بآلامه هو وحده، بل بآلام زوجها أيضًا، وإذا كان لن ينال زوجها أو ذريته لوم من الأغيار، فلعله كان يسمعه آتيًا من ضميره المتأثم.

كان ذلك هو اليوم الثالث بعد وقوع الجفوة، وربما تعجل بعض الناس وقالوا فى ذلاقة: "لو كان كلير فى هذه الحالة أكثر حيوانية لكان أكثر إنسانية" ولكنا لا نرى رأيهم، وإن كان حب كلير بلاشك حبًا خياليًا أثيريًا مفرطًا، مبتوتًا ما بينه وبين الحياة المتحجرة، فأصحاب هذه الجبلة لا يؤثر فيهم التقارب الجثمانى تأثير التباعد؛ فإن التباعد يثير فى مخيلاتهم مثلاً أعلى منزهًا عن الحقيقة الواقعية، ورأت تس أن وجودها بجانبه لم يعطفه إليها كما كانت تظن، لقد كان قوله صادقًا، وإن لاح مجازيًا.. لم تعد هى تلك المرأة التى تيمته!

قالت وهى تشير بسبابة يمناها فوق غطاء المائدة، معتمدة برأسها على يسراها التى تحمل الخاتم الذى كان يسخر من كليهما: "لقد تدبرت ما قلت، وكله صحيح ولابد أن يكون ما تقول صحيحًا، ولا بد أن تمضى عنى"، قال: "ولكن ما تصنعين أنت؟" قالت: "أعود إلى أهلى"، ولم يكن كلير قد فكر فى ذلك من قبل، قال: "أواثقة أنت؟" قالت: "كل الثقة، لابد لنا من الافتراق، وأن نعجل أولى، لقد قلت

مرة إن في مكنتي أن أغلب الناس على ألبابهم، وإذا أنا ظللت أمامك فربما حملتك على تغيير خطتك، رغم ما يمليه محض رأيك وإرادتك، وبعدها لا يكون لندمك وحزني حد"، قال: "وهل تحبين أن تعودي إلى أهلك؟" قالت: "أحب أن أرحل عنك وأعود إلى أهلي"، قال: إذن افعلي".

ولم ترفع بصرها إليه، ولكنها جفلت، فقد كان بين عرضها وبين قبوله فرق أحست به أشد إحساس وأسرعه، قالت مغمغمة وعليها سيماء الاتضاع: "لقد كان ما خفت أن يكون، وإن كنت لا أشكو يا إينجل، إن هذا خير ما يمكن عمله. فقد أقنعني ما قلت أتم إقناع، فإنه ولو لم ينلني لوم اللائمين إذا تعاشرنا، فلعلك تغضب عليَّ يومًا في مقبل السنين لأمر غير ذي بال، فتبسط مقولك أنت نفسك ببعض ما تعرف من شئون ماضي، فيسمعك سامع أو يسمعك أبنائي، وعندها لا يؤلمني مصابي مجرد إيلام كما يؤلمني اليوم، بل ينكل بي ويسحقني سحقًا، لا! لابد أن أرحل – غدًا!" قال: "ولن أبقى أنا هنا، إني وإن كنت قد كرهت أن أبدأ بالاقتراح قد أيقنت من بادئ الأمر أن الأحجى أن نفترق، نفترق زمنًا على الأقل حتى أستطيع أن أستجلي الموقف وأكتب إليك؟."

واختلست نظرة إليه فإذا هو ممتقع منتقض، ولكن راعها مرة أخرى ذلك التصميم الراسخ في أعماق هذا الكائن الوديع الذي تزوجته، وذلك العزم المصر على إرضاخ العاطفة الدنية للعاطفة التي هي أرقى وأسمى، وتضحية المادة من أجل المثل، واللحم من أجل الروح، ولقد تهافتت كل النوازع والميول والعادات تهافت الأوراق الجافة أمام تلك العاطفة الجائحة – تساميه إلى المثل الأعلى؛ ولعله أحس بنظرتها إليه فأنشأ يقول: "أنا أكرم رأيًا في الناس حين أغيب عنهم"، ثم أضاف في سخرية: "لا يعلم إلا الله: لعلنا بعد أن يعيينا الجهد نتصالح يومًا، فقد فعلها قبلنا ألوف!".

وبدأ في ذلك النهار يحزم أمتعته، وصعدت إلى الطابق العلوي تحزم أمتعتها، وكان كلاهما يعلمان أنهما يحسان أنهما مفترقان غدًا إلى غير لقاء على الأرجح، رغم تلك الفروض المرفهة المسرِّية التي توبلا بها قرارهما، تجنبًا لذلك

الألم الممض الذى لا بد أن يصحب افتراق مثليهما افتراقًا أبديًا، وكان يعلم وكانت تعلم أنه رغم أن السحر الذى ألقاه كل منهما على الآخر – وكانت هى قد سحرته بسجيتها المرسلة دون تثقيف ولا ترقيق – سيزداد فى الأيام التى يعقب افتراقهما، حتى يفوق كل ما عهدا من قبل، فإن الزمان سيفل غربه، وربما ازدادت وجاهة الحجج التى تمنعه من أن يتخذها شريكة لحياته، إذا ما نظر إلى الموقف كله من بعد في ضوء شامل، هذا إلى أنه حين يفترق أليفان ويهجران مسكنًا مشتركًا وموطنًا مشتركًا، ينمو نبات جديد ويتفتح حتى يملأ كل مكان خال، وتحول دون تحقيق النيات حوادث لم تكن فى الحسبان، وتنسى خطط كانت مرتبة.

٣٧

انتصف الليل والسكون مخيم، إذ لم يكن في وادى فروم شيء يعلن انتصاف الليل، وبعد الساعة الواحدة بقليل سمع صرير ضئيل في سواد البيت الريفى الذى كان حقبة مقر آل دربرفيل، وسمعته تس التى كانت تنام فى الحجرة العليا وانتبهت، وكان آتيًا من منعرج السلم الخشبى حيث كانت سلمة غير محكمة التثبيت ورأت باب مخدعها مفتوحًا، وأبصرت شخص زوجها يجتاز شعاع القمر المنبسط فى خطوات رفيقة حذرة، ولم يكن عليه إلا قميصه وبنطلونه، وسرعان ما خبت بادرة الفرح التى لمحت فى نفسها، إذ رأت عينيه مشدودتين إلى الفضاء فى حملقة غريبة، ولما بلغ وسط الحجرة وقف بلا حراك وغمغم فى رنة شديدة الأسى: "ماتت! ماتت! ماتت!".

كان كلير إذا اهاج بباله هائج يمشى فى نومه أحيانًا وربما أتى بالغرائب، كما فعل ليلة عودتهما من السوق قبيل زواجهما، حين مثل فى مخدعه صراعه مع الرجل الذى أهانها، وأدركت تس أن إلحاح الآلام النفسية قد دفعه إلى المشى فى نومه، وكانت لشديد إخلاصها له وعميق ثقتها به لا تستشعر خشية منه فى يقظة أو سبات، ولو أنه دخل عليها بمسدس فى يده لما زعزع ثقتها فى حمايته إياها من كل أذى، ودنا منها كلير وانحنى عليها مغمغمًا: "ماتت! ماتت! ماتت!" وبعد أن حدق فيها لحظات بتلك النظرة الحزينة الآسفة أخذها فى ذراعيه، ولفها فى أغطيتها كأنه يلفها فى كفن، ثم رفعها من فراشها فى ذلك الإجلال الذى يحاط به الموتى، واجتاز بها الحجرة متمتمًا: "مسكينتى، عزيزتى، حبيبتى، تس ما أملحها وأطيبها وأصدقها".

وما كان أعذب وقع كلمات الإعزاز هذه فى نفس تس المتلهفة، بعد ما حرمتها فى يقظته أتم حرمان، ولم تكن لتنزع نفسها بحركة أو عراك من الموضع الذى وجدت نفسها فيه، ولو توقفت على ذلك حياتها التاعسة، ومن ثم استسلمت فى سكون مطلق لا تكاد تجرؤ على التنفس؛ وتركته يخرج بها إلى فسحة السلم، وهى

لا تدرى ما هو صانع بها، وقال: "ماتت زوجتى!" ماتت!" وتوقف وهلة ومال بها على الدربزين، أيريد إلقاءها من حالق؟ لقد كان احتفالها بمصيرها قد تضاءل، وإذ كانت تعلم أنه قد عول على الرحيل فى الغد، رحيلاً ربما كان إلى غير رجعة فقد سكنت فى يده فى ذلك الموقف الهائل فى ارتياح لا فى ذعر، وودت لو هويا معًا وتهشما معًا.

على أنه لم يقذف بها، وإنما استعان باعتماده على الدربزين فطبع قبلة على شفتيها – شفتيها اللتين يزدريهما نهارًا – ثم شدد تطويقها وهبط السلم ولم يوقظه صرير السلمة المخلخلة، وبلغا الطابق السفلى سالمين، وخلص إحدى يديه من حملها وهلة وشد رتاج الباب الخارجى، واندفع خارجًا فاصدمت أصبع قدمه المكسوة بالجورب بحافة الباب اصطدامًا خفيفًا، ولكنه لم يبال ووجد فى الهواء الطلق متسعًا فحملها على كتفه، وخف عبؤه بذلك ولقلة ما كان عليها من ثياب وسار بها مسافة طويلة تجاه النهر.

ولم تدر هى غايته التى يقصد إليها إن كان يقصد إلى غاية، وراحت تظن الظنون كأنها شخص ثالث غير مشترك فى الأمر، وكانت قد منحت نفسها إياه منحًا خالصًا، وسرها أن تراه يعدها ملكًا خاصًا له يصنع بها ما يشاء، وعزاها من عذاب الفراق الذى يحلق حولها فى الغد أن تراه يعدها زوجه تس ولا ينبذها، وإن ذهب فى اعتداده ببعولته إلى حد انتحال الحق فى إيذائها، وأدركت فجأة أنه يحلم بذلك اليوم يوم الأحد إذ حملها عبر الماء هى وصاحباتها اللائى يهمن به هيامها – وإن كانت لا تستطيع أن تقر بذلك – ولم يعبر كلير بها الجسر بل تقدم خطوات على نفس الشاطئ صوب الطاحون، ثم وقف.

وكان ماء النهر الذى ينساب أميالاً فى تلك المروج كثيرًا ما يتشعب ويتلوى فى تعاريج شتى بغير نظام حول جزائر صغار لا تعرف بأسماء، ثم يعود فيلتئم بعد مكونًا مجرى رئيسيًا، وكان حيال البقعة التى وقف بها كلير ملتقى نهيرات من تلك الملتقيات، وكان المجرى هناك عميقًا مترعًا يجتازه جسر ضيق للسيارة، ولكن السيل الذى فاض فى الخريف كان قد جرف سياجه، ولم يدع إلا الألواح العارية

على ارتفاع بوصات فوق التيار المندفع، فكان ذلك مجازًا خطرًا حتى للصاحين، وكانت تس قد لاحظت الناس من نافذتها يمرون عليه كأنما يأتون بمعجزة في التوازن ولعل زوجها كان قد لاحظ ما لاحظت، والآن تقدم إلى الجسر مجتازًا.

أيريد إغراقها؟ لعله يريده، لقد كان المكان خلوا والنهر عميقًا واسعًا يصلح لتلك الغاية، ولم تكن لتأبى عليه إغراقها لو أراد، فقد كان ذلك خيرًا من الافتراق في الغد والعيش بعد ذلك بمعزل؛ وطفق النهر يعدو ويدوم من دونهما منعكسًا عليه وجه القمر متبعجًا ممزقًا، وتندفع فيه نقط من الزبد وتعلق بعض الأعشاب بحوامل الجسر فتتموج حولها؛ ولو سقطا في النهر في تلك اللحظة لحال توشج أذرعتهما دون نجاتهما، ولفارقا الحياة في غير كبير ألم، ولم تقاس من أحد بعد اليوم تثريبًا ولم يقاس لومة لائم على زواجه بها، ولكان آخر نصف ساعة قضاه وإياها برهة محبة وإعزاز، على حين أنهما لو عاشا حتى يثوب إلى وعيه، لعاوده مع النهار نفوره منها، ولم يبق من هذه اللحظة العابرة إلا ذكراها.

ونزت بها نزوة لو استفادت لها لأسرعت بهما إلى الهوة، فأما احتفالها بحياتها فقد أثبتت الحوادث السالفة مقداره، وأما حياته فلم تر لنفسها حقًا في العبث بها وبلغ بها العدوة سالمًا، وهنا وجدا نفسيهما في مزرعة تحيط بالدير، وشدد تطويقها مرة أخرى وسار خطوات حتى بلغ موضع المرتلين من الدير المهدم، وكان بجانب الحائط الشمالي تابوت لرئيس الرهبان فارغ، كان يتمدد فيه كل سائح مغرم بالمزاح الكئيب، وفيه وضع كلير تس في رفق، وقبل شفتيها مرة أخرى، وتنفس الصعداء كأنه قد أدرك مأربًا كان عليه جد حريص، ثم تمدد على الأرض بجوارها وسرعان ما استغرق في نوم عميق لشدة إعيائه، وسكن في موضعه كأنه جذع شجرة، وخمدت تلك الفورة النفسية التي حملت كل ذلك المجهود.

اعتدلت تس جالسة في التابوت، وكانت الليلة أجف وأدفأ مما يتوقع في ذلك الفصل، ولكنها كانت مع ذلك ليلة باردة إذا أطال بقاءه فيها في تلك الثياب تعرض للخطر، ولو ترك وشأنه لبقي في مكانه ذلك على الأرجح إلى الصباح ولهلك بردًا، ولكن أنى أن توقظه فتنبهه إلى ما كان فيه، وهو إذا تنبه إلى ما صنع بها أمضه

الألم؟ على أنها خرجت من التابوت الحجرى وهزته فى رفق، ولكنها لم تستطع إيقاظه إلا أن تلجأ إلى العنف، ولم يكن بد أن تعمل عملاً، فقد أخذتها القشعريرة، ولم يكن غطاؤها ليغنى عنها كثيرًا... وكان انفعالها أثناء تلك المغامرة قد أدفأها إلى حد بعيد، ولكن ذلك الوقت السعيد قد انتهى.

ثم عن لها أن تحاول إغراءه، فهمست فى أذنه بكل ما لديها من حزم وتصميم: "هلم يا عزيزتى نسر"، مقترحة عليه السير بأخذ ذراعه فى نفس الوقت، وأثلج صدرها أن رأته يوافق، وكأن كلماتها قد قذفت به مرة أخرى فى أحلامه، التى اتخذت من تلك اللحظة طورًا جديدًا، توهم فيه أنها انبعثت روحًا تقوده إلى السماء. وهكذا قادته من ذراعه إلى الجسر الحجرى المحاذى لمسكنهما، فلما عبراه صارا أمام الباب، وكانت تس حافية فكانت الأحجار تؤلمها وتشيع البرودة فى مفاصلها، أما كلير فكان مرتديًا جواربه الصوفية لا يبدو عليه شعور بألم. ولم تجد صعوبة بعد ذلك فى إرقاده على أريكته، وغطته تغطية جيدة، وأوقدت نارًا لتنفض عنه أثر كل رطوبة، وكانت ضوضاء حركاتها تلك وهى تتعهده حرية أن توقظه، وقد ودت فى صميم نفسها لو أيقظته، ولكن فكره وجسده كانا من العياء بحيث استغرق فى سباته لا يزعجه شىء.

وحالما تقابلا فى الصباح التالى، أدركت تس أن إينجل لا يكاد يدرى شيئًا عن مدى اشتراكها هى فى رحلة البارحة، وإن كان يذكر أنه هو نفسه لم يهجع فى مكانه ليلته، والحق أن كلير استيقظ ذلك الصباح من سبات عميق أشبه بالهمود وفى ذهنه ذكرى دامسة لحوادث فى الليل غير عادية، تساور ذهنه فى تلك اللحظات الأولى التى يحاول فيها الذهن استعادة قواه، كأنه سمسون ينفض عنه خموله، ولكن حقائق موقفه فى حياته سرعان ما شغلت فكره عن التأمل فى ذلك الموضوع الآخر.

وتلبث كلير عل فكره يتجه اتجاهًا جديدًا وكان يعلم من طبيعة نفسه أن كل عزم بيته يومًا وأصبح عليه فلم يتغير بطلوع النهار، هو عزم لم يمله إلا المنطق السليم، وإن دفعه إليه احتدام العاطفة فى بادئ الأمر، وهو عزم من أجل ذلك جدير

أن يوطن نفسه عليه، وهكذا بدا له فى غبش الصباح عزمه على مفارقتها. لم يكن ذلك العزم وليد عاطفة جامحة، بل كان يلوح له الآن مجردًا من كل ذلك الانفعال والاحتدام اللذين عصفا به من قبل، كان ذلك العزم يلوح مجردًا كالهيكل العظمى، ولكنه كان بلا ريب ثابتًا فى نفسه، لم يعد للتردد سبيل إليه.

وكانت أمارات التعب من جراء مجهود البارحة مرتسمة عليه وقت الفطور، وأثناء حزمها لما بقى من أشيائهما، حتى همت تس أن تفضى بكل ما كان، ولكنها عادت فأمسكت مخافة أن يغضبه ذلك ويحزنه، ويحرجه أن يعلم أن غريزته دفعته إلى إظهار حب لها يأباه حسن إدراكه، وأن نوازعه غضت من كبريائه فى غفلة عقله، وبدا لها أن إفضاءها إليه بما كان أشبه بالتندر على امرئ فى صحوته، بما كان من سقاطه وهو ثمل، وعن لها إذ ذاك أنه ربما كان يذكر ذكرًا خافتًا ما كان من بدوته الخرقاء، فأبت أن تشير إليها لاعتقادها بأنها ربما استغلتها من أجل حبها إياه، وانتهزت تلك الفرصة لتعود فتتوسل إليه ألا يهجرها.

وكان قد كتب يطلب عربة من أقرب بلدة، وسرعان ما وصلت بعد الفطور ورأت فيها تس بداية النهاية المؤقتة على الأقل؛ فقد أثار ما كشفت عنه حادثة البارحة من حب لها فى نفسه، آمالاً فى نفس تس بأن يعاودها يومًا! ووضع المتاع على سقف العربة، وانطلق السائق بهما بعد أن أبدى صاحب الطاحون والخادم العجوز دهشتهما من سرعة رحيلهما، فعزا كلير ذلك إلى اكتشافه أن أعمال الطاحون لم تكن تجرى على الطراز العصرى الذى يبغى درسه، وكان ذلك صحيحًا فى حد ذاته، وفيما عدا ذلك لم يكن فى هيئة رحيلهما ما يوحى بشقاق أو ينفى أنهما يقصدان زيارة بعض الأصدقاء.

وكان طريقهما يقارب الضيعة التى فصلا عنها منذ أيام، وفى نفس كل منهما من الغبطة بصاحبه ما فيها، وإذ كان كلير يبغى تصفية أعماله مع مستر كريك لم يسع تس إلا أن تزور مسز كريك فى نفس الوقت، وإلا أثارت الريب حول علاقتهما المحزنة، ولكيلا تكون زيارتهما مفاجئة متقلة ترجلا عند البوابة الصغيرة وسارا على الممشى المؤدى إلى دار صاحب الضيعة جنبًا إلى جنب،

وكانت الأعشاب قد جذت، وكانا يريان خلال سوقها المجذوذة البقعة التى تبع كلير إليها يوم ألحف عليها فى زواجه، وكانت على ميسرتهما الحظيرة التى سحرتها فيها أنغام قيثارته، وكانا يريان فى البعد خلف مرابط الأبقار المروجِ التى شهدت أول عناق لهما، وكان اللون الذهبى الذى يوشى تلك الصورة صيفًا قد استحال داكنًا، وحالت صبغتها وتوحلت تربتها وبرد نهرها.

ورآهما صاحب الضيعة عبر بوابة ضيعته، فمشى إليهما وعلى وجهه علائم الحبور التى يرتضيها آل تلبوثيز وأرباضها لدى عودة عروسين، ثم برزت من الدار مسز كريك وأخريات من معارفها القدماء، وإن لم يظهر لماريان ورتى أثر، وتحملت تس فى بسالة حملاتهم الماكرة ودعاباتهم البريئة، التى كان لها فى نفسها أثر بعيد أشد البعد عما يظنون، وإذ كان الزوجان قد اتفقا اتفاقًا ضمنيًا على إسرار أمر انشقاقهما فقد سلكا مسلكًا طبيعيًا، ثم اضطرت تس إلى سماع ما كان من قصة رتى وماريان، وإن كانت لتؤثر ألا تسمع منها حرفًا، وكانت رتى قد عادت إلى أهلها، وذهبت ماريان تبحث عن عمل فى مكان آخر، وكان القوم يخشون عليها سوء المصير.

ولكى تبدد تس سوء أثر تلك القصة المحزنة، انطلقت إلى بقراتها العزاز تودعها وتربتها؛ ولما وقفت هى وكلير جنبًا لجنب للوداع كأنهما ممتزجان روحًا وجسدًا، كان منظرهما جد مؤس لمن يعلم حقيقة ما وراءه، كانا يبدوان كأنهما جسدا روح واحد، وذراعه تلامس ذراعها، وثوبها يماس ثوبه، ووجهاهما متجهان فى ناحية واحدة على حين قد اتجه الآخرون فى الناحية الأخرى، يقولان فى وداعهما: "نحن" وهما مع ذلك أشد تباعدًا من القطبين، ولعل شيئًا من الضيق والحرج كان ملحوظًا فى مسلكهما أو شيئًا من العجز فى تمثيل دور الاتحاد مخالفًا لما يخامر صغار الأزواج من خجل، فحالما انصرفا قالت مسز كريك لبعلها: "ما كان أغرب بريق عينيها، وما كان أشبههما بتمثال شمع وهما واقفان يتحدثان كأنهما فى حلم، ألم تلاحظ ذلك؟ لقد كانت تس دائمًا على شىء من الغرابة، وهى لا تبدو الآن بمظهر العروس الفخور بزوجها الثرى".

وعاد إلى العربة وانطلقت بهما إلى (وذربرى)، و(ستجفت لين)، حتى بلغا فندق (لين) حيث صرف كلير العربة وسائقها، واستراحا برهة وهبطا الوادى واتجها صوب موطنها فى عربة رجل لا يعرف علاقتهما، أوقف كلير العربة فى مفترق طرق بعد أن جاوزا (ناتلبرى)، وقال لتس إنها إن كانت تريد العودة إلى أبويها فذلك هو الموضع الذى يفارقها فيه، وإذ كان من الصعب أن يتحدثا فى حرية فى حضور السائق، طلب إليها أن تسايره خطوات فى أحد الدروب الجانبية، فوافقت وطلبا إلى الرجل أن ينتظرهما دقائق وانطلقا وقال كلير فى رفق: "فليفهم كل منا صاحبه جليًا: ليس بيننا مغاضبة وإن كان بيننا أمر لا أستطيع احتماله الآن، وسأحاول أن أروض نفسى على احتماله، إذا كان ذلك مرغوبًا فيه أو ممكنًا وسأحيطك علمًا بما أنتهي إليه حالما أعلم أنا نفسى، فإذا رضت نفسى على احتماله، إذا كان ذلك ممكنًا أو مرغوبًا فيه، فسآتيك، ولكن يجدر بك ألا تأتى إلى حتى آتى إليك".

أمضت تس قسوة ذلك القرار، وقد تبين لها رأيه فيها وعلمت أنه لا يستطيع إلا أن يعدها امرأة غشته غشًا فظيعًا، ولكن أتستحق امرأة كل ذلك ولو كانت قد اقترفت ما اقترفت هى نفسها؟ على أنها لم تعد تستطيع أن تجادله أكثر مما فعلت، إنما رددت قوله بعده: "لا آتيك حتى تأتى إلىّ؟" قال: "لا"، قالت: "فهل لى أن أكاتبك؟" قال: "نعم إذا كنت عليلة أو محتاجة إلى شيء ما، وإن كنت آمل ألا يصيبك شيء من ذلك كى أكون أنا البادئ بالكتابة"، قالت: "أقبل شرطك يا إينجل لأنك خير من يعلم ما أستحق من عقاب، إنما... إنما لا تزد على حد ما أستطيع!".

ذلك كل ما قالت، ولو كانت تس ماكرة فأتقنت التصنع وأغمى عليها وبكت بكاء عصبيًا فى ذلك الدرب، لما استطاع مقاومتها رغم غضبة التسامى التى كانت تدفعه إلى رفضها، ولكن نزعة الاستسلام للآلام التى تمكنت منها سهلت له طريقه وكانت تس نفسها خير عون له على نفسها، وكانت لكبريائها أيضًا يد فى رضوخها – ولعل ذلك كان أحد أعراض ذلك الاستسلام للأقدار فى غير مبالاة، الذى كان أحد سمات آل دربيفيلد جميعًا – ومن ثم لم تمس الكثير من الأوتار الحساسة التى

كان يمكنها أن تتوسل بها إليه، واقتصرت بقية حديثهما على الأمور المادية، ودفع إليها صرة بها قدر من المال وفير قد سحبه من المصرف لذلك الغرض، أما الجواهر التى لم يكن لتس حق فيها إلا مدى حياتها – إذا كان كلير قد أصاب فى تفسير الوصية – فقد طلب أن تسمح له أن يستبقيها فى مصرف فوافقت على الفور.

فلما فرغا من تلك الشئون عادا أدرجهما، وساعدها فى ركوب العربة ونقد السائق أجره وأخبره بالجهة المقصودة ثم حمل مظلته وحقيبته وهما كل ما استصحب وودعها وافترقا، وزحفت العربة صاعدة التل، وراقبها كلير فى صعودها وقد خامره أمل فى أن تطل تس من النافذة وهلة واحدة، ولكنها لم تفكر فى ذلك ولم تكن لتجرؤ عليه، وإنما كانت مسترسلة فى غيبوبة هى أقرب إلى الموت، وهكذا شاهدها قافلة إلى وطنها، وتمثل وقلبه يتصدع بيت شعر حرفه تحريفًا عجيبًا: "ليس الله فى السماء، كل ما فى الأرض فاسد"، ولما جاوزت تس قمة الجبل قفل آخذًا سمته، ولم يكد يدرك أنه لا يزال يهواها.

تقدمت بها العربة وادى بلاكمور، وتفتحت أمامها معاهد طفولتها، فانتبهت من ذهولها وكان أول خاطر عن لها: كيف تواجه أبويها؟ ووصلت إلى بوابة العوائد التى تعترض الطريق إلى القرية، ففتحها رجل لا تعرف ولم تر الشيخ الذى كان موكلاً بتلك البوابة منذ سنين، فلعله انتقل فى رأس العام، إذ جرت العادة بإجراء تلك التنقلات فى ذلك اليوم، وإذ كانت لم تتلق أخبارًا من ذويها منذ حين استوضحت حارس البوابة.

قال: "لا جديد يا آنسة، ولا تزال مارلت مارلت كما هى، وإن مات بعض الناس وهلم جرا، وقد تزوجت ابنة جون دربيفيلد سيدًا مزارعًا فى هذا الأسبوع، ولارتفاع رتبة ذلك السيد لم يحضر الزفاف آل جون أنفسهم، إذ يلوح أن العريس لم يعلم بما كشف حديثًا من انتماء جون إلى أسرة عريقة لا تزال جماجمها فى مدافنها إلى اليوم، وإن تكن قد غلبت على أملاكها فى عهد الرومان، على أن سير جون – كما نسميه الآن – قد احتفل بالزفاف بما فى وسعه، وأولم ككل أهل الأبرشية، وأنشدت زوج جون الأناشيد فى فندق القطرة الصافية إلى ما بعد الحادية عشرة".

بلغ من غم تس لدى سماع ذلك أن أحجمت عن دخول القرية جهارًا فى العربة ومعها كل متاعها، فسألت حارس البوابة أن يستبقى أشياءها حينًا فلم يمانع، فصرفت العربة ومشت إلى القرية من درب خلفى، ولما ارتفعت لها مدخنة دار أبيها ساءلت نفسها كيف تستطيع دخول الدار؟ لقد كان ذووها داخل الدار هادئين يحسبونها تجوب قاصى الأرض فى رحلة شهر العسل مع عريس ثرى سوف يقودها إلى السعادة والرفاهية، وها هى ذى عديمة النصير تدرج إلى ذلك الباب القديم وحيدة، وليس لها فى العالم مثابة خير من هذه.

ولم تبلغ الدار دون أن يلاحظها أحد، بل صادفتها بجانب وشيع الحديقة فتاة تعرفها، كانت إحدى زميلتيها أو ثلاث زميلاتها فى المدرسة، اللواتى كانت بينها وبينهن صلة وثيقة، فسألت تس عما أتى بها إلى ذلك الموضع، ثم اندفعت تسأل غافلة عما فى قولها من مض: "ولكن أين السيد يا تس؟" فردت تس فورًا إنه قد استدعى فجأة لبعض شئونه، وجاوزت معترضتها وتسلقت الوشيع ودخلت الدار، وإنها لتسير فى ممشى الحديقة إذ سمعت أمها تترنم بجانب الباب الخلفى، فلما لاح لها ذلك الباب رأت مسز دربفيلد على العتبة تعصر خرقة، وانتهت من ذلك دون أن تلحظ تس، ودخلت وتبعتها ابنتها، وإذا حوض الغسيل قائم فى موضعه المعهود، ورمت أمها الخرقة جانبًا وهمت أن تغمس يديها فى الحوض ثانية.

"يا للعجب! تس! ابنتى! لقد حسبتك تزوجت! تزوجت حقًا وفعلاً هذه المرة! لقد أرسلنا الشراب..."، قالت تس: "نعم يا أمى لقد تزوجت"، قالت: "تعنين أنك ستتزوجين؟" قالت: "لا، بل قد تزوجت"، قالت: "تزوجت؟ فأين زوجك؟" قالت: "لقد ذهب حينا"، قالت: "ذهب؟ متى تزوجتما فى اليوم الذى عينته؟" قالت: "نعم، يوم الثلاثاء يا أم"، قالت: "واليوم السبت وقد ذهب؟" قالت: "نعم ذهب"، قالت: ما معنى هذا؟ ما رأى أحد مثل هؤلاء الأزواج الذين تعثرين عليهم!".

مشت تس إلى أمها ووضعت وجهها على صدرها وقالت وهى تنتحب: "أماه! لست أدرى كيف أخبرك، لقد أمرتنى قولا وكتابة ألا أخبره، ولكنى فعلت ولم يسعنى إلا أن أفعل وقد ذهب"، فانفجرت أمها مبللة نفسها وابنتها فى هياجها: "يا لك من حمقاء! يا لك من حمقاء! يا إلهى! لم أكن أحسبنى أعيش حتى أقولها! ولكنى أعيدها: يا لك من حمقاء!" واستغرقت تس فى نحيبها وقد خارت قواها بعد عراك الأيام السالفة، ولفظت خلال شهقاتها: "أنـــا أعـــلم ذلك، أنا أعلمه، ولكـــن لم يسعنى إلا ذلك يا أم! لقد كان كريمًا ورأيت من الخسة أن أحاول أن أعميه عن حقيقة ما كان! ولـــو تكرر الموقف مـــا فعلت غير مـــا فعلت، فليس فى وسعى ولا أجرؤ أن آثم فى حقه!".

قالت أمها: "ولكنك أثمت إثمًا عظيمًا بزواجه فى بادئ الأمر!" قالت: "نعم، نعم هذا أصل بليتى! ولكنى كنت أحسبه يستطيع التخلص منى بالقانون إذا أصر على عدم الصفح، وليتك تعلمين، ليتك تشعرين بنصف حبى إياه ومقدار لهفتى إلى الفوز به، ومبلغ ما كابدت بين هيامى به وحرصى على النزاهة فى مسلكى حياله!" وبلغ من انفعالها أن لم تستطع المضى فى المقال، وانحطت ركامًا هائرًا فى كرسى، قالت أمها: "لا راد لما كان، لست أدرى لم أرى ذريتى أغبى من ذرية غيرى، حتى تثرثرى معلنة مثل هذا السر الذى لم يكن الرجل ليقع عليه إلا وقد فات الأوان" وراحت تسكب دمعها حزنًا على نفسها، إذ أحست أنها أم جديرة بالرثاء، واستطردت: "لست أدرى ما أبوك قائل، فإنه لم يزل يتحدث بأمر الزواج فى فندقى روليفر والقطرة الصافية، وبعودة أسرته بفضلك إلى مكانهم الجدير بهم، واحسرتاه على الأحمق المسكين! وها أنت ذى قد أفسدت كل شىء، فرحماك يالله!".

وشاء القدر أن تبلغ الأمور أزمتها الكبرى، إذ سُمعت خطى الأب مقتربة، على أنه لم يدخل وقالت مسز دريبفلد إنها ستترفق فى إنهاء الخبر إليه هى نفسها على أن تتوارى تس حينًا، وقد بدأت جوان دربيلفد بعد غضبتها الأولى تنظر إلى الأمر نظرتها إلى يوم عطلة أفسده المطر، أو محصول بطاطس اصطلمته الآفات، تعد كل ذلك نازلاً نزل بهم دون أن يستحقوه أو يستهدفوا له بحماقتهم، نازلاً عارضًا يحتمل، لا درسًا يحفظ؛ وانسحبت تس صاعدة إلى الطابق العلوى، ولاحظت فى نظرة عابرة أن المضاجع قد غُيرت ورتبت ترتيبًا جديدًا، وكان فراشها قد مهد لطفلين صغيرين ولم يعد هناك موضع لها.

وإذ كانت الحجرة السفلى غير ذات سقف، فقد سمعت تس معظم ما كان يجرى فيها من حوار، وسرعان ما دخل أبوها وكأنه كان يحمل دجاجة، وكان قد أضحى يجول على قدميه بعد أن اضطر إلى بيع حصانه الثانى، وكان يسير وسلته فى ذراعه، وكان قد طاف بالدجاجة ذلك الصباح كما طاف بها من قبل مرارًا، ليظهر للناس أنه يباشر أعماله، وإن كان تركها مقيدة تحت منضدة روليفر زهاء

ساعة؛ قال: "لقد كنا نتحدث فى أمر..."، وفصل لزوجه محاورة دارت فى الحان حول رجال الدين، أثارها العلم بأن بنته تزوجت شابًا من أسرة دينية، ثم قال معقبًا: "لقد كانوا فيما مضى يلقبون بلقب سير، شأن آبائى، أما الآن فهم قسس لا أكثر" وقال إنه إجابة لرغبة تس فى عدم إذاعة الموضوع لم يذكر شيئًا من التفاصيل، وإن كان يرجو أن تكف عن ممانعتها عما قريب، واقترح أن يتخذ العروسان اسم دربرفيل صحيحًا غير مشوه، فهو خير من اسم أسرة العريس، وسأل أجاء من تس كتاب ذلك النهار.

فأخبرته أنه لم يأت كتاب وإنما تس نفسها لسوء الحظ قد أتت، وبعد لأى شرحت له الكارثة، فداخله غم وقنوط لا يألفهما الرجل، تغلبا على أثر الكأس المنعشة، على أن ذلك المصاب الجلل لم يؤثر فى نفسه بعض ما كان يؤثر فى غيره قال سير جون: "أهذه نهاية الأمر إذن؟ رغم ما لى من مدافن عريقة تحت سقف كنيسة كنجزبير، تضاهى سعتها سعة مخزن سكوايار جولرد، للخمور، يرقد فيها آبائى سداس وسباع، تناصى عظامهم أشرف عظام فى التاريخ! والآن أنا أدرى حق الدراية ما سوف يجبهنى به رواد روليفر والقطرة الصافية: سوف يتغامزون ويتلامزون قائلين (ما أسعد ذلك القران! نعم نراك تعود إلى رفعة أجدادك فى أيام الملك نورمان!) هذا أكثر مما أحتمل يا جوان، أرانى سأنتحر جسمًا ولقبًا، ليس فى طاقتى أن أتجلد لكل هذا! ولكن أليس من حقها أن تلزمه أن يعود إليها ما دام قد تزوجها؟".

قالت: بلى، ولكنها تأبى أن تفعل"، قال "أتحسبينه تزوجها فعلاً أم هو كسابقه..؟" وكانت تس المسكينة قد سمعت كل ذلك، ولم تعد تستطيع احتمال أكثر منه، وزهدها فى بيت أهلها أن رأت قولها يرتاب فيه حتى هنا تحت سقف والديها؛ ما أشد مفاجأة ضربات القدر! أإذا كان أبوها يرتاب فى أمرها قليلاً أفلا يرتاب البعداء كثيرًا؟ لن تستطيع البقاء فى موطنها طويلاً؛ تبينت ذلك فعولت على ألا تقيم إلا أيامًا معدودة، وفى نهاية تلك الأيام أتاها كتاب من كلير ينبئها أنه قد رحل إلى شمال إنجلترا يفحص ضيعة هناك.

ولشديد لهفتها إلى التمتع ببعولته، وحرصها على إخفاء خطر قطيعتها عن أبويها، اتخذت ذلك الكتاب ذريعة للرحيل عنهما مرة أخرى زاعمة أنها ذاهبة للحاق بصاحبها، ولكي تقي زوجها تهمة القسوة عليها أخذت خمسة وعشرين جنيهًا مما أعطاها كلير ودفعتها إلى أمها كأن ذلك بعض ما تستطيعه زوج رجل مثل إينجل كلير، وقالت إن ذلك اعتذار متواضع عما جلبت عليهما من متاعب ومهانة في سالف السنوات، وودعتهما بعد أن عززت كرامتها بهذا العمل؛ وارتجت دار جوان دربيفيلد أيامًا بعد ذهاب تس بالحفلات والأطراب، بفضل سخاء تس، وراحت جوان تقول بل تعتقد أن ما كان بين ابنتها وعريسها من جفوة سرعان ما تلاشى، إذ تبينا استحالة عيش أحدهما بنجوة عن الآخر.

بعد الزواج بثلاثة أسابيع كان إينجل كلير يهبط المنحدر المؤدى إلى مقر أبيه المعروف، ولما تقدم فى انحداره ارتفع له برج الكنيسة فى سماء المساء كأنه يسائله فيم جاء، ولم يكن يبدو أن حيًا يحس به فى تلك البلدة التى يخيم عليها الليل الزاحف، أو ينتظر قدومه، وكان يدنو كالشبح يزعجه وقع خطاه هو نفسه.

لقد تغيرت صورة الحياة فى نظره؛ كان قبل اليوم يعرفها معرفة نظرية أما اليوم فهو يحسبه يعرفها معرفة مجرب، وإن يكن أكبر الظن أنه كان مخطئًا، على أنه لم يعد يتمثل الإنسانية فى تلك الصورة الفنية التأملية الإيطالية، بل فى تلك الصور الكالحة الفاغرة التى تستقبلك فى أحد معارض ويرتز، تعلوها بسمة فاجرة كتلك التى ترتسم على صورة فان بيرز؛ وقد كانت حياته فى تلك الأسابيع الثلاثة الأولى مشتتة للغاية، فبعد أن حاول محاولة آلية أن يمضى فى مشروعاته الزراعية كأن شيئًا خارقًا لم يكن، وهى الخطة التى يشير بها الحكماء والعظماء فى كل الدهور، قرر أن أغلب أولئك العظماء والحكام لم يخرجوا عن نطاق أنفسهم ليمتحنوا مقدار ما فى موعظتهم من إمكان.

يقول الحكيم الوثنى: "هذا رأس الحكمة.. لا تجزع لشىء"، وذلك عين رأى كلير، ولكنه جازع، ويقول المسيح: "لا يدخل القلق قلبك، ولا يدخله الخوف"، وعلى ذلك كان كلير يوافق من صمم الفؤاد، ولكن القلق كان فى قلبه، وكم ود لو استطاع مواجهة ذينك المفكرين العظيمين، وأن يناشدهما مناشدة الإنسان الإنسان أن يدلاه على طريقتهما! ثم تحولت حالته إلى عدم مبالاة مقيم حتى توهم أنه ينظر إلى وجوده نظرة الغريب الذى لا شأن له به، وأمضه أن مرجع كل تلك الكارثة هو انتماؤها إلى آل دربرفيل، فما باله حين علم بانحدارها من تلك السلالة المنحلة لا من الطبقة الناهضة كما كان يظن بادئ ذى بدء، لم يهجرها متجلدًا هجرًا جميلاً وفاءً لمبادئه؟ لقد صار إلى ما صار إليه لخيانته تلك المبادئ، وإنه لأهل لذلك العقاب.

ثم غلبه العياء وتولته الحيرة، واشتدت حيرته حين توهم أنه لم ينصف تس، وكلما تصرمت الساعات واستعرض الحوافز التى كانت تحفزه إلى كل ما عمل فى الأيام الماضية، يتجلى له كيف أن فكرة حيازة تس تحفةً عزيزة، كانت مختلطة بكل مشروعاته وأقواله وأفعاله.

حتى لاحظ فى بعض مطافه إعلانًا أحمر أزرق فى بعض الضواحى، يشيد بما فى إمبراطورية البرازيل من متسع للمزارع المخاطر، وكانت الأرض هنالك معروضة فى شروط سخية جدًا، ورأى البرازيل فكرة طريفة اجتذبته، إذ لاح له إن من الممكن أن تلحق به تس هناك، ولعل التقاليد التى جعلت معاشرته إياها هنا مستحيلة لا تكون بمثل هذه الصرامة فى تلك الديار ذات المناظر والأفكار والعادات المغايرة، وبالإجمال اشتاق إلى الرحيل إلى البرازيل، لا سيما وقد كان موسم الذهاب إليها قريبًا.

وقد عاد إلى إمنستر، وتلك الفكرة فى رأسه يريد مفاتحة أبويه فى خطته، قاصدًا أن يعتذر بأوجز لفظ عن عدم استصحابه تس فى زيارته، دون أن يشعرهما بحقيقة ما كان، ولما بلغ باب الدار أضاء وجهه القمر الجديد، كما كان أضاءه القمر القديم فى باكورة ذلك اليوم الذى حمل فيه زوجه إلى مدافن الرهبان، ولكن وجهه كان اليوم أنحل؛ ولم يكن أخطر أبويه بزورته فأثار وصوله جو دار القس كما يثير الطائر الذى ينغمس فى الماء فى طلب السمك بركة هادئة، وكان أبوه وأمه فى حجرة الجلوس ولم يكن أخواه هناك، ودخل إينجل وأقفل الباب من خلفه فى سكون وصاحت أمه: "ولكن أين زوجك يابنى؟ ما أشد ما تفاجئنا!" قال: "هى فى منزل أمها مؤقتًا، وقد جئت على عجل إذ أنوى الرحيل إلى البرازيل" قالت: "البرازيل! إن جميع سكانها كاثوليك رومانيون!" قال: "أحقًا؟ لم أفكر فى ذلك".

على أن مفاجأة الفكرة وتألم أبويه لرغبته فى الذهاب إلى بلد بابوى، لم يحولا ذهنيهما طويلاً عن اهتمامهما الطبيعى بزواج ابنهما، قالت مسز كلير: "لقد وصلتنا رقعتك الموجزة منذ ثلاثة أسابيع تخطرنا بإتمام الزواج، فأرسل إليك أبوك منحة جدتك التى تعلمها، وبدهى أن حضور أى منا كان غير مرغوب فيه، لا سيما

وقد اخترت أن تتزوجها من الضيعة لا من بيت آلها حيثما كان ذلك البيت، فإن حضورنا كان يحرجك ولا يسرنا، وقد تأثر أخواك أشد التأثر، أما الآن وقد قضى الأمر فما بنا أن نشتكى لا سيما وهى ملائمة لك فى العمل الذى اخترته وآثرته على خدمة الإنجيل.. على أنى وددت لو رأيتها قبل ذلك يا إينجل أو كنت بأمرها أدرى، فإذا كنا لم نرسل إليها هدية من قبلنا فذاك لأننا لا نعرف أى الأشياء أحب إليها، ولكن يجب أن تتأكد أنه مجرد تأخير. وثق يا إينجل أنى أنا وأباك لا ننقم عليك ذلك الزواج، ولكنا آثرنا أن نستبقى حبنا لزوجك حتى نراها، وها أنت ذا لم تستصحبها وهذا غريب فماذا حدث؟".

أجاب أنهما قد آثر أن تذهب هى إلى بيت أهلها مؤقتًا ويأتى هو إلى هنا، قال: "ولا أرى ضيرًا يا أم أن أخبرك أنى كنت أنوى دائمًا أن أبقيها بنجوة عن هذه الدار حتى أشعر أن مجيئها يشرفكما، أما فكرة البرازيل فحديثة، وإذا قدر أن ذهبت فلن يكون من الحكمة مرافقتها لى، بل يستحسن أن تبقى مع ذويها حتى أعود" قالت: "أفلا أراها قبل رحيلك؟" فأجاب أنه يأسف إذ يظن ذلك متعذرًا، فقد كانت خطته الأولى كما قال أن يمتنع عن إحضارها إلى هناك زمنًا، كيلا يصادم آراءهما وشعورهما، وقد اتبع تلك الخطة لأسباب أخرى، وإذا هو رحل إلى البرازيل توا فيستطيع العودة إلى الوطن فى بحر عام، وعندها يستطيعان أن يرياها قبل أن يعاود الرحلة مستصحبًا إياها.

وجهز له عشاء على عجل، وزاد مشروعه شرحًا، وإن لم تفارق أمه خيبة الأمل التى ساورتها لعدم رؤية العروس، فقد كان شغف إينجل بتس قد أثار شغف أمه بها عن طريق عطفها الأموى، حتى انتهت إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن تنجب نازار، وأن تخرج ضيعة تلبوثيز امرأة فاتنة، قالت وهى تراقب ابنها فى تناوله طعامه: "ألا تستطيع وصفها، أنا واثقة يا إينجل أنها جميلة جدًا "فأجاب فى حماسة تحجب وراءها مرارة: "بدون ريب" قالت: "وهل هى بدون ريب طاهرة فاضلة؟"، قال: "طاهرة فاضلة طبعًا"، قالت: "إنى أتمثلها جليًا. لقد قلت منذ حين إن قوامها رشيق وبنيتها منسجمة، وإن لها شفتين قانيتين كقوس كوبيد، وأهدابًا وحاجبين سوداء، وغديرة كثة كحبل السفين، وعينين داكنتين تجمعان بين البنفسج والزرقة والسواد".

قال: "أجل يا أم"، قالت: " أتمثلها جليًا، وإذ كانت تحيا فى تلك العزلة لم تر شابًا آتيًا من العالم الخارجى حتى رأتك" قال: "هو ذاك" قالت: "ألنت حبيبها الأول؟"، قال: "طبعًا" قالت: "هؤلاء الفلاحات الساذجات ذوات الثغور الوردية والأعواد الممشوقة خير زوجات من سواهن، لا شك أنى كنت أود... طبعًا ما دام ابنى سيصير مزارعًا فمن الخير أن تكون زوجه متعودة حياة الحقول".

أما أبوه فكان أقل تساؤلاً، وحين حل وقت قراءة ذلك الفصل من الإنجيل الذى كان يقرأ دائمًا قبل صلاة المساء قال القس لزوجه: "أرى أن الأوفق ما دام إينجل قد جاء أن نقرأ الموعظة الحادية والثلاثين، بدل الفصل الذى يحل دوره اليوم"، فقالت: "بلا شك، أقوال الملك لامويل"، وكانت تعرف الإنجيل فصولاً وفقرات معرفة زوجها، واستطردت: "لقد آثر والدك يا بنى العزيز أن يتلو علينا فصل المواعظ فى امتداح الزوجة الفاضلة، ولا حاجة إلى تذكيرنا بنسبة تلك الأوصاف إلى صاحبتك، فلتحطها العناية فى كل الأمور!" واعترضت حلق إينجل غصة.

وأخذ حامل الكتاب المقدس من أحد الأركان إلى وسط المدفأة، ودخلت الخادمان العجوزان، وبدأ أبو إينجل يقرأ الفقرة العاشرة من الفصل سالف الذكر: من ذا الذى يستطيع الاهتداء إلى امرأة فاضلة؟ إن قدرها يفوق اليواقيت تلك التى تنهض والليل لا يزال ساجيًا، وتجهز اللحم لأبناء دارها، ولا تتمنطق إلا بالقوة، وبالقوة تشد ذراعيها، وتحرص أن تكون أمتعتها فى حالة جيدة، ولا تنطفئ شمعتها ليلاً، وتتعهد بيتها ولا تطعم خبز البطالة، وينهض بنوها فيباركونها وكذلك يفعل بعلها ويحمدها، لقد كانت فتيات كثيرات فضليات، ولكنك بززت الجميع".

ولما انتهت الصلاة قالت أمه: "لقد راعنى انطباق ذلك الفصل الذى تلاه أبوك العزيز من بعض وجوهه على الفتاة التى اخترت؛ فقد كانت المرأة الكاملة كما ترى امرأة عاملة، لا مكسالا ولا نبيلة النسب بل امرأة تعمل برأسها ويديها وقلبها لخير الآخرين، فأبناؤها يستيقظون ليباركوها وكذلك يباركها زوجها ويثنى عليها، وودت لو رأيتها ما دامت طاهرة نقية، فلا بد أنها من التهذيب بحيث لا

أرى غضاضة فى مقابلتها"؛ ولم يعد إينجل يطيق ذلك، واغرورقت عيناه بدموع كأنها قطرات رصاص مذاب، فحيا ذينك الطاهرين البرين اللذين يعزهما كل الإعزاز، واللذين لا يعرفان الدنيا ولا شهوة الجسد ولا وسوسة الشيطان إلا معرفة مبهمة، وانسحب إلى مخدعه على عجل.

وتبعته أمه ودقت بابه، فلما فتح إذا هى واقفة بعينين تتجلى فيهما الحيرة وقالت: "ما بالك تأوى مبكرًا هكذا؟ أراك على غير ما أعهد"، قال: "إخالك محقة يا أم" قالت: "ألأمرها هى يعنيك؟ لقد ظننت ذاك! أتغاضبتما فى تلك الأسابيع الثلاثة؟" قال: "لم تكن بيننا مغاضبة بلا اختلاف بسيط"، قالت: "إينجل! أهى فتاة صغيرة موثوق بماضيها؟" وقد هدتها غريزة الأم إلى السبب الذى يحتمل أن يؤدى إلى ذلك الغم المتمثل فى عينى ابنها، ولكنه أجاب: "هى مثال النقاء"، وقد أصر على أن يفترى تلك الفرية ولو طوحت به إلى الجحيم، قالت أمه: "إذن لا تجزع لشىء، وهيهات أن يعثر المرء على شىء أنقى من عذارى القرى البعيدات عن كل ريبة، وسوف يزول كل ما قد يقذى ذوقك المثقف من خشونة فى طباعها؛ تحت تأثير صحبتك وتهذيبك".

أحس إينجل بما فى هذا القول المصدر عن سمو نفس من سخرية فظيعة، وإن تكن غير مقصودة، وذكره ذلك بأنه قد حطم مستقبله بذلك الزواج، ولم تكن هذه الفكرة قد تبادرت إلى ذهنه مع غيرها عقب مكاشفة تس إياه، نعم كان لا يبالى كثيرًا بمصيره، ولكنه كان يحب أن يكون مصيره مشرفًا لوالديه وأخويه، أما الآن وهو يحدق فى الشمعة، فقد خيل إليه أن شعلتها تحدثه فى صمت أنها إنما صنعت لتضىء لقوم يفهمون، وأنها تكره أن تضىء وجه رجل خائب مغلوب على أمره، ولما هدأ انفعال نفسه تملكه الحنق على زوجه لتسبيبها موقفًا يحمله على التمويه على والديه، حنقًا يكاد يدفعه إلى مخاطبتها كأنها ماثلة أمامه فى الحجرة، حتى ينبعث فى الظلام صوتها المتحبب المتوسل المتعتب: وتمر على جبينه لمسة شفتيها السندسيتين، وتكاد تلفح وجهه حرارة حبها.

وكانت زوجته فى تلك الليلة التى يوسعها فيها ذمًا وإزراءً تسبح بحمده وتكبيره، ولكن كان بينهما حجاب أكثف مما يظن إينجل نفسه، وهو مغامزه الخلقية؛ فإن ذلك الشاب المثقف الطيب، الذى كان مثالاً لناشئة الأعوام الخمسة والعشرين السالفة، كان رغم محاولته الاستقلال فى الرأى فى كل الأمور، لا يزال عبدًا للعادات والتقاليد، حين فاجأه هذا الحادث فارتد به إلى التعاليم الأولى التى غرست فيه صغيرًا، ولم يكن نبى قد أخبره – ولا كان هو نبيًا فيخبر نفسه – أن تلك الزوج خاصة لم تكن أقل استحقاقًا لثناء الملك مانويل، من أية امرأة أخرى فطرت على ما فطرت عليه من مقت الرذيلة، إذ يجب أن تقاس منزلتها من الفضيلة لا بما انتهت إليه بل بما تميل إليه، هذا إلى أن القريبة الدانية تبوء باللوم فى مثل هذه الأحوال، لأن نقصها يلوح للعين عاريًا، على حين تفوز البعيدات بالتمجيد، إذ يحـــول البعد وصماتهن محاسن فنية، وقد راح إينجل يتأمل فيما لم تكنه تس قط، ناسيًا ما كانته فعلاً وناسيًا أن الغلو فى النظر إلى العيب ربما جعل العيب الجزئى يغطى على الكل.

٤٠

كانت البرازيل موضوع الحديث على مائدة الفطور، وكان الجميع يحاولون أن يستبشروا خيرًا بمشروع إينجل فى تلك الأرض، رغم الأوصاف المثبطة التى عاد بها بعض الزراع الذين هاجروا إليها فلم يطيلوا البقاء بها أكثر من عام، وبعد الفطور هبط إينجل البلدة يصفى بعض أعماله هناك، وليسحب من المصرف المحلى كل رصيده هناك، وفى عودته قابل مس ميرسى تشانت واقفة بجانب الكنيسة كأنها جزء بارز من جدارها، وكانت تحتضن حملاً من الأناجيل لتلميذاتها، وكانت لتلك الفتاة نظرة إلى الحياة تجعلها تبتسم غبطة لبعض الأحداث التى تتفطر لها قلوب الآخرين، وربما كانت جديرة أن تحسد على ذلك، ولكن إينجل كان يرى أن نظرتها تلك إلى الحياة كانت تضحى بالإنسانية على مذهب التصوف.

وكانت قد علمت أنه ينوى مغادرة إنجلترا، وأعربت عن إعجابها بالمشروع واستبشارها به، قال: "نعم، هو مشروع جلى المزايا الاقتصادية، ولكنه يا عزيزتى ميرسى يجذ الحياة جذا، ولعل الحياة فى صومعة خير لى منه"، قالت: "صومعة! إينجل كلير!" قال: "ماذا؟" قالت: "إن لفظة الصومعة تُوحى إلى الذهن لفظة الراهب، والراهب يذكر بالكاثوليكية الرومانية"، قال: "والكاثوليكية الرومانية تُوحى بالخطيئة، والخطيئة تُوحى باللعنة، وإنك لفى مرتع وخيم يا إينجل كلير!" فأجابت فى صرامة: "أما أنا فأفخر ببروتستانيتى"، وعندها تملكت إينجل – لشدة ما كان يقاسى من آلام – إحدى تلك النزعات الشيطانية التى يسىء فيها المرء بنفسه إلى تعاليمه، فجذبها وهمس فى أذنها بأخبث ما أوحاه إليه الشيطان من آراء معطلة، ولم يكف عن القهقهة حيال أمارات الجزع التى بدت على وجهها الفضى، حتى تحول ذلك الجزع إلى تألم له وإشفاق على مصيره، قال: "معذرة يا عزيزتى ميرسى، يخيل إلى أنى أجن".

وكذلك كان يُخيل إليها هى؛ وهكذا انتهت المقابلة ودخل كلير دار أبيه، وكان قد أودع المصرف المحلى الجواهر حتى يجيء زمان أسعد، وأودع المصرف أيضًا ثلاثين جنيهًا تُرسل إلى تس بعد شهور حسب حاجتها، وكتب إليها بعنوان والديها فى بلاكمور يُخبرها بما فعل، وكان يأمل أن يكفى هذا المبلغ – مضافًا إلى المبلغ الذى نقدها وكان يناهز الخمسين جنيهًا – لحاجاتها فى الوقت الحاضر، لا سيما وقد طلب إليها إذا عنت حاجة حازبة أن تكتب إلى أبيه، وقد آثر ألا يخبر أبويه بعنوانها لئلا يتصلا بها، وإذ كانا على جهل بالسبب الحقيقى الذى أوقع الجفوة بين الزوجين، لم يقترح أحدهما عليه أن يترك عنوانها لديهما، وغادرهما فى بحر النهار يريد أن ينجز على عجل ما بقى من أعماله. ورأى أن أول واجب أن يؤديه قبل مغادرة هذا الجانب من إنجلترا، أن يزور ضيعة ولبردج حيث قضى مع تس الأيام الثلاثة التالية لزوجه، وكان لم يدفع بعد إجارتها الضئيلة ولم يسلم مفاتيح الحجرات التى شغلاها، وكانا قد تركا هناك أشياء قليلة فأراد إحضارها، لقد شهدت تلك الدار وقوع أكبر كارثة نشرت ظلها الحالك على حياته، ولكنه ما كاد يفتح باب حجرة الجلوس وينظر فيها حتى كانت أول ذكرى عاودته، ذكرى وصولهما السعيد فى عصر يوم كيومه هذا، وذكرى الشعور اللذيذ بالتشارك لأول مرة فى المسكن، وذكرى أول أكلة مشتركة، وحديثهما بجانب النار ويداهما متشابكتان.

وكان صاحب الضيعة وأبناؤه ساعة وصول إينجل فى الحقول، فظل فى الحجرات وحده حينًا، وقد ثارت فى نفسه عواطف لم يستجلها بعد، وصعد إلى الطابق العلوى، إلى مخدعها الذى لم يصبح قط مخدعه، وكان الفراش ممهدًا كما رتبته بيديها يوم الرحيل، وغصن الميسلتو معلقًا تحت الكلة كما علقه بيده، وكان بعد تلك الأسابيع الثلاثة أو الأربعة قد بدأ يحول لونه وتذبل أوراقه وحبوبه، فانتزعه إينجل وسحقه ورماه فى موضع النار، ووقف برهة وساءل نفسه لأول مرة إن كان قد سلك فى ذلك الأمر كله مسلكًا حكيمًا بله كريمًا، ولكن ألم يُمَوَّهْ عليه؟ ثم جثا بجوار الفراش مبتل الجفون، ونفسه تجيش بمتضارب العواطف، وغمغم فى مضض: "تس! لو أنك أخبرتنى قبل ذلك لغفرت لك!"

وسمع وقع خطى فى أسفل فنهض ومشى إلى رأس السلم، فإذا فى أسفله امرأة لم تكد ترفع رأسها حتى تبين وجه (إيزهيوت) السوداء العينين، قالت: "مستر كلير: لقد جئت أزورك أنت ومسز كلير، وأستفهم إن كنتما بخير، وقد حدست أنكما تعودان إلى هذا المكان"؛ تلك كانت فتاة قد عرف سرها ولم تعرف سره، فتاة شريفة تحبه، كان فى استطاعتها أن تماثل تس أو تقاربها نفعًا له فى حياة الفلاحة، قال: "أنا هنا وحدى، فنحن لا نعيش هنا الآن"، وأخبرها بسبب مجيئه ثم قال: "أى طريق تسلكين فى عودتك؟" قالت" لست أقيم فى تلبوثيز الآن يا سيدى"، قال: "ولم؟" فأطرقت وقالت: "هجرت ذلك المكان بعد أن لم أطق كآبته، والآن أقيم على كثب من هذا المكان"، وأشارت إلى اتجاه مضاد، وهو الاتجاه الذى سيأخذه فى عودته.

قال: "فهل أنت عائدة الآن؟ يمكننى أن أحملك إن كنت تريدين الركوب" فتوردت بشرتها الزيتونية وقالت: "شكرًا يا مستر كلير"، وسرعان ما اهتدى إلى صاحب الدار وسوى معه أمر الإيجار، وغيره من الشروط التى وجبت تسويتها بسبب مغادرته المسكن قبل الميعاد المحدد، وعاد إلى عربته وقفزت إيز بجانبه وانطلقا، وقال لها: "سوف أغادر إنجلترا يا إيز وأذهب إلى البرازيل"، قالت: "وهل توافق مسز كلير على مثل هذه الرحلة؟" قال: "لن تذهب معى فى الوقت الحاضر، بل تتخلف نحو عام وأذهب أنا أولاً للاستطلاع وتعرف الحياة هناك".

وواصلت العربة عدوها بهما شرقًا مسافة، دون أن تعقب إيز بكلمة، حتى سألها: "وكيف حال الأخريات؟ كيف رتى؟" قالت: "لقد كانت فى حالة عصبية حين قابلتها للمرة الأخيرة، نحيلة غائرة الخدين مهيضة القوى، وهيهات أن يصبو إليها أحد بعد اليوم"، قالت ذلك فى شبه غيبوبة، وقال كلير: "وماريان؟" فخفضت صوتها قائلة: "ماريان تدمن الشراب"، قال: "أحقًا؟" قالت: "أجل، وقد طردها صاحب الضيعة"، قال: "وأنت؟" قالت: "أنا لا أشرب، ولا قواى بالمهيضة، ولكن لم أعد أحسن الغناء قبل الفطور"، قال: "كيف؟ ألا تذكرين كيف كنت تجيدين هذا الصوت: (قد كان ذلك فى جنات كيوبيد)، وصوت: (سراويلات الخياط) إذ تنشدينهما ساعة حلب الصباح؟" قالت: "بلى، لقد كان ذلك أول قدومك يا سيدى، لا بعد إقامتك هناك زمنًا"، قال: "فلم نبذت الغناء بعد ذلك؟".

فأجابت بأن رفعت إليه عينيها السوداوين لحظة، قال: "إيز! ما أضعفك! ألمثلى تصبين؟" وغاب فى تأمله ثم عاد يقول: "ولنفرض أنى سألتك الزواج؟" قالت: "إذا كنت أجيبك إليه وكنت تتزوج امرأة تحبك!" قال: "أحقًا؟" قالت: "بلا ريب". قالتها فى حماسة واستطردت: "ألم يخطر لك ذلك قبل اليوم؟" وبعد قليل بلغا طريقًا متشعبًا من الطريق العام يؤدى إلى قرية فقالت فجأة: "ينبغى أن أترجل هنا، فإنى أسكن فى هذه الناحية" ولم تكن قد تكلمت منذ صارحته بما صارحته، فكفكف كلير الحصان وقد بلغ منه الحنق على عثار جده، وتملكته النقمة على الأوضاع الاجتماعية التى أقحمته مقحمًا لا يرى لنفسه منه مخرجًا مشروعًا، فلم لا يثأر من المجتمع بأن يحتط لنفسه حياة زوجية إباحية، بدل أن يقبّل كف التقاليد التى خدعته تلك الخدعة؟

قال: "إيز أنا ذاهب إلى البرازيل وحدى، وقد اختلفت مع زوجى لأسباب شخصية، لا بسبب الرحلة، وقد لا أعاشرها بعد اليوم، وربما لم أستطع أن أحبك، ولكن هل لك فى المجيء معى بدلاً عنها؟" قالت: "أتريدنى حقًا أن أجيء؟" قال: "نعم، وقد قاسيت من التحيف ما يدفعنى إلى طلب العزاء، وأنت على الأقل تحملين لى حبًا مبرءًا"، فصمتت برهة ثم قالت: "نعم، أجيء"، قال: "تفعلين؟ أتدرين مغزى ذلك؟" قالت: "مغزاه أن أعاشرك ما أقمت هناك، وفى هذا كفاية لى"، قال: "تذكرى أنك لن تستطيعى الآن الاعتماد على مكارم أخلاقى، وينبغى على أن أذكرك أن المدينة ستعد هذا بغيًا، أعنى مدينة الغرب"، قالت: "لا أبالى هذا ولا تباليه امرأة برح بها الوجد ولم تجد حولاً" قال: "لا تترجلى إذن وابقى مكانك".

وواصل طريقه بعد ملتقى الطرق قاطعًا ميلاً فميلا دون أن يظهر بمظهر ودى، ثم سألها فجأة: "أتحبيننى جدًا جدًا يا إيز؟" قالت: "نعم، وقد أخبرتك بذلك وقد أحببتك طول مقامنا بالضيعة"، قال: "أكثر من تس؟" فهزت رأسها وغمغمت: "لا، لن يعلو حبى على حبها"، قال: "كيف؟" قالت: "لن يستطيع أحد أن يحبك فوق حب تس إياك، فقد كانت لا تتردد فى تضحية نفسها فى سبيلك، ولن أستطيع أن أفعل شيئًا يفوق ذلك"، ولربما ودت إيز فى موقفها ذاك لو نكبت عن قول الصدق كما فعل نبى اليهود على رأس بيؤور، ولكن افتتان طبعها الساذج بنفس تس المهذبة أجبرها على أن تشهد بالفضل.

وصمت كلير وقد خفق قلبه لدى سماع تلك الكلمات الصريحة من حَكَمٍ نزيه، واعترض حلقه معترض كأنه زفرة تحجرت، وتردد فى أذنيه قولها: "كانت لا تتردد أن تضحى بنفسها فى سبيلك، ولن أستطيع أن أفعل شيئًا يفوق ذلك"، وأخيرًا حول عنان الحصان وقال: "انسى ما كان بيننا من هراء، فإننى لم أدر ما كنت أهرف به، وأنا عائد بك إلى رأس الطريق المؤدية إلى قريتك"، قالت: "أهذا جزاء صراحتى فى جوابك؟ كيف أحتمل هذا؟ كيف؟" وانخرطت باكية لاطمة جبينها إذ تبينت سوء ما صنعت؛ قال: "أتندمين على إنصاف ضئيل جدت به على امرأة غائبة؟ لا تفسديه يا إيز بالندم!" واستعادت جأشها رويدًا رويدًا، قالت "حسن يا سيدى، لعلى أنا أيضًا لم أكُ أدرى ما أهرف به حين وافقت على الذهاب، وإنى لأود... ما لا سبيل إليه!" قال: "لأن لى زوجًا محبة دونك!" قالت: "نعم، نعم".

وبلغا منشعب الطريق الذى جاوزاه منذ نصف ساعة، وقفزت هابطة وصاح بها: "إيز! ناشدتك إلا ما تناسيت فجورى العارض! ما كان أسفهه وأقبحه!" قالت: "أتناساه؟ هيهاتُ هيهات! لم يكن ذلك فجورًا فى نظرى!"، وشعر كلير بشدة استحقاقه لما كانت صيحتها المتفجعة تحمل فى طياتها من تقريع، ووثب هابطًا، والحزن ينهب نفسه وأخذ يدها قائلاً: "إيز لنفترق صديقين على كل حال! أنت لا تعلمين مقدار ما قاسيت!"، وكانت فى الحق فتاة كريمة الطبع، فلم تفسد وداعهما بالإصرار على التمادى فى السخط، قالت: "أنا غافرة لك يا سيدى".

قال وهو واقف بجانبها يحمل نفسه قسرًا على ارتداء مسوح الناصح المشير، وإن لم يشعر فى صميم نفسه بذلك قط: "والآن أريدك يا إيز أن تنصحى ماريان متى رأيتها أن تستقيم ولا تنقاد للحماقة، عدينى بذلك، وأخبرى رتى أن فى الدنيا رجالاً هم أفضل منى، وأن عليها إن أرادت إرضائى أن تسلك مسلك الحكمة والسداد، تذكرى ذلك جيدًا.. فلتسلك مسلك الحكمة والسداد إرضاءً لى، إنى أبعث إليها بهذه الرسالة كما يبعث رجل هالك إلى هلكى، فإنى لن أراها بعد اليوم، وأنت يا إيز لقد أنقذتنى – بكلماتك النزيهة عن زوجى – من نزعة طائشة نحو الحمق والخيانة، وربما رأيت من النساء فاجرات ولكنهن لا يبارين الرجال فجورًا فى هذا الباب! ولن أنسى لك هذا الصنيع أبدًا، وتابعى حياة النقاء والنزاهة التى حييتها حتى اليوم، واذكرينى حبيبًا لا خير فيه، ولكن صديقًا يعتمد عليه".

فوعدت قائلة: "رعاك الإله وباركك يا سيدى، وداعًا"، وانطلق، ولكن لم تكد إيز تنعطف فى الطريق ويغيب عن بصرها، حتى ارتمت على قارعة الطريق فى نوبة من الألم تمزق أحشاءها، وفى مساء ذلك اليوم دخلت منزل أمها بوجه شاحب هزيل فى ساعة متأخرة ولم يدر أحد قط كيف قضت إيز تلكِ الساعات السوداء بين انصراف إينجل كلير ووصولها إلى دار أمها. أما كلير فكان الحُزن بعد ذهابها ينهب نفسه ويرعد شفتيه، ولكنه لم يكن حزنًا على إيز، ولم يكن بينه إلا قيد شعرة وبين تحويل اتجاهه إلى أقرب محطة، واجتياز ذلك الفقار العظمى الممتد فى ظهر وسكس الجنوبية، والذى يفصل بينه وبين موطن صاحبته تس، ولم يصدده عن ذلك احتقار لطبعها ولا ظنه بما كان يخالجها إذ ذاك من شعور.

إنما صده شعوره بأن الحقائق لم تتغير، رغم أكيد حبها الذى أكده اعترف إيز، وإذا كان على حق فى بادئ الأمر فلا يزال على حق، وكان السبيل الذى اختاره من الخطورة بحيث كان مدفوعًا إلى الاستطراد فيه إلا أن تحوله قوة أعظم وأطول أمدًا من تلك القوة التى أثرت فى شعوره فى ذلك اليوم، وحدث نفسه بأنه مستطيع متى شاء أن يؤوب إليها سريعًا، واستقل القطار تلك الليلة إلى لندن، وبعد خمسة أيام صافح أخويه مصافحة الوداع على ميناء الإبحار.

٤١

فلندع حوادث الشتاء سالفة الذكر، إلى يوم من أيام أكتوبر، بعد افتراق كلير عن تس بزهاء ثمانية أشهر، فإذا الأخيرة فى ظروف جديدة.. نراها بدل أن تكون عروسًا مثقلة بالصناديق والحقائب يحملها لها الحمالون، امرأة شريدة ذات سلة وميثرة تحملهما بنفسها، كما رأيناها من قبل حين لم تكن عروسًا بعد، ونراها بدل أن تتمع بالدخل المعتدل الذى تبرع به زوجها لراحتها خلال فترة محنتها، لا تملك إلا كيس نقود هزيلاً.

وكانت بعد أن غادرت مسقط رأسها مارلت مرة أخرى، قد قضت الربيع والصيف دون أن تجهد بدنها كثيرًا، إذ كانت معظم ذلك الوقت تخدم خدمة خفيفة غير منتظمة فى ضيعة ألبان قرب (وبورت بريدى) غربى وادى بلاكمور، على بعد من موطنها ومن تلبوثيز جميعًا، وكانت تفضل ذلك على العيش مما رتب لها، وقد ظل فكرها فى أسن تام، وزادها ذلك العمل الرتيب الآلى أسنا، وكان كل تفكيرها متجهًا إلى تلك الضيعة الأخرى وذلك الفصل الآخر، فى صحبة ذلك المحب المراعى الذى عرفته هناك، ذاك الذى لم تكد تضع يدها عليه للاستئثار به، حتى غاب كأنه طيف فى رؤيا.

ولم يستمر العمل فى الضيعة إلا ريثما بدأ اللبن يشحِ، فإنها لم تكن قد وفقت إلى عمل دائم كما فعلت فى تلبوثيز، بل كانت تؤدى أعمالاً إضافية. على أن فصل الحصاد كان قد بدأ، فلم يكن عليها إلا أن تنتقل من المرج إلى الحقل لتجد مجالاً جديدًا للعمل إلى آخر الفصل، ولم تكن قد صرفت بعد إلا القليل من الجنيهات الخمسة والعشرين التى بقيت معها من هبة كلير، بعد أن أعطت النصف الآخر لقومها تعويضًا عما ألحقت بهم من مهانة وكبدتهم من نفقة؛ ولكن الأمطار هطلت أيامًا اضطرت أثناءها إلى الإنفاق من جنيهاتها، وكانت تكره أن تدعها تذهب وهى التى وضعها إينجل فى يدها، بعد أن أتى بها جديدة براقة من المصرف لأجلها خاصة، وكانت تحس أن لمسه تلك الجنيهات قد أحالها إلى تذكارات منه وكأن تلك

الجنيهات لم يكن لها ماض سوى تداولها بين إينجل وبينها، وكانت تحس أن إنفاقها أشبه بالتفريط فى التحف، ولكنها اضطرت إلى صرفها وخرجت الدنانير من يدها واحدًا فواحدًا.

وكانت بالضرورة ترسل عنوانها إلى أمها من وقت إلى آخر، ولكنها كتمت عنها ضيق ذات يدها، حتى أتاها كتاب من أمها وقد أوشكت صبابة مالها أن تنفد تخبرها بأنهم فى عسر شديد، وأن أمطار الخريف قد نفذت من قش السقف الذى كان فى أمس حاجة إلى الترميم، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ترميمه لأنهم لم يدفعوا ثمن تسقيف الدار من قبل، وأنهم فى حاجة إلى إصلاح السقف الأعلى وجوانبه المنحدرة، وتبلغ نفقات كل ذلك عشرين جنيهًا، وتسألها أمها أتستطيع أن تمدهم بذلك المبلغ، حيث إن زوجها موسر ولا بد أنه قد عاد. وكانت تس ترقب وصول ثلاثين جنيهًا من مصرف إينجل، فلم تكد تتسلمها حتى أرسلت العشرين المطلوبة، إذ تجلى لها سوء حالة أهلها، وأنفقت بعض ما بقى بيدها فى شراء ثياب للشتاء، ولم تستبق إلى قدرًا لا يذكر تدخره لفصل البرد المقبل.

ولما أفلت من يدها آخر جنيه تذكرت قول إينجل إن لها أن تلجأ إلى أبيه إذا احتاجت إلى مزيد، ولكنها كانت كلما فكرت فى تلك الخطوة زادت إحجامًا عنها، وأبت لها رقة شعورها أو كبرياؤها أو خجلها الأحمق أو سمه ماشئت أن تبوح لأبوى كلير بحاجتها إلى المال بعد ما ترك لها زوجها من مال وفير، كما أبى لها خجلها وكبرياؤها من قبل أن تكاشف أبويها باتصال الجفوة بينها وبين زوجها وكانت ترجح أن أبوى كلير يحتقرانها من بادئ الأمر، فكيف بها إذا أتتهما مستجدية؟ ومن ثم لم تستسغ قط أن تكاشف القس بخلتها.

وحدثتها نفسها بأن نفورها من مراسلة والدى زوجها ربما تناقص بمرور الزمن، أما نفورها من مراسلة والديها فلم يزدد إلا شدة، وكان والداها يوم غادرت بيتهما بعد زيارتها القصيرة عقب زواجها يتوهمان أنها ذاهبة للحاق بزوجها ولم تكن منذ ذلك الوقت قد حاولت زعزعة اعتقادهما بأنها تنتظر فى أتم راحة يوم عودته، وكانت تتعلق بالأمانى راجية ألا تطول زيارته للبرازيل ثم يعود لاستلحاقها

أو أن يكتب إليها أن تلحق به، وبالجملة كانت ترجو أن يظهرا عما قريب متحدى الشمل أمام أسرتيهما وأمام العالم، كانت تتشبث بذلك الأمل وتستكثر على نفسها أن تصارح أبويها بأنها – وقد كشفت غمتهما – تعيش زوجًا مهجورة تقتات من كد يديها، بعد ضجة ذلك الزواج الذى قدَّرا له أن يمحو أثر العثرة الأولى؛ وتذكرت الجواهر، ولم تكن تعلم أين أودعها كلير، ولم يكن يهمها أن تعلم ما دامت لا تملك حق بيعها، وحتى لو كانت تملكها مطلق الملكية، كانت تأنف أن تستغل امتلاكها إياها امتلاكًا قانونيًا، على حين لم تكن تلك الجواهر فى حقيقة الأمر جواهرها.

ولم يكن زوجها فى نفس الوقت بنجوة من عنت الخطوب، وإنما كان طريح الفراش يقاسى آلام الحمى فى تلك الأراضى الطميية قرب (كوريتيبا) فى البرازيل بعد أن نال منه البلل فى بعض الزوابع المرعدة، وامتحنته مشاق أخرى، وكان شأنه فى ذلك شأن جميع الفلاحين والعمال الإنجليز، الذين استدرجتهم فى ذلك العهد وعود حكومة البرازيل، وغرر بهم القول الكاذب بأن تلك الأجسام التى مارست الحرث والزرع على مرتفعات إنجلترا، متجلدة لتقلبات الجو الذى ولدت فيه، تستطيع أن تقاوم بنفس الجلد كل ما تفاجئها به سهول البرازيل من جواء.

ولنعد إلى تس: فإنها حين أنفقت آخر جنيهاتها لم يمددها أحد بغيرها، وكان من العسير أن تحصل على عمل فى ذلك الفصل المطير، وأحجمت عن طلب عمل منزلى لجهلها بندرة الذكاء والنشاط والصحة والرغبة فى العمل فى أى فرع من فروع الحياة، ولرهبتها المدن والبيوتات الكبيرة وذوى اليسار وآداب العلية وعادات غير بنى الأرياف، فقد حاق بها بلاؤها الأسود من جانب أولئك العلية؛ وربما كان المجتمع خيرًا مما علمتها تجربتها المحدودة، ولكن لم يكن لديها على ذلك برهان، وكانت غريزتها فى تلك الظروف تدفعها تحاشى تلك المخاطر.

واستغنت عنها الضياع الصغار فيما وراء (بورت بريدى)، التى عملت فيها حالبة إضافية، وكان الأرجح أن يقبلها صاحب ضيعة تلبوثيز شفقة بها إن لم تكن به حاجة إليها، ولكنها لم تكن تطيق العودة إليها رغم ارتياحها مدة إقامتها بها، إذ لم يكن بها جلد على تحمل الفرق الهائل بين العهدين، كما أن عودتها ربما جرت

على زوجها ملامة اللائمين، هذا إلى أنها لم تكن لتطيق رثاء الآخرين لها وتهامسهم بشأن حالتها الشاذة، وإن لم يهمها كثيرًا أن يعلم بقصتها كل فرد هناك على حدة، ما دامت تلك القصة تبقى منعزلة فى كل ذهن بمفرده، أما تبادل الأحاديث فى شأنها فكان يمضها مضضا شديدًا، وكانت تس لا تعرف تعليلاً لتفريقها ذاك بين الأمرين إنما كانت تعلم أنها تفرق بينهما وكفى.

وكانت الآن فى طريقها إلى مزرعة فوق مرتفع من الأرض وسط الإقليم، زكتها لها ماريان فى كتاب شرود جاءها منها، وكانت ماريان قد علمت بطريق ما أن تس انفصلت عن زوجها، ولعل إيزهيوت هى التى أخبرتها، فلم تتوان الفتاة الطيبة فى إخبارها أنها هى نفسها كانت قد ذهبت إلى ذلك المرتفع بعد مغادرتها تلبوثيز، وأنها تود رؤيتها هناك حيث يحتاج العمل إلى أيد جديدة، إذا كان صحيحًا أنها عادت إلى العمل.

ولما تقاصر طول الأيام بدأ أمل تس فى صفح زوجها يزايلها، وراحت تضرب فى الأرض كأنها وحش هائم على غير هدى، كلما تقدمت خطوة تقلصت علاقتها بماضيها الحافل وطمست شخصيتها، لا تبالىّ أن يعرض من الحوادث والصدف ما يكشف عن مقرها لمن يهمها أمرهم من أجل سعادتها، وإن لم تهمهم هى فى سعادتهم، وكان من أكبر الصعوبات التى تعترضها فى موقفها ذاك ما يثيره حضورها من انتباه، لما يرتسم عليها من هيئة امتياز اقتبستها من كلير وأضافتها إلى جاذبيتها الطبيعية، ولم تكن نظرات الاهتمام تلك تكربها طالما بقيت عليها ثياب الزفاف، حتى اضطرت إلى استبدال شملة العاملة بتلك الثياب، فسمعت مرارًا قبيح الخطاب، ولكن لم يحدث ما يخيفها على نفسها حتى كان عصر أحد أيام نوفمبر.

كانت آثرت الإقليم الممتد غربى نهر (بريت) على المرتفع الذى هى شاخصة إليه الآن لأنه كان أقرب إلى مسكن أبى زوجها، وكان يسرها أن تحوم حول ذلك الحمى غير معروفة، وفى نفسها أنها ربما زارت مسكن القس يومًا، أما الآن وقد عولت على أن تيمم المرتفعات الجافة، فقد ارتدت شرقًا سيرًا على قدميها صوب قرية (تشوك نيوتن)، حيث كانت تعتزم قضاء الليلة، وكانت الطريق طويلة

متشابهة، ولسرعة تقاصر الأيام دهمها المساء من حيث لا تشعر، وقد بلغت قمة تل تنحدر عنه الطريق متعرجة كالثعبان لائحًا منها لمحات على بعد، وإذا هى تسمع خطى على أثرها ثم لحق بها رجل حازاها وقال: "عمى مساء يا حسنائى"، فأجابته فى أدب.

وكان الضوء المتخلف فى السماء ينير وجهها وإن غشى الظلام وجه الأرض، والتفت الرجل يحدق فيها ثم قال: "ياالله! هذه هى الساحرة الصغيرة التى كانت تقيم زمنًا فى ترنتردج، هذه صاحبة الشاب النبيل دربرفيل، لقد كنت مقيمًا هناك إذ ذاك، وإن كنت لا أقيم هناك اليوم"، وعرفت فيه تس ذلك الجلف البادى اليسار الذى صرعه إينجل بباب النزل لتوقحه عليها، ولم تجب فعاد يقول: "كونى صريحة وأقرى أن ما قلته فى ذلك اليوم كان صدقًا وإن أثار ثائرة صاحبك، تكلمى أيتها الخبيثة، واعتذرى لى عن تلك اللطمة التى نالنى بها "، ولزمت تس صمتها، ولم تر لنفسها المطاردة إلا مهربًا واحدًا فأطلقت ساقيها للريح فجأة، ومضت لا تلوى حتى بلغت بوابة تؤدى إلى أجمة فاندفعت فيها بلا تردد، ولم تتوقف حتى تغلغلت فى سوادها، فصارت بمأمن من الناظرين.

وكانت الأوراق جافة تحت قدميها، وكانت شجيرات دائمة الاخضرار نامية خلال الأشجار التى سقطت أوراقها، فحجبت عنها تيار الهواء، وجمعت تس الأوراق حتى جعلتها كومًا كبيرًا فى وسطه عش قبعت فيه، ونامت غرارًا، وكان يخيل إليها أنها تسمع أصواتًا غريبة، ولكنها كانت تقنع نفسها بأنها حفيف النسيم، وتصورت زوجها فى إقليم حار على الجانب الآخر من الكرة الأرضية، بينما هى هنا فى القر، وتساءلت أفى الدنيا بائسة مثلها! وتأملت حياتها المضيعة، فغمغمت: "كل ذلك غرور". وظلت تردد تلك الكلمات ترديدًا آليًا حتى بدا لها أن تلك الفكرة التى تعبر عنها الكلمات الثلاث لم تعد تصلح للعصر الحديث، فإذا كان سليمان قد ارتأى ذلك منذ ألفى عام، فإنها هى وإن لم تكن فى مصاف المفكرين قد ذهبت أبعد من مذهبه، فلو كان كل شىء غرورًا فمن ذا الذى كان يحفل به؟ إن كل شىء للأسف شر من الغرور، هو ظلم وصرامة وإرهاق وموت.

وأمرت زوج إينجل كلير يدها على جبينها متحسسة عرج حاجبها وجانبى محجريها يغشيهما جلدها الناعم وعن لها وهى تفعل ذلك أن تلك العظمة ستتعرى يومًا ما، وقالت: "وددت لو أنها الساعة عارية!" وبينا هى فى هذه الأوهام المشردة سمعت صوتًا غريبًا فى الأوراق، فقالت: "لعلها الريح" ولكن الريح كانت ساكنة، وكان الصوت يخفق حينا وحينا يرفرف وآنا يحكى اللهث أو الحشرجة، وسرعان ما أيقنت أن الأصوات آتية من بعض الحيوان، وازداد يقينها حين أعقب انبعاث الأصوات من الأغصان سقوط جسم ثقيل على الأرض ولو كانت تس آوية إلى ذلك المكان وادعة مسرورة لعراها الخوف، ولكنها فى حالتها تلك المنبوذة من الإنسانية لم ترع.

وأخيرًا لاح الصباح فى السماء، وبعد أن ساد النهار خارج الغابة برهة دخل الغابة ذاتها، ولما سطع الضوء عائدًا بالطمأنينة مؤذنًا بالعمل، داعيًا إلى حقائق الحياة المتحجرة، خرجت تس من فراش الأوراق، وأجالت طرفها فيما حولها فى اطمئنان، وعندها عرفت حقيقة ما سمعت: فقد كانت الأجمة تتضاءل فى ذلك الطرف وتبلغ نهايتها، وتليها من تلك الجهة أراض زراعية، ورأت تس تحت الأشجار عددًا من الدراج مخضبًا ريشها الزاهى بدمائها، وبعضها ميت وبعض يخفق بجناحه خفقًا ضعيفًا، وبعضها مشدودة الأطراف إلى السماء، وبعضها يرف رفيفًا متداركًا، وبعض متقلص الجسم وغيرها ممد، وكلها تتنزى ألمًا عدا تلك التى استراحت بانتهاء آلامها، حين بلغت الطبيعة غاية ما تحتمل.

وحدست تس توًا ما وراء ذلك، وأدركت أن تلك الطيور قد ألجأها إلى ذلك الركن جمع من الصيادين فى اليوم السابق، وجمع منها ما أصماه الرصاص وما مات قبل هبوط الظلام، على حين أفلتت أخرى مثخنة بالجراح، واختفت أو تحاملت إلى الغصون الكثيفة، حيث ظلت عالقة حتى خارت قواها بنزيف دمها أثناء الليل، فتساقطت تباعًا على نحو ما سمعت تس.

وكثيرًا ما لمحت تس أولئك الصيادين فى طفولتها، يرسلون نظراتهم من فوق الأوشعة أو من خلال الشجيرات، ويسددون بنادقهم وهم فى ثياب غريبة تبرق عيونهم ظمأ إلى الدماء، وقيل لها إذ ذاك إنهم رغم منظرهم ذلك الخشن الوحشى لم يكونوا كذاك طول العام، إنما كانوا قومًا مهذبين إلا أسابيع من الخريف والشتاء يستمرئون فيها فتك الهمج، ويولعون بإعدام الأحياء، فيغرون بتلك الطيور البريئة التى يؤتى بها إلى الحياة بوسائل مصطنعة لمجرد إرضاء تلك النوازع البعيدة عن التهذيب، بعدها عن مكارم الأخلاق، التى ينزع إليها القوم فى معاملة أشقائهم فى أسرة الطبيعة ذات العدد العديد.

وكانت لتس نفس ترحم زميلاتها فى الشقاء كما ترحم نفسها، فاندفعت تريح الطيور التى ما زالت على قيد الحياة من تباريحها، فوجأت بيديها ما استطاعت العثور عليه منها، وتركتها حيث وجدتها حتى يعود حراس طيور الصيد ليبحثوا عنها مرة أخرى على عادتهم؛ وقالت ودمعها يجرى على خديها وهى تقتل الطيور فى رفق: "وارحمتاه لكن! أأعد نفسى أتعس مخلوقة فى العالم وأنتن حيالى؟! مع أنى لا أشعر بأى ألم جثمانى ولست بالمثخنة ولا الدامية، ولى يدان أكتسب بهما قوتى ولباسى!"، وخجلت من القنوط الذى استولى عليها أثناء الليل، استولى عليها لغير سبب محسوس إلا شعورها بالظلم تحت قانون اجتماعى غاشم لا وجود له فى الطبيعة.

٤٢

متع النهار وتابعت تس رحلتها خارجة إلى الطريق فى حذر، ولكن لم تكن بها حاجة إلى الحذر إذ لم يكن هناك مخلوق، وواصلت سيرها وقد نزلت السكينة على قلبها، بعد أن تجلى لها من آلام الطيور الصامتة أن أسباب الشقاء تتقارب، وأن أتراحها أخف وطأة من غيرها، إذا هى استشعرت من الشجاعة ما تحتقر به آراء الآخرين، على أنها لم تكن تستطيع أن تحتقر رأى كلير.

وبلغت (تشوك نيوتن) وأفطرت فى فندق، حيث ضايقها بعض الشبان بإطراء محاسنها، على أن ذلك أثار أملها من جديد؛ إذ عن لها أن زوجها ربما عاد يقول لها مثل مقالتهم، وقد دفعها ذلك إلى الحرص على نفسها واجتناب أولئك المغازلين، ولذلك الغرض عولت على ألا تسمح بعد اليوم لطلعتها بإقحامها فى المخاطر، فلم تكد تغادر القرية حتى دلفت فى دغل واستخرجت من سلتها جلبابًا من جلابيب الحقل، عتيقًا جدًا لم تلبسه حتى فى تلبوثيز، ولم تستخرجه منذ كانت تعمل فى الحصاد فى مارلت، وخطرت لها خاطرة موفقة فأخذت منديلاً من ميثرتها ربطته حول وجهها دون قلنسوتها، فغطت ذقنها ونصف خديها وعارضيها، كأنها تعانى ألمًا فى أسنانها، ونظرت فى مرآة جيب صغيرة وقصت حاجبيها بلا رحمة بمقص صغير، وهكذا حمت نفسها إعجاب النواظر بها، ومضت فى طريقها الوعرة.

وقابلها رجلان فقال أحدهما للثانى: "ويحها من فتاة كأنها المومياء!" فاغرورقت عيناها رحمة لنفسها ولكنها قالت فى نفسها: "لست أبالى! لست أبالى وسوف أظل دميمة ما دام إينجل غائبًا وليس حولى من يرعانى، لقد ذهب زوجى ولن يعود إلى هواى، ولكنى أهواه على كل حالة، وأمقت من عداه من الرجال وأحب أن يزدرونى!" وهكذا واصلت تس سيرها وهى جزء من المنظر المحيط بها، تبدو عاملة فلاحة ساذجة فى ثياب الشتاء، عليها قلنسوة غليظة النسيج داكنة، وفى عنقها منديل صوف أحمر، وعلى جسمها ثوب خشن تغطيه شملة رمادية فاتحة، وفى يديها قفازان من جلد صفيق، وقد شحب ورق كل خيط فى تلك الثياب العتيقة تحت شآبيب المطر وشواظ الشمس وعصف الرياح.

لم تعد تدل عليها أمارة على روح شباب خفوق، بل "كان فم الفتاة باردًا ورأسها ملفعًا بالغلائل"، ولكن كان تحت ذلك المظهر الذى تجول عليه العين كما تجول على شيء لا يكاد يحس أو يعى، صفحة حياة خافقة تعلمت حق التعلم – على صغر سنها – شوائب الحياة وغرور الدنيا وقسوة الشهوة وتقلب الحب، وكان اليوم التالى مطيرًا ولكنها واصلت ضربها فى الأرض لا تكاد تحفل بعداء العناصر لها عداءً صريحًا ماضيًا لا يحابى؛ ولم يكن لديها من الوقت ما تضيعه وهى تنشد عملاً تعمله فى الشتاء ومسكنًا يؤويها، وقد خبرت من الأعمال القصيرة الآماد ما زهدها فيها.

وهكذا مشت تجاوز مزرعة بعد مزرعة، فى الاتجاه الذى أشارت إليه ماريان فى رسالتها، وكانت تنوى أن تتخذ من عملها الجديد خطوة إلى آخر أكثر مزايا، وكانت تبدأ بالسؤال عن أعمال خفيفة، فإذا يئست من أن تحصل على أى ضرب منها طلبت أعمالاً أخرى أشق؛ فكانت تبدأ بأعمال الألبان والدواجن التى تؤثرها، وتنتهى إلى العمل الجاف الذى لا تميل إليه فى الحقول، وبلغ بها السير فى مساء اليوم الثانى الهضبة الطباشيرية المموجة السطح المغطاة بكثبان قوسية الشكل كأنما (سيبيلى) ذات النهود مستلقية عليها، وكانت تلك الهضبة ممتدة بين الوادى الذى شهد ميلادها والوادى الذى شهد غرامها.

وكان الهواء هنا جافًا باردًا، وكانت طرق العربات الطويلة سرعان ما تغطيها الرياح بالبياض والغبار بعد المطر بساعات، ولم يكد يكون هناك شجر، فقد كان الفلاحون أعداء الأشجار والشجيرات والأدغال، لا يمهلون الأشجار التى تنجم فى الأسيجة إلا ريثما يحنون أعوادها ويربطونها بسلخات من النبات الشوكى ليزداد الوشيع سمكًا؛ وكانت تس ترى فى وسط المنظر الممتد أمامها تلال (بلبارو) و(نتلكوم توت) وكأنها ترحب بمقدمها، وكانت تبدو من تلك الذروة منخفضة متضعة وإن بدت لها فى طفولتها – إذ كانت تنظر إليها من بلاكمور فى الجانب الآخر – كأنها بروج فى السماء، وكانت تلمح فى الجانب الجنوبى على أميال وراء التلال والحزون الممتدة حيال الشاطئ، سطحًا كأنه الفولاذ المصقول، وكان هو القنال الإنجليزى فى نقطة متطرفة متجهة إلى فرنسا.

ورأت أمامها فى منخفض صغير بقايا قرية، وكانت قد وصلت إلى (فلنتكوم آش) مقر ماريان، وأيقنت ألا مفر من المجيء إلى هذه البقعة أخيرًا، وتبينت من التربة الصلبة المحيطة بها أن العمل المطلوب فى هذه الجهة من أشق الأعمال، ولكنها كانت فى حاجة إلى الاستراحة من نصب البحث، فعولت على التعريج ولا سيما وقد هطل المطر، وكان عند مدخل القرية كوخ ينحدر سقفه صوب الطريق، فلاذت بظله قبل أن تتقدم للسؤال عن عمل، ووقفت ترقب زحف المساء، وقالت فى نفسها: "من يظن أنى مسز إينجل كلير؟" وأحست بدفء الحائط فى ظهرها وكتفيها وأدركت أن وراءه مدفأة تنفذ حرارتها من الطوب، وراحت تدفئ يديها عليه، ثم ألصقت بسطحه المريح خدها المحمر المبلل بالرذاذ، وخيل إليها أن ذلك الحائط هو صديقها الوحيد، وكانت تكره أن تفارقه وتود لو قضت بجانبه الليل كله.

وكانت تسمع أهل الكوخ وهم مجتمعون عقب عملهم اليومى، يتطارحون الحديث وتسمع لغط أطباقهم، ولكنها لم تكن رأت فى طريق القرية أحدًا بعد حتى قطع حبل تلك الوحشة طلوع شخص امرأة ترتدى ثياب الصيف الخفيفة رغم برد المساء، وهدت تس غريزتها إلى أن القادمة ماريان، فلما قربت حتى بانت معارفها تأكدت أنها هى، وكانت بلا شك أرث ملبسًا من ذى قبل، ولم تكن تس لتميل فى أى فترة من فترات حياتها الماضية إلى تجديد معرفتها فى ظروف كهذه، ولكن وحشتها كانت بالغة منتهاها، فارتاحت إلى إجابة تحية ماريان.

والتزمت ماريان الأدب فى أسئلتها، ولكن ظهر عليها التألم لاستمرار تس فى حياة الكدح القديمة، وإن تكن قد سمعت نبأ غير مستيقن عن أمر انفصالها عن زوجها، قالت: "تس! مسز كلير! زوجة العزيز العزيزة! أبلغ بك الأمر هذا المدى يا صاحبتى؟ ما بال وجهك الوسيم ملثما هكذا؟ أضربك أحد؟ أرجو ألا يكون هو!". قالت: "لا، لا، لا، إنما صنعت هذا بنفسى لأنجو من مضايقات المعجبين"، ونزعت فى اشمئزاز ذلك الرباط الذى أوحى بتلك الظنون البشعة، قالت ماريان: "ولا أرى عليك بنيقة"، وكانت تس تلبس بنيقة بيضاء صغيرة أيام تلبوثيز، قالت: "أنا أعلم ذلك يا ماريان"، قالت: "أفقدتها فى الطريق؟". قالت: "لا، الحق أنى لم أعد أحفل بهيئتى، ومن ثم لم ألبسها".

قالت ماريان: "ولا تلبسين خاتم الزواج؟" قالت: "بلى ولكنى لا ألبسه أمام الناس، إنما هو مربوط فى عنقى بشريط، إذ لا أحب أن يعلم الناس من زوجى ولا أنى متزوجة أصلاً، فإن فى ذلك حرجًا على ما دمت أحيا على هذا النحو"، وصمتت ماريان برهة ثم عادت تقول: "ولكنك فعلاً زوج سيد ثرى، وليس من الإنصاف أن تحيى هكذا!". قالت: "بل هو من الإنصاف وإن كنت ألقى من أمرى عسرًا"، قالت: "مرحى، مرحى! فزت به هو ثم أنت من أمرك فى عسر!". قالت: "من الأزواج من يشقين وهن الملومات لا بعولتهن". قالت: "لا أراك ملومة يا عزيزتى، ولا أراه ملومًا، ولا بد أنه أمر خارج عن إرادتيكما".

قالت تس: "عزيزتى ماريان: هل لك فى اصطناع يد عندى دون إلحاف بالأسئلة؟ لقد سافر زوجى إلى الخارج وقد نفد ما رتبه لى لسبب ما، ومن ثم أنا مضطرة أن أعود إلى العمل ردحًا من الزمن، فلا تدعينى مسز كلير بل تس كما كنت تفعلين من قبل، أيحتاج أحد إلى يد عاملة هنا؟". قالت: "أجل، هم يقبلون أية عاملة تتقدم إليهم، إذ قلما يتجشم أحد مئونة القدوم إلى هنا، فهذه بقعة شحيحة لا ينمو فيها إلا القمح واللفت، وإنى إن كنت أعمل هنا ليحز فى نفسى أن أراك تأتين"، قالت تس: "ولكنك كنت عاملة ألبان لا تقلين عنى دراية"، قالت: "أجل ولكنى تدهورت منذ أدمنت الشراب، واأسفا! لقد صار هذا عزائى الوحيد، وأنت إذا انضممت إلينا عهد إليك حصد اللفت، وهو ما أعمل الآن، وإن كنت لا أخالك تستطيعين ذلك".

قالت تس: "سأعمل أى شىء فهل لك أن تفاتحيهم فى أمرى؟"، قالت: "بل تحسنين صنعًا بمفاتحتهم بنفسك"، قالت: "حسن. والآن يا ماريان لا تذكرى شيئًا من أمره إذا التحقت بالعمل، فإنى لا أحب أن ألوث اسمه"، وكانت ماريان وإن أعوزتها رقة تس فتاة وفية، فوعدت صاحبتها بكل ما أرادت، ثم قالت: "هذه ليلة صرف الأجور فإذا جئت معى علمت فورًا، إنى ليحزننى أن تشقى ولكنى أعلم أن السبب أنه على سفر، ولم تكونى لتشقى لو كان حاضرًا حتى ولو لم يمددك بمال، ولو اتخذك أمة فى داره"، قالت "صدقت!".

وسارتا معًا وسرعان ما بلغتا بيت صاحب الضيعة، وكانت تخيم عليه الوحشة، لا ترى من حوله شجرة واحدة، ولم يكن مرج فى ذلك الفصل أخضر، وليس هناك إلا الأرض البوار واللفت يغطى مساحات مترامية، تقسمها الأوشعة منحنية النباتات منكسة الهامات؛ وانتظرت تس بالباب حتى قبض العمال أعطياتهم، ثم قدمتها ماريان، ولم يكن صاحب الضيعة نفسه هناك، ولكن زوجه التى كانت تمثله فى ذلك المساء لم تمانع فى استلحاق تس، بعد أن وعدت هذه بالبقاء إلى يوم العذراء القديم، وكانت العاملات نادرات فى ذلك الوقت، وكان استخدامهن أرخص من استخدام الرجال فى الأعمال التى يتقنها إتقان الرجال.

وبعد أن أمضت العقد لم يبق أمامها إلا الحصول على مأوى، وقد اهتدت إليه فى الكوخ الذى استدفأت بجوار حائطه، وما حصلت إلا على عمل زهيد ولكنه كان يقوم بأودها ذلك الشتاء، وفى تلك الليلة كتبت تخبر أبويها بعنوانها الجديد ليحول إليها أى كتاب يرسله زوجها إلى مارلت، ولكنها لم تبح لهما بما هى فيه من ضيق، فتجر عليه لومة لائم.

٤٣

لم تغل ماريان حين وصفت (فلنتكوم آش) بالشح؛ فلم يكن بتلك المزرعة شيء سمين سوى ماريان نفسها، وهى كانت شيئًا مجلوبًا، وإذا كانت القرى على أنواع ثلاثة: تلك التى يرعاها صاحبها، وتلك التى ترعى نفسها، وتلك التى لا ترعى نفسها ولا يرعاها صاحب، أو بعبارة أخرى: تلك التى يملكها عين يقيم بها، والأخرى التى يملكها مزارعون، والثالثة التى يقيم صاحبها بعيدًا عنها ويؤجرها هى والأرض المحيطة بها - فإن فلنتكوم آش كانت من الضرب الثالث.

ولكن تس أقبلت على العمل. وقد أصبح الصبر من أكبر مميزات مسز إينجل، والصبر هو ذلك المزيج من الشجاعة الأدبية والجبن الجسدى، وكان لها خير معوان، وكان حقل اللفت الذى عهد إليها وإلى صاحبتها حصده مساحة تمتد مائة فدان، على أعلى جانب من المدرسة، وكان ذلك الجانب قائمًا على جذوع صخرية متكونة من تجمع عروق من الصوان فى بنية الطباشير، مكونة من آلاف قطع الزلط ذات الأشكال البيضاوية، والمدببة والمستطيلة، وكان النصف الأعلى من كل لفتة قد أكلته الماشية، وكان على الفتاتين أن تنبشا النصف الأسفل من الجذر بشوكة معقوفة تدعى المنبشة، كى يؤكل هذا النصف أيضًا، وإذ كانت أوراق النبات قد أكلت كان منظر الحقل كله كالحًا كئيبًا، كان لونه غير ذى معالم، كأن وجهًا يلوح - من الذقن إلى الحاجب- صفحةً من اللحم غير ذات معارف، وكانت السماء تشابه الحقل كلحًا، وإن خالفتها لونًا، فكانت فراغًا عديم المعالم، وكان هذان الوجهان الأعلى منهما والأسفل يتقابلان طول النهار، يطل مبيضهما، على أسمرهما، ويتطلع الأسمر إلى المبيض، ولا يقوم بينهما إلا الفتاتان تزحفان على سطح الأول كأنهما ذبابتان.

ولم يدانهما أحد، وكانتا تتحركان فى نظام آلى، وشخصاهما قائمان ملتفان بشملتين من الخيش مربوطتين من الخلف لتحفظا جلبابيهما من عصف الريح، يلوح من تحتهما زيق صغير من جلبابيهما، ومن تحت ذاك أحذية ترتفع إلى الركب،

وفى أيديهما قفازات من جلد الغنم تغطى زنودهما، وعلى رأسيهما قلنسوتان ذاتا حافات تبدوان فيها وهما مطرقتان كأنهما فى تفكير عميق، فكانتا تذكران من يراهما ببعض الصور التى صورها أوائل مصورى الطليان للمريمين.

واستمرتا فى العمل ساعة بعد ساعة، غير منتبهتين للمنظر الكئيب المحيط بهما، غير مفكرتين فى ظلم قسمتهما أو عدلها، فإن الحياة فى حلم ممكنة حتى فى حالتيهما، وعاد المطر يهطل بعد الظهر، وقالت ماريان إنهما غير مرغمتين على مواصلة العمل، ولكنهما إذا انقطعتا لم تنقدا أجرًا، ومن ثم آثرتا المضى فى العمل وكان ذلك الحقل من الارتفاع بحيث لم تكن الأمطار تنزل هابطة بل تندفع أفقية على متن الرياح العاوية، وتضربهما كأنها شظايا الزجاج، حتى بلغ البلل منهما، ولم تكن تس إلى الآن تعلم معنى ذلك، فللرطوبة درجات ونحن نتكلم عن أخف الدرجات فى الحديث العادى بقولنا بلغ من فلان البلل، ولكن من يقوم يعمل على مهل فى حقل وهو يحس بتحدر المطر على ساقيه وعطفيه أولاً، ثم على شفتيه ورأسه، ثم على الظهر فالصدر فالجانبين، ثم هو يمضى فى العمل، حتى يتلاشى الضوء القاتم فيدل بتلاشيه على أن الشمس قد غربت – لا بد أن يكون على حظ عظيم من الجلد والبسالة.

على أنهما لم تشعرا بالبلل بقدر ما قد يظن؛ فقد كانتا كلتاهما صبيتين وكانتا تتحدثان بالعهد الذى كانتا تقيمان فيه معًا وتحبان معًا فى تلبوثيز، تلك البقعة الممرعة السعيدة حيث كان الصيف سخى العطايا، عطاياه المادية للجميع وعطاياه الروحية لهاتين، وكانت هى تؤثر ألا تحادث ماريان فى الرجل الذى كان زوجها شرعًا وإن لم يكنه فعلاً، ولكن سحر الموضوع أغراها بالجواب على ملاحظات صاحبتها، ومن ثم قضتا عصر ذلك اليوم إلى مسائه فى ذكريات تلبوثيز الخضراء المشمسة الساحرة، رغم ضرب حافات قلنسوتيهما المبتلتين على وجهيهما ضربًا عنيفًا، والتصاق شملتيهما ببدنيهما التصاقًا مضايقًا؛ قالت ماريان: "حين يصحو الجو تستطيعين أن ترى من هذا المكان هامة تل متوج بالضياء، واقع على مدى أميال من وادى فروم"، قالت تس ونبهتها هذه الميزة الجديدة لمقرها هذا: "آه! أحقًا؟".

هكذا كانت تعمل هنا القوتان المعهودتان كما تعملان فى غير هذا الموضع..الرغبة الكامنة فى التمتع، ومعارضة الأقدار لذلك التمتع، وكانت ماريان لإرضاء تلك الرغبة تخرج من جيبها من حين إلى آخر كلما تصرمت ساعات النهار قارورة مسدودة بخرقة بيضاء، تعرض على تس جرعة منها، وكانت تس ترفض أن تنال أكثر من رشفة صغيرة، لأن قدرتها على الاستسلام للأمانى والأحلام كانت فى غير حاجة إلى معين، وعندها كانت ماريان تعب من الشراب مليًا وتقول: "لقد تعودته ولم أعد أستطيع الإقلاع عنه، فهو سلواى الوحيدة؛ لقد خسرته أنا وربحته أنت، فلعلك فى غنى عن الشراب"، وكانت تس ترى أن خسارتها لا تقل عن خسارة ماريان، ولكنها لاعتدادها ببعولة إينجل – ولو لم تزد على كونها بعولة لفظية – كانت توافق على تفريق ماريان بين حاليهما.

ظلت تس تكدح فوق هذا الأديم وسط جليد الصباح وأمطار المساء، بين نبش للفت وتنظيف له بالمخارط تمهيدًا لخزن الجذور لاستعمالها فى المستقبل؛ وكانت الفتاتان حين تشتغلان بالتنظيف تستطيعان الاستتار من الأمطار تحت قفص كبير مغطى بالقش، ولكن إذا كان الجليد منتشرًا عجزت قفازاتهما الجلدية ذاتها، عن حماية أيديهما من وخزات تلك الكتل الجليدية التى كانتا تعالجانها، ولكن الأمل لم يفارق تس، بل ظلت تعتقد أن روح إينجل العظيمة التى كانت تعدها أكبر ميزاته، ستدفعه عاجلاً أو آجلاً إلى معاودتها.

وربما استخفت ماريان نشوة حبور حين تعثر بالزلط الغريب الأشكال سالف الذكر، وتغرب فى الضحك على حين تبقى تس فى وجوم تام، وكثيرًا ما أرسلتا البصر فوق السهول إلى حيث كان يخيل إليهما أن نهر فروم يجرى، وإن لم تستبيناه، وإنما كان حسبهما أن تشدا عيونهما إلى الضباب الأغبش المخيم وتتمثلا الأيام العزيزة التى قضتاها هناك، قالت ماريان: "كم أتمنى لو تلحق بنا واحدة أو اثنتان أخريان من أترابنا، إذن كنا نمثل تلبوثيز هنا كل يوم فى الحقول، ونتحدث عنه، وعن طيب الأيام التى قضيناها هناك، وجميع الأشياء القديمة التى كنا نعهدها، ونبعث كل ذلك بعثًا جديدًا!" وبانت الرقة فى عينيها والتهدج فى صوتها حين اعتامتها تلك الرؤى، وقالت: "سأكتب إلى إيزهيوت، فإنها مقيمة فى دارها بلا

عمل، وسأخبرها أننا هنا وأطلب إليها الحضور، ولعل رتى أيضًا قد تماثلت للشفاء"، ولم تر تس بأسًا بذلك الاقتراح الذى يرمى إلى جلب أفراح تلبوثيز، وبعد أيام ثلاثة حدثتها ماريان بأن إيز أجابت واعدة بالحضور إذا أمكنها.

كان هذا الشتاء فريدًا لم يغبر له نظير منذ سنين... جاء متسللاً متأنيًا فى خطوات كأنها نقلات لاعب الشطرنج، وبدت الأشجار القلائل المفردة ونبات الأوشعة الشوكى ذات صباح كأنها قد استبدلت بلحائها جلد حيوان، إذ كان كل غصن مغطى ببياض كأنه الزغب أو الفراء قد نجم من باطن القشرة، فازداد سمكه أربعة أضعاف، بحيث بدا هيكل كل شجيرة خطوطًا بيضاء على صفحة السماء الداجنة، وبدت أنسجة العناكب على العرائش والجدران، ولم يكن أحد يرى شيئًا منها قبل ذلك حتى أظهرها تبلور الجو، فإذا هى معلقة كأنها شلات من صوف أبيض على ذبابات الجواسق والعمدان والبوابات.

وبعد هذا العمل الرطب المتجمد أقبلت فترة صقيع جاف، تواترت فيه غرائب الأطيار مقبلة فى صمت من خلف القطب الشمالى إلى هضبة فلنتكوم آش، وكانت مخلوقات عجافًا كأنها الأشباح كئيبة العيون، قد شارفت عيونها من قبل مشاهد من الهول الذريع فى أقطار القطب المترامية ترامبًا لم يتصوره إنسى، فى أجواء تجمد الدم ولا يحتملها بشر، وشاهدت تحطم جبال الجليد الطافية وانهيار تلال الثلوج فى أشعة الفجر القطبى المرسلة، وكاد يعميها تديوم الزعازع الهائلة، وتقلبات اليابس والماء.

وقد احتفظت تلك الطيور بالسيماء التى رسمتها عليها تلك المناظر، ودنت كل الدنو من تس وماريان ولكنها لم تفصح أدنى إفصاح عما شاهدت من مرئيات لن تقع عليها عين إنسان، فلم يكن يساور تلك الطيور ما يساور كل آيب من سفر من رغبة فى وصف ما رأى، وإنما طردت من مخيلتها فى صمت واستسلام تلك التجارب التى مرت بها دون أن تستطيبها، وأقبلت بانتباهها على ما هو حاضر أمامها من شئون هذه الهضبة المأهولة، من حركات الفتاتين الآلية وهما تزيحان الفلاع بمنبشتيهما كى تكشفا شيئًا يعده هؤلاء الأضياف طعامًا مريئًا.

ثم سادت جو هذا الإقليم العالى حالة عجيبة ذات يوم، إذ عمه بلل لم ينجم عن المطر، وبرد لم ينشأ من الصقيع، حتى تجمدت أحداق الفتاتين واقشعر جبيناهما ونفذ البرد فى عظامهما، حتى بلغ من هيكلى جسميهما ما لم يبلغ من جلديهما، فأدركتا أن الثلج قادم، وقدم الثلج ليلاً، وكانت تس لا تزال تسكن الكوخ الدافئ ذا السقف المثلث، الذى يرتاح بجواره كل عابر سبيل مجهد، وقد انتبهت ليلاً على أصوات فوق السقف تدل على أنه قد استحال إلى ملعب لأشتات أنواع الرياح، ولما أشعلت شمعتها صباحًا ساعة هبوبها من الفراش وجدت أن الثلج قد نفذ من ثغرة فى النافذة، مكونًا فى الداخل مخروطًا أبيض من مسحوق دقيق جدًا وقد نفذ أيضًا من المدخنة وانتشر على أرض الحجرة بعلو الكعب، وتركت فيه نعلاها أثرًا حين وطئته، وفى خارج الحجرة رأت تس أن العاصفة كانت من العنف بحيث أثارت فى المطبخ ضبابًا من الثلج، أما فى الخلاء فكان الظلام لا يزال شاسلاً لا تستبين العين فيه شيئًا.

وأدركت تس أن من المحال متابعة العمل فى محصول اللفت، ولم تكد تفرغ من فطورها بجانب المصباح الصغير الوحيد حتى جاءت ماريان تخبرها أن عليهما أن تنضما إلى النسوة الأخريات اللائى يقمن بضم عيدان القمح فى البيدر؛ حتى يعتدل الجو، ومن ثم أطفأتا المصباح حالما استحال لون شملة الظلام المنشورة فى الخارج من سواد حالك إلى مزيج مشوش من الألوان السنجابية، والتفتا باسمك مآزرهما ووضعتا شاليهما الصوفين حول عنقيهما فوق صدريهما، وانطلقتا إلى البيدر.

كان الثلج قد تبع الطيور من مقره القطبى فى سحابة بيضاء كأنها العمود، تحوم حولها فزعات مشتتة، وكان يستروح من الزوبعة أنها قادمة من جبال الثلج الطافية، ومن البحار القطبية مواطن الحيتان والدببة البيضاء، تحمل ثلجًا تلعق به وجه البلاد دون أن يتراكم عليه؛ وتقدمت الفتاتان مجتهدتين وجسداهما محنيان تجتازان الحقول الملساء تحتميان ما استطاعتا بأسيجتها التى لم تكن إلا مصافى لا أستارًا، وثارت فى الجو تلك الأفواج البيضاء الغازية، فردته شاحبًا حائلاً، راح

يعبث بها طيًا وليًا وغزلاً، فكانت عجاجة حائلة الألوان، ولكن كلتا الفتاتين كانتا على حظ من الانشراح، فليس مثل هذا الجو على هضبة جافة بالسبب الذى يقذف القنوط فى النفوس.

قالت ماريان: "ها! ها! لقد كانت الطيور الشمالية الماكرة تعلم أن هذا آت! ثقى أنها ستظل طائرة فى مقدمة هذا الهبوب طول الطريق بدءًا من النجم القطبى، ولست أشك أن زوجك يصلى الآن جوًا محرقًا، يا لله! ليته يستطيع أن يرى زوجه الجميلة هذه الساعة! على أن هذا الجو لا يضير جمالك فتيلاً، كلا بل هو يزيده بهاءً" قالت تس فى غضب: "لا تخاطبينى فيه يا ماريان"، قالت: "ولكنك تحبينه أليس كذلك؟" وكان جواب تس الوحيد أن اتجهت وعيناها مغرورقتان ونفسها جائشة صوب الجهة التى خيل إليها أنها جهة أمريكا الجنوبية ورفعت شفتيها مرسلة قبلة حارة على جناح الرياح المحملة بالثلج.

قالت ماريان: "ما خالجنى شك فى أنك تحبينه، ولكن ما أتعسها حياة لزوجين! كفى! لن أزيد! أما الجو فلن يضيرنا فى بيدر القمح، ولكن ضم العيدان مجهد أشق من نبش اللفت، إن لى جلدًا عليه لأنى بدينة، أما أنت فأنحف منى، ولست أدرى لماذا ألحقك الرئيس بهذا العمل"، وبلغتا البيدر ودخلتا، وكان جانب منه مملوءًا قمحًا، وكان ضم العيدان يجرى فى الوسط، وكان قد وضع فى ضاغطة العيدان فى الليلة السابقة عدد من حزم عيدان القمح يكفى النساء طوال اليوم، وقالت ماريان فجأة: "واعجبا! هذه إيز!" وكانت هى هى إيز، وكانت قد قطعت المسافة من دار أمها على قدميها عصر اليوم السابق وأدركها الليل فى الطريق إذ لم تكن تتوقع أن المسافة تكون بهذا الطول، على أنها وصلت قبل نزول الثلج وقضت الليل فى فندق، وكان صاحب الضيعة قد اتفق مع أمها فى السوق على قبولها إذا جاءت اليوم، وقد خشيت أن تسوءه إن تأخرت.

وكان هناك بجانب تس وماريان وإيز شقيقتان قد جاءتا من قرية مجاورة، عظيمتا الجرم، اعترت تس رجفة إذ تبينت فى معارفهما وجهى (كار) السمراء ملكة الفئوس، وشقيقتها الصغرى ملكة الماس اللتين همتا بها ليلة الشجار فى

ترنتردج، ولم يبد عليهما أنهما عرفتاها، ولعلهما لم تعرفاها إذ كانت فى تلك الساعة ثملتين، ولم تكونا مقيمتين بهذه الضيعة مؤقتًا كما كانتا فى ترنتردج، وكانتا تؤثران القيام بأعمال الرجال وفيها حفر الآبار وإصلاح أوشعة الحقول والحفر وقنوات المطر على جوانب الطريق ولا تبديان كلالا، وكانتا معروفتين كذلك بحذقهما ضم العيدان، وقد حدجتا الثلاث الأخريات بنظرة ترفع.

لبس الجميع قفازاتهن وأقبلن على العمل واقفات صفًا أمام الضاغطة، وكانت هذه آلة مكونة من عمودين يصلهما عمود مقاطع وقد وضعت تحتها الحزم التى ستسحب منها العيدان، وسنابلها منكسة، وكان العمود المقاطع يعتمد على مشاجب فى العمودين القائمين، ويهبط كلما تناقصت الحزم، واتضح ضوء النهار رويدًا رويدًا، وكان يدخل من أبواب البيدر صاعدًا من الثلج لا هابطًا من السماء، وجعل النسوة يجتذبن ملء أحضانهن من الضاغطة تباعًا، على أن ماريان وإيز لم تستطيعا أن تخوضا فى أحاديث الماضى كما تشاءان لحضور المرأتين الأخريين اللتين كانتا تتحدثان بالمنديات.

وسرعان ما سمع الجميع وقع حوافر حصان، وترجل صاحب المزرعة بالباب ثم دنا من تس ووقف يتأمل صفحة وجهها، ولم تلتفت هى إليه أول الأمر، حتى اضطرها إمعانه فيها إلى الالتفات، فإذا رئيسها اليوم هو صاحبها فى ترنتردج الذى لاذت منه بالفرار فى طريقها لإشارته إلى ماضيها، وانتظر هو حتى حملت الحزم المضمومة إلى الكوم القائم فى الخارج، وعندها قال: "أنت إذن التى رددت على ملاطفتى ذلك الرد القبيح! قبحنى الله إن لم أكن قد حظرت ذلك حالما علمت بانضمامك إلى العمل! لقد خيل إليك أنك غلبتنى فى المرة الأولى فى النزل وأنت مع فتاك المتيم، وفى الثانية على الطريق حين لذت بالفرار، أما اليوم فإخالنى أنا الفائز" قال ذلك وضحك ضحكة جافة.

ألفت تس نفسها بين المرأتين الضخمتين وبين صاحب المزرعة كطائر قد علق بين شقى فخ، فلم تجب واستمرت فى جر العيدان، وهدتها فراستها فى تلك الساعة إلى أن الرجل لن يعود إلى مضايقتها، وأيقنت أن مسلكه مسلك تحرش

راجع إلى الإهانة التى ألحقها به كلير، لا مسلك مغازلة، ولم تر فى ذلك ضيرًا، قال الرجل: "أخيل إليك أنى علقتك؟ فمن النساء من يحسبن لحماقتهن أن كل نظرة تحمل وراءها صبابة، ولكن قضاء شتاء واحد فى الحقول كاف لإخراج تلك الحماقات من رءوس الكواعب الخبيثات، وقد تعهدت بالبقاء إلى يوم العذراء القديم، والآن هل تعتذرين إلىّ؟"

قالت تس: "أولى أن تعتذر أنت إلىّ"، قال: "حسن، كما تشائين، ولكنا سنرى من السيد هنا، أهذه كل الحزم التى فرغت منها اليوم؟ "قالت: "نعم"، قال: "جهد ضئيل، انظرى ماذا صنعت هاتان"، وأشار إلى المرأتين الكبيرتين، ثم قال: "والأخريان أيضًا قد بزتاك"، قالت:"لقد مارسن جميعًا هذا العمل من قبل دونى، وقد ظننت أنك لا تهتم بالكمية إذ نحن لا نتقاضى إلا ثمن ما ننجز"، قال: "بل أهتم كل الاهتمام فإنى أريد البيدر أن ينظف"، قالت: "سأواصل العمل طول اليوم فلا أنقطع الساعة الثانية مع الباقيات" فحدجها متجهمًا ومضى.

ورأت تس أنها وقعت على أسوأ مكان كان يمكن أن تقع عليه، ولكنها كانت تتحمل كل ما عدا الملاطفات والمغازلات؛ ولما كانت الساعة الثانية ألقت العاملتان المحترفتان فى جوفيهما آخر ثمالة قارورتيهما، ووضعتا منجليهما وربطتا حزمهما وانصرفتا، وكانت ماريان وإيز تودان أن تصنعا صنيعهما، ولكنهما حين علمتا أن تس تنوى الاستمرار لتعوض قلة مرانها بطول ساعات عملها، لم تشاءا أن تتركاها. ونظرت ماريان إلى الثلج الذى كان لا يزال يتهافت فى الخارج وقالت: "الآن قد خلا لنا المكان" وتحول الحديث بينهن أخيرًا إلى أيام تلبوثيز ولا سيما حوادث هيامهن بإينجل طبعًا.

قالت مسز إينجل كلير فى كبرياء تدعو إلى الرثاء حقًا، إذا تذكرنا قلة ما كانت تتمتع به من مزايا الزوجية: "يا إيز ويا ماريان.. لن أستطيع اليوم كما كنت أستطيع فيما مضى أن أشارككما فى التحدث عن مستر كلير، ولا ريب أنكما تريان السبب جليًا، فهو زوجى وإن فارقنى فراقًا مؤقتًا"، وكانت إيز بطبعها أشد الفتيات الأربع اللائى شغفن بإينجل توقحًا وتهكمًا، قالت: "لقد كان حبيبًا ممتازًا بلا شك،

ولكنى لا أره زوجًا حدبًا إذ فارقك بهذه السرعة"، قالت تس فى لهجة المدافع: "لقد اضطر إلى الذهاب، لقد كان عليه أن يذهب ليختبر الأرض هناك"، قالت صاحبتها: "كان يجدر به أن يمهد لك أسباب الراحة فى هذا الشتاء"، قالت تس مغرورقة الجفون: "لقد عرض عارض وحدث سوء تفاهم، ولعل له عذرًا وجيهًا! وهو لم يمض عني كما يفعل بعض الأزواج دون أن يخبرنى، وفى مقدورى أن أعلم وقت أشاء أين مقره".

وبعد هذا سبحت الفتيات فى عالم الخيال زمنًا، وهن يقبضن على سنابل القمح ويجذبن العيدان، ويجمعنها تحت أذرعهن ويقطعن السنابل بمناجلهن، وليس يسمع فى البيدر إلا حفيف العيدان ووقع المناجل؛ ثم خارت قوى تس فجأة وخرت على كوم السنابل القائم دون قدميها، فصاحت ماريان: "لقد كنت أعلم أنك لن تتحملى هذا العمل، فهو يحتاج إلى جلد أصلب من جلدك"، ودخل صاحب المزرعة فى تلك اللحظة وقال لتس: "أهكذا تعملين فى غيابى؟" قالت متوسلة: "ولكن الخسارة خسارتى لا خسارتك"، فأجاب فى غلظة: "أريد أن ينتهى العمل"، واجتاز البيدر وخرج من الباب الآخر. قالت ماريان: "لا تباليه يا عزيزتى، لقد عملت هنا من قبل وأنا أدرى به، والآن ارقدى هناك، وسنكمل أنا وإيز عملك"، قالت: "لا أحب أن أدعكما تعملان عملى وأنا أطول منكما".

ولكن الإعياء كان قد بلغ منها فلم يسعها إلا الموافقة على الاستراحة قليلاً، فتمددت على كوم من القش ملقى فى الجانب البعيد من البيدر، وكان انهيار قواها راجعًا إلى ما عراها من اضطراب لمعاودتها الحديث فى أمر انفصالها عن زوجها مثلما كان ذلك راجعًا إلى مشقة العمل؛ واستلقت فى مكانها ترى وتحس ولا تستطيع حراكًا ولا إرادة، وكان حفيف القش وصوت قضب السنابل يقع عليها كأنه يلمس جسدها، وكانت تسمع فى ركنها بجانب تلك الأصوات همهمة من صوتى صاحبتيها، وأيقنت أنهما تواصلان الحديث الذى فتح من قبل، ولكن لانخفاض صوتيهما لم تستبن كلماتهما، ثم تزايد توقها إلى معرفة ما تقولان، فأقنعت نفسها بأنها قد استعادت قواها، فنهضت وعاودت العمل.

وسرعان ما خارت قوى إيز هيوت، وكانت قد سارت زهاء اثنى عشر ميلاً فى المساء السابق، ولم تأو إلى الفراش إلا منتصف الليل، ثم عادت فنهضت فى الخامسة صباحًا، ولم تستطع إلا ماريان – بفضل قارورة الشراب وامتلاء بنيتها – أن تنهض بعبء العمل المضنى للظهر والذراعين دون أن تتوجع؛ وألحت تس على إيز فى الانصراف، متطوعة وقد استعادت نشاطها أن تواصل العمل بدونها، وأن تقاسم ماريان الحزم الباقية، فوافقت إيز ممنونة واختفت من الباب الأكبر وغابت فى الثلج ميممة مسكنها؛ وبدأت ماريان تسبح فى عالم عاطفى دأبها فى هذه الساعة كل يوم، حين يدب فيها دبيب الشراب، قالت فى لهجة حالمة: "ما كنت لأصدق هذا الأمر عنه قط! مع أنى كم أحببته! أنا لم أنقم اختياره إياك، أما شأنه مع إيز ففظيع!".

جفلت تس لدى سماع تلك الكلمات، وكادت تخرط أصبعها بالمنجل، وقالت متلعثمة: "أزوجى تعنين؟"، قالت: "نعم، لقد طلبت إلى إيز ألا أخبرك، ولكنى لا أستطيع كتمان الأمر عنك، لقد أراد إيز أن ترافقه إلى البرازيل"، فامتقع وجه تس حتى شابه بياض المنظر الخارجى الطبيعى، واستقامت تعاريجه وقالت: "وهل رفضت إيز الذهاب؟"، قالت ماريان: "لا أدرى، وعلى كل حال قد عدل عن قصده"، قالت: "ها إذن لم يعن ما قال، ولم يكن الأمر إلا أفكوهة من أفاكيه الرجال!"، قالت: "بل كان جادًا، فقد حملها فى عربته مسافة طويلة فى اتجاه المحطة"، قالت: "ولكنه لم يأخذها!".

وواصلتا العمل فى صمت حتى انفجرت تس بلا إنذار باكية، فقالت ماريان: "يالله! الآن أود لو لم أخبرك!" قالت تس: "لا، بل أحسنت صنعًا بإخبارى لقد كنت أحيا حياة انقباض وتشاؤم لا أدرى ما تؤدى إليه، وكان أحجى أن أكثر الكتابة إليه، لقد أبى علىَّ اللحاق به، ولكنه لم يأب أن أكاتبه كلما شئت لن أتلكأ بعد اليوم! لقد كنت مخطئة مهملة أشد الخطأ والإهمال بتركى كل شىء إليه".

وتخافت الضوء الضئيل فى البيدر ولم تعودا تستطيعان العمل؛ ولما بلغت تس مسكنها ذلك المساء، واختلت فى حجرتها الصغيرة المبيضة الحوائط، اندفعت تكتب إلى كلير، ولكن عاودتها شكوك صدتها عن إتمام الكتاب، وبعد ذلك أخذت الخاتم من الشريط الذى كانت تعلقه فيه فويق قلبها، واستبقته على إصبعها طول الليل كأنها تطمئن نفسها أنها حقًا زوج ذلك المحب السريع التحول، الذى يستسيغ بعد مفارقتها بقليل أن يقترح على إيز مرافقته إلى الخارج، وتساءلت أنى لها وقد علمت ذلك أن تعاود الكتابة إليه متزلفة، أو تطلعه على أنها تهواه.

تحولت أفكار تس بعد هذا النبأ إلى الجهة التى طالما تحولت إليها من قبل.. إلى مقر القس البعيد فى امنستر، فقد كان زوجها أمرها إذا شاءت أن تكاتبه أن تكتب إليه عن طريق أبويه، وأن تكتب إليهما رأسًا إذا حزبها حازب، ولكن شعورها بسقوط كل حق لها أدبى عنه كان يصدها عن الكتابة، ومن ثم ظلت بالنسبة إلى أبوى زوجها فى حيز العدم، كما كانت بالنسبة إلى أبويها منذ الزواج، وكان إنكارها ذاتها فى الجهتين على هذا النحو ملائمًا تمام الملائمة خلق الاستقلال الكائن فى طبعها؛ الذى يأبى لها أن تتقبل عطفًا أو رثاء لا تستحقهما فى شرعة الإنصاف، وقد عولت على أن تعتمد على استحقاقها وحده، فإما نهوض وإما سقوط، وأن تنحى كل شبه حق لها على أسرة غريبة، نشأ من مجرد أن أحد أبناء تلك الأسرة وضع اسمه فى ساعة نزوة على سجل الكنيسة إزاء اسمها.

ولكن قدرتها على التخلى عن الحقوق خارت حين لذعتها قصة إيز، وحمت لها، وتساءلت لِمَ لمْ يكتب إليها وقد وعد بكل جلاء أن يحيطها علمًا بالبقعة التى رحل إليها، ولكنه لم يرسل سطرًا واحدًا يدل على عنوانه، فهل هو حقًا زاهد فيها؟ أم هل هو مريض؟ أيخلق بها هى أن تتقدم إليه؟ الحق أن قلقها جدير أن يمنحها الشجاعة المطلوبة لزيارة القس والإفضاء إليه بحزنها لصمت زوجها، فإذا كان أبو إينجل ذلك الرجل الطيب الذى وصف لها فسيطلع على موقف اللهفة والحرمان الذى تقفه، أما ضيق ذات يدها فيمكنها أن تخفيه عنه.

ولم يكن فى مقدورها أن تغيب عن المزرعة فى غير أيام الآحاد، ولم تكن لها غير يوم العطلة الأسبوعية فرصة، وكان عليها أن تقطع المسافة سيرًا على قدميها، إذ كانت فلنتكوم آش واقعة وسط الهضبة الطباشيرية التى لم تصعد إليها سكة حديد بعد، وإذ كانت المسافة خمسة عشر ميلاً ذهابًا ومثلها إيابًا، كان عليها أن تمنح نفسها يومًا طويلاً بالتبكير فى النهوض، فلما انحسرت هجمة الثلج بعد أسبوعين وتلتها هجمة من صقيع صلب اسودت لها حواشى الجو، انتهزت الحالة

التى كانت عليها الطرق لمحاولة بغيتها، فهبطت من مخدعها صباحًا فى الرابعة وخرجت إلى ضوء النجوم، وكان الجو لا يزال ملائمًا، والأرض ترن تحت قدميها رنين السندان.

وقد اهتمت ماريان وإيز لرحلتها هذه اهتمامًا عظيمًا، لعلمهما أنها من أجل زوجها، وكانتا تقيمان فى كوخ على مدى من كوخها فى ذلك الطريق، ولكنهما جاءتا تساعدان تس فى منطلقها، واقترحتا أن تظهر فى أحسن بزتها لتأسر قلبى حمويها، أما هى فكانت خبيرة بميول مستر كلير الكلفنية الصارمة، فلم تحفل بذلك بل كانت فى شك من أمرها؛ وكان الحول قد حال منذ زواجها العاثر الجد، ولكنها كانت قد استبقت من ثيابها التى كانت تملأ صوانها يوم الزفاف ما يكفى لإظهارها فى زى فتاة ريفية فاتنة لا تماشى الأزياء الحديثة، وكانت تلك جلبابًا صوفيًا ناعمًا رماديًا ذا أفواف بيضاء تدور حول بشرة وجهها وجيدها القرنفلية، ومعطفًا من القطيفة أسود، وقبعة كذلك.

قالت إيزهيوت وهى تنظر إلى تس واقفة على العتبة، بين ضوء النجوم الصلبى فى الخارج وضوء الشمعة الأصفر فى الداخل: "واحسرتاه ألا يستطيع زوجك أن يراك الآن فما أملحك!" قالتها فى تأثر بالموقف وإيثار لتس مصدر عن إخلاص، ولم تكن هى ولا أية امرأة غيرها لها قليل من الكرم لتستطيع أن تعادى تس فى حضرتها، إذ كانت تس تبث فى بنات جنسها أثرًا حارًا قويًا غير مألوف، يتغلب على دنىء صفات الأنوثة من حقد ومنافسة؛ وبعد أن هيأتاها أحسن تهيئة أرسلتاها، وسرعان ما غابت فى الجو الباكر، جو السحر، وسمعتا وقع خطاها على الطريق الصلد وهى ممعنة فى الذهاب، وتمنت إيز نفسها لها النجاح، وسرها أنها لم تسىء إلى صاحبتها يوم أغراها كلير ذلك الإغراء القصير الأمد، وإن لم تعز الفضل فى ذلك إلى كرم نفسها.

كان كلير قد تزوج تس منذ عام لا ينقص إلا يومًا، وغاب عنها منذ عام لا ينقص إلا أيامًا، ومع ذلك لم يثبط من همة تس أن تبدأ رحلة سريعة فى مثل ذلك الغرض الذى خرجت من أجله، فى صباح شات جاف صاح، وسط هواء تلك

الحرات الوعرة المخلخل، وكانت بلا شك تحلم عند انطلاقها بكسب عطف حماتها ومكاشفتها بكل تاريخها، واستمالتها إلى جانبها والاستعانة بها على استعادة ذلك الشارد.

وبعد حين بلغت حافة الهضبة التي من دونها يمتد وادي بلاكمور الخصيب، وكان إذ ذاك ساكنًا غائمًا فى الفجر، وكان الجو فى ذلك المنخفض أزرق غامقًا بعكس هواء المرتفعات عديم اللون، وقد خلفت وراءها تلك المزرعة المترامية فى مئات الفدادين التى تعودت العمل بها، ورأت، أمامها حقولاً صغيرة لا يزيد أحدها على اثنى عشر فدانًا، تبدو من ذلك المرتفع لكثرة عددها كأنها عيون شبكة؛ كان أديم الأرض فى الهضبة أبيض مشربًا بالسمرة، أما فى المنخفض فهو دائمًا أخضر خضرة وادى فروم، ومع ذلك فقد شهد ذلك الوادى مولد أشجانها، فهى لذلك لا تحبه كما كانت تحبه قدمًا، فقد كانت لا ترى الجمال فى شيء من الأشياء، بل تراه – كما يراه كل ذى شعور – فيما يرمز إليه ذلك الشيء.

استطردت فى استقامة صوب الغرب، جاعلة الوادى عن ميمنتها، عابرة مرتفعات (هنتوكس)، مجتازة فى اتجاه رأسى الطريق العام من (شرتن آبـــس)، إلى كستربردج، مارة (بدوجبرى هل) و(هاى ستوى) وبينهما الوهدة المسماة مطبخ الشيطان؛ وتابعت الطريق المرتفعة حتى بلغت (كروس إن هاند)، حيث يقوم عمود حجرى صامت رهيب، يدل على مكان معجزة كانت أو مصرع قتيل أو كليهما، وبعد ثلاثة أميال اجتازت الطريق الرومانى المستقيم المهجور، المسمى (لونج آش) لين، فلم تكد تخلص إلى منتهاه حتى هبطت تلاً سالكة دربًا مقاطعًا للأول؛ أدّاها إلى بلدة أو قرية تدعى (إفرشد)، وبذلك فرغت من نصف المسافة، فعرجت وتناولت فطورًا ثانيًا بشهية جيدة لا فى حان (سنوآند آكورن) فقد كانت تتجنب الحانات – بل فى كوخ بجوار الكنيسة.

وكان النصف الثانى من رحلتها مرورًا وسط إقليم أسهل أديمًا، سلكت فيه درب (بنفيل)، ولكن تس غدت كلما تناقص عدد الأميال بينها وبين محجها تناقصت ثقتها وهالها تصور هذه الرحلة، فتجسم لها غرضها وتحجر أمامها، على حين

تضاءل المنظر الطبيعى أمامها حتى كادت تضل طريقها، على أنها بلغت حوالى الظهر بوابة على حافة السقى الذى تقع فيه امنستر ومسكن القس، وهناك تمهلت وبدا لها البرج المربع مفزعًا، وكانت تعلم أن القس وجماعة المصلين جلوس تحته فى تلك الساعة، وتمنت لو أنها تحايلت فى المجىء فى غير يوم الأحد، فربما تغير قلب رجل ورع كهذا على امرأة اختارت يوم الأحد، وهو غافل عن الضرورة الحازبة المحيطة بها، ولكن كان لزامًا عليها الآن أن تمضى فى طريقها فخلعت الحذاء الضخم الذى لبسته طول الطريق، ولبست حذاءها الجميل الرقيق المصنوع من الجلد الصقيل، ودست الأول فى الوشيع المحاذى للبوابة الخارجية، حيث يمكنها الحصول عليه إذا عادت فى طلبه، وهبطت المنحدر ونضرة وجهها التى اكتسبتها من الهواء البارد تزايلها بالرغم منها، كلما اقتربت من دار القس.

وكانت تس تأمل أن يعرض حادث يزكى قضيتها فلم يعن حادث، وكانت الشجيرات النامية حول مسكن القس تحف حفيفًا مزعجًا فى الهواء الصاقع، ولم تكن مهما أرخت العنان لخيالها تتصور - رغم تمام زينتها فى ذلك اليوم - أن ذلك البيت مقر أقرباء لها أدنين، على أنه لم يكن بينها وبين الساكنيه فرق جوهرى فى الطباع والميول، بل كانت قرينتهم فى الآلام والمسرات، والميلاد والممات وما بعد الممات؛ وأخيرًا تجلدت ودخلت البوابة المتحركة ودقت جرس الباب، وهكذا قضى الأمر ولم يعد سبيل للنكوص، ولكن لا: لم يقض الأمر بعد فإنها لم يجبها مجيب، فعادت فتشجعت ودقت ثانية، واضطربت لهذا العمل، وكانت قواها متهافتة بعد مسيرة الأميال الخمسة عشر، فاعتمدت على كشحها بيدها وهى تنتظر وكوعها حائط المدخل.

وكانت الريح من القرس بحيث أذبلت أوراق اللبلاب وأحالت لونها، وقد ظلت كل ورقة تقرع أختها قرعًا دراكًا فى حركة تزعج أعصاب تس وكان قرطاس ملوث بالدم قد تطاير من قمامة حانوت جزار ووقع خارج البوابة، فهو يتضرب على الطريق صعودًا وهبوطًا، تأبى له رقته أن يقر، ويحول ثقله دون أن يطير، وكانت تخفق حوله أشتات أعواد؛ وكانت دقة تس الثانية أعلى صوتًا من

سابقتها ولكن لم يجبها أحد، فخرجت من مدخل الدار وفتحت البوابة ومشت إلى الطريق، ومع أنها صعدت البصر فى واجهة الدار كأنها تميل إلى العودة، فإنها أغلقت البوابة متنفسة الصعداء ارتياحًا، وقام بنفسها أنها ربما كانت قد عرفت – وإن لم تدر كيف – فحيل بينها وبين الدخول.

سارت إلى المنعطف، وقد فعلت كل ما كانت تستطيع، ولكنها كانت مصممة على ألا تفر من اضطرابها الحاضر فرارًا يكلفها الآلام فى المستقبل، فعادت فمرت بالدار مصعدة البصر إلى جميع النوافذ، وعن لها فجأة أن السر راجع إلى وجود الجميع فى الكنيسة، وتذكرت أن إينجل أخبرها أن والده يصر على ذهاب جميع أهل الدار وفيهم الخدم لأداء فريضة الصباح، وأن ذلك كان يضطرهم إلى تناول طعامهم باردًا عند العودة، فكان لزامًا أن تنتظر حتى تقضى الصلاة، ولم تكن لتلفت الأنظار إلى شخصيتها بالبقاء هناك، فعدت عن الكنيسة إلى الدرب، ولكنها لم تجاوز باب الكنيسة حتى تدفق المصلون خارجين ووجدت نفسها فى غمارهم.

ولم ينظر إليها القوم إلا نظرة أبناء بلدة صغيرة آيبين على مهل من صلاتهم حين يرون امرأة بارزة الطلعة غريبة عنهم، فحثت خطاها وركبت الطريق الذى أتت منه، لتحتمى بأشجاره حتى تتغذى أسرة القس ويتأتى لهم استقبالها، وسرعان ما سبقت المصلين، إلا شابين كانا يغذان السير خلفها وذراعاهما متشابكتان، ولما قارباها سمعت صوتيهما وهما محتدان فى الحوار، وهدتها زكانة المرأة التى تكون فى مثل حالتها تلك، إلى مشابهة نغمات صوتيهما لرنات صوت زوجها، ولم يكن السائران إلا شقيقيه، ونسيت تس كل خططها ولم تعد تخشى إلا أن يدركاها تلك الساعة فى حالتها المشعثة تلك ولم تستعد لمواجهتهما، فإنها وإن اطمأنت إلى أنهما لا يعرفان من هى، قد حدست بغريزتها أنهما سيجيلان فيها البصر، فكانت كلما حثا الخطى حثت خطاها، واتضح لها أنهما يريدان رياضة الأقدام برهة قبل العودة إلى الدار للغداء، ليعيدا الحرارة إلى أوصال أبردها طول الجلوس للصلاة.

ولم يسبق تس إلى رأس التل إلا فرد واحد، هو فتاة بادية الرقى تجتذب الأعين وإن بان عليها التحذلق والتكلف، وكانت تس قد أوشكت أن تدركها حين داناها هى نفسها شقيقا زوجها الممعنان حتى سمعت كل كلمة من كلامهما، على أنهما لم يقولا شيئًا يسترعى اهتماها حتى لحظا الفتاة السابقة، فقال أحدهما: "تلك ميرسى تشانت فلنلحق بها"، وكانت تس تعرف الاسم وأن صاحبته هى الفتاة التى قدر لها والدا إينجل ووالدها أن تكون شريكة حياته، والتى كان لعله يتزوجها لولا تطفلها هى نفسها على حياته، ولو كانت تجهل هذا لعلمته بعد قليل، إذ أنشأ أحد الشقيقين يقول:

"يا للمسكين إينجل! إن حسرتى لتتضاعف – كلما رأيت هذه الفتاة – على تعجله بالارتماء فى حضن عاملة ألبان، أولست أدرى ما هى، إن أمره وإياها لعجيب، ولست أدرى إن كانت لحقت به أو لم تلحق به بعد، ولكنها لم تكن قد لحقت به منذ شهور حين كتب إلى".

قال الآخر: "لست أدرى، هو لا يكاتبنى بشيء هذه الأيام، وأكبر ظنى أن زواجه الأهوج قد أتم تلك الفجوة التى بدأت بيننا لشذوذ آرائه"، وزادت تس فى سرعتها صاعدة المنحدر، ولكن لم تكن تستطيع أن تسبقهما دون أن تسترعى الانتباه بإسراعها، وأخيرًا تقدماها وخلفاها وراءهما وسمعت الفتاة المتقدمة وقع خطاهما والتفتت، وتبع ذلك تحية ومصافحة ومضى الثلاثة معًا، وسرعان ما بلغوا قمة التل، وكان من الجلى أنهم ينوون الانتهاء عندها، فأبطأوا السير واتجوا إلى البوابة التى استراحت عندها تس منذ ساعة، لتتعرف البلدة قبل الهبوط إليها، وإنهم لفى حديثهم إذ دفع أحد الشقيقين مظلته فى الوشيع يسبره جيدًا، وجذب منه إلى النور شيئًا.

قال: "هذا حذاء قديم إخال أفاقًا قد نبذه هنا"، قالت مس تشانت: "أو نبذه محتال أراد هبوط البلدة حافيًا ليستدر رحمتنا، أجل لا بد أن الأمر كما أقول فإن هذا حذاء سير جيد لم يخلق بعد، ما أخبث ذلك الفعل! سآخذ هذا الحذاء معى أتصدق به على فقير"، وكان كثبرت كلير هو الذى عثر على الحذاء، فرفعه

بمقبض عصاه، وهكذا استولى على حذاء تس، وسمعت هى كل ما قيل فمرت مستترة بلثامها الصوفى، ثم نظرت خلفها بعد قليل فإذا الثلاثة المصلون قد قفلوا هابطين التل ومعهم الحذاء، وعندها تابعت بطلتنا سيرها، وقد أعشت الدموع عينيها وتحدرت على خديها.

كانت تعلم حق العلم أن من الضعف والحمق أن تأسى كثيرًا كثيرًا لهذا الحادث، وتعده إساءة موجهة إليها، ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تغالب أساها، وأن تقاوم بشخصها الضعيف منفردًا كل تلك الرميات الآتية من غير رام، ولم تستطع أن تفكر فى العودة إلى مسكن القس، فقد شعرت زوج إينجل كأنما ذينك القسين اللذين يبدوان لها مثال الرقى، قد دفعاها أمامهما إلى رأس التل دفعًا فى ازدراء؛ لقد ألحقت بها إهانة عن غير قصد، ولكن كان من سوء الحظ حقًّا أن تلقى الابنين دون أبيهما الذى كان أقل منهما تزمتًا وجفاء، رغم ضيق عقليته، وكان محبًا للخير حب صميمًا؛ وعادت تفكر فى حذائها الضخم المغبر فكادت ترثى لما أصابه من تهكم وتقريع، وشعرت بسوء منقلب صاحبته.

قالت وهى تتنهد رثاء لنفسها: "غاب عن القوم أنى إنما لبست ذلك الحذاء على ذلك الجانب الوعر من الطريق صونًا لهذا الحذاء الجميل الذى اشتراه هو لى، غاب ذلك عنهم وغاب عنهم أنه هو الذى انتقى لون جلبابى الأنيق، وأنى لهم أن يعلموا؟ ولعلهم لو علموا لما حفلوا، لأنهم لا يحبونه نفسى فداه!". وراحت ترثى للرجل الذى قذفت بها آراؤه الرجعية فى كل هذا العناء الأخير، ومضت فى طريقها ولم تدر أن أكبر مصاب فى حياتها هو فقدها الشجاعة على هذا النحو النسوى فى الساعة الأخيرة الدقيقة، حين حكمت على حميها بابنيه، مع أن حالتها الراهنة حالة تستدر عطف مستر كلير ومسز كلير.. فقد كان قلباهما يطفران رحمة لمن هو فى مثل شقائها المبرح، على حين لا يحفلان بآلام النفس الخفية يعانيها من هو أقل من تس سوء منقلب، كانا فى حرصهما على استصلاح المتدلين فى حمأة الآثام ينسيان أن عليهما أن يواسيا ذوى المتاعب النفسية، وكان ذلك النقص فى خلقهما جديرًا أن يظهر لهما كنتهما بمظهر تاعسة خليقة بحبهما.

وهكذا انطلقت تضرب فى الطريق الذى جاءت منه، ولم تفقد الأمل كله، ولكنها كانت موقنة أن ساعة من حياتها خطيرة العقبى مقبلة لا ريب فيها، وكأنها لم تحس أن ساعة من حياتها خطيرة العقبى قد عبرت بها فى ذلك الموقف ولم يعد أمامها ما تصنع إلا أن تواصل الكدح على تلك المزرعة الشحيحة، حتى تستجمع شجاعتها مرة أخرى لتواجه مسكن القس ثانية، على أنها اهتمت بهيئتها فى أوبتها حتى أماطت اللثام عن وجهها، كأنها تريد أن تعلن للعالم أن فى مقدورها أن تميط عن وجه لا تميط عنه ميرسى تشانت، على أنها هزت رأسها أسفًا وهى تفعل ذلك، قالت: "ليس له شأن ولا اعتبار! وليس من الناس من يهيم به ولا منهم من يراه! من ذا الذى يأبه لجمال منبوذة مثلى؟".

وكانت رحلتها فى الإياب أشبه بالتسكع منها بالمسير؛ قد عدمت رحلتها النشاط والغرض المنشود، ولم يبق منها إلا الاتجاه، وبدأت تحس بالتعب فى درب بنفيل الطويل الممل، فراحت تستريح بجانب البوابات وتعتمد على علامات الأميال ولم تلج دارًا حتى ذرعت أميالاً سبعة أو ثمانية، وهبطت التل الطويل المنحدر الواقعة فى سفحه بلدة إفرشد، حيث كانت أفطرت ونفسها ممتلئة أملاً ما أشد افتقارها إليه الآن، وكان الكوخ المجاور للكنيسة والذى جلست فيه للمرة الثانية، أول كوخ على وجه التقريب فى ذلك الطرف من القرية، وأرسلت تس بصرها فى الشارع حين ذهبت ربة المكان تحضر لها طعامًا، فإذا الشارع يكاد يكون مقفرًا.

قالت تس: "هل ذهب الناس لأداء فريضة المساء؟" فأجابت العجوز: "كلا يا عزيزتى، لم يحن ميقات الصلاة بعد ولم تدق النواقيس، لقد ذهبوا لسماع خطبة الوعظ فى ذلك البيدر، فإن واعظًا يخطب هناك بين مواقيت الفرائض، ويقولون إنه مسيحى متحمس قدير، ولكنى والحق يقال لا أستمع إلى خطبه، ففيما يقال فى خطب الصلاة العادية ما يكفينى"، وسرعان ما انطلقت تس فى القرية يرن صدى خطاها على جدران الدور، كأن ذلك وادى أموات، فلما قاربت وسط القرية وغل على صدى قدميها أصداء أخرى، وإذ كانت ترى البيدر على كثب فقد حظرت أن تلك كلمات الخطيب.

وازداد صوته اتضاحًا فى هواء المساء الساكن، حتى استطاعت أن تستبين كلماته وإن كانت تسير على الجانب الخلفى من البيدر، وكانت الخطبة كما ينتظر بالغة غاية التطرف فى القول بأن العمل الصالح ليس شرطًا أساسيًا للخلاص، وبأن الإيمان وحده كاف للنجاة كما قال القديس بول؛ كان ذلك الواعظ المتطرف يدافع عن تلك الفكرة المتمكنة من نفسه دفاعًا حارًا، فى ألفاظ ذات طنين وجعجعة، إذ كان جليًا أنه لا حظ له من المنطق قط؛ ومع أن تس لم تسمع بدء الخطبة فقد عرفت النص الذى تدور حوله الخطبة، لكثرة رجوع الخطيب إليه وهو: "يا آل غليسيا الجاهلين! من ذا الذى فتنكم حتى صددتم عن الحق، يا من أخذ يسوع المسيح وأنتم تنظرون، وصلب بين أظهركم؟".

وازداد اهتمام تس وهى واقفة فى الخلف تنصت، إذ تبين لها أن عقيدة الخطيب إن هى إلا صورة من آراء والد إينجل، وبلغ اهتمامها الغاية حين بدأ الخطيب يفصل تجاربه الروحية التى أدت به إلى اعتناق هذه الآراء، فقال إنه كان أفجر الفجار لا يصاحب إلا الأوغاد المبتذلين، حتى أشرق عليه يوم انتبه فيه من غيه، وقد تم ذلك على يد قس كان له فى نفسه أبعد تأثير، وإن يكن قد جبهه فى بادئ الأمر بقبيح القول، ولكن كلمات القس التى قالها فى منصرفه نفذت إلى صميم قلبه حيث استقرت، حتى شاء لها الله أن تبدله ذلك التبديل، وتحوله إلى ما يرى سامعوه.

ولكن تس لم تدهش للعقيدة دهشها لذلك الصوت الذى كان صوت ألك دربرفيل بعينه، وإن بدا ذلك مستحيلاً، فجمد وجهها انقباضًا ودارت حتى مرت أمام واجهة البيدر، وكانت شمس الشتاء المنخفضة تنعكس رأسًا على المدخل الضخم ذى البابين على هذا الجانب، وكان أحد البابين مفتوحًا بحيث امتدت الأشعة على أرض البيدر، حتى بلغت الواعظ وسامعيه، وكانوا جميعًا فى حرز حريز من ريح الشمال، وكان جميع الحاضرين قرويين وكان بينهم الرجل الذى رأته تس يحمل كوز الدهان الأحمر فى مناسبة سابقة لا تنساها، ولكن انتباهها كان منصرفًا إلى الشخص الرئيسى الواقف على غرائر القمح مواجهًا الناس والباب، وكانت شمس الساعة الثالثة مرتمية عليه رأسًا، وأخيرًا تحقق لدى تس ذلك الاعتقاد الغريب الذى أثار اضطرابها، والذى تمكن من نفسها منذ سمعت كلماته واضحة، اعتقادها أنها حيال مغريها القديم.

المهتدى

٤٥

لم تكن تس منذ غادرت ترنتردج قد رأت دربرفيل أو تلقت منه كتابًا، وقد لقيته الآن فى ساعة ثــقلت قلبها فيها الهموم فلم يصدمها ذلك اللقاء بقدر ما كان يصدمها لو كانت أخلى بالاً، ورغم أنها كانت تراه رأى العين امرًا تائبًا مهتديًا يستغفر عن ماضيه الآثم، فإن الذكرى تأبى الانقياد للمنطق، ومن ثم اعترى تس خوف شل حركتها، فلم تتقدم ولم تتراجع.

ما أشد الفارق بين ما كان ينبعث من تلك السحنة حين رأتها للمرة الأولى وبينها الآن! لم تزل تلك الطلعة الوسيمة البغيضة كما كانت، ولكنه قد أرسل شعر عارضيه وأزال ذلك الشارب الفاحم وارتدى نصف ثياب القسس، وقد بدل هذا التحوير من سيمائه حتى زايلت معارفه مخايل التنعم والرفاهية القديمة، وحتى ترددت تس وهلة لا تكاد تجزم بأنه هو؛ وشعرت بادئ ذى بدء بشذوذ كريه وتناقض ممقوت، لانبعاث تلك الآيات المحكمات من ذلك الفم، فإن نبرات ذلك الصوت المألوف أشد الألفة كانت تحمل إلى أذنيها منذ أقل من أربع سنين مشاعر مناقضة لهذه المعانى، وقد أدخل هذا التناقض الساخر على نفسها غمًا شديدًا.

لم يكن ما عراه صلاحًا بقدر ما كان تحولاً؛ فتحولت تلك القسمات الشهوانية قسمات تقوى وورع، وغدت تعاريج الشفتين التى كانت تنم على الإغواء تدل اليوم على التضرع، وكانت وضاءة ذلك الخد بالأمس تنطق بالاستهتار، فاكتست اليوم قداسة وورعًا وجهادًا فى الدين، واستحالت الحيوانية غلوًا فى التدين، والزندقة تشبثًا بالعقيدة، وغدت تلك العين البراقة الجريئة التى طالما جالت فى شخص تس جولة المسيطر، تلمع بحماسة المتدين المتطرف، وباتت تلك السحنة المقلوبة المربدة التى كان يكتسيها وجهه فيما مضى إذا حيل بينه وبين لباناته، تشترك اليوم فى تصويره لسامعيه صورة الآثم الصابئ المتعذر إصلاحه، الذى يصر على العودة إلى التمرغ فى حمأته.

وكانت معارفه تبدو كأنها تتألم مما حملت فقد قسرت على التحول عن مغازيها الوراثية، لتنطق بمشاعر لم تهيئها لها طبيعتها، وكان من العجيب أن تساميها ذاك كان سوء استخدام لها، وأن ارتفاعها كان تزييفًا لحقيقتها، ومع ذلك فهل كل ما تتخيل حق؟ أبت تس أن تتمادى فى هذه الأفكار القاسية، فإن دربرفيل ليس بأول أثيم أقلع لينجى روحه على قيد الحياة، فلماذا تعد ذلك غير طبيعى فى حالته هو وحده؟ إنما حملها على ذلك ما صدم أفكارها وذكرياتها من سماع هذه الكلمات الطيبة الجديدة، فى تلك النبرات الأثيمة القديمة، ولكن المثل يقول: كلما عظمت حوبة الآثم، جلت توبة القديس، وليس يحتاج إثبات هذه الحقيقة إلى طول الغوص فى تاريخ المسيحية.

طافت تلك الأفكار بذهنها مبهمة مختلطة، وحالما انحسرت عنها الدهشة التى سلبتها قيادها وقدرتها على الحركة، كان أول ما دفعتها إليه إرادتها أن تواصل سيرها وتخرج من متناول بصره، وكان جليًا أنه يعرفها فى موقفها ذاك وهى مستدبرة الشمس، ولكنها لم تكد تعاود الحركة حتى عرفها، فكان تأثيرها فيه كالكهرباء، لا يُذكر بجانبه تأثير مشهده هو فى نفسها، فكأنما زايلته نار حماسته وهدير بلاغته، وراحت شفته تختلج وتُجاهد تحت عبء الكلمات التى تحملها، وهى عاجزة عن أن تؤديها ما دامت تس بمرأى منه، وزاغت عيناه مضطربتين فى كل ناحية عدا ناحيتها بعد أن لحظتاها لأول مرة، ولكنهما كانتا ترتدان فى جهد عنيف من وهلة إلى أخرى، على أن هذا الشلل لم يدم إلا هنيهة، وعاودت تس نشاطها وقد خمد نشاطه، فأغذّت سيرها إغذاذًا؛ وجاوزت البيدر وواصلت طريقها.

وحالما عاودتها القدرة على التفكير هالها هذا التبدل فى موقفيهما.. انحاز هو وهو الذى نكبها تلك النكبة إلى صف الفضيلة، وظلت هى مضيعة، وها قد كانت النتيجة – كما حدث فى بعض الأساطير – أن ظهر جمال تمثالها فجأة على مذبحه فكاد يطفئ نار الكاهن؛ واستطردت فى طريقها لا تلوى، وكأن ظهرها قد وهب قدرة على الشعور بأشعة الأحداق، بل كأن ثيابها نفسها لها هذه القدرة، لشدة إحساسها بنظرة موهومة محملقة فيها آتية من خارج البيدر.

كان قلبها فى المسافة الماضية من الطريق غاصًا بحزن صامت، والآن تغير نوع حزنها: فحل محل ذلك التلهف المكبوح إلى عطف العاطفين، إحساس يكاد يكون بدنيا بماضٍ يطوقها ولا يمحى، واشتد إحساسها بخطيئتها حتى أشفى بها على اليأس، وبدا لها أن ذلك الانقطاع الذى كانت تحلم به بين ماضى وجودها وحاضره قد استحال، وأن ما فات لن يموت حقًا حتى تموت هى؛ وواصلت سيرها موزعة البال هكذا حتى عبرت الجانب الشمالى من درب (لونج آش) للمرة الثانية، وسرعان ما رأت أمامها الطريق الأبيض الصاعد إلى الهضبة، التى يمتد حول حافتها ما بقى من رحلتها، وكان سطح تلك الهضبة الجاف الحائل يترامى موحشًا لا يعترض وحشته شخص إنسىّ أو عربة أو يبين فيه معلم، إلا روث بعض الخيل رماديًا مبعثرًا على سطحها البارد المجدب.

وإنها لتجهد فى الصعود إذ أحست بخطى وراءها، فالتفتت فرأت ذلك الشخص الذى تعرفه جيدًا، قد بدا غريب المنظر فى مسوح القسس، ذلك الشخص الوحيد فى العالم الذى لا تود أن تقابله منفردة. على أنه لم يكن لديهما متسع للتفكير أو الروغان، فاستسلمت بأهدأ ما استطاعت لما لا بد منه، من لحاقه بها، ورأته بادى الاضطراب، لا لسرعة مشيه ولكن للشعور الذى يُخالجه، قال: "تس!" فأبطأت سيرها دون أنت تلتفت فعاد يقول: "تس! أنا ألك دربرفيل"، فأجابت فى فتور: "أراك إياه"، قال: "أهذا كل ما هنالك؟" ثم أضاف فى ضحكة خفيفة: "على أنى لا أستحق غير ذلك! قد يبدو مضحكًا أن ترينى على هذه الهيئة، ولكن لا بد لى من احتمال سخريتك، لقد سمعت أنك رحلت إلى حيث لا يعلم أحد، تس.. أتعجبين من سبب تتبعى إياك؟"

قالت: "أجل، ووددت من صميم قلبى لو لم تفعل"، فأجاب مقطبًا وهما يتقدمان معًا وهى تنقل خطاها على كره: "نعم خليق بك أن تقولى ذلك، ولكن لا تسيئى الظن بقصدى، لعلك لحظت كيف فت ظهورك هناك فى أعصابى فظننت بى الظنون، ولكن ذلك لم يكن إلا هفوة لحظة، ولم يكن إلا أمرًا طبيعيًا إذا تذكرنا مكانتك القديمة منى، ولكن إرادتى تغلبت فى النهاية – وإن خيل إليك أنى أنافق إذ

أقول ذلك – وسرعان ما شعرت أن المرأة التى أسأت إليها تلك الإساءة البالغة، هى أحق الناس أن أؤدى نحوها واجبى وأعمل على تخليصها من عذاب الآخرة، ولك أن تبسمى سخرًا مما أقول، ولكنى لم آت إلا لهذا الغرض وحده".

قالت وفى صوتها رنة سخرية: "هل خلصت نفسك؟ إنهم يقولون إذا رمت الخير فابدأ بنفسك"، قال فى هدوء: "أنا لم أصنع شيئًا، إنما صنعت العناية كل شيء، كما كنت أقول لجمهورى، ومهما صببت علىَّ من احتقارك يا تس فلن تبلغى مقدار ما صببت عل نفسى وعلى شخصى الغابر، إنها لقصة عجيبة لك أن تصديقها ولك أن ترفضيها، ولكن فى مقدورى أن أشرح لك كيف اهتديت إلى الصراط المستقيم، ولعل لك من الاهتمام ما يكلفك مؤونة الإصغاء، هل سمعت قط باسم قس إمنستر كلير الشيخ؟ إنه لمن أشد رجال مدرسته تمسكًا بمذهبه، وأحد المجتهدين القلائل الذين بقوا فى الكنيسة، ليس يغلوَّ غلو الجناح المتطرف من المؤمنين المسيحيين الذين انحشرت فى زمرتهم، ولكنه نادر المثال بين سواد رجال الدين الذين بدأ محدثوهم يفسدون بالسفسطة عقائدهم الأصيلة، حتى لم يبق منها إلا ظلها، ولست أخالفه إلا فى مسألة الكنيسة والدولة، وشرح النص الذى يقول: (اخرج من بينهم وكن وحدك)، وإنى لواثق وطيد الثقة أن ذلك الرجل قد نجى فى تواضعه، عددًا من الخلق لم ينج مثله أحد فى هذا الإقليم، أسمعت به؟"

قالت: "سمعت" قال: "لقد وفد إلى ترنتردج من سنتين أو ثلاث واعظًا باسم جمعية تبشيرية، وكان من سوء أدبى أن أهنته إذ ذاك، حين دفعه حب الخير والإيثار إلى مجادلتى وهدايتى، فلم يحفظه سوء مسلكى بل قال إنه يأمل أن ينزل الله على قلبى هدايته يومًا، وأردف متمثلاً بقول جولد سمث: (إن كثيرًا ممن يقصدون الكنيسة للمجون، كثيرًا ما يمكثون فيها للعبادة)، وكان لكلماته سحر غريب فنفذت إلى قلبى، ولكن فقد أمى كان أبعد أثرًا، وبدأتُ شيئًا فشيئًا أرى وضح النهار، وصار همى الأكبر منذ ذلك الحين أن أهدى الآخرين إلى جادة الحق، وهذا ما كنت أحاول اليوم، وإن لم أبدأ الوعظ فى هذه الأصقاع إلا حديثًا، فقد صرفت الأشهر الأولى من خدمتى للكنيسة فى شمالى إنجلترا، بين أناس لا يعرفوننى آثرت

أن أحاول بينهم محاولاتى الأولى العاجزة، لأستجمع شجاعتى قبل أن يمتحن إخلاصى أقسى امتحان، بخطاب من عرفونى وكانوا رفقائى فى عهد الظلام، ولو أدركت يا تس لذة إنحاء المرء على نفسه فإنى واثق.."

صاحت به فى حنق وهى تنفلت عنه مزورة إلى مرتقى على جانب الطريق اعتمدت عليه: "كف! أنا لا أومن بمثل هذه النزعات الفجائية، وإنى لآبى عليك أن تخاطبنى بهذا الكلام وأنت تدرى... وأنت تدرى أى ضرّ أنزلت بى! إنك أنت وأضرابك تنالون كفايتكم من المتعة على قيد الحياة بإلقاء مثيلاتى فى وهدات الهموم والغصص والدياجى، ثم يروقكم وقد بشمتم أن تحتجنوا حظكم من نعيم الآخرة بالتوبة؛ بعدًا لك ولأمثالك، أنا لا أصدقك، أنا أمقتك!" قال: "تس! لا تتكلمى هكذا، لقد عرض لى هذا الأمر وأنا به مغتبط هانئ وها أنت ذى لا تصدقيننى، فأى شىء لا تصدقين؟" قالت: "توبتك وحسن عقيدتك"، قال: "لم؟" قالت وخفضت صوتها: "لأن رجلاً خيرًا منك لا يصدق كل هذا"، قال: "ما أشبه هذا بمنطق النساء! ومن ذاك الذى هو خير منى؟" قالت: "لا أحب أن أخبرك به".

أجاب وفى نبراته غيظ يتحفز للوثبة فى أية لحظة: "يأبى الله أن أقول إنى امرؤ فاضل، وأنت تعلمين أنى لا أدعى ذاك فإنى حديث العهد بالصلاح، ولكن الحديث العهد بالشىء بعيد النظر أحيانًا"، أجابت فى أسف: "نعم، ولكنى لا أعتقد أنك قد نزعت منزعًا جديدًا، وأخشى يا ألك أن أمثال هذه النزوة التى اعترتك لا تدوم!" قالت ذلك وهى تلتفت إليه من حيث كانت مشيحة عنه، فوقعت عيناه على محياها المعهود وقوامها المألوف فظل يتأملها؛ لقد سكن جانبه الأسوأ فى باطنه ولكنه لم ينتزع ولم يخضع تمام الخضوع؛ وانتهرته تس: "لا تنظر إلى هكذا!".

قالت ذلك عفوًا دون أن تنتبه إلى سيماء الغضب التى جابهته بها، ثم عادت فاسترجعت تلك النظرة المتجهمة المتقحمة واحمر وجهها خجلاً وتمتمت: "معذرة" وعاودها ذلك الشعور المنحوس الذى طالما ساورها من قبل: شعورها بأنها بارتدائها تلك المحاسن الجسدية التى حبتها بها الطبيعة، تبادى الناظرين بالإساءة؛ قال: "لا، لا، لا تسأليني معذرة، ولكن ما دمت تلبسين لثامًا لإخفاء محاسنك فلم لا

تسدلينه؟" فأسدلته وقالت فى عجلة: "إنما لبسته اتقاء للريح"، قال: "ربما كان من الغلظة أن أُملى عليك هكذا، ولكن الأجدر ألا أطيل إليك النظر، فربما جر ذاك وبالاً"، قالت: "صه!" قال: "الحق أن وجوه النساء طالما غلبتنى على أمرى، فيحق لى أن أخشاها، وليس بين التقى والورع وبين وجوه الغوانى من سبب، والنظر إلى هذه المفاتن يذكرنى أيامى السالفة التى أحب أن أنساها".

وعند هذا الحد انصرف حديثهما إلى توافه الأشياء واستطردا فى طريقهما وتس تسائل نفسها من آن إلى آخر إلى أى مدى هو ملازمها، وهى تكره أن تأمره بالرجوع أمرًا، وكانا يجاوزان بوابات الحقول ومراقى الطرق فيريان كثيرًا منها قد نقش عليه بالطلاء الأحمر أو الأزرق آيات من الإنجيل، فسألته إن كان يدرى من الذى تكبد عناء نقش تلك الإرشادات، فأخبرها أنه هو وقومًا آخرين يعاونونه فى ذلك الإقليم استأجروا رجلاً لكتابة هذه المواعظ، حرصًا منهم على استخدام كل وسيلة لإيقاظ ضمائر هذا الجيل العاصى.

وأخيرًا أدَّاهما الطريق إلى البقعة المسماة (كروس إين هاند) وهى أوحش بقعة على تلك الهضبة المقفرة الجرداء، وكانت على نقيض تلك المناظر الفاتنة التى ينشدها المصورون وعشاق الطبيعة، حتى لقد اكتست ضربًا من الجمال جديدًا جمالاً سلبيًا ذا وقع مؤس، وكانت قد سميت باسمها ذاك لقيام عمودى حجرى مصمت غريب ساذج الصنع هناك، مبنى من طبقة من أحجار الأرض لا نظير لها فى كل محاجر تلك المقاطعة، قد نقشت عليه يد آدمية نقشًا غير محكم، وكانت تروى روايات متناقضة عن تاريخ ذلك العمود ومغزاه: فمن قائل إن صليبًا ذا غرض دينى كان يقوم هناك فلم يبقَ منه إلا جذعه ذاك، ومن قائل إن ذاك الجذع هو كل البناء لم يفقد شيئًا، وإنما أقيم هناك تحديدًا للتخوم أو تعيينًا لموضع اجتماع، وأيًا كان منشأ ذلك الأثر فإن المنظر المحيط به كان يبدو حينًا فظيعًا وحينًا رهيبًا، حسب ما يساور العابر من خوالج، ويؤثر فى نفس من رآه مهما بلغ من الغفلة.

قال وهما يدانيان تلك البقعة: "لا بد أن أدعك الآن، فإن على أن أعظ فى (أبوتس كرنل) فى السادسة من هذا المساء، وطريقى تجتاز هذا السهل ثم تميل يمينًا، ثم إنك يا عزيزتى تهيجيننى على نحو لا أدريه ولن أحاول تعليله، فلا بد لى من مفارقتك واستعادة قواى، أنَّى لك اليوم يا تس هذه الذلاقة فى الحديث، ومن ذا الذى لقنك هذه الإنجليزية النقية؟ قالت تتجنب الرد الصريح: "لقد تعلمت أشياء فى محنتى"، قال: "ما محنتك؟" فأخبرته بأولاها وهى المحنة الوحيدة التى تمت إليه، فأفحم ثم عاد متمتمًا: "لم أعلم هذا قبل اليوم! هلاًّ كتبت إلىَّ حين أحسست بدنو محنتك؟".

فلم تجب، وقطع الصمت بقوله: "سنتلاقى ثانية" قالت: "لا. لن تدنو منى ثانية!" قال: "سأتدبر، ولكن قبل أن نفترق تعالى هنا"، ومشى إلى العمود واستطرد: "لقد كان هذا فيما مضى صليبًا مقدسًا، وأنا لا أومن بالآثار ولكنى أخشاك أحينًا، أكثر جدًا مما يجدر أن تخشينى الآن، ولكى تخفضى جزعى أريدك أن تضعى يدك على تلك اليد المنقوشة وتحلفى أنك لن تغرينى بمفاتنك أو بمسلكك أبدًا"، قالت: "يا إلهى! فيم تسألنى ما لا حاجة إليه قط وهو أبعد الأمور عن ذهنى؟" قال: لتقسمن"، وأفزعها إلحافه واستلمت الحجر، وأقسمت واستطرد: "يحزننى أنك غير مؤمنة وأن ملحدًا قد سيطرد عليك وأزاغ عقيدتك، ولكن حسبى هذا الآن، وفى وسعى أن أصلى لك فى دارى، ومن ذا الذى يدرى ما يكون؟ والآن وداعًا".

والتفت إلى بوابة حقل يستخدمها الصائدون، ووثب عليها دون أن يرجع البصر إلى تس، وراح يضرب وسط الحشيش يقصد (أبوتس كرنل)، وكانت خطواته تدل على تبلبل خاطره، وسرعان ما أخرج من جيبه كتيبًا وكأنه ينفذ فكرة كانت تساوره من مدة، وأخرج من بين صفحات الكتيب رسالة مطوية رثة مبتلة، كأنه كان دائب القراءة لها، ونشرها وكان عليها تاريخ يعود إلى ما قبل أشهر وعليها إمضاء القس كلير، وكانت مستهلة بارتياح القس العميق إلى توبة دربرفيل، وشكره إياه على مكاتبته إياه فى الأمر، وبعد ذلك يؤكد القس أنه يعفو مخلصًا عما أسلف إليه دربرفيل، ويتمنى للشاب التوفيق فى خططه المستقبلة، ويقول إنه كان يود لو لأى دربرفيل ينضوى إلى الكنيسة التى كرس السنين الطوال لخدمتها، وإنه

كان مستعدًا لإدخاله كلية من كليات اللاهوت لهذا الغرض، ولكن ما دام الشاب لم يرد ذلك لأن سبيله طويلة بطيئة، فإنه لا يلحف عليه، فإن لكل إنسان أن يعمل على الوجه الذى يلائمه، وعلى النحو الذى يحس أن الخالق يدفعه إليه.

تلا دربرفيل الرسالة وأعاد التلاوة مرارًا، وبدا عليه كأنه ينحى على نفسه بالتقريع، وقرأ كذلك بعض المذكرات وهو فى طريقه، حتى شاع الهدوء فى وجهه ولم تعد صورة تس تقلق باله. أما هى فكانت قد تابعت حافة التل سالكة أقرب سبيل إلى مسكنها، ولم تكد تسير ميلاً حتى قابلها راع وحيد فسألته: "ما مغزى ذلك الحجر القديم الذى جاوزته؟ أكان صليبًا مقدسًا فيما مضى؟" قال: "صليبًا؟ كلا، لم يكن يومًا ما صليبًا، وإنما هى بنية منحوسة أقامها قديمًا أقرباء رجل شرير عذب هناك بتسمير يده إلى عمود وشنقه بعد ذلك، وعظامه تحت الأثر، ويقال إنه باع الشيطان روحه، وإنه يدب أحيانًا حيًا ساعيًا".

أجفلت تس لسماع هذا النبأ الفظيع، وخلفت الرجل وراءها، ودانت فلنتكوم آش والليل يرخى سدوله؛ وصادفت فى الدرب الممتد عند مدخل القرية فتاة وعاشقها لم يحسا باقترابها منهما، ولم يكونا يتساران، وكان صوت الفتاة خالصًا صريحًا فى ردها على صاحبها الذى كان صوته أشد تهدجًا، وكان الصوتان يسريان فى جو المساء البارد الساكن الغامض، فكانا هما الصوتين المأنوسين الوحيدين هناك، فشرحا صدر تس لحظة، حتى انطلق فكرها من عقاله، فبدا لها أن هذا اللقاء بين العاشقين إنما ساق إليه افتتان أحدهما بالآخر كافتتانها الذى جرعها هذه الغصص، وحين دنت منهما التفتت الفتاة تنظر من القادم، وعرفت تس ومضى الرجل عنها مرتبكًا.

وكانت الفتاة هى إيزهيوت التى سرعان ما طغى اهتمامها برحلة تس على شغلها بشئونها الخاصة، ولم تشرح تس نتيجة الرحلة فى وضوح، وراحت إيز – وكانت فتاة أريبة – تتحدث فى قصتها الصغيرة التى رأت تس فصلاً منها، قالت: "ذاك (آمبى سيدلنج) الذى كان يعمل أحيانًا فى تلبوثيز، وقد أطال سؤاله عنى حتى علم بمقدمى إلى هذا المقر، فتبعنى، وهو يقول إنه متيم بى منذ سنين، ولكنى لم أكد أجيبه بشىء".

مضت أيام على رحلة تس المخفقة؛ وقامت ذات يوم في الحقل، وكانت ريح الشتاء الجافة لا تزال تهب، ولكنها كانت تحتمي من عصفها بأقفاص معروشة بالقش، قد قامت على الجانب المحمي منها آلة تخرط اللفت ذات لون أزرق لامع يكاد ينطق في ذلك المنظر الكابي، أمامها كوم طويل من التراب قد حفظت فيه جذور اللفت منذ أوائل الشتاء؛ وكانت تس واقفة عند الطرف الذي كشف فيه عن اللفت، تميط بسكين في يدها ألياف الجذور وترابها، وتلقي بها في الآلة، وكان رجل يدير الآلة فتخرج من فجوة فيها الجذور المخروطة صفراء تنبعث منها رائحة منعشة، يصحبها لغط الريح وصليل النصال التي تخرط الجذور، ووقع المدية التي في يد تس ذات القفاز.

وكانت تلك المساحة المترامية من الأرض الزراعية الداكنة التي ظهرت للعين حيث اقتلع اللفت، قد بدأت تشق خطوطًا أشد دكنة تتحول رويدًا رويدًا شرائط عريضة، وكان يزحف على حافة كل شريط منها شيء ذو عشرة سيقان لا يسرع ولا يتواني، يزرع الحقل ذهابًا وإيابًا، وكان ذلك الشيء حصانين ورجلاً يتحرك بينهم محراث يشق الأرض تمهيدًا لزراعة الربيع، واستمرت الأمور على هذه الوتيرة المملة ساعات دون أن يجدَّ جديد.

ثم بدت نقطة سوداء على مدى بعيد وراء الخيول الحارثة، بزغت من ثغرة وشيع وراحت تصعد المنحدر تقصد خارطي اللفت، وتزايد حجمها من نقطة مجردة إلى حجم الكرة، وسرعان ما لاح أنها رجل يرتدي السواد آت من صوب فلنتكوم آش، وإذ كان الرجل الذي يدير الآلة لا يدري ما يصنع بعينيه فقد سددهما إلى القادم، أما تس التي كانت مشغولة فلم تره حتى وَجَّه رفيقها انتباهها إلى اقترابه ولم يكن القادم هو المزارع (جروبي) مستخدمها الغليظ، بل كان رجلاً في نصف ثياب القسوس، وهو المظهر الذي آض يظهر به ألك دربرفيل ذلك المترف القديم وإذ لم يكن في موقف الخطابة والاحتدام إذ ذاك فقد كان ساكن الهيئة، وقد ربكه وجود العامل على ما يظهر.

امتقعت تس غمًا، وزادت قبعتها ذات الحافة إرخاءً على وجهها، ومشى إليها دربرفيل وقال فى هدوء: "أريد أن أحادثك يا تس"، قالت: "أبيتَ علىَّ آخر ما طلبت منك، طلبت منك أن تظل عنى بعيدًا!" قال: "نعم، ولكن لسبب وجيه"، قالت "أخبرنى به"، قال: "الأمر أهم مما تظنين"، وأجال بصره حوله ليرى أيسمع حديثه أحد، فرأى أنهما على مدى من الرجل الذى يدير الآلة، وأن صوت الآلة يحول دون وصول كلماته إلى آذان الآخرين، وأولى العامل ظهره ليحجب عنه تس، واستطرد ممعنًا فى الإعراب عن تأنيب ضميره إياه وقال: "الأمر الذى أتى بى هو أنى كنت فى شغل بأمر روحى وروحك عندما تلاقينا للمرة الأخيرة، فأهملت الخوض فى حالتك المعيشية، وقد كنت حسنة البزة فلم أفكر فى الأمر، ولكنى أرى الآن أنك تشقين، وأن شقاءك أشد مما كان يوم... يوم عرفتك، أشد مما تستحقين، ولعل أكبر الذنب فى ذلك عائدًا إلىّ!"

لم تجب تس وراح يتأملها متسائلاً، وهى تعاود تشذيب اللفت محنية الرأس مختفية الوجه تحت قلنسوتها تمام الاختفاء، وقد أحست أن الانهماك فى عملها يقدرها على مقاومة زائرها واستبعاده عن عواطفها، واستطرد متنهدًا أسفًا: "إن حالتك أسوأ ما عرفت، ولم أكن أعلم بالنتيجة حتى أخبرتنى، ما كان ألئمنى وغدًا إذ دنست هذه الحياة البريئة! إن الذنب كله ذنبى، وكل ما كان من علاقتنا الشاذة فى ترنتردج فلومه عائد إلىَّ، إنى أقول جادًا كلَّ الجد إن من العار على الآباء أن ينشئوا بناتهم جاهلات ذلك الجهل الخطر بالفخاخ والأحابيل التى ينصبها لهن الأشرار، سواء أكان الآباء يصدرون فى ذلك عن قصد حسن أم عن إهمال".

لم تزد تس على الاستماع وهى ترمى بجذر مستدير وتتناول غيره فى حركة آلية منتظمة، وليست عليها إلا سيماء عاملة فلاحة سابحة فى أحلامها، واستطرد: "ولكنى لم آت لأقول هذا، إن ظروفى الحالية هى هذه: لقد فقدت أمى بعد مغادرتك ترنتردج وآل المنزل إلىَّ، ولكنى أعتزم بيعه ووقف حياتى على التبشير فى أفريقيا، ولا شك أنى سأكون من أعجز العاجزين فى هذا العمل، ولكنى على كل حال أريد أن أطلب منك شيئًا، فهل لك فى مساعدتى على أداء واجبى،

والتكفير بالطريق الوحيد المستطاع عن اختداعى إياك؟ هل لك أن تكونى زوجى وتصاحبينى؟ لقد حصلت على هذه الوثيقة النفيسة، وقد كانت هى أمنية أمى فى احتضارها"، وتحسس فى جيبه فى ارتباك ثم استخرج رقًا.

قالت تس: "ما هذا؟" قال: "وثيقة زواج"، فأجابت على عجل متقهقرة: "لا يا سيدى، لا!" قال: "لا تريدين؟ لِمَ؟" وارتسمت على وجهه أمارات خيبة. ظن ليست كلها خيبة ظن من حيل بينه وبين واجبه: بل بدا جليًا أن بعض صبابته القديمة بتس قد انتبهت، وقد اطلحت الرغبة والواجب فى نفسه، وعاد يقول فى لهفة: "ولكن..."، ثم التفت جهة العامل الذى يدير الآلة، وأحست معه تس أن ذلك الحديث لا يمكن أن يفرغ منه في موقفهما ذاك، فأخبرت العامل أن سيدًا جاء لزيارتها وأنها تود مسايرته قليلاً، وتركته ومشت مع دربرفيل يجتازان الحقل المخطط كحمار الوحش، فلما بلغا قسم حديث الحراثة مد يده يساعدها، ولكنها تقدمت قافزة على رعوس القلاع كأنها لا تراه.

ولم يكادا يجتازان الأتلام حتى عاد يقول: "ألا تتزوجيننى يا تس وتجعلين منى رجلاً يحترم نفسه؟" قالت: "لا أستطيع" قال: "لم؟" قالت: "إنك لتعلم أنى لا أحمل لك حبًا"، قال: "ولكنك ستحبيننى بمرور الزمن، وربما أحببتنى حالما تستطيعين العفو عنى"، قالت: "لن أحبك أبدًا!" قال: "لم هذا الوثوق؟ " قالت: "لأنى أحب سواك"، فبدت عليه الدهشة وقال: "تحبين سواى؟ ولكن ألا تقيمين اعتبارًا لما يرضاه الخلق القويم واللياقة؟" قالت، "صه! كف! لا تقل هذا!" قال: "على كل حال ربما كان حبك لذلك الرجل الآخر شعورًا عابرًا ستتغلبين عليه..".

فقاطعته: "لا، لا"، فأجاب: "أجل، أجل! لم لا؟" قالت: "لا أستطيع أن أخبرك" قال: "يحتم عليك الشرف أن تخبرينى"، قالت: "إذن لقد تزوجته!" قال: "آه!" ووجم محملقًا فيها، وقالت فى لهجة توسل: "لم أكن أريد أن أخبرك، أن الأمر هنا سر أو هو على الأقل لا يُعرف إلا لمامًا، فهل لك أن تكف عن مساءلتى؟ يجب أن تذكر أننا الآن غريبان أحدنا عن الآخر"، قال: "غريبان؟ أحقًا؟ غريبان!" ومرت بذهنه لمحة من لمحات تهكمه القديم ولكنه تماسك حتى بددها، وقال فى لهجة آلية مشيرًا

إلى العامل الذى يدير الآلة: "أذلك الرجل زوجك؟" قالت فى إباء: "ذلك الرجل! ليس هناك!" قال: "فمن هو؟" قالت: "لا تسألنى فيما لا أحب أن أفضى إليك إيه" ورفعت إليه وجهها متوسلة مرسلة أهدابها.

ساور دربرفيل التشوف فقال فى حدة: "إنما لمصلحتك أسألك! ياالله! إنى أقسم أنى ما أتيت هنا إلا لنفعك؛ لا تنظرى إلى هكذا يا تس، أنا لا استطيع مقاومة محاسنك! فمثل هاتين العينين لم تخلقا قط قبل المسيحية ولا بعدها! كفى، لن أتهور، وليس لى أن أتجاوز حدى، إنى أعترف أن رؤيتك قد أثارت كمين حبى لك، وكنت اعتقدت أنه مات كما مات غيره، ولكنى حسبت أن فى الزواج معصمًا لكلينا وقلت لنفسى: إن الزوج المارق تقيمه الزوجة، والمرأة المارقة يقومها البعل، ولكن خطتى قد أفسدت على، وعلىَّ أن أتحمل هذه الخبيبة!".

وأطرق يفكر فى قنوط، وعاد يقول فى هدوء وهو يمزق الوثيقة اثنين ويضعها فى جبيبه: "متزوجة! متزوجة! حسن، ما دام الأمر كذلك، وما دام قد حيل بينى وبين ذاك، فإنى أحب أن أحسن إليك أنت وزوجك أيا كان، وثمة أسئلة أود أن أسألها، ولكنى طبعًا لن أفعل نزولاً على إرادتك، وإن كنت أستطيع أن أنفعك أنت وزوجك لو عرفته؛ أهو يعمل فى هذه المزرعة؟" قالت: "لا بل هو نازح"، قال: "نازح؟ نازح عنك؟ أى ضرب من الأزواج ذاك؟" قالت: "لا تنله بمذمة، لقد كان الذنب ذنبك.. لقد عرف.. " قال: "أهكذا؟ هذا مؤلم يا تس؟" قالت: "نعم"، قال: "ولكن أينزح ويدعك تكدحين على هذا النحو؟".

فأقبلت تدافع عن الغائب بكل حماستها، قالت: "لم يدعنى أكدح! هو لا يعلم أنى أشتغل، إنما أشتغل بمحض مشيئتى"، قال: "فهل يكتب إليك؟" قالت: "لا أستطيع أن أخبرك، من الأشياء ما هو خاص بنا"، قال: "معنى هذا طبعًا أنه لا يكتب، أنت زوج مهجورة يا حسنائى تس" ونزت بنفسه نزوة فمال يريد أن يأخذ كفها، وكان قفاز العمل عليها فلم يقبض إلا على الأصابع الجلدية الخشنة التى لا تعبر عن الحياة والشكل اللذين يحتويهما القفاز، وصاحت فى فزع: "إليك عنى"! وسحبت يدها من القفاز كما تسحبها من جيب وتركته فى قبضته، واستطردت: "أتوسل إليك

أن تذهب.. من أجلي أنا وزوجي، اذهب باسم مسيحيتك!" قال في اقتضاب: "نعم، نعم، أذهب"، ورمى القفاز إليها ودار يبغي المضي، ولكنه عاد فالتفت إليها قائلاً: "تس.. أقسم بالله العلام ما قصدت سوءًا بتناول يدك!".

ووقعت خلفها خطوات حصان لم يكونا قد انتبها إلى وقعها على التربة، لشغلهما بما هما فيه، وسمعت تس صوتًا يقول: "عجبًا! ماذا تصنعين بعيدًا عن عملك في هذا الوقت من النهار؟" وكان المزارع (جروبي) قد لاحظ شخصيهما من بعد فاجتاز الحقل إليهما مستطلعًا ليرى ما يفعلان في حقله، قال دربرفيل وقد تجهم وجهه غضبًا لأمر غير المسيحية في هذه المرة: "لا تخاطبها هذا الخطاب"، قال الرجل: "عجبًا يا سيدي! وأي علاقة لها بغلاة القسس؟" فالتفت دربرفيل إلى تس قائلاً: "من هذا؟" فمشت إليه قائلة: "اذهب، أتوسل إليك أن تذهب"، قال: "كيف؟ أتركك وهذا الجاهل؛ إني لأرى من سيمائه أي وغد هو"، قالت: "ليس عليَّ بأس منه، هو غير مفتون بي، ولي أن أتركه في يوم العذراء القديم"، قال"لا أخالني أستطيع إلا الإذعان لمشيئتك ولكن... وداعًا".

ولما مضى المدافع عنها كارهًا - وكانت أشدَّ خشية له منها للمهاجم - استطرد المزارع في تقريعها، فتقبلت تقريعه في أتم هدوء، إذ كان هجومه بريئًا من الصفة الجنسية، وكانت تكاد تشعر بالراحة بعد تجاربها الماضية، حين ترى لها رئيسًا غليظًا لم يكن ليتوانى عن لطمها لو جرؤ، وعادت في صمت إلى رأس الربوة مقر عملها، وكان فكرها من الاستغراق في زورة ذلك الزائر، بحيث لم تكد تنتبه إلى أن أنف حصان جروبي يكاد يلامس كتفها، وزمجر الرجل قائلاً: "ما دمت قد اتفقت على العمل عندي إلى يوم العذراء القديم، فسأعرف كيف أنفذ الاتفاق، يا لكن من شقيات! تردن اليوم أمرًا وسواه غدًا، ولكني لن أسمح بهذا بعد اليوم!".

وإذا كانت تس تعلم حق العلم أن الرجل يرهقها إرهاقًا لا يرهقه الأخريات بسبب تلك الضربة التي طرحته أرضًا، لم يسعها إلا أن تتخيل وهلة واحدة ما عسى كانت تكون النتيجة، لو كان في مقدورها أن تقبل ما عرض عليها من أن

تكون زوجًا غنية لألك دربرفيل. إن ذلك يستنقذها دفعة واحدة من رضوخها لا لمستخدمها الغليظ فقط، بل لعالم بأكمله يلوح كأنه يزدريها، قالت وهى تلهث: "ولكن لا، لا، لم أكن لأرضى بالاقتران به، إنه لبغيض إلى أى بغض!".

وفى تلك الليلة بعينها شرعت فى كتابة رسالة توسل إلى كلير، أخفت عنه فيها خصاصة حالها وأكدت له حبها الذى لا ينقضى، ولو كان فى استطاعة أحد أن يقرأ بين سطورها، لاستطاع أن يتبين وراء حبها العظيم خوفًا فظيعًا يقارب اليأس، خوفًا من أمور مقبلة عليها بصدورها لم تبح بها، على أنها فى هذه المرة أيضًا لم تكمل إفراغ عواطفها: لقد طلب من إيز أن ترافقه، ولعله لم يعد يحمل لها هى أدنى حب؛ ووضعت الرسالة فى صندوقها، وساءلت نفسها إن كانت ستقع تلك الرسالة فى يد إينجل يومًا.

واستغرقت فى أعمالها اليومية التى تكاثرت، حتى كان اليوم الذى يهتم له المزارعون أجل اهتمام، يوم سوق (كندلماس)، وفيه يذهب إلى البلدة التى تقوم فيها السوق كل مشتغل بالزراعة يريد أن ينتقل متى انتهى أجل عقده إلى غير المزرعة التى يعمل بها، وكان جل عمال مزرعة فلنتكوم آش ينوون الإباق منها، فلم يبزغ النهار حتى خرجت زمرهم قاصدة البلدة، وكانت على مسافة عشرة أميال أو اثنى عشر ميلاً فى طريق وعرة، ومع أن تس أيضًا كانت تنوى أن تنتقل عند انتهاء عقدها، فإنها كانت ضمن القلائل الذين لم يخرجوا إلى السوق، إذ كان يساورها أمل مبهم فى أن أمرًا سيعرض فيجعل من غير الضرورى اللجوء إلى العمل من جديد.

كان اليوم يومًا هادئًا من أيام فبراير نادر المثال لطفًا فى ذلك الفصل، حتى ليخيل للمرء أن الشتاء انصرم؛ ولم تكد تس تفرغ من غدائها حتى تعرض شبح دربرفيل بنافذة الكوخ الذى كانت تقيم به والذى كان خاويًا عليها فى ذلك النهار، فوثبت قائمة، ولكن زائرها كان قد دق الباب ولم يعد من المستطاع أو المعقول أن تهرب، وأحست فرقًا لا يوصف كنهه بين دق دربرفيل ومشيته إلى الباب، وبين هيئته حين رأته لآخر مرة، وهمت أن ترفض أن تفتح، ولكنها لم تر هذا أيضًا معقولاً، فنهضت ورفعت المزلاج ثم تراجعت عجلى، ودخل فرآها وارتمى فى مقعد قبل أن يقول شيئًا.

ثم أنشأ يقول فى لهجة يائسة وهو يمسح وجهه المحرور وكان متوهجًا بادى الانفعال: "تس! لم يسعنى إلا المجىء! لقد بدا لى أن أجىء لأرى على الأقل كيف حالك؛ أؤكد لك أنى لم أفكر فيك قط حتى رأيتك عصر ذلك الأحد، والآن لا أستطيع الفرار من خيالك مهما حاولت! إن من المؤلم أن تضر امرأة صالحة برجل طالح، ولكن هذه هى الحقيقة؛ ليتك تصلين من أجلى يا تس!" وكان ألمه الذى يغالبه يكاد يستثير الرثاء، ولكن تس لم ترث له، قالت: "كيف أصلى من أجلك على حين يحرم على أن أعتقد أن القوة العظمى التى تحرك العالم تغير خططها من أجلى؟".

قال: "أحقًا تعتقدين ذلك؟" قالت: "نعم، لقد عولجت من ادعاء أنى أعتقد غيره"، قال: "عولجت؟ من عالجك؟" قالت: "زوجى، إن كان لا بد أن أخبرك"، قال: "آه! زوجك! زوجك! ما أغرب هذا! أذكر أنك أشرت إلى الأمر فى حديثنا السالف؛ ما حقيقة عقيدتك فى هذه المسائل يا تس؟ يخيل إلىَّ أنك لا تدينين بدين، ولعلى أنا الملوم"، قالت: "بل لى دينى وإن لم أدن بالخوارق"، فرمقها رمقة جزع وقال: "أتظنين إذن أن النهج الذى أنتهجه خطأ كله؟" قالت: "جانب كبير منه"، قال فى قلق: "ومع ذلك فقد كنت وطيد الإيمان به"، قالت: "أنا أومن بروح خطبة المسيح على جبل الزيتون، وكذلك زوجى العزيز يؤمن بها... ولكنى أرفض أن أومن..."، وسردت ما ترفض.

قال دربرفيل فى جفاء: "الحقيقة أنك تقبلين كل ما يؤمن به زوجك العزيز، وترفضين كل ما يرفض، دون بحث منك ولا تعليل، وهذا شبيه بكن معشر النساء، وعقلك مستعبد لعقله"، قالت وعليها سيماء ظفر ساذج وإيمان بإينجل كلير لا يكاد يستحقه أكمل الرجال بله زوجها: "نعم، لأنه يعرف كل شىء!" قال: "نعم، ولكن لا يجدر بك أن تتلقفى الآراء الرافضة جملة على هذا النحو من شخص آخر؛ لا بد أنه رجل لبق إذ بث هذا الشك فى نفسك!" قالت: "ما فرض على رأيًا قط ولا أراد مناقشتى فى تلك المسائل يومًا! ولكنى كنت أنظر إلى الأمور من هذه الناحية: إن ما يؤمن به هو بعد فحص عميق للمذاهب أحرى أن يكون صحيحًا مما قد أعتقد أنا ولم أنظر فى المذاهب قط!" قال: "ماذا كان يقول؟ لا بد أنه قال شيئًا!".

فكرت تس ثم استحضرت بذاكرتها الواعية التى كانت تستوعب ألفاظ كلير نفسها بله معانيها، قضية جدلية صارمة سمعته يستخدمها مرة، حين اندفع يتحدث وهى بجانبه كمن يفكر علناً، وأدلت بها ممثلة لهجة كلير وأداءه تمثيل إخلاص وإجلال، وأنصت إليها دربرفيل فى أتم انتباه ثم قال: "ألديك غير هذا؟" قالت: "قال مرة أخرى ما معناه.." وحكمت قضية أخرى ربما وجد القارئ لها ضريبًا فى تلك السلالة من الكتب التى تبدأ (بالقاموس الفلسفى) وتنتهى (بمقالات هكسلى)، قال: "آه... ها! أنى لك تذكر كل هذا؟".

قالت: "كنت أحب أن أعتقد ما يعتقد، وإن لم يرد هو ذاك، وما زلت أتحايل لديه حتى أفضى إلى ببعض أفكاره، ولا أدعى أنى أفهمها حق الفهم ولكنى واثقة من صحتها"، قال: "عجبًا! إنك لتعلميننى ما لا تعلمين أنت نفسك!" واستغرق فى التفكير واستطردت تقول: "وهكذا جعلت حظى الروحى حظه، ولم أرد أن يختلف الحظان، فما يصلح له يصلح لى"، قال: "أيعلم أنك شريكته فى المروق؟" قالت: "كلا، لم أخبره قط، إن كنت مارقة حقًا"، قال: "إنك خير منى حالاً اليوم يا تس! فأنت لا تعتقدين أن واجبك أن تبشرى بعقيدتى ومن ثم لا تعصين ضميرك بامتناعك عن التبشير، أما أنا فأعتقد أن واجبى التبشير، ولكنى كالأبالسة أومن وأرتعد، فأنا أنبذ التبشير أحيانًا وأستسلم لهيامى بك".

قالت: "كيف؟" قال فى جفاء: "كيف؟ لقد ذرعت كل هذا الطريق الطويل إليك اليوم! ولكنى بدأت رحلتى قاصدًا سوق كستربردج حيث كنت تعهدت بالتبشير بالإنجيل من عربة فى منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر، وحيث ينتظرنى جمع الإخوان هذه الساعة، وهاك الإعلان"، وأخرج من صدره إعلانًا مكتوبًا عليه يوم الاجتماع وساعته ومكانه حيث يقوم بالتبشير، فنظرت تس إلى الساعة وقالت: "ولكن كيف تستطيع الذهاب إلى هناك؟" قال: "لا أستطيع الذهاب إلى هناك، لقد جئت إلى هنا!" قالت: "ماذا؟ أبعد أن تعهدت بالخطابة...؟."

قال: "تعهدت بالخطابة ولن أذهب، لا لسبب إلا لهفتى إلى رؤية امرأة كنت فيما مضى أحتقرها! حاشا! قسمًا بشرفى ما احتقرتك يومًا يا تس، ولو فعلت لما أحببتك اليوم! وسبب عدم احتقارى إياك أنك لم تدنسى رغم كل شىء، بل أصررت على الانفتال عنى مسرعة حين عرفت الموقف، ولم تظلى طوع هواى، فكان فى الدنيا أنثى لم أحتقرها وهى أنت، ولكن لك أنت أن تحتقرينى الآن! فقد حسبتنى أتعبد على الجبل إذا أنا مستعبد فى الغياض! هاها!" قالت: "ألك دربرفيل! ما معنى هذا؟ ماذا كان منى؟" قال فى سخر مرير: "ماذا كان منك؟ لم يكن منك شىء عن عمد، ولكنك كنت الوسيلة، الوسيلة البريئة لصبوى؛ إنى لأسأل نفسى أأنا حقًا أحد عبيد الإثم الذين يعودون بعد فرارهم من أوضار الحياة فيتورطون فيها ويغلبون على أمرهم، وتكون نهايتهم الثانية شرًا من بدئهم؟".

ووضع يده على كتفها واستطرد وهو يهزها هزة تدليل كأنها طفلة: "تس! بنيتى! لقد كنت فى طريقى إلى التطهر الاجتماعى على الأقل حتى عدت إلى لقائك! فلم أغريتنى؟ لقد كنت كأثبت ما يكون الرجل إيمانًا، حتى رأيت تينك العينين وذاك الفم من جديد، هيهات أن يكون قد خلق فم أفتن من هذا منذ حواء!" وخفت صوته وتطايرت من عينيه السوداوين نظرة شهوة عارمة، وعاد يقول: "أيتها المغرية العزيزة تس! أنت أيتها الساحرة البابلية! لم أستطع مقاومتك حالما رأيتك ثانية!".

قالت وهى تتراجع: "أنا لم أقصد أن ترانى ثانية!" قال: "أنا أعلم ذاك وأكرر أنى لا ألومك، وحين رأيتك تلقين سوء المعاملة ذلك اليوم فى المزرعة، كدت أجن لعدم امتلاكى الحق الشرعى للدفاع عنك، وعدم إمكانى الحصول على ذلك الحق، على حين يهملك من يملكه إهمالاً يلوح لى تامًا!" قالت وقد بلغ منها الاضطراب: "لا تسئ إليه إنه غائب! ارع غيبته فإنه لم يسئ إليك! ودع زوجه وشأنها قبل أن تشيع مقالة سوء تدنس اسمه الكريم!" قال كمن ينتبه من حلم لذيذ: "سأفعل، سأفعل، لقد حنثت بوعدى بالخطابة فى أولئك الحمقى السكارى فى السوق، وهذه أول مرة أمارس فيها هذه النكتة العملية، ولو تصورت مثل هذا العمل منذ شهرين لهالنى، سأذهب أقسم أنى.... ولكنى أيمكننى؟".

ثم عاد يقول: "ضمة واحدة يا تسى! بحق الصداقة القديمة!" قالت: "أنا عزلاء يا ألك، وشرف رجل كريم فى صيانتى، تذكر وارعوا!" قال متأففًا: "إخالك على صواب"، وزم شفتيه حنقًا على نفسه لضعفه، وقد غاب عن ناظريه الإيمان بالدين والدنيا معًا، ولاحت جثث تلك الشهوات المتنزية القديمة، التى ظلت عديمة الحراك على أساريره منذ توبته، كأنها تعاود الحياة، وتلتئم كأنما بعثت، وخرج مترددًا.

صرح دربرفيل بأن حنثه بوعده ذلك النهار كان راجعًا إلى ردته، ولكن كلمات تس التى رددت صداها عن إينجل كلير قد أثرت فى نفسه تأثيرًا عميقًا، وظلت تعمل عملها بعد ذهابه. ومشى صامتًا كأنما خدرت نشاطه الفكرة التى لم تطرأ له من قبل: فكرة إمكان أن تكون عقيدته على غير شىء، فإن توبته الطائشة لم تقم على شىء من المنطق، ولعلها لم تكن إلا نزوة رجل مستهتر ينشد لذة جديدة، وقد ثبت موت أمه تلك النزوة تثبيتًا مؤقتًا، والآن كانت قطرات النطق التى صبتها تس فى بحر حماسته. كافية لإبراد حرارته، حتى جمدت، وقال فى نفسه وهو يتدبر مرة بعد أخرى تلك الجمل المركزة المعنى، التى ألقتها إليه: "غاب عن ذلك الفتى البارع أنه بإخبارها بتلك الأمور إنما يمهد لى سبيل العودة إليها!".

اليوم تدرس آخر عرمة من عرم القمح فى مزرعة فلنتكوم آش، وكان يومًا من مارس طلع فجره غائب المعالم لا يعرف أين مشرقه، وكانت تلوح وسط الغسق قمة العرمة ذات الشكل الشبيه بالمنحرف، وكانت العرمة قد قامت فى موضعها هذا منذ حين، واختلفت عليها الأنواء تغسلها مرة وتحيل لونها أخرى ولما وصلت تس وإيز إلى مسرح العمل لم تتبينا إلا لسماعهما حركة ذات حفيف أن غيرهما قد سبقنهما، ولما تبين الضوء لاح بجانب النسوة شبحًا رجلين على القمة، منهمكين فى إزالة سقف العرمة قبل البدء فى رمى الحزم؛ وفى أثناء ذلك وقفت تس وإيز والعاملات الأخريات فى شملاتهن البيضاء الضاربة إلى الدكنة، ينتظرن فى ارتعاد، وكان المزارع جروبى قد أصر على وجودهن هناك فى تلك الساعة المبكرة، رغبة منه فى إنهاء العمل قبل انصرام اليوم.

وكان يقوم دوين العرمة ذلك الطاغية الأحمر الذى جاء النساء لخدمته، والذى كان لا يظهر بعد إلا شكله العام، وهو هيكل ذو إطار خشبى وسيور وعجلات؛ تلك هى آلة الدرس التى كانت إذا دارت أعيا عضلات النساء وأعصابهن سد مطالبها الملحاح؛ وكان على مدى منها شبح آخر مبهم أسود، له أزيز ينبئ عن قوة عظيمة مدخرة، وكانت مدخنته الطويلة المرتفعة بجانب شجرة الدردار؛ والحرارة المتشععة من تلك البقعة، تفصحان دون حاجة إلى وضح النهار بأن تلك هى الآلة المحركة التى ستقوم بدور الدافع الأول فى هذا العالم الصغير؛ وكان يقوم بجوارها كائن أسود عديم الحراك، هو رجل طوال ملوث بالدخان والقتام سارح فى غيبوبة، وبجواره كوم من الفحم، ذاك هو مدير الآلة؛ وكان اختلاف لونه واعتزاله ما حوله يكسبانه منظر مخلوق هارب من الجحيم إلى هذا الإقليم الشفاف المبرأ من الدخان، ذى الحب الأصفر والتربة الشهباء، الذى لا يجمعه به سبب، قد أتى يدهش أهليه ويفجأهم بالغريب.

وكان يشعر فى نفسه بما يدل عليه منظره: كان قائمًا فى عالم الزراعة ولكنه لم يكن يمت إليه، كان يدين للنار والدخان بينما يدين أبناء الحقل هؤلاء للنبات والجو والصقيع والشمس؛ وكان يجول بآلته من مزرعة إلى مزرعة، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، إذ كانت آلة الدرس البخارية لا تزال متنقلة فى هذا الجانب من وسكس، وكان الرجل يتكلم بلهجة شمالية غريبة، وكانت أفكاره محولة إلى داخل نفسه، وعيناه مسددتين إلى الهيكل الحديدى المنوط به، وهو لا يكاد يعى المنظر المحيط به أو يحفل له، ولا يخاطب أهل المزرعة إلا ندرًا فيما لزم، كأن قضاء محتومًا قد حكم عليه بالإتيان إلى هذه البقاع على كره منه فى خدمة سيده الجهنمى آنف الذكر؛ وكان السير الجلدى الطويل الممتد من عجلة الإدارة فى آلته إلى آلة الدرس الحمراء دوين العرمة، هو الصلة الوحيدة بين الزراعة وبينه.

كان واقفًا والقوم يكشفون عن الحزم؛ مزورًا بجانب مستودع القوة المتحرك الذى يملكه، والذى كان هواء الصباح يخفق حول جرمه الأسود الحامى، ولم يكن له شأن بالعمل التمهيدى، إنما كانت ناره تنتظر متوهجة وبخاره شديد الضغط، وفى مقدوره فى بضع ثوان أن يجعل السير الجلدى الطويل يتحرك بسرعة تخطف البصر، ولم يكن يهمه ما خرج عن نطاق آلته سواء أكان قمحًا أم قشًا أم يبابًا، فإذا سأله أحد الفارغين من أهل الجهة ما صناعته أجاب موجزًا أنه مهندس.

كشفت العرمة وقد وضح النهار، وعندها احتل الرجال أماكنهم وركب النساء وابتدأ العمل، وكان المزارع جروبى أو "هو" كما يسمونه قد وصل، وأمر فجعلت تس على إفريز الآلة بجوار الرجل الذى يغذيها، وكان عملها أن تحل كل حزمة من القمح تسلمها إليها إيزهيوت التى كانت بحذائها، ولكن كانت واقفة على العرمة لا على الآلة، بحيث يستطيع مغذى الآلة أن يتناول الحزمة، وينشرها على القرص الذى يلف فينثر كل الحبوب فى لمح البصر، وسرعان ما حمى العمل بعد خطأ أو خطأين فى البدء أثلجا صدور من يمقتون الآلات.

وسار العمل حثيثًا حتى موعد الفطور، فأوقفت آلة الدرس نصف ساعة، ولما عاودوا العمل حشر جميع العمال الآخرين فى المزرعة ليبنوا عرمة جديدة من العيدان، بدأت ترتفع بجانب عرمة القمح؛ وتناول القوم بعض الطعام ضحى وهم قيام لم يبرحوا مواضعهم، ولم تمر ساعتان بعد ذلك حتى حان موعد الغداء، والعجلات التى لا يدركها الكلال لا تنى عن الدوران، وطنين آلة الدرس النفاذ يهز كل من كان على مقربة من القفص السلكى، هزًا يبلغ النخاع.

وكان المسنون من الرجال على عرمة العيدان المتصاعدة يتحدثون بالأيام الماضية، حين كانوا يدرسون بالمدقات على أرض البيدر البلوطية، حين كان كل شيء حتى التذرية يعمل باليد، وكانوا يعدون عمل اليد أجود وإن كان أبطأ من عمل الآلات، وكان القائمون على عرمة القمح أيضًا يتجاذبون أطراف الحديث، أما المتصببون عرقًا حول الآلة وفيهم تس فلم يكن فى مقدورهم أن يخففوا عبء عملهم بتبادل الحديث والإسهاب فيه، ولم يجهد تس مثل استمرار العمل بلا انقطاع حتى بدأت تتمنى لو لم تأت قط إلى فلنتكوم آش.

كانت النساء القائمات على عرمة القمح ولا سيما ماريان يستطعن أن يتمهلن من آن إلى آخر، حتى يشربن الجعة أو الشاى البارد من زجاجة، أو يتبادلن بعض الثرثرات وهن يمسحن وجوههن أو يمطن شظايا القش والحسك عن أثوابهن، أما تس فلم تكن تستطيع تمهلاً: فإنه لما كان القرص لا يقف أبدًا فإن الرجل الموكل بتغذيته لم يكن يستطيع التريث، ولم يكن يسعها هى وهى التى تمد ذلك الرجل بالحزم المحلولة أن تكف، إلا أن تبادلها ماريان مكانها، وكانت ماريان تفعل مدى نصف ساعة أحيانًا رغم اعتراض جروبى بأن ماريان أبطأ يدًا من أن تسعف مغذى الآلة.

وكانت تختار امرأة لهذا العمل عادة لسبب اقتصادى على الأرجح، وقد عزا جروبى اختياره تس إلى أنها تجمع جمعًا طيبًا بين القوة والسرعة فى الحل، وبين هاتين وبين الجلد، ولعله كان صادقًا؛ وكان طنين آلة الدرس الذى يحول دون الكلام يرتفع إلى صخب إذا قلت كمية القمح عن معتادها، وإذ كانت تس والمغذى

لا يستطيعان أن يلتفتا، لم تدر تس أن شخصًا دلف من البوابة إلى الحقل قبيل ساعة الغداء، وكان إذ ذاك واقفًا بجوار عرمة أخرى يراقب المنظر ولا سيما تس، وكان يرتدى حلة خشنة الملمس ولكنها حديثة الزى، ويجتل فى يده عصا.

قالت إيز لماريان: "من ذاك؟" وكانت قد وجهت سؤالها إلى تس فلم تسمع، قالت ماريان: "عشيق بعض النساء على ما أظن"، قالت: "أراهن بجنيه إنه ليطلب تس" قالت: "إن ذاك الذى يتعقبها فى هذه الأيام قس واعظ لا شاب كهذا"، قالت إيز: "إنه هو هو"، قالت: "هو هو الواعظ؟ ولكنه يختلف عنه!" قالت: "لقد خلع سترته السوداء ومنديل رقبته الأبيض، وقص شعر عارضيه، ولكنه رغم كل ذلك هو نفس الرجل"، قالت ماريان: "أتظنين ذلك؟ إذن أخبرها"، قالت: "لا، نشدتك، ستراه هى عما قليل"، قالت: ماريان: "ما ينبغى له أن يقرن إلى وعظه مغازلة امرأة ذات بعل، ولو كان بعلها نازحًا وكانت أرملة من بعض الوجوه"، قالت إيز فى جفاف: "لن يستطيع لها ضرًا، فلن يستطيع تحويل ذهنها عن ذلك الموطن الوحيد الذى يقيم فيه، إلا إذا أمكن رفع عربة ضخمة من حفرة استقرت فيها، رعاك الله لن يجدى الغزل ولا الوعظ ولا رعود السماوات السبع فى تحويل قلب المرأة حين يكون الخير لها فى التحول".

وحل وقت الغداء وسكن الدوى، وعندها غادرت تس موقفها وركبتاها ترتعدان ارتعادًا شديدًا من جراء اهتزاز الآلة، حتى لم تكد تستطيع المسير، قالت ماريان: "ينبغى لك أن تجرعى كأسًا من الشراب كما فعلت فيزايلك هذا الشحوب، فإن وجهك والله ليبدو كأنك ناهضة من تحت كابوس"، وخطر لماريان الطيبة أن اكتشاف تس لوجود زائرها وهى على تلك الحالة من العياء ربما أثر فيها أثرًا سيئًا، فسلبها شهيتها، وإنها لتفكر فى إقناع تس بهبوط سلم إلى جانب آخر من العرمة، إذا بالشاب يدنو رافعًا بصره، فصاحت تس فجأة: "أوه!" وبعد هنيهة قالت على عجل: "سأتناول طعامى هنا على العرمة".

وكان العمال أحيانًا يفعلون ذلك إذا كانوا على بعد من مساكنهم، ولكن الريح كانت قارصة فهبطت ماريان والأخريات وجلسن فى كنف عرمة العيدان، ولم يكن القادم إلا ألك دربرفيل القس بالأمس رغم تغير ملبسه وهيئته وكان يبدو لأول وهلة أن الفاجر القديم قد عاد، وأنه قد استعاد - بقدر ما يستطيع ذلك امرؤ زاد عمره ثلاث سنين أو أربعًا - مظهر الجرأة والزهو الذى عرفت به تس أول ما عرفت عاشقها وابن عمها الموهوم؛ وإذ عولت تس على البقاء حيث هى فقد جلست بين مياثرها بحيث لا ترى من على الأرض وشرعت فى طعامها، حتى شعرت بعد حين بخطى على السلم وظهر ألك على العرمة، وكانت العرمة قد ارتدت نشزا مستطيلاً من الحزم، فخطا إليها حثيثًا وجلس بجوارها دون كلمة.

واستمرت تس فى تناول غدائها المتواضع، وهو قطعة من الفطير المقدد الغليظ أحضرتها معها، وكان جميع العمال الآخرين قد اجتمعوا تحت العرمة حيث كانت الأعواد البارزة وقاء لهم وملجأ مريحًا، قال دربرفيل: "أنا هنا ثانية كما ترين"، فصاحت والغضب يتطاير من أطراف أصابعها: "لم تضايقنى هكذا؟" قال: "أنا أضايقك؟ هل لى أن أسألك لم تضايقيننى أنت؟" قالت: "أنا لم أضايقك قط!" قال: "بلى وترهقيننى، وتانك العينان اللتان سددتهما إلى منذ لحظة فى نظرة حانقة تعتامانى كما أظهرتهما فى تلك اللحظة، ليل نهار يا تس! إن مشاعرى منذ أخبرتنى بابننا ذاك كأنما تحولت من مجرى الورع المتدفق الذى كانت تنصب فيه، إلى مجرى وجدته فجأة مؤديًا إليك فاندفعت فيه، وقد ترك المجرى الدينى منذ ذلك الوقت جافًا، وأنت التى فعلت ذاك!"".

فحملقت فيه فى سكون ثم سألته: "ماذا؟ أهجرت وعظك هجرًا تامًا؟" كانت تعلمت من كلير الشك العلمى الحديث، الذى يجعلها ترتاب فى مظاهر الحماسة الفجائية، على أنها وهى امرأة قد ريعت لهذا الأمر، ومضى دربرفيل يقول فى صرامة مصطنعة: "هجرًا تامًا! وقد فسخت كل وعد بالخطابة منذ ذلك اليوم الذى كنت أنوى فيه أن أخطب جمع السكارى فى سوق كستربردج، وليس يعلم إلا الشيطان ما رأى الإخوان فىَّ اليوم، ها ها! الإخوان! لا شك أنهم يصلون الآن من

أجلى ويبكون من أجلى فهم قوم كرام فى طرازهم، ولكن ماذا يهمنى؟ أنى لى أن أثابر على هذا الأمر وقد بطل إيمانى به؟ إن ذلك يكون نفاقًا من أحط ضروب النفاق!".

واستطرد: "ما أفخم انتقامك منى يا تس! لقد وجدتك بريئة فخدعتك، وبعد سنين أربع وجدتنى مسيحيًا متحمسًا ففعلت بى أفاعيلك وأشفيت بى على الهلاك! ولكن تس يا ابنة عمى كما كنت أدعوك، إن هذه إلا طريقتى فى الكلام، ولا ينبغى أن ترتاعى كل هذا الارتياع، فالحق أنك لم تفعلى شيئًا ولم تزيدى على أن احتفظت بجمال محياك ورشاقة قوامك، لقد رأيت قوامك على العرمة قبل أن ترينى، وذلك الميدع يظهره فى أبهى منظر، وتلك القلنسوة! لا ينبغى لكن معاشر الفلاحات أن ترتدين تلك القلنسوات إذا شئتن البقاء بعيدات عن نطاق الخطر!".

وجعل يتأملها فى صمت ثم ضحك ضحكة سخرية قصيرة وقال: "يقينى أن الرسول المتبتل الذى كنت أحسبنى مبعوثه، لو كان أغراه وجه فاتن كهذا لهجر من أجله ما كان فيه كما فعلت"، وحاولت تس أن تعترض ولكن طلاقة لسانها فارقتها فى تلك الساعة، ولم يصغ إليها بل مضى يقول: "لعل هذا الفردوس الذى تمهدين لا يقل عن أى فردوس آخر، ولكن إذا رمت جد القول"، وعندها نهض ودنا منها واضطجع على الحزم معتمدًا على كوعه واستطرد: "لم أزل منذ رأيتك آخر مرة أتفكر فيما قلت إنه هو قاله، وقد قر رأيى على أن تلك العقائد البالية ينقصها حقًا كثيرًا من المنطق، ولست أدرى كيف سرت فى نفسى حماسة القس المسكين كلير، وكيف اندفعت إلى العمل ذلك الاندفاع الجنونى فى حرارة تكاد تفوق حرارته، أما ما قلت فى المرة السابقة اعتمادًا على ذكاء زوجك البارع الذى لم تشائى أن تخبرينى باسمه بعد، فيما يتعلق بالمذهب الخلقى المنزه عن العقائد المتوارثة، فلست أستطيع الإيمان به قط".

قالت: "كيف؟ فى استطاعتك على الأقل أن تؤمن بدين العطف والإخاء والطهارة، إن لم تؤمن بـــ... ماذا تسميها! العقائد المتوارثة"، قال: "كلا، أنا رجل من هذه الجبلة، فإذا لم يكن هناك من يقول: (افعل هذا ينفعك فى آخرتك، ولا تفعل

ذاك فإنه مضر)، فإنى لا أحفل للأمر، ولن أعد نفسى مسئولاً عن أعمالى وميولى إن لم يكن هناك أحد أسأل أمامه، ولو كنت فى مكانك يا عزيزتى لفعلت مثل ذلك!".

وحاولت أن تجادل وتفهمه أنه قد خلط فى رأسه الغبى أمرين هما الكهنوت والأخلاق، اللذان كانا فى فجر تاريخ الإنسان متميزين تمام التميز، ولكنها لتحفظ إينجل كلير فى أحاديثه معها وحاجتها الشديدة إلى مران على الجدل، وكونها وعاء من العواطف أكثر مما هى مجمعًا للآراء، لم تستطع أن تمضى فى المجادلة واستطرد هو: "دعينا من هذا، وها أنذا اليوم يا حبيبتى كما كنت من قبل!" قالت: "كلا، ليست الحال اليوم كما كانت من قبل، هيهات! وأنا لم أحس من جهتى أدنى حرارة يومًا ما! لم لم تستبق إيمانك إذا كان فقده هو الذى أداك إلى مخاطبتى على هذا النحو؟".

قال: "لأنك بددت إيمانى ووزر ذلك على رأسك الجميل! وما درى زوجك أن تعاليمه ستعود عليه بالمضرة، ها ها! إنى مع ذلك لمرتاح إلى أنى صبأت على يديك! إنى لمسحور بك أشد افتتانًا مما كنت يومًا، وإنى لأرثى لك إذ أرى رغم شديد تكتمك أنك فى عسر من أمرك، قد أهملك من ينبغى له أن يسعدك"، وعندها لم تستطع تس أن تزدرد لقمتها وجفت شفتاها وكادت تختنق، وكانت أصوات العمال وضحكاتهم وهم يأكلون ويشربون فى أسفل تصل إليها كأنها آتية من ربع ميل، قالت: "ما أقساك! كيف تحدثنى بهذا إن كنت تحبنى أقل الحب؟".

قال وأجفل قليلاً: "صدقت، صدقت، أنا لم آت لأقرعك على مغبة أفعالى إنما جئت يا تس لأقول إنى لا أحب لك أن تكدحى على هذا النحو، جئت من أجلك، أنت تقولين إن لك زوجًا سواى، وربما كان هذا صحيحًا، ولكن لم أره قط ولا سميته لى، ويلوح لى شخصية خرافية للغاية، على أننا إذا فرضنا أن لك زوجًا، فإنى أنا أدنى إليك منه، وأنا على الأقل أحاول أن آخذ بيدك من متاعبك، أما هو بورك محياه المحجوب فلا يحاول ذاك، إن كلمات نبى اليهود حوذيا التى كنت أتلوها تعاودنى، ألا تعرفينها يا تس؟ (سوف تتبع حبيبها فلا تلحق به، وستبحث

عنه فلا تهتدى إليه، وعندها ستقول لأرجعن إلى زوجى الأول، فقد كنت خيرًا مما أنا اليوم!) عزيزتى تس! إن عربتى فى الانتظار دون التل، لا عربته طبعًا، وأنت أدرى بالبقية!".

وكان وجهها وهو يتكلم يزداد احمرارًا كابيًا ولكنها لم تجب، واستطرد وهو يبسط ذراعه ناحية خصرها: "لقد كنت سبب صبوى، فيجب أن تشاطرينى إياه وتدعى ذلك البغل الذى تدعينه زوجًا لك إلى الأبد"، وكان أحد قفازيها اللذين خلعتهما لتناول طعامها فى حجرها، فقذفت به فى وجهه فى حنق دون إنذار، وكان قفازًا ثقيلاً كقفازات المحاربين، وقد أصاب فمه، وربما تخيل المرء فى عملها هذا رجعة إلى صنيع كان يحذقه أسلافها، ووثب ألك من ضجعته مهتاجًا وانبثق الدم قرمزيًا من موضع ضربتها، وسرعان ما تقاطر من فمه على القش، ولكنه عاد فملك زمام نفسه وأخرج منديلاً من جيبه فى هدوء، ومسح شفتيه الداميتين.

وكانت هى أيضًا قد انتفضت قائمة، ولكنها انحطت ثانية ورفعت إليه عينيها فى تحد يائس كأنها عصفور ينظر قبل أن يكسر قانصه عنقه، وقالت: "الآن اقتص منى! اضربنى بعصاك! اسحقنى ولا تبال أولئك القوم فى أسفل العرمة! لن أستغيث، لقد كنت فريسة مرة وسأظل فريسة أبدًا وهذا ناموس الحياة!" قال فى تودد: "لا! لا يا تس.. إنى لأعذرك حق المعذرة، ولكنك تظلمين أشد الظلم حين تتسين أمرًا.. إنى كنت مستعدًا للاقتران بك لو لم تحولى بينى وبين ذلك.. ألم أطلب يدك طلبًا صريحًا؟ هه؟ أجيبينى!"، قالت: "بلى"، قال: "وليس فى مقدورك أن تقبلى طلبى، ولكن تذكرى شيئًا واحدًا!".

وغلظ صوته حين غلبه الغيظ لما تذكر إخلاصه فى طلب يدها، وجحودها الحاضر، ومشى إلى جانبها وأمسك بكتفيها فارتعدت فى قبضته وقال: "تذكرى يا فتاة أنى كنت سيدك يومًا وسأعود سيدك مرة أخرى، وإذا كنت زوجًا لإنسان فإنما أنت زوج لى!" وبدأ العمال يضطربون فى أسفل؛ فأرسلها قائلا: "فلنكف عن الشجار، ولأتركك على أن أعود عصرًا لأسمع جوابك، أنت لا تعرفيننى بعد أما أنا فأعرفك!".

ولم تعاود الكلام، وإنما قرت كالمشدوهة، وعاد دربرفيل أدراجه ماشيًا على الحزم وهبط السلم، وكان العمال فى أسفل يتناهضون ويتمطون، ويستمرئون طعم البيرة التى شربوها، وعادت آلة الدرس إلى عملها، وعادت تس وسط حفيف القش المتجمد إلى موضعها بجانب القرص الذى يئز، وكأنها فى حلم، تحل حزمة فى إثر حزمة بلا انتهاء.

أعلن صاحب المزرعة عصرًا أن لا بد من إنهاء العرمة ليلاً، إذ كان القمر ساطعًا يمكن العمل في ضوئه، وكان صاحب الآلة المحركة مستأجرًا في مزرعة أخرى في الغد! ومن ثم استمر الرنين والطنين والأزيز في اطراد أشد من ذي قبل، ولم ترفع تس رأسها إلا في الساعة الثالثة، وأدارت بصرها فيما حولها، ولم يدهشها أن ترى ألك دربرفيل قد عاد وأن تراه واقفًا في ظل الوشيع بجوار البوابة، ورآها ترفع رأسها فلوح لها بيده في أناقة وطير إليها قبلة، وكان مغزى ذلك أن شجارهما قد غبر، وعادت تس إلى الإطراق وتحاشت النظر إلى تلك الجهة.

وهكذا تقدم الوقت في خطى وئيدة، والعرمة تتقاصر وكوم العيدان يتطاول والعربات تحمل غرائر القمح، ولم تحن السادسة حتى كانت عرمة القمح على ارتفاع كتف الإنسان، ولكن الحزم التي كانت بها لم تمس بعد، كانت لا تزال لا يدركها العد، رغم تلك الأعداد الهائلة التي التهمتها الآلة التي لا تشبع، والتي يغذيها الرجل وتغذيها تس، وفي يدي تس الصغيرتين مرت معظم الحزم، وبدأ كوم القش الذي لم يكن في الصباح شيئًا، كأنه الفضلات التي تفرزها تلك الآلة الحمراء النهمة الصخبي؛ وكان قد انبثق على الأفق الغربي بعد ذلك اليوم الغائم شعاع أحمر حمرة العضب، هو كل ما يستطيع أن يجود به مارس العاصف من ضياء الشمس، وفاض ذلك الشعاع على وجوه الدارسين المتعبة اللزجة، فصبغها بلون نحاسي، وصبغ كذلك ثياب النساء الهفهافة الملتصقة بأجسادهن كأنها شعل جامدة.

وانبعث صوت يلهث ويتألم، وكان الرجل الذي يغذي الآلة مجهدًا، وكانت تس ترى قفاه المحمر بالشعاع مغطى بالقذر والتبن، وكانت لا تزال واقفة في موضعها ووجهها الأحمر المتصبب عرقًا مغطى بتراب القمح، وقلنسوتها البيضاء متوجة به، وكانت هي المرأة الوحيدة الواقفة على الآلة بحيث كان دوران الآلة يهز جسمها، وكان تناقص العرمة قد فصل بينها وبين ماريان وإيز، وحال دون مبادلتهما إياها العمل، وقد قذف بها الاهتزاز المتواصل الذي ترتعد له كل وشائج جسمها، في حلم شارد راحت ذراعاها تعملان فيه مستقلين عن وعيها، وكادت لا تدري أين هي، ولم تسمع إيزهيوت حين أخبرتها من أسفل أن شعرها يتهدل.

وبدأ أنشط من فى الجميع يهمدون رويدًا رويدًا وتزيغ أحداقهم، وكلما رفعت تس رأسها لمحت عرمة العيدان الكبيرة المتصاعدة، عليها الرجال مشمورى السواعد، وخلفها الأفق الشمالى الداجن، وأمامها المصعد الطويل الأحمر، كأنه السلم الذى رآه يعقوب فى حلمه ناهضًا إلى السماء، صعد عليه بلا انقطاع مجرى من العيدان المدروسة، كأنها نهر أصفر يرتقى ربوة ويفيض على القمة.

وكانت تعلم أن ألك دربرفيل لا يزال بمشهد يراقبها من بعض الجهات، وإن لم تدر فى أى جهة هو، وكان له عذر فى الانتظار؛ إذ إنه بعد حين تقارب عرمة القمح نهايتها، وكان الرجال يقومون بتقتيل الجرذان المختبئة فى قرارها، ومنهم من يأتون من الخارج للمشاركة فى ذلك طلبًا للرياضة والفكاهة، ومنهم الأثرياء ذوو الكلاب والبيبات الدالة على المرح والدعابة، ومنهم الغوغاء يحملون عصيهم وأحجارهم، ولكن كان لا يزال دون بلوغ طبقة الجرذان ساعة من العمل، وتضاءل ضوء المساء المنبعث من صوب (تل الجبار) بجوار (أبوتس كرنل)، وتصاعد قمر ذلك الفصل شاحبًا من الأفق الممتد تلقاء (مدلتن أبى) و(شوتسفور) على الجانب الآخر.

وكانت ماريان قد قلقت على تس فى الساعة أو الساعتين الأخيرتين، ولم تكن تستطع مداناتها لمحادثتها، وكانت النساء الأخريات يستعن بالجعة على استبقاء جلدهن، على حين كانت تس تتجنبها لخوف وراثى تحمله لها منذ رأت سوء أثرها فى بيت أبيها منذ نعومتها، ولكن تس كانت تواصل العمل رغم ذلك لأنها إذا عجزت طردت، وقد أصبح هذا الاحتمال الذى كانت تنظر إليه منذ شهر أو شهرين بعدم مبالاة بل بارتياح – أصبح بلاء مستطيرًا منذ بدأ دربرفيل يحوم حولها.

وكان مستخرجو الحزم ومغذو الآلة قد هبطوا بالعرمة حتى صار فى مقدور الواقفين على الأرض مبادلتهم الحديث، وما راع تس إلا أن أطلع المزارع جروبى على الآلة، وأخبرها أنها إذا كانت تود اللحاق بصديقها فإنه لا يصر على استمرارها فى العمل، بل يرسل من تحل محلها. وقد علمت أن (الصديق) إن هو إلا دربرفيل وأن المزارع يتبرع لها بتلك الإجازة إجابة لطلب ذلك الصديق أو الغريم، فهزت رأسها وتابعت العمل.

حتى حل أخيرًا وقت اقتناص الجرذان وبدأ الطراد، وكانت تلك المخلوقات قد هبطت زحفًا بتناقص العرمة حتى صارت جميعها في القرار، فلما كشف عنها آخر غطاء يغطيها انطلقت تستبق في الحقل في كل ناحية، وانبعثت من ماريان التي كانت إذ ذاك ثملة صرخة عالية، أنبأت رفاقها أن أحد الجرذان قد هاجمها، وهو خطب اتقته غيرها من النساء بفنون من ربط أسافل أثوابهن، والارتفاع عن سطح الأرض، وأخيرًا أخرج الجرذ من مخبئه، وحلت تس آخر حزمة بين نباح الكلاب وصيحات الرجال وصرخات النساء، واللعنات ووطء الأقدام وفوضى كفوضى مجمع من الشياطين، وتباطأ القرص وتخافت الأزيز، وهبطت تس من الآلة إلى الأرض.

وسرعان ما كان عاشقها بجانبها، ولم يكن قد شارك في طرد الحشرات إلا بالنظر، فغمغمت: "ماذا؟ أبعد تلك الصفعة المهينة؟" وكانت من العياء والتخاذل بحيث لم تستطع أن ترفع صوتها بالمقال، وأجاب في الصوت المغرى الذي كانت تعهده في ترنتردج: "إني لأحمق الحمقى إذا استأت لعمل تعملينه أو قول تقولينه، ما أشد ارتعاد تلك الأعضاء الصغيرة! إنك لضعيفة ضعف عجل قد استُدمِيَ، وما كانت بك أدنى حاجة منذ وصولي إلى عمل، ففيم كل هذا العناد؟ على أني قد أخبرت المزارع أن لا حق له في استخدام النساء في الدرس البخاري، فليس هذا بعملهن، وهو يعلم حق العلم أن ذلك قد أبطِلَ في جميع المزارع الراقية والآن فلأرافقك إلى دارك".

قالت وهي تترنح في مشيتها: "نعم رافقني إن شئت! إني أعلم جيدًا أنك جئت تطلب يدي قبل أن تعلم حالي، ولعلك خير وأكرم مما كنت أعتقد فيك، وكل ما تفعل لوجه الكرم فإني أشكره لك، أما ما تقصد به غير ذلك فيغضبني، وأنا أحار في مقاصدك أحيانًا"، قال: "أنا إن لم أستطع أن أمنح علاقتنا الماضية صبغة شرعية، ففي وسعي على الأقل أن أساعدك، وسأساعدك مراعيًا شعورك أكثر جدًا مما كنت أراعيه فيما مضى؛ لقد غبر ذلك المس الديني أو سميه ما شئت ولكني آمل أن أكون ما زلت محتفظًا ببعض طيب العنصر، فثقي بي يا تس ناشدتك كل ما

يربط الرجل بالمرأة من علاقة قوية أو رقيقة! إن لدى ما يكفى ويزيد على الكفاية لإعفائك من الشقاء لأجل نفسك وذويك، وفى وسعى أن أمهد لهم جميعًا سبل الراحة إذا أبديت بعض الثقة بى".

سألته مسرعة: "أرأيتهم منذ قريب؟". قال: "نعم، وهم لا يعلمون مقرك، ولم أهتد إليك هنا إلا صدفة"، وكان القمر البارد يطل فى ميل على وجه تس المجهد من خلال غصون سور الحديقة، حين وقفت بباب الكوخ الذى تعيش فيه ووقف دربرفيل بجوارها، قالت: "لا تذكر أشقائى الصغار ولا تسلبنى صبابة قواى! وإذا كنت تبغى معونتهم – ويعلم الله أنهم لفى حاجة إلى المعونة فافعل دون إخبارى، ولكن لا! لا! لن أقبل منك شيئًا لهم ولا لى!". ولم يرافقها فى الدخول إذ كانت تساكن غيرها ولم يكن سكنها خاصًا بها، ولم تكد تدخل وتغتسل فى جفنة اغتسال وتشاطر القوم العشاء، حتى غرقت فى التفكير ثم مشت إلى المنضدة القائمة بجوار الحائط، وشرعت تكتب فى ضوء مصباحها الصغير، وقد تملكتها العاطفة الحارة:

"زوجى الأثير: دعنى أدعك كذلك، إذ لا بد لى من ذلك، وإن أغضبك أن تذكر أن لك زوجًا مثلى غير جديرة بك، يجب أن أفزع إليك فى بَلائى، فليس لى سواك مفزع! إن الغواية محدقة بى يا إينجل! إنى أخشى أن أذكر اسم الشخص وأكره أن أفصل الأمر، ولكنى ألوذ بك على حال لا تتصورها ألا تستطيع موافاتى حالاً قبل أن يحدث حادث فظيع؟ إنى لأعلم أنك لا تستطيع لأنك فى بلد نازح، ويخيل إلى أنى لا بد هالكة إذا لم تأتنى على عجل، أو تطلب إلى موفاتك، إنى أستحق العقاب الذى فرضته على ، أنا أعلم ذلك حق العلم وأنت محق عادل فى غضبك على، ولكنى أتوسل إليك يا إينجل ألا تصر على العدل، وأن تستشعر الرحمة بى وإن لم أستحقها، وأن تأتى إلى! إذا استطعت المجىء فسوف يطيب لى الموت فى ذراعيك! سوف أرتاح إلى ذلك إذا اطمأننت إلى أنك غفرت لى!

"إينجل إنى أحيا لك خاصة، إن حبى إياك يحول دون عذلى إياك على الرحيل، وأعلم جيدًا أنك كنت مضطرًا إلى البحث عن مزرعة؛ لا تخلنى سأذكر كلمة واحدة قارصة أو مريرة، كل ما أريد أن تعود إلى، إنى أشعر بشر وحشة بدونك يا عزيزى! ليس يكرثنى الاضطرار إلى العمل، ولكنك إذا كتبت إلى سطرًا واحدًا صغيرًا فقلت: انا قادم سريعًا، فسأثابر فى أوفر سعادة يا إينجل.

"لقد صار دينًا لى راسخًا منذ زواجنا ان أخلص لك فى كل فكرة وكل نظرة، حتى لأشعر إذا أطرانى رجل قبل ان أدعى ما يقول أنه أساء إليك؛ هل شعرت منذ ذلك الوقت بجزء ضئيل مما كنت تشعر به أيام كنا فى ضيعة الألبان؟ فإذا كنت فعلت فكيف استطعت البقاء بعيدًا عنى هكذا؟ إنى أنا عين المرأة التى تيمتك يا إينجل، نعم أنا هى ولست بتلك المرأة التى كرهتها ولم ترها قط، ماذا أصبح الماضى فى نظرى حالما رأيتك؟ لقد آض شيئًا ميتًا، لقد غدوت امرأة أخرى تفيض حياة جديدة استمددتها منك، كيف كان يمكن أن أظل عين المرأة الأولى؟ كيف لا ترى هذا؟ ليتك تستطيع أن تدخل على نفسك بعض الغرور، فتدرك أنك كنت من القوة بحيث غيرتنى ذلك التغيير، فربما نزعت عند ذلك إلى معاودة زوجك المسكينة.

"ما كان أغبانى فى سعادتى حين ظننت أنى أستطيع أن أثق بدوام حبك! كان يجب على أن أدرك أن مثل ذلك الأمر لن يكون من حظى أنا المسكينة، ولكنى موجعة القلب لا آسى على الماضى وحده بل على الحاضر أيضًا، تصور كم يوجع قلبى ألا أراك أبدًا أبدًا، آه لو أستطيع أن أجعل قلبك العزيز يألم وهلة قصيرة كل يوم، كما يألم قلبى كل يوم بطوله، إذن لاحتُمِل أن يدفعك ذلك إلى إبداء العطف على محبتك الوحيدة.

"ما زال الناس يروننى جميلة، ولعلهم صادقون، ولكنى لا أفرح لحسن طلعتى ولا آبه لها إلا لأنها ملك لك أيها العزيز، ولكى يكون فى شىء واحد يستأهل أن تحوزه، وقد بلغ من شعورى بذلك أنى كنت إذا سببت لى وسامتى مضايقة تلثمت اتقاء للعيون المحدجة، لست أذكر ذلك يا إينجل غرورًا كما تدرى جيدًا ولكنه استدعاء لك إلى!

"وإذا كنت حقًا لا تستطيع موافاتى فهل لى أن أوافيك؟ إنى لمرهقة مدفوعة إلى عمل ما لا أود، وليس معنى ذلك أنى سـأخضع قيد أنملة، ولكنى فى فزع شديد مما قد يحدث فيغير مجرى الأمور، وانا لسالف خطئى عديمة الدفاع ولست أستطيع فى هذا الصدد أن أزيد، فإن هذا الأمر يدخل علىَّ أشد الغم، ولكنى إذا خاننى جلدى ووقعت فى أحبولة مريعة، فستكون آخرتى شرًا من أولاى، يا إلهى! أنا لا أستطيع أن أفكر فى ذلك! دعنى أقبل إليك توا، وإلا فأقبل إلى بلا توان!.

"إنى ليرضينى بل يهنئنى أن أعيش معك خادمًا إذا لم يكن لى أن أعيش معك زوجًا، كى أحظى بقربك وأفوز بالنظر إليك وأعدك أنك لى، فلم يعد وضح النهار ينير لى شيئًا منذ غبت، ولست أحب أن أرى أطيار الحقول لأنى آسى أشد الأسى لفراقك وقد كنت تراها وإياى، ولا أشتاق فى السماء أو على الغبراء أو تحت الثرى إلا شيئًا واحدًا، وذاك لقاؤك يا حبيبى العزيز! تعال إلى! تعال إلى وأنقذنى مما يتهددنى! محبتك المفؤودة: تس".

٤٩

وجدت تلك الرسالة المستغيثة طريقها فى الوقت المناسب إلى مائدة الفطور فى مسكن القس الهادئ، الواقع غربًا فى ذلك الوادى ذى الهواء الرخيم والتربة الخصيبة، حيث لا تحتاج الزراعة إلا إلى مساعدة ضئيلة إذا قيست بما تحتاج إليه فلنتكوم آش من عزق، وحيث كان العالم الإنسانى يلوح لتس مختلفًا جدًا، وإن كان فى الحق شديد الشبه بعالمها؛ ولم يكن إينجل قد طلب إليها أن تراسله بعنوان أبيه إلا حرصًا على وصول رسالاتها إليه، وكان قد أبقى والده فى أغلب الأحوال على بينة من عنوانه المتنقل، فى الإقليم الذى نزح إليه وقلبه مشتعل بالأشجان يبغى فيه مرتزقًا.

قال كلير الشيخ لزوجه حين قرأ الغلاف: "إذا كان إينجل ينوى مغادرة (ريو) ليعود إلينا فى نهاية الشهر القادم كما أخبرنا، فلعل هذا سيدفعه إلى التعجيل فإنى إخاله آتيًا من زوجه"، وتنفس الصعداء حين التفت ذهنه إليها، وعنون الرسالة من جديد ليرسلها توًا إلى إينجل.

غمغمت مسز كلير: "يا للشاب العزيز، أرجو أن يصل إلينا سالمًا، سأظل إلى يوم الدين أعتقد أنه مهضوم، كان ينبغى أن ترسله إلى كمبردج رغم زيغ عقيدته وتمنحه ما منح أخواه من فرصة، فقد كان من المرجح أن يستقيم تحت الأثر الطيب، وربما التحق بالكنيسة فى النهاية، وسواء التحق بها أو بغيرها فقد كان ذلك أقرب إلى إنصافه"، وكانت تلك هى النغمة الحزينة الوحيدة التى تكدر بها مسز كلير صفاء زوجها فيما يتعلق بتربية أبنائهما، ولم تكن كثيرة الضرب عليها، فقد كانت على حظ من حسن الإدراك يضاهى حظها من الورع، وكانت تدرى أن زوجها هو أيضًا قلق الضمير من جراء تصرفه فى ذلك الأمر، وكم سمعته ليلاً ساهدًا فى فراشه، يقطع زفراته من أجل إينجل بالصلاة له.

ولكن ذلك التقى الصارم المتشدد، لم يكن يعتقد حتى الآن أنه كان ينبغى له أن يمنح ابنه الزائغ العقيدة مزايا التعليم الجامعى الذى منحه الآخرين، على حين كان من المحتمل أو المرجح أن تستعمل تلك المزايا فى مهاجمة العقائد التى كان نشرها رسالته فى حياته، ورسالة ابنيه الملتحقين بالكنيسة، وكان يرى أن من مناقضة عقائده ووظيفته وآماله، أن يرفع بيده الأخوين المؤمنين إلى مكان عال، وأن يعلى الثالث الجاحد بنفس الوسائل إلى نفْس المكان، على أنه كان يحب ابنه الذى أخطأ إذ سماه إينجل – ومعناه الملاك – وكان يأسى أسى صامتًا على صنعه به، كما لعل إبراهيم قد كان يأسى على إسحاق السائر إلى حتفه، وهما يصعدان الربوة فكان ندمه اللدنى الصامت أمر من كل تقريع تعلنه زوجه.

وكان الوالدان يلومان نفسيهما على ذلك الزواج غير الموفق: إذ لو أن إينجل لم يبتغ الزراعة مهنة لما خالط القرويات، ولم يكونا على بينة من سبب انفصال الزوجين ولا من يوم وقوع الجفوة، وكان فى بادئ الأمر يظنانها جفوة خطيرة، حتى عاد إينجل فى رسائله الأخيرة يشير على اعتزامه العودة لاستلحاقها، فاستنبطا من ذلك أن القطيعة لم تكن راجعة إلى سبب لا يتلافى، وكان قد أخبرهما بأنها مقيمة مع والديها، وإذ كانا على غير بينة من الأمر، فقد آثرا ألا يتدخلا فى حالة لا يعرفان كيف يتداركانها.

وكانت العينان اللتان أرادتهما تس أن تتلوا رسالتها تجولان فى ذلك الوقت فى مساحة مترامية من الريف، على ظهر بغل يقل زوجها من داخل القارة إلى الساحل، وكان عهده فى هذه الأرض الغريبة عهدًا تاعسًا، ولم يكن قد برأ تمامًا من المرض الذى أصابه عقب وصوله، وكان قد انتهى بعد لأى إلى التعويل على نبذ فكرة مزاولة الزراعة هنا، وإن يكن قد أبقى هذا العدول سرًا مكتومًا عن والديه، طالما بقى لديه أدنى احتمال للاستمرار.

وكانت زرافات العمال الفلاحين الذين أتوا إلى هذا الإقليم فى أثره، وقد بهرهم ما زين لهم من أسباب الحياة المستقلة الهينة هنا، قد قاسوا وماتوا وانقرضوا، وكم رأى من نساء آتيات من ريف إنجلترا، يضربن فى الأرض

وأطفالهن بين أذرعهن، وإذا الطفل يصاب بالحمى ويذهب بها، فتقف أمه ريثما تشق فى تلك الأرض حفرة بيديها، وتودعها الطفل بنفس تينك الآلتين الطبيعيتين للدفن وتذرف دمعة واحدة وتواصل السير.

ولم تكن نية إينجل الأولى هى الهجرة إلى البرازيل، بل إلى مزرعة فى شمال وطنه أو شرقه، وإنما أتى إلى هذه البقاع فى نوبة قنوط حين وافقت حركة الهجرة إلى البرازيل التى فشت بين زراع إنجلترا، عهد رغبته فى الفرار من وجوده الماضى وقد كبر فى غيبته هذه كبرًا عقليًا قدره اثنتا عشرة سنة، وأصبح أشد تقديرًا لما فى الحياة من منادح العبرة، منه لما فيها من مجالى الجمال، وكان قد نبذ منذ زمان آراء المتصوفة، والآن قد نبذ معايير الأخلاقيين العتيقة ورآها فى حاجة إلى التجديد، إذ من الرجل الفاضل؟ وأجل من هذا خطرًا أن تسأل: من المرأة الفاضلة؟ ليس يتوقف جمال الخلق أو قبحه على انتصاراته التى أحرزها فقط، بل على أغراضه ودوافعه أيضًا، وتاريخه الصحيح ليس تاريخ ما أحدث، بل تاريخ ما أراد أن يحدث.

وما يكون شأن تس إذ ذاك؟ بدأ ينظر إليها فى هذا الضوء الجديد؛ فحز فى نفسه تسرعه فى الحكم عليها، أتراه نبذها نبذًا نهائيًا أم لا؟ لم يعد يستطيع أن يقول إنه نبذها إلى النهاية، وعدم القول بذلك معناه قبولها فى الوقت الحاضر، وقد وافق نزوعه هذا المتزايد إليها وقت مقامها فى فلنتكوم آش، ولكن كان ذلك قبل أن تستبيح لنفسها أن تشغله بأمر نفسها، وتكتب إليه فى شان ظروفها أو شعورها، ومن ثم كان فى حيره شديدة من أمر إمساكها عن الكتابة، ولم يسأل عن السر، وهكذا أساء فهم سكوتها الراجع إلى ذلتها ومسكنتها، وما كان أعظم دلالة ذلك السكوت لو فهم مغزاه!، مغزاه أنها تخضع خضوعًا مطلقًا لأوامر أصدرها ثم نسيها، وأنها رغم شجاعتها المطبوعة لم تدع لنفسها عليه حقًا، وعدت حكمه عليها عادلاً من جميع الوجوه، وحنت رأسها لذلك الحكم.

وكان يركب بجانبه فى رحلته السالفة الذكر شخص آخر، إنجليزى مثله، خارج فى مثل قصده وإن جاء من صقع آخر فى الجزيرة، وكانا كلاهما مكتئبين، وكانا يتحدثان فى شئون الوطن، واستتبع وثوق أحد الرجلين بصاحبه وثوق الآخر به، وراح إينجل يقص على رفيقه حقائق زواجه المؤسية، وقد قام فى نفسه ذلك الميل الغريب الذى يشعر به الرجال لا سيما فى قاصى الأقطار، الميل إلى ائتمان الأغراب على تفاصيل حياتهم التى يضنون بها على أصدقائهم الأدنين، وكان صاحبه قد طاف فى بلاد لم يطف بمثلها إينجل، وعرف أقوامًا لم يعرف مثلهم، فلم يكن عقله العالمى يعج مثل ذلك الحيد عن الجادة الاجتماعية – الذى يهول المقيمين بأرضهم – أجل خطرًا من شذوذ الوديان والجبال عن انحناء سطح الأرض فى جملته، وقال إن ما كانته تس من قبل لا يهم فتيلاً إزاء ما ستكون، وصارح إينجل بأنه أخطأ فى هجرانها.

وفى الغد أصابهما نوء فيه رعد وبرق، فحم صاحب إينجل ومات قبل انصرام الأسبوع، فتمهل كلير ريثما واراه الثرى ثم تابع سيره، وقد سما موت ذلك الغريب الواسع الذهن الذى لم يعرف عنه إينحل أكثر من اسم عادى – سما موته بكلماته القلائل سموًا بعيدًا، وأثر فى كلير فوق ما أثرت كل أخلاقيات الفلاسفة وكل منطقياتهم، وأخجلته موازنة سعة أفق صاحبه بضيق عقليته هو نفسه، وتواثبت إلى ذهنه كل متناقضاته: لقد كان دائمًا يرفع الهلينية الوثنية على المسيحية، ومع ذلك فإن تلك المدينة لم تكن تعد الهفوة غير الشرعية عارًا لا يمحى فكان الأجدر به أن يعد ذلك الاستفظاع لفقد العذرة الذى ورثه مع مبادئ التصوف، أمرًا حريًا على الأقل بإعادة النظر إذا كانت النتيجة راجعة إلى الغدر، وحز فى نفسه الندم، وتذكر كلمات إيزهيوت التى لم تخمد قط فى باله، إذ سألها أتحبه فأجابت نعم، فسألها أتحبه فوق حب تس فأجابت نفيًا، لأن تس لا تتوانى عن تضحية نفسها فداء له، وهى نفسها لا تستطيع شيئًا فوق ذلك.

وتخيل تس فى هيئتها يوم الزفاف، فكم كانت عيناها تتأملانه! كم كانت تتدبر ألفاظه كأنها ألفاظ إله! وتذكر الليلة الهائلة حيال الموقد، حين كشفت روحها الساذجة لروحه، ما كان أحق وجهها بالرثاء بجوار وهج النار، وهى لا تستطيع أن تصدق أن حبه وحمايته إياها يمكن أن يتقلصا عنها! وهكذا بعد أن كان كلير متهمًا لتس أصبح محاميًا عنها، وكان قد حدث نفسه عنها أحاديث ساخرة ولكن ليس فى الناس من يستطيع أن يظل ساخرًا ويظل حيًا، وما كان خطور تلك الأحاديث الساخرة فى نفسه راجعًا إلا إلى تأثره بالمبادئ العامة، متغاضيًا عن المثال الفرد.

ومست عواطفه الآن مكانة أسرة تس التاريخية، أسرة دربرفيل العتيدة الذين كان من قبل يزدريهم ويعدهم قوة خمدت، وعجب كيف غاب عنه الفرق بين قيمة هذه الأشياء السياسية ونفاستها الشعرية؟ إن انتماء تس إلى آل دربرفيل لجليل الخطر إذا قوم من الوجهة الثانية، فإن ذلك النسب إذا كان عديم الشأن فى نظر الاقتصاديين فهو عظيم القدر فى رأى صاحب الخيال والمعتبر بتقلب الدولات، وذلك الامتياز الذى تحظى به تس المسكينة فى دمها واسمها وشيك الذهاب، وسرعان ما يخيم النسيان على صلتها الوراثية بالآثار الرخامية والهياكل العظيمة الراقدة حشو الرصاص فى كنجزبير، وهكذا ينقض الزمن بلا رحمة ما يحوك هو نفسه من قصص المجد؛ وكان كلير كلما تمثل وجهها تخيل أنه يرى فيه لمحة من العظمة التى لا بد كانت جداتها الكبيرات يتسمن بها، فيرسل ذلك الخيال فى عروقه تلك النشوة التى طالما استشعرها فى الماضى، والتى غادرت بعدها شعورًا مريرًا.

إن ما بقى من امرأة كتس – رغم ماضيها غير المصون – لأرفع قدرًا من نضارة أترابها التى لم تمس، ألم يأت فى الإنجيل أن التقاط ما بقى من أعناب (إفريم) خير من بواكير (أبى عازر)؟ هكذا كان الحب المنشور يتحدث، ممهدًا الطريق لكتاب تس الفياض بالإخلاص، الذى كان والده قد أرسله إذ ذاك إليه وإن كان وصوله إليه فى داخل البلاد سيستغرق زمنًا طويلاً.

وفى نفس الوقت كانت مرسلة الكتاب يتراوح أملها فى قدو إينجل إجابة لطلبها، بين الزيادة والنقصان: كان يتضاءل أملها حين تتذكر أن حقائق حياتها الماضية التى أوقعت الجفوة بينهما لت تتغير ابدًا، وأنه إن لم يكن حضورها بمشهد منه قد هون من شأن تلك الحقائق، فإن غيابها لن يهون منها، على أنها رغم ذلك راحت تفكر فى مسألة أثيرة لديها هى ما يمكنها أن تقابله به إذا هو جاء كى تسره، وجعلت تقرع السن ندمًا على أن لم تستوعب الألحان التى كان يعزفها على نايه، وعلى أن لم تلحف فى سؤاله عن أحب الأغانى الشعبية إليه من بين ما يترنم به القرويات، ثم سألت (آمبى سيدلنج) الذى تبع إيز من تلبوثيز سؤالاً غير صريح فتذكر آمبى صدفة أن كلير كان يعجبه من بين الأهازيج التى كانوا يترنمون بها فى المزرعة، إغراء للأبقار على السخاء بلبنها، أناشيد (حديقة كيوبيد) و(لى حدائق ولى كلاب الصيد) و(بزوغ النهار).

وأصبح أكبر همها إتقان تلك الأغانى، فكانت تتمرن عليها وحدها فى كل فرصة سانحة، ولا سيما (بزوغ النهار): "انهض، انهض، انهض! واقطف باقة لمحبوبتك، فإن جميع الأزهار الأنيقة تنمو فى البستان، والأطيار تعشش فى كل غصن فى آذار المبكر، عند بزوغ النهار!" وكان سماعها تتغنى بهذه الألحان يصدع قلب الصخر، تترنم بها كلما انفصلت فى العمل عن رفيقاتها فى هذا الفصل البارد الجاف، والدموع تستبق على خديها خلال ذلك مخافة ألا يعود ليستمع إليها، وبين كلمات الأغانى الساذجة الحمقاء وبين قلب مغنيتها الموجع بون شاسع.

كانت تس من الاستغراق فى أحلامها بحيث لم تكد تدرى كيف يمضى الفصل أو تحس أن الأيام قد تطاولت، وأن يوم العذراء على كثب وسوف يتبعه عما قريب يوم العذراء القديم وهو نهاية عقد عملها؛ ولكن قبل أن يأتى ذلك اليوم حدث ما حول أفكار تس إلى أمور شديدة الاختلاف عن تلك الأحلام؛ فقد كانت فى مسكنها كالعادة ذات مساء إذا بطارق بالباب يسأل عن تس، وقد رأت من خلال الباب شخصًا فى الضوء المتخافت فى طول امرأة وعرض طفلة، مخلوقة طويلة رفيعة لها سيماء صبية لم تتميزها فى ضوء الغسق حتى صاحت الصبية: "تس".

قالت تس مدهوشة: "ماذا؟ لايزالو!" وكانت قد تركت أختها من زهاء عام طفلة فإذا هى قد نمت نموًا فجائيًا إلى هذا المنظر الذى لم تكن "لو" نفسها إلى الآن تدرى مغزاه، وكانت ساقاها الرفيعتان الباديتان من ثوبها الذى كان فيما مضى طويلا فتقاصر حين تطاولت، وذراعاها ويداها القلقة جميعًا.. تدل على حداثتها وقلة تجربتها، قالت فى اكتئاب لا يمازجه عاطفة: "نعم لقد قضيت اليوم أضرب فى الأرض أبحث عنك، وأنا متعبة جدًا"، قالت تس: "ماذا حدث فى الدار؟" قالت: "أمى مريضة جدًا، والطبيب يقول إنها فى سياق الموت، وإذ كان أبى عليلاً أيضًا، ويقول إنه لا يليق برجل شريف المحتد مثله أن يشقى فى خسيس الأعمال، فإننا فى حيرة من أمرنا".

وقفت تس فى غيبوبة طويلة قبل أن تفكر فى إدخال لايزالوا لتجلس، فلما أجلستها وناولتها فنجان شاى قر رأيها على قرار؛ فرأت أن من الحتم أن تذهب إلى أهلها، ولم يكن عقدها ينتهى قبل يوم العذراء القديم وهو السادس من إبريل ولكن لما كان الزمن الباقى على ذلك غير طويل عولت على المغامرة بالانطلاق توًا، وكان الانطلاق فى تلك الليلة يكسبها اثنتى عشرة ساعة، ولكن أختها كانت أشد عياء من أن تذرع الطريق ثانية، فهرعت تس إلى حيث تقيم ماريان وإيز، وأخبرتهما بما جرى ورجتهما أن تدافعا عنها أمام صاحب المزرعة، وعادت فجهزت لأختها عشاء، ثم أرقدتها فى فراشها، وحملت أكثر ما استطاعت من حاجاتها فى سلتها، وانطلقت بعد أن أمرت أختها باللحاق بها غداة الغد.

٥٠

انغمرت تس حين دقت الساعة العاشرة فى ظلام آذار البارد، تبدأ مسيرة خمسة عشر ميلاً تحت النجوم البيضاء الجامدة، والليل فى الأطراف الموحشة وقاء من الخطر للعابر السبيل فى صمت، لا باعث إلى الخطر، وكانت تس تعلم ذلك فاتبعت أقرب طريق بين الدروب التى ربما خشيت طروقها فى وضح النهار على أن الطريق كانت خالية من الأشقياء فى تلك الساعة، وقد نفى تفكيرها فى أمها الأوهام والمخاوف من ذهنها، وهكذا قطعت ميلاً بعد ميل فى ارتفاع وانخفاض حتى بلغت (بلبارو)، وأشرفت حوالى منتصف الليل من ذلك المرتفع إلى الوهدة المملوءة بالظلال المختلطة، التى كانت كل ما يرى من الوادى الذى ولدت تس فى جانبه الأقصى.

وكانت قد ذرعت خمسة أميال على الهضبة، والآن بقى أمامها عشرة أميال أو أحد عشر فى الوادى المنخفض، وكانت لا ترى الطريق المتعرجة المنحدرة إلا بمشقة فى ضوء النجوم الخافت، وسرعان ما وطئت تربة مخالفة للتربة القائمة فوق رأسها، أحست باختلافها قدماها وأحسته بشميمها، تلك تربة بلاكمور الكثيفة حيث لم تمتد بعد الطرق المعبدة، وعلى هذه التربات الخصيبة تعمر الخرافات طويلاً. وكان الوادى فيما مضى غابة، وفى هذا الوقت الداجى اكنسى بعض مظاهره القديمة. اختلط قاصيه بدانيه، وتراءت أشجاره وأوشعته ضخمة تسد الفضاء، وكان القوم لا يزالون يتحدثون بالوعول التى طالما اقتنصت هنا، والساحرات اللواتى أوسعن ضربًا بالدبابيس وأغرقن فى الماء، وعرائس الغاب المزركشات بالخرز الأخضر اللائى يداعبن السابلة، وكان كل أولئك يظهرن فى هذه الساعة فى زحام مخيف.

وفى (نتلبرى)، مرت تس بفندق القرية، وكانت شارته تصر فى الريح مجاوبة تحية قدمى تس التى لم يكن يسمعها سواها، وتخيلت تحت سقف الفندق المغطى بالقش المضغوط، زنودًا مسترخية وعضلات مستريحة متمددة فى الظلام تحت الأغطية، مستسلمة لعناق النوم استجمامًا لعمل الغد المتجدد، حالما يلوح أول شعاع أحمر على رأس تل (همبلدن).

وفى الساعة الثالثة انعطفت آخر انعطاف فى سلسلة الدروب المتعطفة التى سلكتها، ودخلت مارلت وعبرت الحقل الذى رأت فيه إينجل كلير لأول مَرة، يوم كانت فى زمرة نساء النادى وراقص إينجل سواها، ولا تزال تشعر بحسرة ذلك اليوم، ورأت فى ناحية بيت أمها نورًا آتيًا من ناحية المخدع، وكانً يتمايد أمامه غصن جعله يبدو كأنه يغامزها بعينه. وحالما تبينت شكل المنزل العام، وكان قد سقف بمالها، تأثر به خيالها نفس تأثره القديم: كان يبدو جزءًا متممًا لجسمها وكيانها، وكانت نوافذه المستقيمة تحت سقفه المائل المثلث، وطوب المدخنة المتهدم، كان كل ذلك مشاركًا لشخصها وخلقها فى الخصائص، ولاح لها كأن سمات المنزل تلك تبدو حيرى، كأنها تشير إلى مرض أمها.

وفتحت الباب برفق كى لا تزعج أحدًا، وكانت الغرفة السفلى خالية، ولكن الجار الذى كان ساهرًا بجوار أمها أقبل إلى رأس السلم، وهمس إليها أن مسز دربرفيل لم تتحسن بعد، وإن كانت نائمة فى تلك الساعة، وجهزت تس لنفسها فطورًا، ثم اتخذت مجلس الممرضة فى مخدع أمها، ولما أصبح الصباح ونظرت إلى الصبية إذا هم جميعًا قد امتدت قاماتهم امتدادًا عجيبًا، وقد نموا نموًا رائعًا، وإن لم تغب عنهم إلا فويق العام، وأنساها شئون نفسها ضرورة تكريس نفسها قلبًا وروحًا لحاجاتهم.

وكانت علة أبيها من نفس النوع المبهم المعهود، وكان يجلس فى كرسيه كالعادة ولكنه كان معتدل المزاج غداة وصولها اعتدالاً غير مألوف، وقال إن لديه مشروعًا معقولاً للحياة، فلما سألته تس ما هو قال: "أفكر فى مكاتبة جميع محبى الآثار أسألهم أن يشتركوا في جمع هبة تقوم بحاجتى، وأنا واثق أنهم سيعدون هذا أمرًا فنيًا مجيدًا جديرًا بالحفاوة، فهم يبذلون المال الوفير لحفظ الخرائب القديمة وكشف هياكل العظام وهلم جرا، ولا بد أن الآثار الحية أشد إمتاعًا لهم من كل ذلك، إذا هم عرفوا أمرى، ليت طائفًا يطوف بهم فيخبرهم أى امرئ يحيا بين ظهرانيهم وهم عنه غافلون! إنى لعلى يقين أن القسْ ترنجم الذى كشفنى لو كان على قيد الحياة لما توانى عن ذلك".

وأجلت تس بحث هذا المشروع الرفيع حتى تدبر الحاجات الحازبة، التى لم تكن عطاياها النقدية على ما يظهر قد أصلحتها كثيرًا، فلما دبرت حاجات الدار التفتت إلى الخارج وكان الموسم موسم الغرس والبذر، وكانت حدائق كثيرة ومزارع صغيرة فى القرية قد عزقت عزقة الربيع، أما حديقة أسرة دربيفيلد ومزرعتهم فكانتا متأخرتين، وهال تس أن ترى أن ذلك راجع إلى أن القوم قد أكلوا كل البطاطس الذى يستخدم فى الزراعة الجديدة وذلك آخر ملجأ للمفرط، فحصلت على سواه بأسرع ما استطاعت، وبعد أيام مكنت أباها صحته من أن يتعهد الحديقة بعد إلحاح تس وتوسلها، وأخذت هى على عاتقها المزرعة الصغيرة التى كانوا يستأجرونها، على مدى مائتى ذراع من القرية.

واستطابت العمل فيها بعد احتباسها فى غرفة التمريض، حيث لم تعد إليها حاجة بعد شفاء أمها، والحركة العنيفة تخفف وطأة الأفكار، وكانت المزرعة فى بقعة عالية جافة مكشوفة تحيط بها أربعون أو خمسون مزرعة صغيرة مثلها، حيث كان العمل يحتدم حين كان العمال المستأجرون فى أثناء النهار ينتهون من عملهم فى المزارع الأخرى، وكان العزق يبتدئ عادة فى الساعة السادسة، ويمتد إلى غير موعد فى غبش المساء أو فى ضوء القمر، وكانت أكوام من الأعشاب والفضلات تحترق فى ذلك الوقت فى مزارع شتى، وكان الجو الجاف ملائمًا لاحتراقها.

وفى ذات يوم صاح ظلت تس ولايزالوا تعملان مع جيرانهما حتى امتدت آخر أشعة الشمس أفقية على العصى البيضاء التى تحدد التخوم بين المزارع، وحالما أعقب الغسق الغروب بدأ لهيب الأعشاب وسوق الكرنب يتوهج فى المزارع توهجًا هائلاً، تبدو معالمها وتختفى تحت الدخان الكثيف كيفما مالت به الريح، وكانت إذا توهجت نار ترتد غمائم الدخان السابحة على وجه الأرض متوهجة ذات لمعة معتمة تحجب العاملتين إحداهما عن الأخرى، فيفهم رائيه معنى (عمود السحاب) الذى يقال إنه يبدو حائطًا بالنهار ونورًا بالليل.

ولما تكاثف ظلام المساء انقطع بعض العمال واستمر أغلبهم ليفرغوا من غراسهم، وكانت تس فى الباقين وإن أرجعت أختها إلى الدار، وكانت تعمل بشوكتها الطويلة على أحد الأكوام المحترقة، وكانت شعب الشوكة ترن إذا قرعت الأحجار والحصى، وكانت تس تغيب أحيانا غيابًا تامًا فى دخان النار، ثم يتمزق عنها فيبدو قوامها يشع عليه وهج الكوم النحاسى اللون، وكانت فى هذه الليلة تبدو فى ثياب غريبة وهيئة شاذة كانت مرتدية ثوبًا أحال لونه تكرار الغسيل، عليه سترة قصيرة سوداء، فكأنهما ثوبا عرس وجناز قد اختلطا، وكان النساء القائمات خلفها على مدى يرتدين ميادع بيضاء، ولا يرى فى ذلك الحلك غير تلك الميادع، وغير وجوههن الشاحبة إذا ما انعكست عليهن لمحات من اللهب.

وكانت الأغصان الرقيقة المشرئبة من الوشيع الشوكى العارى الأشجار الذى يحد المزرعة، تنهض حيال الأفق الشاحب القاتم الضوء، وكان المشترى مطلاً من علو كأنه زنبقة كاملة النمو، لامعا يكاد يرمى ظلاً، وكانت أشتات الكواكب الأخرى مبعثرة هنا وهناك، وكان كلب ينبح على مدى، وتتقلقل على قارعة الطريق الصلب عجلات من آن إلى آخر؛ واستمر رنين شعب الشوكة لأن الوقت لم يكن متأخرًا بعد، ومع أن الهواء كان باردًا رائقًا فقد كانت تسرى فيه همسات الربيع تثلج صدور العاملين وتحثهم، وكان شىء ما فى المكان أو الأوان أوالنيران المفعقعة أو أشباح الضوء والظلام المبهمة المهولة، يجعل تس والآخرين يغتبطون بوجودهم هناك، وهبط الليل مهدئًا للنفوس فى ذلك اليوم من آذار، وهبوط الليل يفد فى جليد الشتاء كأنه شيطان رجيم، وفى حرارة الصيف كأنه حبيب آيب.

ولم يكن أحد ينظر إلى زملائه، بل كانت عيون الجميع إلى التربة، يستبين سطحها المعزوق فى توهج النيران، ومن ثم لم تكد تس تلحظ الشخص الذى يعمل على مقربة منها، وهى منهمكة فى إثارة الفلاع المتجمد، وفى الترنم بأغانيها الساذجة ولم يكد يبقى لديها أمل فى استماع كلير إليها يومًا؛ وكان ذلك العامل الأدنى إليها من الجميع مرتديًا ثوبا كتانيًا طويلاً، وتنبهت أخيرًا إلى أنه يعمل بشوكته فى نفس مزرعتها، فظنت أباها أنفذه ليساعد على إنجاز العمل، وازداد انتباهها إليه حين أدناه منها اتجاهه فى تقليب الأرض بشوكته، وكان الدخان يحول بينهما أحيانًا ثم ينجاب، فيلوح كل منهما للآخر وهما مختفيان عن الباقين.

ولم تحادث تس زميلها ولم يحادثها، ولم تفكر في أمره إلا قدر ما تذكرت أنه لم يكن هناك في وضح النهار، وأنها لم تعرفه قط في عمال مارلت، ولم يدهشها ذلك لكثرة غيابها عن مارلت في السنوات الأخيرة. وما لبث أن داناها في عزقه حتى انعكست شعل النار على شعب شوكته الصلبة، بنفس الوضوح الذى كانت تنعكس به على شوكتها، وإنها لسائرة إلى النار تلقى فيها قطعة من ميت الأعشاب إذ صادفته يفعل فعلها على الجانب الآخر، وتوهجت النار فعرفت وجه دربرفيل.

كان لوجوده غير المنتظر مظهره الشاذ في ثوب ريفي ذى كسر لا يلبسه في هذا العهد إلا أشد الشيوخ من الفلاحين محافظة، أثر هزلى بشع جمدت له وتشاءمت من مغزاه، وضحك دربرفيل ضحكة جافة مستطيلة، وقال متهكمًا وهو يرمقها مطأطئ الرأس: "لو كنت ميالاً إلى الدعابة لقلت: ما أشبه هذا بالفردوس!" قالت في تخاذل: "ماذا تقول؟" قال: "ربما شبه متفكه هذا الموقف بالفردوس؛ فأنت حواء وأنا ذلك الشخص الآخر آتيًا لإغوائك في إهاب حيوان آخر خسيس، لقد كنت بصيرًا بذلك المنظر في قصيدة ملتن أيام تقواى، حيث يقول: (أيتها المليكة، إن الطريق ممهودة وغير طويلة، وراء صف الآس... فإذا قبلت أن أرشدك صرت بك هناك سريعًا، قالت حواء: هل إذن) إلى آخر ما قال الشاعر، وإنما أسوق إليك هذا يا عزيزتى الحبيبة تس، مثالاً لما لعلك كنت تفترضين لسوء رأيك في ".

قالت: "لم أقل يومًا إنك إبليس ولم يخطر ذلك ببالى، أنا لا أفكر فيك على هذا النحو أبدا، إن أفكارى عنك باردة كل البرود إلا حين تهيننى، والآن أجئت تعزق من أجلى فقط؟" قال: "لأجلك لا غير، لأراك وكفى، وإنما عنت لى فكرة الثوب الكتانى بعد أن عزمت على المجيء، حيث رأيته في الطريق معروضًا للبيع، فارتديته لأفوت العيون، وقد جئت لأحتج على كدحك على هذا النحو"، قالت: "ولكنى أستطيبه، إنى أعمل من أجل والدى"، قال: "هل انتهى عقدك في المكان الآخر؟" قالت: "نعم"، قال: "فإلى أين تذهبين بعدها؟ أتلحقين بزوجك العزيز؟".

وأمضها هذا التذكير المهين فصاحت فى مرارة: "لست أدرى، ليس لى زوج!" قال: "هذا صحيح، فى المعنى الذى تقصدين، ولكن لك صديقًا، وقد عولت على أن ترتاحى بالرغم منك، فإذا عدت على دارك فسترين ما أرسلت إليك" قالت: "ألك! وددت ألا تهبنى شيئًا أبدًا! لا أستطيع أن أقبل منك شيئًا ما! لست أحب هذا وليس ينبغى!" قال: "بلى ينبغى، لن أسمح لامرأة أحبها مثلما أحبك أن تكدح دون أن أحاول مساعدتها"، قالت: "ولكنى فى خير حال! ليس يشقينى إلا... ليس يشقينى أمر رزقى بتاتًا!".

وأشاحت عنه وعاودت عزقها وقد تملكها القنوط وتحدرت دموعها على مقبض الشوكة وعلى التربة، قال: "إنما يشقيك أمر الصبية، أمر إخوتك وأخواتك، لقد كنت أفكر فى أمرهم"، وخفق قلب تس إذ رأته يمسها فى نقطة ضعيفة، وقد كشف منبع همومها الأكبر، وقد كانت روحها منذ عودتها إلى دارها قد توفرت على أولئك الصغار بإخلاص حار، واستطرد: "إذ لم تبرأ أمك وجب أن يعمل إنسان عملاً من أجلهم، ما دام أبوك لن يستطيع أن ينفعهم كثيرًا على ما أظن"، قالت: "بلى سيستطيع مع مساعدتى، يجب عليه أن يستطيع!" قال: "ومع مساعدتى أنا أيضًا"، قالت: "لا يا سيدى!" فانفجر غيظًا يقول: "يا للحماقة! إن الرجل يظن أننا أسرة واحدة وسيرضيه هذا الأمر أشد الرضى!" قالت: "ليس يظن ذلك – لقد بددت أوهامه!" قال: "وهذا أدل على حماقتك!".

وتراجع عنها دربرفيل حانقًا إلى وشيع المزرعة، حيث نزع الثوب الريفى الذى كان متنكرًا فيه، وكوره فى يده ورمى به فى النار ومضى، ولم تعد تس لاضطرابها تستطيع مواصلة العمل، ولم تدر إن كان عاد إلى دار أبيها، فحملت شوكتها وانقلبت راجعة إلى الدار، فلما صارت على بعد عشرين ذراعًا من الدار لقيتها إحدى أخواتها فقالت لها: "تس! ماذا تظنين؟! إن لايزالو تبكى وفى الدار جمع غفير، وقد تحسنت صحة أمى كثيرًا ولكنهم يحسبون أبى قد مات!" وكانت الطفلة تعى ما فى الخبر من خطر وإن لم تع ما فيه من حزن بعد، ووقفت تنظر إلى تس وعيناها متسعتان شعورًا بأهمية ما قالت، حتى لحظت ما كان لقولها من

أثر فى تس فعادت تقول: "ماذا يا تس؟ ألن نكلم أبانا بعد اليوم؟" قالت تس: "ولكن أبى لم يكن به إلا انحراف بسيط!" ولحقت بهما إذ ذاك لايزالو، فقالت: "لقد سقط الساعة ويقول الطبيب الذى يعود أمى ألا أمل فيه لأن قلبه منخوب".

أجل.. كان الزوجان قد تبادلا مكانيهما؛ فنجت المتحضرة وقضى ذو الانحراف البسيط، وكان وراء هذا الخبر مغزى أكبر مما يبدو لأول وهلة. فقد كانت لحياة أبى تس قيمة فوق أعماله الشخصية، وإلا لما كان لتلك الحياة كبير قيمة؛ فقد كانت تلك الحياة هى الثالثة والأخيرة، التى كان المنزل وملحقاته مستأجرة خلالها، وكان المزارع الكبير صاحب الملك ينتظر بفارغ الصبر الحصول على المنزل وملحقاته لإيواء عماله المثابرين فيها، الذين كانوا يعيشون عيشة ضنكة فى أكواخ قليلة وسائل الراحة، هذا إلى أن المستأجرين مدى الحياة من أمثال أسرة دربيفيلد، كانوا مرغوبًا عنهم فى القرى، شأنهم فى ذلك شأن صغار المالكين، لترفعهم واستقلالهم، فكان إذا انتهى عقد أحدهم لم يجدد.

وهكذا راى آل دربيفيلد – الذين كانوا قديمًا آل دربرفيل – قضاء ينصب عليهم هو القضاء الذى لا بد أنهم طالما صبوه – أيام كانوا جبابرة هذا الوادى – على رءوس من لا يملكون أرضًا شأنهم هم اليوم، ولعلهم كانوا فى عهدهم أشد قسوة، وهكذا يطرد التدافع والتجاذب – وهما نغما التطور فى هذا الوجود – ويختلفان على كل ما تظل الزرقاء.

٥١

أخيرًا حل المساء السابق ليوم العذراء القديم وأمسى عالم الزراعة فى حمًى حركة لا تكون إلا فى ذلك الوقت من العام، فهو يوم إيفاء تنفذ فيه العهود التى قطعت فى عيد الشموع كندلماس للعمل فى الحقول فى العام التالى، فينزح العمال – أو الفعلة كما كانوا يسمون أنفسهم حتى أتاهم الاسم الجديد من العالم الخارجى – إلى مزارع جديدة، إذا كانوا لا يودون البقاء فى مزارعهم القديمة.

وكانت هذه المهاجرات فى ازدياد فى هذه الربوع، ففى عهد طفولة أم تس كان أغلب المشتغلين بالزراعة حول مارلت يقضون كل حياتهم على مزرعة واحدة هى التى قضى فيها آباؤهم وأجدادهم أعمارهم، أما فى العهود الحديثة فاشتدت رغبة التنقل، إذ غدت أسرات الجيل الجديد يرون المتعة فى النقل ويتوقعون من وراء ذلك مزايا، فكانت المزرعة التى تعدها أسرة مصر الفرعونية تعدها أسرة أخرى أرض الميعاد، إذ تراها من بعد، حتى تقيم فيها فترتد مصرًا أخرى فى نظرها، ومن ثم كان القوم فى تنقل مستمر.

على أن كل التغيرات التى كانت تلاحظ باطراد فى حياة القرية، لم تكن ترجع كلها إلى مهاجرات الفلاحين، بل كان عدد السكان نفسه فى تناقص، فقد كانت القرية تحتوى فيما مضى – بجانب عمال المزارع – على طبقة طيبة أوسع مدارك وأعلى منزلة من الطبقة الأولى، وهى الطبقة التى كان والدا تس يمتان إليها، كما يمت إليها نجار القرية والحداد والإسكاف والبائع الجوال، وجم غفير من ذوى الحرف الخارجة عن فلاحة الأرض، تلك كانت طبقة من الناس مستقيمة الحياة ثابتة الغرض، لأنها إما تباشر ما تستأجر مدى الحياة كوالد تس، أو تزاول الالتزام للمالك الكبير، أو فى أحوال نادرة تستأجر مساكنها إلى آماد معلومة، ولكن أصبحت المساكن المستأجرة لآماد طويلة إذا ما انتهت مددها لا تجدد عقودها وتؤجر لأمثال هؤلاء، بل كانت فى أحوال كثيرة تهدم إذا لم يكن المالك الكبير فى شديد حاجة إليها لإسكانها عماله.

ذلك بأن سكان القرية الذين لا يعملون فى الزراعة مباشرة، كانوا غير مرغوب فيهم، وكان نفى بعضهم يكسد تجارة آخرين فيضطرون إلى الرحيل فى أثرهم، فاضطرت تلك الأسرات – التى كانت فيما مضى هى فقار تقاليد القرية – إلى اللجوء إلى المراكز الكبيرة، وهى حركة يسميها رجال الإحصاء تسمية مضحكة، يسمونها (ميل أهل الريف إلى المدن الكبيرة)، وهى فى الحقيقة ميل الماء إلى صعود الربى إذ دفعته الآلات دفعًا.

وإذ أتى الهدم على جانب كبير من مساكن مارلت وأكواخها بهذه الصورة، أصبح كل مسكن باق لازمًا للمالك الكبير يؤوى فيه عماله، ومنذ حدوث الحادثة التى تركت ظلها القاتم على حياة تس كانت أسرة دربيفيلد – التى لم يكن الناس يصدقون أمر منتماها – تعد أسرة يجب ذهابها حالما ينتهى عقدها، رعيًا للفضيلة على الأقل، والحق أن تلك الأسرة لم تكن مثالاً باهرًا للاعتدال أو الوقار أو العفاف: فكثيرًا ما سكر الأب بل الأم، وقلما ذهب الصبية إلى الكنيسة، والأخت الكبرى كانت لها علاقات عجيبة، فكان من الواجب تنقية القرية بوسيلة ما، ومن ثم لم يحل يوم العذراء القديم هذا، وهو أول يوم من نوعه يحق فيه طرد أسرة دربيفيلد، حتى احتيج إلى مسكنها الفسح لإيواء نجار ذى أسرة كبيرة، ووجب على الأرملة جوان وابنتها تس ولايزالو إبرهم والصبية الصغار أن يبتغوا عنه متحولا.

وهبط الظلام وشيكًا فى المساء السابق ليوم تحولهم، لأن مطرًا مرذًا كان يحجب السماء، وإذا كانت تلك آخر ليلاتهم فى القرية موطنهم ومسقط رءوسهم، ذهبت مسز دربيفيلد ولايزالوا وإبرهم يودعون بعض الأصدقاء، وبقيت تس فى الدار ترقب عودتهم، وكانت جاثية فى مقعد الشباك ووجهها قريب من المصراعين لمصراعين، حيث كان يجرى على لوح الزجاج الداخلى لوح خارجى من المطر، وقد شدت عيناها إلى عنكبوت كان على ما يرى محرومًا من الطعام، لأنه استقر خطأ فى ركن لا يعتامه الذباب أبدًا، فهو يرتعد فى التيار الضئيل المنبعث من بين المصراعين.

وكانت تس تفكر فى حال ذويها، وكانت تدرك وخامة تأثيرها هى نفسها فى مآلهم: فلو أنها لم تعد إلى دارها لاحتمل أن يسمح لأمها والصغار بالبقاء على أن يكونوا مؤاجرين بالأسبوع، ولكنها عقب عودتها بقليل لاحظها قوم شديد التحرج والتأثم بعيدو النفوذ، رأوها تتلكأ فى مدفن الكنيسة ترمم بفأس فى يدها قبر طفل تهدم، فأدركوا أنها عادت إلى الإقامة فى القرية، فوبخوا أمها على إيوائها فردت عليهم جوان ردًا قبيحًا متبرعة من تلقاء نفسها بالرحيل، فأخذوها بقولها وكانت النتيجة هى هذه، قالت تس لنفسها فى مرارة: "كان يجب ألا أعود أبدًا".

واستغرقت فى أفكارها بحيث لم تكد بادئ ذى بدء تلحظ رجلاً فى معطف مطر أبيض راكبًا مقبلاً فى الطريق، ولعل قرب وجهها من الزجاج أظهرها له بسرعة، فحول عنان حصانه إلى ناحية الكوخ حتى كادت حوافره تقع على زيق النبات الممتد بحذاء الحائط، ولم تلحظه تس حتى مس الزجاج بسرجه،وكان المطر قد أقلع أو كاد، وأشار إليها ففتحت الشباك وقال: "ألم ترينى؟" قالت: "لم أنتبه، ولعلى سمعتك وإن كنت ظننت أنها عربة يجرها حصان، لقد كنت فى شبه حلم".

قال: "لعلك سمعت عربة دربرفيل، ألا تعرفين تلك الأسطورة؟" قالت: "لا، لقد هم بعض الناس أن يقصها على ثم أمسك"، قال: "لا يجدر بى أيضًا أن أخبرك بها إذا كنت حقا تنتمين إلى آل دربرفيل، أما أنا فدعى فيهم فلا ضير على، إنها لقصة مفظعة، وفحواها أن صوت عربة موهومة لا يسمعه إلا بعض سلالة دربرفيل، ويقال إنه يجلب الشؤم على سامعه، ولكل هذا صلة بجريمة قتل اقترفها بعض أفراد الأسرة منذ قرون"، قالت: "أما إذ بدأت فأتمم"، قال: "يزعمون أن بعض أبناء الأسرة اختطف حسناء فحاولت أن تهرب من العربة التى كانت تقلهما، وكان عراك انتهى بأن قتلها أو قتلته لا أذكر تلك إحدى الصور التى تقص بها القصة... أراكم قد حزمتم كل أوعيتكم ودلائكم فهل أنتم مزمعون الرحيل؟".

قالت: "نعم، غدًا يوم العذراء القديم"، قال: "لقد بلغنى ذلك ولم أكد أصدقه لمفاجأته، فما السبب؟" قالت: "لقد كانت حياة أبى آخر حياة تقضى فى المسكن، فلما انقضت لم يعد لنا حق فى المقام، وإن كان من المرجح أن يمكن بقاؤنا على أن

نكون مستأجرين أسبوعين لولاى" قال: "وما شأنك؟" قالت: "لست... امرأة عفيفة"، فاحمر وجه دربرفيل وقال فى غضب كان من سخرية القدر أن يسمع منه: "واخجلتاه! تبًا للأدعياء المنافقين! أهذا سبب رحيلكم إذن؟ لأنكم مطرودون؟" قالت: "لم نطرد فعلاً، ولكنهم قالوا إن علينا أن نذهب قريبًا، فاستحسنا أن نذهب فى وقت الانتقال هذا، الذى هو أحفل بالفرص".

قال: "فإلى أين؟" قالت: "إلى كنجزبير، قد استأجرنا بعض الغرف هناك، إذ إن أمى لاعتدادها الأحمق بعترة أبى تصر على الذهاب إلى تلك البقعة" قال: "ولكن أسرتكم لا تصلح لها غرف مستأجرة، لا سيما فى بلدة ضيقة حقيرة كتلك، فلم لا يأتون لتقيموا فى بيت الحديقة فى ترنتردج؟ لم يكد يبقى هناك دواجن بعد وفاة أمى، ولكن البيت كما تعهدين والحديقة، ومن السهل طلاؤه فى يوم، وفى وسع أمك أن تعيش فيه فى راحة، وسوف أرسل الصبية إلى المدرسة، الحق أن من واجبى أن أساعدكم!".

قالت: "ولكننا قد استأجرنا الغرف فى كنجزبير فعلاً، ويمكننا أن نبقى هناك فى انتظار..."، قال: "فى انتظار ماذا! فى انتظار ذلك الزوج البديع ولا شك، اسمعى يا تس... إنى أفهم الرجال جيدًا، وإذا تذكرت سبب انفصالكما فإنى أجزم بأنه لن يصالحك، وأنا وإن كنت عدوك فيما مضى فإنى صديقك اليوم وإن لم تصدقينى، فتعالى إلى هذا المسكن الذى أعرض عليك ننشئ فيه مستعمرة من الدواجن تعنى بها أمك خير عناية، ويذهب الصغار إلى المدرسة" فسكتت تس برهة اشتد فيها شهيقها وزفيرها، وأخيرًا قالت: "أنى لى أن أثق أنك ستفعل كل ذلك؟ ربما تغير رأيك وعندها نعود نحن... تعود أمى بلا مأوى"، قال: "لا، لا إذا شئت تعهدت لك بما أقول كتابة، تدبرى الأمر".

هزت تس رأسها، ولكن دربرفيل ألحف، ولم تذكر أنها رأته من قبل مصرًا كل هذا الإصرار لا يقبل ردًا، قال فى لهجة توكيد: "نشدتك أن تخبرى أمك، أن الحكم لها لا لك، سآمر بتنظيف المسكن ودهانه غداة غد. وبإيقاد المدافئ فيه، فلا يأتى المساء إلا وهو جاف، فيكون فى مقدوركم المجيء إلى هناك رأسًا أنكرى أنى

سأكون فى انتظاركم، ولكنها عادت فهزت رأسها وحنجرتها مختنقة بمختلف العواطف، وهى لا تستطيع أن ترفع إليه الطرف، فاستطرد: "اذكرى أنى مدين لك ببعض الشيء بسبب الماضى، وأنك شفيتنى من ذلك الجنون، فيسرنى..." قالت: "ليتك استبقيت ذلك الجنون فتتبع المسلك الذى يوافقه!".

قال: "إنى لسعيد بهذه الفرصة التى تتيح لى سداد بعض دينى، سأنتظر غدًا أن أسمع صوت إنزال أمتعتكم من العربات... أعطينى يدك عهدًا بذلك يا تس العزيزة الجميلة!" وكان قد خفض صوته فى آخر جملة إلى همس، ودس يده من المصراعين المواربين، فجذبت تس المشبك فى عجل وعيناها تتقدان، فانحشرت يده بين المصراعين وبين عوارض الشباك الحجرية، فصاح وهو يجذب ذراعه: "أف لهذا! ما أقساك! لا! لا! أنا واثق أنك لم تقصدى ذلك، حسن، سأنتظركم وأنتظر أمك والصغار على الأقل" قالت: "أما أنا فلن آتى، فلدى من النقود ما يكفينى" قال: "أين؟" قالت: "فى صيانة حمى إذا طلبتها منه"، قال: "نعم إذا طلبتها، ولكنك لن تطلبيها يا تس، أنا أدرى بك، لن تطلبيها أو تهلكى جوعًا!"

قال ذلك ومضى، وعند منعطف الشارع قابل الرجل صاحب وعاء الطلاء، فسأله هذا هل هجر الإخوان فأجابه: "اذهب إلى الشيطان"؛ وظلت تس فى موضعها مدة طويلة، حتى خامرها شعور بالظلم وتمرد عليه، دفع الدموع إلى أجفانها ساخنة امتلأ بها محجراها، لقد قسا زوجها إينجل كلير نفسه فى معاملتها كما قسا غيره ما فى ذلك شك! ولم تكن سمحت لهذه الفكرة من قبل أن تخطر لها، ولكن الواقع أنه كان قاسيًا، إنها لتستطيع أن تقسم مخلصة من صميم فؤادها أنها لم ترد يومًا إلا الحسنى، ولكن كان كل حظها هذه الغلطة فى المعاملة، وأية كانت خطاياها فليست تلك الخطايا بمقصودة، بل كان مرجعها الغفلة، فلم تعاقب كل هذا العقاب المرهق؟

ومدت يدها فتناولت ورقة والاضطراب ينهب نفسها، وسطرت فيها هذه الكلمات المعجلة: "ليت شعرى لم تعاملنى هذه المعاملة الفظيعة يا إينجل؟ أنا لا أستحقها، لقد أدرت الأمر على شتى وجوهه، ولن أصفح عنك أبدًا! أنت تعلم أنى لم أقصدك بسوء فلم تسيء إلى هكذا؟ أنتَ لعمرى شديد القسوة، سأحاول أن

أنساك، أنا لم أصب على يديك إلا الحيف."، وانتظرت حتى مر ساعى البريد فجرت إليه برسالتها، ثم عادت إلى مجلسها السادر بجوار زجاج النافذة، وحدثت نفسها أن الكتابة على هذا النحو ليست شرًا من الترفق والتوسل، فأنى له أن يلين لتوسلها؟ إن الحقائق لم تتغير ولم يجد جديد يغير رأيه.

واحلولك الظلام ووضح ضوء المدفأة فى الحجرة، وكان الأكبران من الصبية قد خرجا مع أمهما، والأربعة الأصغرون المتراوحة أعمارهم بين الثالثة والنصف وبين الحادية عشرة متكأكئين حول المدفأة فى معاطف سود يثرثرون، ومشت إليهم تس ولم توقد شمعة، وقالت فى عجلة: "هذه يا أعزائى آخر ليلة نقضيها فى هذا المنزل الذى ولدنا به، أليس يجدر بنا أن نفكر فى ذلك؟" فصمتوا جميعًا، وقد تهيأوا – لسهولة تأثرهم – للانخراط فى البكاء من أجل صورة الانتهاء المحزنة التى صورتها لهم كلماتها، وإن كانوا قد قضوا اليوم مغتبطين بفكرة الذهاب إلى بيت جديد.

قالت: "غنو يا أعزائى"، قالوا: "مــاذا نغنى؟" قالت: "أية أغنيــة تعرفونهــا لا أبالى"، فساد صمت مؤقت قطعه أول الأمر صوت صغير يحاول الترنم، وسرعان ما انضم إليه آخر ثم لحق بهما ثالث فرابع، يرددون جميعًا ما حفظوا فى مدرسة يوم الأحد: "هنا نكابد الحزن والألم، هنا نتلاقى لنعود فنفترق، أما فى السماء فلا نفترق أبدًا"، ومضوا يتنغمون فى استسلام وغفلة فعل من فرغ من المشكلة من زمن، واطمأن إلى صواب رأيه، واستراح إلى عدم ضرورة متابعة التفكير، وزموا معارف وجوههم توفرًا على حسن إخراج الحروف، وعيونهم مصوبة إلى وسط النار المتهافتة، ونغمات أصغرهم تطغى على وقفات الآخرين.

وأشاحت عنهم تس وعادت إلى الشباك، وكان الظلام قد خيم فى الخارج ولكنها ألصقت وجهها بالزجاج كأنها تحدق فى الظلماء، والحقيقة أنها كانت توارى عبراتها، وودت لو أنها تؤمن بما يترنم به الصبيان، فلو أنها كانت واثقة لتغير كل شيء فى نظرها، ولتركتهم فى طمأنينة إلى العناية وإلى مملكتهم المستقبلة! أما وقد عازها ذلك الوثوق فقد حق عليها أن تعمل من أجلهم عملاً، وأن تكون هى تلك

العناية، فقد كانت تس تحس كما يحس ملايين كثيرة من البشر بسخرية بشعة فى قول الشاعر: "لسنا نأتى فى عرى تام بل فى غلائل هفهافة من السعادة"، كانت هى وأضرابها يعدون الميلاد نفسه إرغامًا للفرد مهينًا ليس فى نتائجه ما يبرر فرضه عليه بلا اختيار، وليس فى تلك النتائج إذا ما حسنت إلا ما يخفف أثره، دون أن يزيله تمامًا.

وسرعان ما لمحت أمها ولايزالو بقامتها المديدة وإبرهم فى غبش الطريق المبتل، وراح حذاء أمها الخشبى العالى الذى يرفعها من الوحل يرن على الأرض، حتى بلغوا باب المسكن ففتحته تس وقالت جوان: "أرى آثار حوافر جواد خارج الشباك، فهل زارنا زائر؟" قالت تس: "لا"، فحدجها الصغار القابعون بجانب الدفء، وغمغم أحدهم: "بلى يا تس! السيد الراكب!" قالت تس: "لم يزرنا وإنما حادثنى فى مروره"، قالت أمها: "من ذلك السيد؟ زوجك؟" قالت تس فى يأس متحجر: "لا! زوجى لن يأتى أبد الأبيد!" قالت أمها: "من إذن؟" قالت: "ما بك حاجة إلى تسآل، لقد رأيته أنت من قبل ورأيته أنا"، قالت جوان فى فضول: "آه! ماذا قال؟" قالت تس: "سأخبرك به كلمة كلمة متى استقر بنا المقام غدًا فى كنجزبير".

لقد قالت تس إن الزائر لم يكن زوجها ولكن شعورًا كان يتملكها رويدًا رويدًا، شعورًا بأن ذلك الرجل هو من الوجهة الجسدية زوجها الوحيد.

أحسن الساكنون على كثب من الطرق العامة فى الساعات المبكرة من صباح اليوم التالى بضوضاء مجلجلة، تزعج نومهم بتواصلها من حين إلى آخر، حتى مطلع الفجر، وكانت الضوضاء محققة الحدوث فى هذا الأسبوع الأول من الشهر خاصة، كما كان محققًا أن يسمع صوت الوقوق فى أسبوعه الثالث، فتلك مقدمات التنقلات العامة، منبعثة من مرور العربات الفارغة تجرها الخيول، لإحضار أمتعة الأسرات المنتقلة، لأن القاعدة كانت أن الرجل المستأجر تنتقل أمتعته إلى وجهته، على عربة المزارع المحتاج إلى خدماته، وكان السر فى تعالى تلك الجلبة بعد منتصف الليل راجعًا إلى الرغبة فى إنجاز عمل التنقل مدى اليوم، إذ كان السائقون يحبون أن يبلغوا باب المنتقل فى السادسة صباحًا، ليبدأوا فى التحميل فورًا.

أما تس وأسرتها فلم يرسل إليهم عربته مزارع تائق إلى قدومهم، فإن أكبر من فى الأسرة نساء لا يعتمد عليهن فى العمل الطويل المتواصل، ولم يكن بأحد شديد رغبة فيهن؛ ومن ثم كان على القوم أن يستأجروا عربة على نفقتهم ولما نظرت تس من الشباك فى ذلك الصباح، ارتاحت إذ تبينت أن السماء لم تمطر، وإن كانت الريح هائجة والجو عبوسًا، فقد كان الانتقال فى يوم العذراء القديم تحت تساقط الأمطار بلاءً لا تنساه الأسرات أبدًا، إذ كان يبلل المتاع والفراش والثياب، ويخلف وراءه شرًا كثيرًا.

ورأت تس أن العربة قد وصلت، واستيقظت أمها أيضًا ولايزالو وإبرهم، أما الصغار فتركوا فى نومهم، وتناول الأربعة طعامهم فى الضوء الخافت وبدأوا فى جمع حاجاتهم، وسار العمل فى شيء من الحبور، ومدت بعض الجارات يد المساعدة، ولما وضعت قطع الأثاث الكبرى فى مواضعها من العربة، صنع عش من الفرش لتجلس فيه جوان دربيفيلد والأطفال طول الطريق، ولما انتهى التحميل استغرق إحضار الخيل زمنًا طويلاً، وكانت قد خلعت عنها شكائمها أثناء العمل،

ولكن انطلق الجميع أخيرًا لما حانت الساعة الثانية، انطلقت العربة والحلة تتأرجح من محور عجلتيها، ومسز دربيفيلد ورهطها فى أعلى، وفى حجر المرأة رأس ساعة الحائط حرصًا على عددها، وكانت الساعة كلما مالت العربة أو اهتزت دقت واحدة أو واحدة ونصفًا فى نغم حزين، وسارت تس وأختها التى تليها سنًا بحذاء العربة حتى خرجتا من القرية.

وكانت الأسرة قد زارت صباح اليوم وفى الليلة السابقة بعض الجيران، وقد جاء بعض أولئك الجيران يودعونهم ويتمنون لهم خيرًا، وإن كانوا فى باطن نفوسهم لا يتوقعون خيرًا لمثل هذه الأسرة، وإن كانت أسرة دربرفيل أقل الخلق إيذاء لغير نفسها؛ وسرعان ما بدأت العربة تصعد أرضًا مرتفعة، وازداد هبوب الريح بتغير الارتفاع والتربة، وإذ كان اليوم السادس من إبريل، فقد قابلت عربة أسرة دربيفيلد عربات أخرى كثيرة، على قممها أصحابها، وقد ركم المتاع فيها على طريقة متشابهة يمتاز بها العمال الريفيون، كما تمتاز النحلة بخلاياها السداسية؛ فكان دولاب الآنية فى أسفل باديًا فى المقدمة على ذيول الخيل، بمقابضه اللامعة وبصمات الأصابع وآثار الاستعمال ظاهرة عليه، قائمًا فى وضعه الطبيعى كأنه فلك العهد الذى كان اليهود يحملونه معهم فى أيام التيه.

وكانت بعض الأسرات المهاجرة فى مرح وبعضها فى عبوس، وكانت بعضها تعرج بأبواب الحانات، وقد عرجت أسرة دربيفيلد ببعضها حين آن الأوان لإطعام الخيل وإنعاش المسافرين، وفى أثناء الانتظار وقعت عينا تس على كوز كبير أزرق؛ يسع أقة ونصفًا من الشراب، وهو يصعد ويهبط فى الهواء من جانب النساء فى جماعة مسافرة على قمة أمتعتها، وقد وقفت تلك الجماعة على مدى من نفس الحان فتابعت تس الكوز بعينيها فى إحدى رحلاته صعودًا، فإذا يدان تقبضان عليه تعرف تس صاحبتهما حق المعرفة، فتقدمت إلى العربة وصاحت بالفتاتين: "ماريان وإيز!" وكانتا إياهما جالستين مع الأسرة المتنقلة التى كانتا تقيمان فى مسكنها.

قالت: "أمنتقلتان أنتما اليوم كجميع الناس؟" فأجابتا إثباتًا وقالتا إن الحياة فى فلنتكوم آش شاقة، وإنهما انسلتا دون إخطار المزارع جروبى، وتركتاه فى حل من محاولة القبض عليهما، وأخبرتا تس بوجهتهما وأخبرتهما بوجهتها، ومالت ماريان على المتاع وقالت وخفضت صوتها: "أتدرين أن الشاب الذى كان يتتبعك – طبعًا تعلمين من أعنى – قد جاء يسأل عنك فى فلنتكوم آش بعد ذهابك؟ ولم نخبره بمكانك علمًا بزهادتك فيه"، فغمغمت تس: "آه! ولكنه قد أتانى! لقد اهتدى إلى!" قالت: "وهل يعلم قصدك؟" قالت: "نعم"، قالت: "وزوجك هل عاد؟" قالت: "لا".

وخرج السائقان من الحان، فودعت تس صاحبتيها وعاودت العربتان سيرهما فى اتجاهين متضادين، وكانت العربة التى تجلس عليها إيز وماريان وأسرة المزارع التى انضمتا إليها، لامعة الطلاء تجرها ثلاثة أحصنة قوية توشى لجمها زينات نحاسية براقة، أما العربة التى كانت تجلس عليها مسز دربيفيلد وأسرتها فكانت مضعضعة لا تكاد تحمل ذلك الركام من الأمتعة، لم تدر ما الطلاء منذ صنعت ولا يجرها إلا حصانان، فكان الفرق بين العربتين رمزًا للفرق بين الانتقال على نفقة مزارع غنى، وانتقال المرء على نفقته الخاصة إلى حيث لا يطلبه أحد.

وكانت المسافة طويلة أطول من أن تذرع فى نهار، ولم يذرعها الحصانان إلا بأشد المشقة، ومع أن القوم بدأوا رحلتهم مبكرين فقد كان المساء يقترب حين انعطفوا على جانب ربوة بارزة، تكون جزءًا من هضبة تدعى (جرينهل)، ووقف الحصانان يستجمان ويملكان أنفاسهما، فأجالت تس عينيها وكانت بلدة كنجزبير المتهدمة تقوم دون الهضبة على مدى منهم، وفيها يرقد أسلافها الذين تحدث بهم أبوها وتغنى حتى استدر الرثاء، كنجزبير التى يحق أن تعد دون غيرها من بقاع العالم ديار آل دربرفيل، إذ بها أقاموا خمسة قرون كاملة.

وكان رجل يرى متقدما من أرباضها نحوهم، فلما لاحظ نوع أحمال عربتهم حث خطاه، ثم قال لأم تس وكانت قد هبطت لتمشى ما بقى من الطريق: "لعلك أنت المرأة التى يدعونها مسز دربيفيلد؟"، فهزت رأسها موافقة وقالت: "ولو أصررت

على حقوقي لقلت إنى أرملة المغفور له سير جون دربرفيل الشريف الفقير، وهأنذى عائدة إلى مقر أجداده"، قال: "أحقًا؟ ليس لى علم بذلك ولكن إذا كنت أنت مسز دربيفيلد فإنى مرسل إليك لأخبرك أن الحجرات التى تريدينها قد أجرت، ونحن لم نعلم أنك قادمة حتى أتانا كتابك هذا الصباح، بعد أن فات الأوان، ولكن لا ريب أنك تستطيعين الحصول على حجرات أخرى فى مكان آخر".

ولاحظ الرجل وجه تس وقد ارتد شاحبًا ممتقعًا لدى سماع خبره، وأسقط فى يد أمها وقالت فى حيرة: "ما عسانا أن نصنع يا تس؟ هذا ضرب من الترحيب بك إلى مقر أسلافك! على أن فى استطاعتنا أن نتم رحلتنا ونبحث"، وتقدموا يبحثون فى القرية جهد استطاعتهم، وتخلفت تس مع العربة ترعى الصغار، بينما تقدمت أمها ولايزالو تسألان، ولما عادت جوان إلى العربة للمرة الأخيرة بعد ساعة من الزمان، وقد أخفق مسعاها، قال السائق إنه لا بد من إنزال الأمتعة لأن الحصانين قد أشرفا على الهلاك، ولأن عليه أن يعود جزءًا من الطريق على الأقل تلك الليلة، فقالت جوان فى غير مبالاة: "أنزله هنا وسأجد مأوى فى مكان ما".

وكانت العربة قد وقفت تحت حائط الكنيسة فى بقعة محجوبة عن الأنظار، وسرعان ما ألقى السائق مسرورًا ركام الأمتعة المنزلية الحقيرة، فلما فرغ دفعت إليه أجره الذى كاد يستنزف آخر شلن معها، وانطلق الرجل وتركهم مرتاحًا إلى خلاصه من شأن تلك الأسرة، وكان المساء جافًا وقد أيقن ألا ضرر يصيبهم، وحملقت تس فى قنوط إلى كومة الأمتعة، وقد أرسلت شمس ذلك الأصيل الربيعى البارد نظرة خبيثة على الأوانى والأطباق وحزم الأعشاب المجففة وهى تخفق فى النسيم، ومقابض الصوان النحاسية والأرجوحة التى تأرجحوا فيها جميعًا فى نعومتهم، وعلبة الساعة المجلوة، وقد لاحت جميع هذه الادوات المنزلية كأنها تؤنب أصحابها على تعريضهم إياها لتقلبات الحياة الخارجية التى لم تصنع لها؛ وكانت تحيط بالمنزل تلال ومنحدرات قد عفت عن متنزهاتها القديمة، وقسمت أقسامًا ترعاها الخيول، وتقوم دونها الأسس المعشوشبة التى تنبئ بمكان قصر دربرفيل قديمًا، وتمتد مساحته فى مروج (اجدن) التى كانت بعض أملاكهم، وكان جناح الكنيسة المسمى جناح دربرفيل يطل على ذلك المنظر فى غير اكتراث.

قالت أم تس وهى عائدة من جولة فى الكنيسة ومدفنها: "أليس قبو أسرتكم ملكًا لكم؟ بل وفيه نعسكر الليلة يا بناتى حتى يهيئ لنا مقر أسلافكن مأوى! والآن هلموا ساعدونى يا تس ويا لايزالو ويا إبرهم، نصنع عشًا لهؤلاء الصبية وبعدها نعاود البحث، فأقبلت تس تساعد فى قنوط، وبعد ربع ســاعة استخـــرج الفراش ذو القوائم الأربع من كومة الأمتعة، وأقيم بجانب حائط الكنيسة الجنوبى، وهو جانبها المسمى جناح دربرفيل والذى تمتد دونه الأقبية الضخمة، وكان فوق كلة الفراش شباك مزركش زركشة قوطية بديعة متعددة الألوان، ترجع إلى القرن الخامس عشر، وكان يدعى شباك دربرفيل، وكانت على أعلاه نقوش شعار كذلك الشعار المنقوش على خاتم دربيفيلد وملعقته.

وأرخت جوان الستائر حول السرير لتجعل منه فسطاطًا محكمًا، ووضعت فيه الصبية الصغار وقالت: "إذا حدث أسوأ الفروض أمكننا أن ننام فيه نحن أيضًا ليلتنا، ولكن هيا نبحث أبعد مما ذهبنا ونحضر بعض لطعام لهؤلاء الصغار الأعزاء! ويحك ياتس! ما فائدة تلك اللعبة التى تلعبينها، لعبة زواج السادة الأثرياء، ما دامت لعبتك تتركنا فى هذه الحال؟" ثم كرت مصطحبة لايزالو والغلام فهبطت الدرب الذى يفصل الكنيسة عن البلدة.

وحالما بلغوا الشارع لمحوا رجلا على حصان يتلفت، فقال وهو يدانيهم: "آه! إنى أبحث عنكم، هذا لعمرى اجتماع أسرى فى بقعة تاريخية!" وكان ذلك ألك دربرفيل، ثم سأل: "أين تس؟" وكانت جوان فى سريرتها لا تحب ألك، فارشدته إلى جهة الكنيسة فى اقتضاب وواصلت سيرها، وقال دربرفيل إنه سيراهم مرة أخرى، إذا هم أخفقوا فى النهاية فى العثور على مسكن، وكان قد سمع بالأمر، ولما مضوا اتجه دربرفيل صوب الحان، ثم خرج منه بعد قليل مترجلاً.

وكانت تس التى تركت مع الصبية داخل الفراش قد ظلت تحادثهم برهة، حتى لم يعد ثمة ما تصنع لراحتهم فى تلك الساعة، فراحت تتمشى فى ساحة الكنيسة وقد بدأ يغشاها غبش الظلام، وكان بابها غير مقفل فدخلتها لأول مرة فى حياتها وكانت مقابر الأسرة داخل ذلك الشباك المطل على الفراش، ترجع تواريخها

إلى قرون شتى، وكانت تعلو بعضها مظلات وبعضها على شكل مذبح وبعضها قبور عادية، وقد تهدمت نقوشها وطمست ونزع نحاسها من حفراته حيث كان طعم في الحجر، مخلفًا حفر المسامير كأنها أحجار الخطاطيف في الكثبان الرملية.

ولم يكن شيء مما صادفته فيما مضى فذكرها بدثورَ أسرتها ومكانتها الاجتماعية بأعمق أثرًا من هذا البلى، ومشت إلى حجر قاتم قد رقش عليه باللاتينية: "مدخل مقابر أسرة دربرفيل العريقة"، ولم تكن تس تقرأ اللاتينية بحذق كردينال، ولكنها علمت أن هذا باب مدفن أسلافها، وأن الفرسان الصناديد الذين تغنى بهم أبوها يرقدون وراءه، والتفتت وهي نهب الأفكار تبغي العودة مارة بجوار مقبرة على شكل المذبح، وكانت أقدم المقابر جميعًا وعليها تمثال متمدد، ولم تكن قد لاحظت ذلك التمثال من قبل في غبش الظلام، ولم تكن لتلاحظه الآن ولولا توهمها أنه يتحرك.

وحالما دنت منه أيقنت أن الشخص آدمي حي، فأخذتها رجفة عنيفة لشعورها بأنها لم تكن وحدها في ذلك المكان. فخارت قواها وانحطت على الأرض وقد كادت تفقد صوابها، ولكنها تبينت أنه ألك دربرفيل، ووثب هو عن المقبرة فتلقاها وقال باسمًا: "لقد رأيتك تدخلين فارتقيت تلك المقبرة لئلا أكدر عليك تأملك، هذا اجتماع أسري، أليس كذلك؟ وجميع أولئك الأشياخ من دوننا! اسمعي!" ووطئ وطئًا شديدًا فصعد من تحت الأرض صدى أجوف واستطرد: "لقد هزهم هذا هزًا جيدًا ولا شك! وقد ظننت أنت أني لست إلا مثالاً حجريًا لأحدهم، ولكن لا، إن نظام الدنيا في تغير مطرد، وخنصر دربرفيل الدعي أقدر على نفعك من جميع رجال الأسرة العريقة الراقدة من دوننا، والآن مريني: ماذا يمكنني أن أصنع؟" فغمغمت: "اذهب!" فقال في جفاء: "سأذهب، سأذهب في أثر أمك"، ولكنه عاد فقال في انطلاقه: "اذكري أنك ستكونين أرق لي خطابًا فيما بعد!" ولما مضى انحنت تس على مدخل الأقبية وقالت: "ما بالي على غير الجانب الصواب من هذا الباب!".

وفى نفس هذا الوقت كانت إيز وماريان قد واصلتا طريقهما مع أمتعة المزارع فى اتجاه أرضهما أرض كنعان المنشودة، التى هى مصر أسرة أخرى لم تغادرها إلا ذلك الصباح، ولكن الفتاتين لم تطيلا التفكير فى مقصد رحلتهما، وإنما تحدثتا بإينجل كلير وتس وعاشق تس الملحاح، الذى كانتا قد سمعتا قبل اليوم ببعض علاقته بتاريخها الماضى، وحزرتا بعض تلك العلاقة حزرًا، قالت ماريان: "ليس الأمر اليوم كما كان يكون لو أنها لم تعرفه من قبل، إن ظفره بها مرة من قبل يحدث فرقًا كبيرًا، ومن المؤلم حقًا أن يظفر بها ثانية، نحن لن يكون لنا فى مستر كلير نصيب أبدًا يا إيز، فلم نحسدها عليه ولا نرأب هذا الصدع بينهما؟، ولو أنه عرف أى ضنك تقاسى وأى خطر يحوم حولها، لرجح أن يعود إلى فتاته يحوطها برعايته"، قالت إيز: "ألا نخبره؟".

وظلتا تفكران طول الطريق، ولكن زحمة الاستقرار فى البقعة الجديدة استغرقت كل انتباههما، على أنهما سمعتا بعد شهر من استقرارهما بقرب عودة إينجل كلير، وإن لم تسمعا شيئًا من أخبار تس، وعندها راجعهما هيامهما به، وإن لم يزايلهما إخلاصهما لها، ففتحت ماريان قنينة المداد الصغيرة التى كانت شركة بينهما، وأنشأتا معًا بضعة أسطر، قالتا: "أيها السيد المبجل: انتبه إلى زوجك إذا كنت تحبها كما تحبك، فإن عدوًا فى ثياب صديق يشدد فى إرهاقها، إن بقربها أيها السيد رجلاً ينبغى أن يكون بعيدًا عنها، لا ينبغى ان تمتحن امرأة فوق وسعها، وطول السقوط يبرى الحجر بل الماس. محبتان لخيرك".

وعنونتا ذلك إلى إينجل كلير بالمكان الوحيد الذى سمعتا أن له به علاقة، وهو مسكن قس إمنستر، وظلتا فى انفعال واغتباط بهذا الكرم النفسى الذى أبديتاه، دفعهما إلى التغنى بالأغانى فى نزعة عصبية، وإلى البكاء فى نفس الوقت.

الخاتمة

٥٣

هبط المساء فى إمنستر، وكانت الشمعتان المعهودتان مشتعلتين تحت مظلتيهما الخضراوين فى مكتب القس، ولكنه لم يكن جالسًا هناك، بل كان يدخل أحيانًا فيحرك نار المدفأة الضئيلة، التى كانت كافية فى جو الربيع المزداد دفئًا، ثم يكر خارجًا، وكان أحيانًا يقف هنيهة بالباب الخارجى، ثم يذهب إلى حجرة الجلوس، ثم يعود ثانية إلى الباب، وكان ذلك الباب يتجه غربًا، ورغم أن الظلام كان حالكًا فى الداخل، كان الضوء فى الخارج لا يزال كافيًا لإظهار الأشياء فى جلاء، وكانت مسز كلير فى حجرة الجلوس فتبعت زوجها إلى الباب.

قال القس: "لا يزال بيننا وبينه وقت طويل، فإنه لا يبلغ (تشوك نيوتن) قبل السادسة، حتى ولو وصل القطار فى ميعاده، ولن يسهل على حصاننا المكتهل أن يذرع فى مشيته المتهدمة عشرة أميال فى طريق زراعى، ومنها خمسة فى درب (كرمر كرك)"، قالت: "ولكنه قطع المسافة بنا مرة فى ساعة"، وقال: "كان ذلك منذ سنين" وهكذا جعلا يقضيان الدقائق، وكلاهما يعلم ألا غناء فى الكلام وأن ليس عليهما إلا الانتظار.

وأخيرًا انبعثت فى الدرب ضوضاء ضئيلة، وظهرت العربة الصغيرة خارج السور الحديدى، ورأيا شخصًا يهبط منها ادعيا أنهما يعرفانه، ولو رأياه صدفة فى الطريق لما عرفاه، لولا أنه هبط من عربتهما فى تلك الساعة المعلومة حين كانا يرقبان شخصًا معلومًا، وهرعت مسز كلير فى الطرقة المظلمة وتلاها زوجها على مهل، ورآهما القادم فى دخوله والقلق مرتسم هلى وجهيهما، وهما واقفان بالمدخل وشعاع المغرب منعكس على منظاريهما، أما هما فلم يريا إلا شخصه حيال الضياء، وقالت أمه: "أهلا بنى العزيز بعودتك أخيرًا إلى وطنك"، ولم تكن فى تلك الساعة أكثر احتفالاً لشوائب الزيغ التى تشوب عقيدته، والتى سببت كل ذلك

الفراق، منها للغبار المتطاير على ثيابة، وأية امرأة – وإن كانت من أوثق الناس إيمانا بالحق – تؤمن بما فى الكتاب المقدس من وعود ونذر إيمانها بأبنائها، أو تحجم عن نثر كل مجادلاتها الدينية أدراج الرياح فداء لسعادتهم؟.

ثم عادت تقول وهى تتنحى عن الطريق وقد بلغ منها التأسف: "لا: ما هذا إينجل، ما هذا ابنى إينجل الذى ودعته"، وريع أبوه أيضًا لرؤيته وقد أضوى عوده الهم وسوء المناخ، الذى هرع إليه دون تريث أيام نفوره من سخرية الأقدار به فى موطنه، فأصبح تكاد تستشف هيكله العظمى وراءه، وتلمح شبحه وراء هيكله، كان يحاكى صورة المسيح التى صورها (كريفلى)، وقد غار محجراه وعلاهما لون بشع، وغاض بريق عينيه، وتبوأت غضون وجوه أسلافه الشيوخ وتجعداتها عرشها من وجهه قبل الأوان بعشرين عامًا.

قال: "لقد كنت مريضًا بالبرازيل، أما الآن فقد عوفيت"، على أن ساقيه كأنما أرادتا تكذيبه فاختلجتا وارتمى فى كرسى ليتفادى السقوط، وكانت تلك خلجة ضعف عرته من جراء رحلة ذلك اليوم المجهدة، والانفعال الذى صحب وصوله، ثم سأل: "هل جاء كتاب باسمى حديثًا؟ لقد أتانى الكتاب الأخير الذى أرسلتماه، وقع فى يدى بمحض الصدفة وبعد تأخير طويل من جراء إقامتى فى الداخل، ولولا ذاك لعجلت فى المجىء"، قال والداه: "لقد حزرنا أنه من زوجك"، قال: "نعم"، وأخبراه أن كتابًا واحدًا قد وصل حديثًا فلم يرسلاه إليه علمًا بأنه عائد عما قريب.

وفتح الرسالة على عجل، وأهمه أشد الهم أن يقرأ فى خط تس تلك المشاعر التى خطتها إلــيه فى استعجال: "ليت شعرى لم تعــاملنى هذه المعــاملة الفظيعة يا إينجل؟ أنا لا أستحقها، لقد أدرت الأمر على شتى وجوهه ولن أصفح عنك أبدًا، أنت تدرى أنى لم أقصدك بسوء فلم تسىء إلى هكذا؟ أنت لعمرى شديد القسوة! سأحاول أن أنساك، أنا لم أصب على يديك إلا الحيف. ت".

قال إينجل وهو يرمى بالورقة: "صدقت! أخشى أنها لن ترضى عنى بعد اليوم!" قالت أمه: "لا تأس إينجل كل هذا الأسى على ريفية"، قال: "ريفية؟ كلنا ريفيون، وليتها حقا كذلك بالمعنى الذى تقصدين، ولــكن دعينى أوضــح لك الآن

ما لم أوضح من قبل: إن أباها ينتمي في فرع الذكور إلى بيت من أعرق البيوتات النرمندية، شأنه شأن كثيرين من آخرين يحيون حياة خمول في الفلاحة بقرانا، ويسمون ريفيين".

وسرعان ما أوى إلى فراشه، وفي غداة الغد شعر بوطأة العلة، فبقي في مخدعه مستغرقًا في الأفكار.. لقد ترك تس في ظروف تجعل من صعب الأمور عليه أن يهرع إلى أحضانها حالما يطيب له أن يغفر لها، وإن لاح له أن ذلك يسير حين كان على الجانب الجنوبي من خط الاستواء ويوم أتاه كتابها فياضًا بالحب؛ إنها امرأة غزيرة العاطفة، وأما وكتابها الحاضر يشهد بأن رأيها فيه قد تغير – وهو مقر بأنها لم تتعد الإنصاف في تغيرها – فقد ساءل نفسه أمن الحزم أن يفجأها بزيارته في حضور والديها دون سابق إخطار، فإذا كان حبها قد تحول جفاء في الأسابيع الأخيرة حقًا، فإن لقاء مفاجئًا ربما أدى إلى ألفاظ مريرة.

ومن ثم استحسن إينجل أن يهيئ تس وأسرتها للقائه، بإخطارهم بعودته وتأميله أنها لا تزال تعيش معهم كما أشار عليها قبل رحيله، وكتب إليهم في نفس اليوم، وقبل انتهاء الأسبوع أتته رسالة مقتضبة من مسز دربيفيلد لم تنقذه من تحرجه وتهيبه، فإنها لم تكن تحمل عنوانًا، وإن أدهشه أن يرى أنها غير مرسلة من مارلت، وهذا فحواها: "سيدي: أكتب هذه السطورالقليلة لأقول إن ابنتي بعيدة عني في الوقت الحاضر، ولست على يقين من عودتها، ولكني سأحيطك علمًا حالما تعود، ولا أرى لي الحق أن أخبرك بمقرها الراهن، وإنما أقول إني أنا وأسرتي قد غادرنا مارلت من زمن المخلصة: ج. دربيفيلد".

وبلغ من اغتباط إينجل حين رأى أن تس على ما يلوح في حالة جيدة، أنه لم يقنط كثيرًا لشدة تكتم أمها في أمر مقرها، فمن الواضح أنهم جميعًا حانقون عليه، ومن ثم عول على الانتظار حتى تخبره مسز دربيفيلد بعودة تس، التي استنبط من رسالتها أنها ستكون سريعة؛ ورأى أنه لا يستحق معاملة خيرًا من تلك، فقد كان حبه كما قال شكسبير حبًا يتغير بتغير الأحوال، على أنه في غيبته الطويلة خالجته مشاعر جديدة، وأدرك أنه كان قد توهم الفجور حيث العفاف كله، وعجب لم لم يحكم على تس نفسها واستعدادها لا ماضيها وتاريخها، وعلى نيتها لا على فعلها.

ومر يوم أو يومان وهو فى دار أبويه يرقب وصول رسالة جوان دربيفيلد الموعودة، واستعادته بعض قواه، وقد بدت دلائل تراجع قواه ولكن لم يبد دليل واحد على مجيء رسالة من جوان، فقام ينقب حتى عثر على الرسالة القديمة التى أتته فى البرازيل مرسلة إليه من تس فى فلنتكوم آش، فأعاد تلاوتها فأثرت فيه كلماتها تأثيرها لما قرأها لأول مرة حيث تقول:

"... دعنى أفزع إليك فى بلائى فليس لى سواك مفزع!.. أتوسل إليك يا إينجل ألا تصر على العدل وأن تستشعر الرحمة بى... إذا استطعت المجيء فسيطيب لى الموت فى ذراعيك! سوف أرتاح إلى ذلك إذا اطمأننت إلى أنك غفرت لى! إذا كتبت إلى سطرًا واحدًا صغيرًا فقلت: (إنى قادم سريعًا) فسأثابر فى أوفر سعادة يا إينجل!... تصور كم يوجع قلبى ألا أراك أبدًا أبدًا أبدًا، آه لو أستطيع أن أجعل قلبك العزيز يألم وهلة قصيرة كل يوم، كما يألم قلبى كل يوم بطوله، إذن لاحتمل أن يدفعك ذلك إلى إبداء العطف على حبيبتك الوحيدة... إنى لأقنع بل أغتبط لأن أعيش معك خادمًا إذا لم يكن لى أن أعيش معك زوجًا، كى أحظى بقربك وأفوز بالنظر إليك وأعدك أنك لى... ولا أشتاق فى السماء أو على الغبراء أو تحت الثرى إلا شيئًا واحدًا، وذاك لقاؤك يا حبيبى العزيز! تعال إلى! تعال إلى أنقذنى مما يتهددنى".

عول إينجل على ألا يحفل بمرارة رسالتها الأخيرة بعد ذاك، بل يذهب ليبحث عنها فورًا، وسأل أباه إن كانت طلبت منه نقودًا فى غيابه فأجاب سلبًا، فبدا لإينجل إذ ذاك لأول مرة أن كبرياءها أبى لها وأنها آثرت العسر، واستنبط أبواه من أقواله سبب انفصالهما الصحيح، فدفعتهما عقيدتهما المسيحية – إذ كانا لا يهتمان لأحد اهتمامهما لذوى الخطايا – إلى السخاء على تس فورًا بشفقتهما التى لم يثرها من قبل نسبها العريق ولا سذاجتها وفقرها، أثارتها الآن خطيئتها.

وفى أثناء حزمه بعض الأشياء على عجل من أجل رحلته المزمعة، أرسل نظرة خاطفة إلى رسالة متواضعة وصلته حديثًا أيضًا، تلك هى رسالة إيزهيوت وماريان التى تستهلانها بقولهما: "أيها السيد المبجل: انتبه إلى زوجك إن كنت تحبها كما تحبك"، وتمهرانها بإمضاء محبتَين لخيره.

بعد ربع ساعة غادر إينجل الدار، وراقبت أمه شخصه النحيل يغيب في الطريق، وكان قد أبى أن يستعير مهرة أبيه العجوز علمًا بلزومها لحاجاتهما، ومضى إلى الفندق حيث اكترى عربة وهو لا يكاد يستطيع الصبر حتى تلجم فرسها، وبعد دقائق قليلة كان يسوق عربته صاعدًا التل المرتفع خارج البلد، والذى ارتقته تس منذ شهور ثلاثة أو أربعة فى آمال وطيدة، وهبطته متعثرة فى أذيال الخيبة.

وسرعان ما امتد امامه سهل بنفيل وقد انتشرت حمرة البراعم أرجوانية فى أشجاره وأوشعته، ولكن كلير كان يفكر فى أشياء أخرى، ولا يعير المنظر من انتباهه إلا مقدار ما يمكنه من متابعة الطريق، وفى أقل من ساعة ونصف دار حول جنوب حقول (كنجز هنتك) وهبط نحو ملتقى طرق (كروس إن هاند) الموحش المنفر، حيث العمود الدنس الذى أرغم دربرفيل تس فى نزوة تقواه على أن تستلمه وتقسم ذاك القسم الغريب بألا تقصد إلى إغوائه مرة أخرى، وكانت الأعشاب الشائكة الذابلة التى اجتلبتها الرياح فى العام الماضى لا تزال ممتدة على الشطآن، وقد نجمت من جذورها أشواك صغيرة خضراء.

ومن ثم انطلق محاذيًا حافة الهضبة المطلة على بقية حقول (هنتك)، ثم انعطف فى إقليم فلنتكوم آش الطباشيرى البليل الهواء، ومنه كانت تس قد كتبت إليه إحدى رسالتيها، وكان يظن أن هذا هو مقرها المؤقت الذى أشارت إليه أمها، ولكنه طبعًا لم يجدها، وزاده كآبة أن مسز كلير، لم يسمع بها قط أحد من القرويين ولا المزارع نفسه، وإن كان القوم يذكرون تس جيدًا باسمها الشخصى وتبين له أنها لم تستعمل اسمه قط أثناء انفصالهما، وكان ذلك دليلاً على سمو نظرتهما إلى تمام انفصالهما، لا يقل مغزى عن الشدائد التى آثرت خوضها – والتى علم بأمرها الآن لأول مرة – على اللجوء إلى والده فى طلب المال.

وأخبروه أن تس غادرت ذلك المكان ولم تكد تخطر مستأجرها، وذهبت إلى مسكن والديها فى الجانب الآخر من بلاكمور؛ فتعين عليه أن يذهب إلى مسز دربيفيلد وكانت أخبرته أنها نزحت عن مارلت، ولكنها كتمت عنه عنوانها الحالى كتمانًا غريبًا، وكان السبيل الوحيد أن يقصد إلى مارلت ويسأل عنه، وكان المزارع الذى طالما تطاول على تس عظيم الملاينة لإينجل كلير، وأعاره حصانًا ودليلاً إلى مارلت، وكان إينجل قد أعاد العربة التى خرج فيها إلى إمنستر، لأن حصانها لم يكن ليقطع أكثر مما قطع من طريق فى يومه.

ولم يقبل كلير أن يستعير عربة المزارع إلى أبعد من أرباض الوادى، وهناك أرجعها مع السائق، وقضى الليلة فى فندق، وفى الغد دخل ماشيًا الربوع التى شهدت ميلاد عزيزته تس، وكان الوقت لا يزال مبكرًا فى ذلك العام، فلم تكن الحدائق والعيدان قد ازينت بالألوان، ولم يكن ما يدعى بالربيع إلا شتاء مغطى بطبقة رقيقة من الخضرة ولم يكن كلير توقع غير ذلك.

وكانت الدار التى قضت تس فيها طفولتها قد سكنتها أسرة لم تعرف تس قط وكان السكان الجدد فى الحديقة مستغرقين فى أعمالهم، كأن الدار لم تنقض شبيبة عمرها فى ارتباط بتاريخ قوم آخرين، إذا وزن تاريخ هؤلاء به لم يكن غير حكاية يهذى بها معتوه، وكانوا يسيرون فى مماشى الحديقة مفكرين فى خواص شؤونهم، وأعمالهم تناقض فى كل وهلة الأشباح القاتمة التى تلوح وراءهم، ويتحدثون كأن الوقت الذى قضته تس هناك لم يكن أحفل بالعبر من الوقت الحاضر، وحتى طيور الربيع كانت تتغنى فوق رءوسهم كأنها لا تفتقد أحدًا.

وسأل إينجل هؤلاء البررة الغافلين، فإذا هم لا يكادون يذكرون حتى اسم الأسرة السالفة، ولكنه علم منهم أن جون دربيفيلد قد مات، وأن أرملته وأبناءه غادروا مارلت معلنين أنهم ذاهبون إلى كنجزبير، ولكنهم بدل أن يفعلوا ذلك شخصوا إلى جهة أخرى ذكروها؛ وفى هذه الأثناء امتلأ قلب إينجل ببغض الدار لخلوها من تس، وأسرع مبتعدًا عن منظرها البغيض لا يثنى إليها طرفه، وكان طريقه على الحقل الذى رآها فيه لأول مرة يوم الرقص، فكان أبغض إلى قلبه من

الدار، وواصل سيره مجتازًا فناء الكنيسة، حيث رأى بين الألواح التذكارية لوحًا أبدع من سواه رقشًا كتب عليه: "فى ذكرى جون دربيفيلد، أو دربرفيل على الصحيح، سليل الأسرة صاحبة ذلك الاسم، التى كانت ذات بأس فيما مضى، والمنتمى رأسًا كابرًا عن كابر إلى سير باجن دربرفيل أحد فرسان الفاتح، توفى فى العاشر من مارس سنة – ١٨، هكذا يخر الجبابرة".

وكان قد رأى كلير فى وقفته رجل لعله حفار القبور، فدنا منه قائلاً: "هذا يا سيدى رجل لم يرد أن يرقد هنا، وإنما كان يريد أن يحمل إلى كنجزبير حيث يرقد أسلافه"، قال: "ولِمَ لمْ يحترموا رغبته؟"، قال: "لإعواز المال، رعاك الله، لست أحب أن أقول هذا لكل إنسان، ولكن الحقيقة أن ذلك اللوح نفسه رغم ما عليه من العظمة المنقوشة لم يسدد ثمنه"، قال: "فمن أقامة؟" فأخبره الرجل باسم بناء فى القرية، فشخص إليه كلير ومنه عرف صدق ما سمع: فسدد الدين ويمم شطر الراحلين.

وكانت المسافة أطول من أن تقطع مشيًا، ولكن لشدة رغبة كلير فى الانفراد بنفسه أبى بادئ ذى بدء أن يكترى عربة أو يلجأ إلى خط حديدى دائر ينتهى به إلى المكان. على أنه حين بلغ شاستن أدرك ضرورة الركوب، ولكن لرداءة الطريق لم يصل إلى مقر جوان إلا فى السابعة مساء بعد أن قطع زهاء عشرين ميلاً من مارلت، وإذ كانت القرية صغيرة لم يلاق كبير صعوبة فى الاهتداء إلى مسكن مسز دربيفيلد، وكان بيتًا ذا حديقة مسورة على بعد من الطريق العام، قد ركمت فيه جوان متاعها القبيح بقدر ما استطاعت.

وكان من الجلى أنها لا ترغب فى زيارة كلير إياها لسبب ما، وشعر كأنه متطفل وجاءت هى نفسها إلى الباب، ووقع ضوء المساء على وجهها، وكانت تلك أول مرة رآها كلير، ولكنه كان مشغول البال فلم يلاحظ إلا أنها لا تزال امرأةَ صبيحة فى ثوب أرملة محترمة، واضطر إلى التصريح بأنه زوج تس، وبغرضه من زيارته، وأضاف وهو فى حرج شديد: "أريد ان أراها حالاً، لقد وعدت بمعاودة الكتابة إلى ولكنك لم تفعلى"، قالت: "لأنها لم تعد بعد"، قال: "هل تعلمين أنها فى صحة طيبة؟"، قالت: "لست أعلم ذلك ولكن كان يخلق بك أنت أن تعلمه"، قال: "أقر بذلك، أين تقيم؟".

وكان تحرج جوان من بدء المحادثة يتجلى فى إسنادها خدها بيدها، قالت: "لا... أدرى على وجه اليقين أين تقيم... كانت تقيم... ولكن..."، قال: "أين كانت تقيم؟" قالت: "ولكنها ليست هناك الآن"، وتمهلت ثانية وهى تحاوره، وكان أصغر صبيتها قد تسللوا إذ ذاك إلى الباب ووقفوا يتجاذبون فضول جلباب أمهم وقال أصغرهم: "أهذا السيد الذى سيتزوج تس؟" فهمست: "بل قد تزوجها، ادخلوا"، ولاحظ كلير محاولتها التكتم فقال: "أتحسبين تس تحب أن أحاول الاهتداء إليها؟ فإذا كانت لا تحب فإنى طبعًا..." قالت: "لاأحسبها تحب"، قال: "أواثقة أنت؟" قـالت: "كل الثقة".

ودار على عقبيه منصرفًا، فتذكر رسالة تس الرقيقة فعاد يقول فى حدة: "بل أنا واثق أنها تحب أن أتهدى إليها! أنا أعرف بها منك"، قالت: "لعلك مصيب يا سيدى، فإنى لم أفهمها يومًا حق الفهم"، قال: "ناشدتك الرأفة برجل تاعس وحيد، إلا ما أخبرتنى بعنوانها يا مسز دربيفيلد"، فعاودها اضطرابها ومسحت خدها بيدها رأسية، بيد أنها إذ رأت تألمه همست إليه: "هى تقيم فى سندبورن"، قال: "فى أى نواحيها فقد اتسعت سندبورن حديثًا على ما يقولون"، قالت: "ليس عندى من التفاصيل فوق ما أخبرتك، سندبورن، أما أنا فلم أر سندبورن أبدًا".

وكان جليًا أن جوان تقول الصدق فى هذه المرة، فلم يلحف عليها وإنما قال فى رفق: "أتحتاجون إلى شىء ما؟"، قالت: "لا يا سيدى، نحن فى سعة"، فانصرف كلير ولم يدخل الدار، وكانت هناك محطة على مدى ثلاثة أميال، فنقد السائق أجره ومشى إليها، وبعد قليل انطلق آخر قطار قاصدًا إلى سندبورن، وكان يقل كلير.

حجز كلير لنفسه محلاً فى فندق، وأبرق إلى والديه توًا بعنوانه، ثم خرج فى الحادية عشرة مساء يمشى فى شوارع سندبورن، وكان تأخر الوقت لا يسمح بزيارة أحد أو السؤال عن أحد، فأجل بغيته إلى الغد، ولكنه لم يكن ليأوى إلى فراشه بعد؛ وكان ذلك الثغر مصيفًا حديث الطراز ذا محطات فى الشرق وفى الغرب، ومرافئ وآجام من شجر الصنوبر، وطرقات ممتدة بجانب البحر وحدائق ظليلة، فبدا لإينجل كلير كأنه أحد وديان السحر، قد خلقته عصا ساحرة فجأة ثم تغشاه بعض الغبار، وكان جناح شرقى من أرض (إجدن) البوار المترامية يمتد على كثب، ولكن هذه المدينة الحديثة الوضاءة الحافلة بالمتعات قد اختارت أن تظهر على حافة تلك البطحاء القديمة المغبرة، فكان كل موضع خارج أرباض المدينة إلى مدى ميل يرجع عهده إلى ما قبل التاريخ، وكانت كل قناة طريقًا بريطانيا قديمًا لم يمس منذ عهد البريطان، ولم تحرك مدرة من موضعها من عهد قياصرة الرومان، إلا هذه المدينة نمت نموًا فجائيًا كنمو يقطينة بنى إسرائيل الذى تتحدث عنه بعض الأساطير، واجتذبت تس.

لبث إينجل حتى منتصف الليل يذرع الطرق المتعطفة فى هذه الدنيا الجديدة، النابتة فى أخرى قديمة، وكان يستطيع أن يلمح من بين الأشجار وأمام النجوم السقوف العالية والمداخن والمنابت الزجاجية والأبراج، شاخصة من المساكن الرشيقة الطراز المكونة منها المدينة؛ كانت مساكنها الفيحاء المريحة منفصلا بعضها عن بعض شأن مساكن شاطئ بحر الروم، وإن قامت على شاطئ القنال الإنجليزى، وقد بدت فى الظلام أروع منظرًا حتى منها نهارًا، وكان البحر قريبًا ولكنه غير متوغل، وكان يهدر وإن ظنه كلير حفيف الصنوبر، وكان الصنوبر يحف فيبعث نفس الصوت فيظنه كلير هدير البحر.

أين يمكن أن تكون تس فتاة الكوخ وزوجه الصغيرة من معاهد لثراء والأناقة هذه؟ كلما فكر كلير فى ذلك ازداد تحيرًا، أهنا أبقار تحتاج إلى الحلب؟ أما المحقق فهو أن ليست هناك حقول تعزق، وأخيرًا رجح أنها تقوم ببعض الأعمال فى تلك البيوت العظيمة، واستمر يسبهل متطلعًا إلى الشبابيك، وأضواؤها تنطفئ واحدًا بعد الآخر متسائلاً فى أيها تعمل تس، ولم ير فى التخمين فائدة فعاد بعيد الثانية عشرة إلى مأواه، ودلف إلى فراشه، ولكنه قبل أن يطفئ النور أعاد تلاوة رسالة تس الفياضة بالحب، ولم يغمض له جفن لشدة قربه منها وبعده عنها فى نفس الوقت، فظل يرفع ستارة الشباك وينظر إلى مؤخرات المنازل المقابلة ويتساءل خلف أى هاتيك المصاريع هى راقدة تلك الساعة، وكان أجدر لو قام الليل كله سهران.

وفى الصباح نهض فى السابعة وخرج بعد قليل ميممًا مكتب البريد الرئيسى، وعند بابه قابل ساعى بريد ذكيًا خارجًا ومعه رسائل لتوزيعها، فقال: "أتعرف عنوان مسز كلير؟" فهز الرجل رأسه، فتذكر كلير أن من المحتمل أن تكون قد استبقت اسمها العذرى فقال: "أو مس دربرفيل، أو دربيفيلد؟" فغاب كل هذا عن الساعى، قال: "إن الزائرين يفدون ويرحلون كل يوم كما تعلم يا سيدى، ومن المحال العثور عليهم بغير معرفة عنوان المنزل". وكان أحد رفاقه مندفعًا إلى الخارج فى تلك اللحظة، فأعادا الاسم على سمعه فقال: "لست أعرف دربيفيلد، ولكن دربرفيل تقيم فى الدار المسماة (هيرونز)، فصاح كلير وقد سره أنها عادت إلى النطق الصحيح للاسم: "ذلك ما أقصد، أية دار تلك؟" قال: "هى مثوى عصرى البناء، فكل الدور هنا مثاو تؤجر يا سيدى".

حصل كلير على المعلومات التى تؤديه إلى الدار، وأسرع إليها فوصل مع اللبان، وكانت دار (هيرونز) فيلا عادية ولكنها كانت مستقلة، ولعلها كانت آخر دار يتوقع المرء أن يجد بها مثوى يستأجر لشدة عزلتها، فإذا كانت تس تعمل بها خادمًا كما كان كلير يخشى، فلا بد أنها ستخرج إلى اللبان من الباب الخلفى، وهم أن يسير إلى ذلك الباب، ولكنه عاد فمال على الباب الأمامى فطرقه، وإذ كان الوقت مبكرًا فتحت صاحبة الثوى نفسها الباب، فسألها كلير عن تيريزا دربرفيل أو دربيفيلد، قالت: "مسز دربرفيل؟" قال: "نعم".

تس إذن تعد نفسها امرأة ذات بعل، وقد سره ذلك وإن لم تتخذ اسمه، قال: "أتتكرمين بإخبارها بأن قريبًا لها يود رؤيتها؟" قالت: "إن الوقت مبكر فأى اسم تريدنى أن أحمل إليها يا سيدى؟" قال: "إينجل"، قالت: "مستر إينجل؟" قال: "لا، إينجل، هذا اسمى الأول وسوف تعرفنى به"، قالت: "سأنظر إن كانت قد نهضت"، وأدخلته إلى الحجرة الأمامية وهى حجرة الطعام، وأطل من ستائر الربيع الرقيقة إلى المرجة وما بها من شجيرات، ولاح له أن حال تس ليست من السوء بحيث خال، وجال فى خاطره أنها لا بد قد حصلت على الجواهر على نحو ما وباعتها، ولم يلمها على ذلك طرفة عين.

وسرعانَ ما سمعت أذناه المرهفتان خطى على السلم خفق لها قلبه خفقًا موجعًا حتى لم يستطع التماسك واقفًا وقال: "ويلاه! ما عسى أن تقول عنى حين ترى تغيرى هذا؟" وفتح الباب وبدت تس على العتبة فى غير الهيئة التى توقع أن يراها بها، بل كانت على عكس توقعه فى حالة تثير الدهش، وقد أبدى ملبسها جمالها الطبيعى الفاتن، إن لم يزده فتنة؛ فقد كانت ملتفة فى جلباب نوم كشميرى فضفاض أبيض ضارب إلى الدكنة، مطرز تطريزًا مشربًا بالسواد، وفى قدميها كوث من نفس اللون، وكان جيدها يبرز من أفواف من الزغب، وقد لفت بعض غديرة شعرها المعهودة الرمادية المشربة بالسواد دون قذالها، واسترسل بعضها على عطفها، مما يدل على استعجالها.

وكان كلير قد مد يديه، ولكنهما سقطتا ثانية إلى جانبيه، إذ لم تتقدم بل لزمت مكانها بالباب، وأحس بشديد الفرق بينهما إذ ذاك، ولم يبق منه إلا هيكل أصفر، وظن أن منظره يقززها، قال بصوت مبحوح: "تس! هل تغفرين لى ذهابى؟ ألا تستطيعين أن تتقدمى إلى؟ أنى لك كل هذا؟"، قالت فى صوت متحجر وعيناها تبرقان بريقًا غريبًا: "لقد قضى الأمر!". واستطرد فى توسله يقول: "أنا لم أنصفك ولم أرك على حقيقتك! وقد تعلمت أن أرى حقيقتك منذ فراقنا يا عزيزتى الأثيرة تس!"، قالت وهى تلوح بيدها تلويح من يخيل إليه تبريح آلامه أن كل دقيقة ساعة: "لقد قضى الأمر، لقد قضى الأمر! لا تدن منى يا إينجل فما ينبغى لك، ابق بعيدًا".

قال: "أفلا تحبينني يا زوجي العزيزة لأن المرض قد أذواني على هذا النحو؟ لا إخال قلبك قلبًا هكذا! لقد أتيت من أجلك خاصة، وسوف يحسن أبي وأمي استقبالك الآن!"، قالت: "أجل، أجل، أجل! ولكني ما زلت أقول: لقد قضى الأمر"؛ وبدت كأنها هارب في حلم يحاول العدو فلا يستطيع، واستطردت: "ألست تعلم كل شيء؟ ألست تعلم؟ كيف اهتديت إلى مكاني إن لم تكن تعلم؟"، قال: "ما زلت أسأل حتى اهتديت"، قالت وقد استعادت نبراتها رنتها ذات الحنان القديمة: "لقد انتظرتك ثم انتظرتك، ولكنك لم تأت! وكتبت إليك ولكنك لم تأت! وكان دائبًا يقول إنك لن تأتي أبدًا وإني خرقاء، لقد أحسن إلي كثيرًا وإلى أمي وإلينا جميعًا بعد موت أبي و.." قال كلير: "لست أفهم" قالت: "لقد استرجعني".

حدد كلير إليها النظر حتى استوعب ما تقول، ثم ارتمى كمن عراه مس وغارت عيناه، ووقع بصره على يديها اللتين كانتا فيما مضى ورديتين فأصبحتا بيضاوين أرق من ذي قبل، واستطردت: "هو في الطابق العلوي، أنا الآن أمقته لأنه كذبني حين قال أنك لن تأتي؛ هذه الثياب هي ما كساني، لم أعد أبالي ما يصنع بي! ولكن... هل لك في الذهاب يا إينجل وعدم معاودتي أبدًا؟"، ووقفا جامدين وقلباهما المغلوبان على أمرهما ينظران من أعينهما في سهوم يثير الشفقة، وكأن كليهما يتوسلان إلى شيء ما أن يحجبهما عن الحقيقة.

قال كلير: "آه! الذنب ذنبي!"، ولكنه لم يستطع أن يزيد، فقد كان الكلام قاصرًا عن الإبانة قصور الصمت، ولكنه كان يحس إحساسًا مبهمًا بشيء واحد، وإن لم يتضح في ذهنه إلا فيما بعد.. كان يحس أن روح تس التي كان يعهدها قد نبذت الجسد الذي كان يراه أماه، وغادرته يذهب كل مذهب غير مختار كأنه جثة في تيار، ومضت ثوان وتبين أن تس قد غابت ووقف يفكر بكل ذهنه في موقفه ذاك حتى ازداد وجهه بردًا وانكماشًا، وبعد دقيقة أو اثنتين وجد نفسه في الشارع يسير إلى حيث لا يدري.

٥٦

لم تكن مسز بروكس صاحبة مثوى (هيرونز) ومالكة أثاثة الفاخر امرأة طلعة كثيرة الفضول، بل كانت المسكينة فى شغل بالمادة وعناء منذ استعبدها شيطان الربح والخسارة، فلم تكن تشغف بالاستطلاع حبًا للاستطلاع فى ذاته، إلا أن يفيدها الاستطلاع خبرة بجيوب من ترجو أن يستأجروا مثواها، ولكن زيارة إينجل كلير للساكنين السخيين مسز ومستر دربرفيل - كما كانت تظنهما - كانت غريبة فى وقتها وشكلها، حتى أثارت كامن الغريزة النسوية التى كانت كبتت منذ زمن وعدت عديمة الجدوى، إلا أن تغنى بعض الغناء فى تجارة تأجير المساكن.

كانت تس حادثت زوجها وهى بالباب لم تلج حجرة الطعام، فكان فى وسع مسز بوركس - التى وقفت داخل باب حجرة جلوسها فى ظهر الطرقة وكان بابها مواربًا - أن تلتقط شذورًا من الحديث - إذا صح أن يدعى حديثًا - الذى دار بين تينك الروحين التاعستين، ثم سمعت تس تصعد الدرج ثانية إلى الطابق الأول، وأحست بذهاب إينجل واصطفاق الباب الخارجى وراءه، ثم أقفل باب الحجرة العليا وعلمت مسز بروكس أن تس قد دخلت مسكنها، وإذ لم تكن الفتاة مستكملة ثيابها أيقنت ربة الدار أنها لن تعود إلى الخروج إلا بعد حين.

ومن ثم صعدت الدرج فى تؤدة ووقفت بباب الحجرة الأمامية، وهى حجرة جلوس مفضية إلى حجرة النوم بينهما باب ذو مصاريع تتكسر على الجانبين كما كان شائعًا إذ ذاك، وكان الساكنان قد استأجرا ذلك الطابق وهو خير ما فى المثوى استئجارًا أسبوعيًا، وكان الصمت مخيمًا على الحجرة الخلفية، ولكن كانت فى حجرة الجلوس أصوات كان كل ما تبينته منها فى بادئ الأمر مقطعًا واحدًا يتكرر فى أنين خافت، كأن مرسله روح مربوطة فى عجلة (أكسيون) النارية التى كانت تدور به فى الفضاء إلى ما لا نهاية: "أوه، أوه، أوه،!" ثم ساد سكون ثم تصعدت زفرة عميقة: ثم "أوه، أوه، أوه،!".

ونظرت من ثقب المفتاح فلم تر إلا مساحة ضيقة من داخل الحجرة، ولكن كان فى حيز تلك المساحة ركن من مائدة الفطور التى كانت قد أعدت للطعام، وبجانبه كرسى، وكان وجه تس مكبًا على مقعد الكرسى وهى جاثية أمامه ويداها مشبوكتان على رأسها، وأذيال جلابيبها المطرزة مهدلة على الأرض وراءها، وقد برزت قدماها من خلفها على البساط عاريتين قد سقط عنهما الكوث، وكانت هى التى تتأوه ذلك التأوه البائس.

ثم تبع ذلك صوت رجل يقول من الحجرة المجاورة: "ما بالك؟" فلم تجب بل استطردت فى لهجة هى أدنى إلى مخاطبة النفس منها إلى إبداء التعجب وهى رثاء للنفس قبل أن تكون مخاطبة لها: "إذن زوجى الحبيب العزيز قد عاد إلى الوطن من أجلى... ولم أعلم بذلك!... وقد أرهقتنى أنت بإلحافك القاسى... لم تكف عن إرهاقى... لا، لم تكف... أخواتى وإخوتى الصغار وأمى وحاجاتهم... تلك هى الحجج التى أثرت بها فى نفسى... وقلت إن زوجى لن يعود أبدًا، وسخرت منى وعددتنى حمقاء إذ أتوقع إيابه... وأخيرًا صدقتك واستسلمت!... ثم ها هو ذا يعود! والآن قد مضى! مضى للمرة الثانية وفقدته إلى الأبد! ولن يحبنى ثانية أدنى محبة بل سيمقتنى...! أجل، أجل، فقدته بسببك للمرة الثانية!".

وكانت تتلوى ووجهها على الكرسى، ثم أدراته صوب الباب فرأت فيه مسز بروكس علائم الألم، ورأت شفتيها تدميان من عضها إياهما، وأن أهدابها الطويلة مرسلة من عينيها المغمضتين تبلل خديها، واستطردت: "وهو فى سياق الموت! يبدو عليه أنه فى سياق الموت!... وسوف تقتله خطيئتى ولما تقتلنى!... أوه، لقد مزقت حياتى شذر مذر!... وصيرتنى إلى ما توسلت إليك ألا تصيرنى إليه مرة أخرى! وزوجى الصحيح لن... يا إلهى! لا يمكننى أن أحتمل هذا! لا يمكن!".

وانبعث من الرجل أقوال أخرى أشد احتدادًا، ثم كان حفيف سريع، إذ انتفضت تس واقفة، وخافت مسز بروكس أن يندفع المتكلم إلى الباب، فهبطت الدرج على عجل، وما كانت بها حاجة إلى ذلك، فإن باب حجرة الجلوس لم يفتح،

ولكن مسز بروكس رأت من الخطر أن تعاود التجسس من بسطة السلم، ودخلت حجرة جلوسها فى أسفل، ولم تكن تستطيع أن تسمع شيئًا من خلال السقف، وإن تكن أنصتت أشد إنصات، فمشت إلى المطبخ تتم فطورها الذى أزعجت عنه.

ثم عادت إلى الحجرة الأمامية، وشرعت تخيط وهى تنتظر أن يدق الساكنان الجرس، لتصعد فترفع صحاف الفطور، وكانت تنوى أن تصعد بنفسها لا أن ترسل خادمتها، كى تكشف سر ما هنالك إذا استطاعت، وكانت فى جلستها تلك تستطيع أن تسمع ألواح السقف تصر من فوق رأسها كأن أحدًا يدب فى الحجرة، وسرعان ما أكد لها ذلك حفيف ملابس بالدربزين وانفتاح الباب الخارجى واصطفاقه، وشخص تس تمشى إلى البوابة، وكانت مرتدية كامل ثيابها تبدو فى هيئة سيدة ثرية، كما كانت يوم قدومها، لم يزد عليها إلا قناع مسبل على قبعتها وريشها الأسود.

ولم تكن مسز بروكس قد سمعت كلمة وداع مؤقت أو غير مؤقت يتبادلها الساكنان عند مسكنهما، فجال بظنها أنهما تغاضبا، أو أن مستر دربرفيل لم يزل نائمًا، فإنه لم يكن يبكر فى النهوض، ودخلت الحجرة الخلفية التى كانت أخص حجراتها، وتابعت الخياطة، ولم تعد الساكنة ولا دق صاحبها الجرس، فعجبت مسز بروكس من تأخره، وساءلت نفسها ما علاقتهما بالزائر الذى أتى مبكرًا، وأسندت ظهرها إلى كرسيها مسترسلة فى أفكارها.

وإنها لكذلك تجول عيناها فى أنحاء السقف على غير هدى، إذ استوقفت بصرها بقعة وسط سطحه الأبيض لم تلاحظها من قبل، وكانت فى حجم البرشامة حين رأتها لأول وهلة، ولكنها سرعان ما اتسعت حتى غدت فى حجم راحتها، وعندها تبينت أنها حمراء، فبدا السقف المستطيل الأبيض وتلك البقعة القانية فى وسطه كأنه ورقة القلب الواحد من أوراق اللعب، فارتاعت المرأة وتوجست خوفًا، فقامت واقفة على المائدة ولمست البقعة بأناملها فإذا هى رطبة، وخيل إليها أنها بقعة دم.

فنزلت عن المائدة وخرجت من حجرتها وصعدت السلم، تبغى دخول الحجرة العليا وهى حجرة النوم القائمة وراء حجرة الجلوس، ومع أن غريزة الاستطلاع النسوية كانت قد تنبهت بنفسها الآن إلى الغاية، فإنها لم تجرؤ على معالجة المزلاج، فأنصتت فإذا السكوت المخيم فى الداخل لا يقطعه إلا توقيع منتظم: درب، درب درب، فهبطت مسرعة وخرجت إلى الشارع، وكان رجل تعرفه ويعمل فى فيلا مجاورة مارًا فرجته أن يدخل ويصعد معها، لأنها تخشى أن، يكون بعض سكانها قد أصابه سوء.

وفتحت باب حجرة الجلوس وتأخرت ليدخل ثم تبعته، وكانت الحجرة خالية وطعام الفطور – وهو كمية وفيرة من البيض والقهوة وشرائح فخذ الخنزير الباردة – منشور على المائدة لم يمس كما صعدت به، إلا أن سكين اللحم كانت غائبة، فطلبت من الرجل أن يدخل حجرة النوم ففتح الباب ذا المصاريع العديدة وتقدم خطوة أو خطوتين، ثم ارتد من فوره متقلص الوجه صائحًا: "يا إلهى! إن السيد الذى فى الفراش ميت! إخاله قد طعن بالسكين، فقد سال دم منه غزير على الأرض!".

وأعلن الخبر سريعًا، وماج البيت الذى كان منذ قليل ساكنًا هادئًا بخفق الأقدام المتكاثرة ومنها قدما الجراح، وقد وجد الجرح صغيرًا ولكن النصل قد بلغ قلب القتيل، الذى كان مستلقيًا على ظهره أصفر جامدًا هامدًا كأنه لم يتحرك بعد الطعنة، وما هو إلا ربع ساعة حتى شاع فى كل شوارع المصيف وفيلاته، أن سيدًا مقيمًا فى البلدة إقامة زيارة، قد قتل فى فراشه طعينًا.

وفى نفس ذلك الوقت كان إينجل كلير قد انطلق سائرًا على غير هدى فى الطريق الذى أتى منه، فلما دخل الفندق جلس إلى فطوره محملقًا فى الفراغ، ثم انهمك فى الطعام والشراب بغير وعى، ثم طلب بغتة كشف حسابه ودفعه وحمل حقيبة ثيابه وهى كل ما استصحب واندفع خارجًا، وفى ساعة انطلاقه وصل تلغراف دفع إليه، فإذا هى كلمات قلائل من أمه تعرب عن سرورها وسرور زوجها بمعرفة عنوانه، وتخبره أن أخاه كثبرت طلب يد ميرسى تشانت فقبلت.

فهشم إينجل الورقة فى قبضته وأخذ سمته إلى المحطة، فلما بلغها علم أن القطار لا يبرحها قبل زهاء ساعة، فجلس فانتظر ربع ساعة ثم أحس أنه لا يستطيع الانتظار أكثر من ذلك، ولم يكن هناك ما يستدعى تعجله، وهو ذلك المهيض القلب، ولكنه كان يريد الخروج من بلدة شهدت تلك المحنة، فمشى يبغى أول محطة على الطريق ليدركه القطار بها، وكان الطريق العام الذى ركبه مكشوفًا ينحدر بعد مسافة فى واد يجتازه من حافة إلى حافة.

وبعد أن عبر معظم تلك الوهدة وصعد فى المرتفع الغربى، وقف يستجمع أنفاسه والتفت خلفه فى غير قصد وإنما أحس كأن شيئًا يدفعه إلى الالتفات، وكان الطريق ممتدًا خلفه كالشريط متضائلاً إلى مدى إبصاره، وإنه ليتقصى النظر إذ ظهرت على بياض الطريق الخالى نقطة متحركة، ولم تكن إلا شخصًا آدميًا يعدو، فانتظر كلير وقد داخله شعور مبهم بأن إنسانًا يحاول اللحاق به، وكان الشخص الهابط المنحدر شخص امرأة، ولكن ذهنه كان من البعد عن تصور أن زوجه تتبعه بحيث لم يميزها، حتى حين دنت منه وهى فى تلك الثياب المختلفة تمام الاختلاف عما يعهد، ولم يصدق حتى صارت على كثب منه أنها تس.

قالت وهى تلهث: "رأيتك... تمضى عن المحطة... قبل أن أصل إليها... وقد تبعتك كل هذه المسافة!" وكانت شاحبة لاهثة ترتجف أصغر وشيجة فى جسمها، فلم يسألها أى سؤال، إنما أخذها بيده وجذبها فى نطاق ذراعه ومشى بها، ولكى يتحاشى مقابلة أحد تحول عن الطريق العام ومال إلى ممشى فى ظلال أشجار الشربين، فلما غابا فى الأغصان المتناوحة وقف ونظر إليها كالمسائل، فقالت وكأنها كانت تنتظر منه ذلك: "إينجل.. أتدرى لم جئت أعدو وراءك؟ لكى أخبرك أنى قتلته!" وكانت تضىء وجهها وهى تتكلم بسمة شاحبة تستثير الإشفاق.

قال: "ماذا؟" وخيل إليه لغرابة حالها أن بها مسًا، فاستطردت: "لقد فعلتها... لست أدرى كيف، ولكن ذلك كان دينًا على لك ولنفسى، لقد خشيت منذ زمن يوم ضربته بقفازى، أنى سأفعل يومًا ما فعلت قصاصًا لما أوقعنى فيه من أحابيله فى صغرى أيام جهلى، ولإساءته إليك عن طريقى، لقد دخل بيننا ودمر حياتنا، والآن لن يستطيع أن يعيد الكرة، أنا ما أحببته قط يا إينجل كما أحببتك، أنت تعلم ذلك، ألست تعلمه؟ ألا تصدقنى؟ أنا حين لم تعد إلى اضطررت إلى الذهاب إليه، لم ذهبت عنى؟ لم وقد أحببتك كل ذلك الحب؟ لست أدرى لم، ولكنى لا ألومك، ولكن أتغفر لى إساءتى إليك بعد أن قتلته؟ لقد كنت واثقة وانا أجرى إليك أنك ستغفر لى ما دمت قد قتلته، لقد أشرقت على فكرة أنى أعود فأكتسبك إذا أنا قتلته، ولم أعد أستطيع احتمال أن أخسرك، ولن تتصور كيف استعصى على أن أحتمل عدم محبتك لى! فقل لى الآن إنك تحبنى أيها الزوج المحبوب! قل أنك تحبنى ما دمت قتلته!".

قال وهو يشدد ضمها إلى جانبه فى هيام: "أجل، أجل، أنا أحبك يا تس، لقد عاودنى حبك كاملاً! ولكن ماذا تقولين؟ أقتلته؟" قالت مغمغمة كأنها فى غيبوبة: "نعم، لقد فعلت"، قال: "ماذا؟ قتلاً جثمانيًا؟ أمات؟" قالت:"نعم، سمعنى أبكى من أجلك فأوسعنى سخرًا ونبذك باسم بذىء، وعندها قتلته فإن قلبى لم يطق صبرًا، وطالما تهكم بى من أجلك من قبل، وبعد ذلك ارتديت ثيابى وخرجت فى أثرك".

ومال كلير رويدًا رويدًا إلى الاعتقاد بأنها قد حاولت على الأقل محاولة واهنة أن تفعل ما تزعم أنها فعلت، واختلط ارتياعه من نزعتها تلك بدهشه لقوة حبها إياه، وغرابة ذلك الحب الذى يلوح أنه محا كل شعور لها بالفضيلة محوًا تامًا، وكان يبدو عليها أنها قد وجدت الراحة أخيرًا، ولم تكن تدرك خطر ما أقدمت عليه، ونظر إليها وهى مسندة الرأس على كتفه تبكى من فرط السعادة، وعجب أية نزعة من نزعات آل دربرفيل المتوارثة قد أدت بها إلى هذه البدوة، إذا كانت حقًا بدوة، ولاح فى ذهنه كلمح البرق أن أسطورة عربة دربرفيل والجريمة، إنما نشأت لاشتهار أفراد الأسرة بتلك البدوات، وعن له بقدر ما كانت أفكاره المشردة المختلطة تستطيع أن تعى، أن عقلها فى ساعة ألمها الجنونى الذى وصفته، فقد توازنه وقذف بها فى تلك الهوة.

لقد كان ذلك أمرًا فظيعًا جدًا إذا صدق، وأمرًا محزنًا إذا كان وسواسًا عابرًا وأيًا كان فها هى ذى زوجه المهجورة، هذه المرأة الحارة العواطف، متعلقة به لا تشك وهلة فى أنه حاميها، ولا تتصور قط أنه يتخلى عنها، وتغلبت الشفقة على كلير وملكت زمامه، فجعل يقبلها بشفتيه الذابلتين تقبيلاً حارًا متواصلاً، وأخذ يدها قائلاً: "لن أهجرك، سأحميك ما استطعت إلى حمايتك سبيلا، أيتها الحبيبة العزيزة، أيًا كان ما فعلت أو لم تفعلى".

وتابعا السير تحت الأشجار، وتس تلتفت من آن لآخر تنظر إليه، وكان جليًا رغم هزاله وذهاب نضارته أنها لا ترى فى منظره عيبًا، بل لا يزال كما كان من قبل مثلاً أعلى فى نظرها جسمًا وعقلاً، بل كان فى نظرها إله الجمال أبولو نفسه، وكان وجهه العليل جميلاً اليوم فى نظرتها المغرمة جماله يوم رأته لأول مرة، ألم يكن وجه الرجل الوحيد على ظهر البسيطة الذى أحبها حبًا نقيًا، واعتقد أنها نقية؟

ولم يقصد إلى أول محطة خارج البلدة كما كان ينوى، أخذا بالحيطة، وأمعن فى السير تحت ظلال الشربين، وكانت تمتد أميالاً، وهكذا سارا على الأرض المفروشة بجاف أشواك تلك الأشجار، وكل منهما يطوق خصر صاحبه، وهما سابحان فى جو من النشوة لشعورهما باجتماعهما ثانية لا يحول بينهما إنسان، وقد

تناسيا أن بينهما جثة إنسان، وواصلا السير أميالاً عديدة حتى نفضت تس عنها ذهولها وتلفتت حواليها وقالت فى تردد: "أذاهبان نحن إلى جهة معينة؟" قال: "لا أدرى يا عزيزتى. لم؟" قالت: "لست أدرى"، قال: ""أري أن نتابع السير أميالاً أخرى فإذا كان المساء أوينا إلى بعض المساكن، وقد نختار كوخًا منعزلاً، أتحسنين السير يا تس؟"، قالت: "أجل، أجل، أستطيع السير إلى الأبد وذراعك تطوقنى".

واستحسنا ما اقترح فحثا خطاهما وجانبا الطرق العامة، وسلكا طرائق جانبية مهجورة تتجه فى الأغلب نحو الشمال، ولكنهما ظلا يضربان سراة اليوم فى غيابة من الغموض، دون أن يفكر أى منهما فى طريقة فعالة للهرب أو التنكر أو الاختفاء الطويل، بل كانا لا يفكران إلا فى العاجل الحاضر ولا يبعدان النظر، فكأن خططهما خطط صبيين؛ ومالا عند الظهر إلى فندق على قارعة الطريق، وأرادت تس أن تدخل معه لتناول الطعام، ولكنه أقنعها بالبقاء وسط الأشجار والشجيرات فى تلك الأجمة المعشبة حتى يعود، إذ كانت ثيابها على أحدث طراز، وحتى المظلة ذات المقبض العاجى كانت ذات شكل غير مألوف فى البقعة المغمورة، التى بلغاها الآن، وكان منظر مثل هذه الأشياء يثير الانتباه فى أى فندق.

وسرعان ما عاد بطعام يكفى ستة أشخاص وزجاجتى نبيذ، وكان ذلك كافيًا لحاجتهما يومًا أو زهاء يوم إذا طرأ طارئ، وجلسا على بعض الأغصان الجافة وأكلا سويًا، وبين الأولى والثانية حزما ما بقى وعاودا المسير، قالت: "بى من القوة ما يمكننى من السير إلى غير نهاية"، قال: "يجدر بنا أن نتوغل فى الإقليم حيث نستطيع الاختفاء حينًا، ولا يشتد علينا الطلب كما يشتد قرب الساحل، وبعد زمن حين ينسوننا نشخص إلى بعض الموانئ".

ولم تجب على ذلك بغير تشديد قبضتها عليه، ويمما صوب داخل الإقليم مصممين، وكان الجو صافيًا أى صفاء رغم أن الشهر كان مايو، وكان دافئًا بعد الظهر، وأفضى بهما الطريق الضيق إلى (الغابة الجديدة)، ثم انعطفا عن بعض الدروب مساء فرأيا خلف جدول ماء وجسر لوحًا كبيرًا نقش عليه بحروف بيضاء: "هذا القصر البديع معروض بأثاثه للإيجار"، ومن دون ذلك كتبت تفصيلات وإرشاد

إلى مخابرة بعض الوكلاء فى لندن، ومرا من البوابة فلاح لهما القصر الريفى، وهو بناء قديم من الآجر مستقيم التخطيط رحب الجوانب، قال كلير: "أنا أعرفه: هذا قصر (برامز هرست)، ويلوح أنه مهجور إذ قد نما العشب فى ممشاه"، قالت: "ولكن بعض نوافذه مفتوحة"، قال: "لتنقية الهواء على ما أظن" قالت: "أكل هذه القاعات خالية ولا يغطى رأسينا سقف!"، قال: "لقد نال منك العياء يا تس وسنقف عما قريب".

وقبل فاها الحزين وتابع سيره وإياها، وكان هو أيضًا قد بلغ منه التعب، فقد قطعا بين اثنى عشر وخمسة عشر ميلاً، وصار لزامًا عليهما أن يفكرا فيما هما صانعان طلبًا للراحة، وجعلا يرمقان من بعد بعض الأكواخ المنعزلة والفنادق، وهما أن يغشيا فندقًا فخمًا فخانهما قلباهما وصدفا عنه، وأخيرًا تعطلت أقدامهما تمامًا ووقفا بلا حراك، قالت: "ألا ننام تحت الأشجار؟" ولكنه رأى أن الفصل لا يسمح بذلك بعد، قال: "لقد كنت أفكر فى ذلك القصر الريفى الخاوى الذى مررنا به، هيا بنا نعد إليه"، وكرا راجعين أدراجهما، ولكن مضى نصف ساعة قبل أن يقفا أمام البوابة الخارجية موقفهما الأول، وعندها طلب إليها أن تبقى مكانها حتى يدخل ليرى من هناك.

فجلست بين الشجيرات داخل البوابة ودلف كلير إلى المسكن، وغاب ردحًا من الزمن، ولم يعد إلا وقد لج بتس بلبالها إشفاقًا عليه لا على نفسها، وقد علم من صبى أن ليس هناك إلا عجوز تتعهد المسكن، وأنها لا تجىء إليه إلا فى الأيام الصاحية، تأتى من الكوخ المجاور لتفتح النوافذ وتغلقها، وأنها آتية لإغلاقها عند الغروب، قال: "يمكننا الدخول من أحد الشبابيك السفلى والبقاء هناك" وسارت فى حماه متعبة إلى المدخل الرئيسى الذى كانت شبابيكه ذات المصاريع تلوح كأنها أحداق ونواظر لا تبصر ولكن تجعلهما فى حرز من الرقباء، وصعدا بضع درجات فبلغا الباب، وكان أحد الشبابيك المجاورة له مفتوحًا، فتحامل كلير حتى دخل منه واجتذب تس وراءه.

وكانت جميع الحجرات إلا الردهة مظلمة، وصعد السلم، وكانت المصاريع في الطابق العلوى أيضًا محكمة الإقفال، ولم ينق الهواء في الداخل إلا تنقية معجلة في ذلك اليوم على الأقل، بفتح نافذة البهو في الصدر ونافذة أخرى قبالتها، وفتح كلير باب غرفة واسعة واجتازها متحسسًا طريقه، وفرج المصاريع بوصتين أو ثلاثًا فاندفع في الحجرة عمود من ضوء الشمس الوهاج، فظهر أثاث ثقيل عتيق الطراز وستائر دمشقية قانية وفراش ضخم ذو قوائم أربع، قد رسمت على رأسه أشخاص تعدو لعلها صور سباق (أتالنتا) العداءة، التي أعلنت لخاطبيها أنها لن تتزوج إلا من يسبقها في العدو.

قال وهو يضع حقيبته وربطة المأكولات: "الراحة أخيرًا!" وظلا في سكون تام حتى تجيء العجوز لإغلاق النوافذ، وأخذا بالحيطة أسدلا على نفسيهما الظلام المطبق بإيصاد المصاريع كما كانت من قبل، مخافة أن تفتح العجوز باب حجرتيهما لأى سبب عارض، وجاءت المرأة بين السادسة والسابعة ولكنها لم تقارب الجناح الذى كانا فيه، وسمعاها تغلق الشبابيك وتقفلها بالمزاليج وتقفل وتنصرف، وعندها عاد كلير فاسترق قبسًا من ضوء الشمس من النافذة، واقتسما أكلة أخرى، وخيمت عليهما ظلال الليل شيئًا فشيئًا، ولم تكن لديهما شمعة تبدد ظلاله.

٥٨

كان الليل ساكنًا كئيبًا على حالة غريبة، وهمست إليه فى السحر بكل قصة حمله إياها فى نومه على ذراعيه عابرًا نهر فروم معرضًا حياتهما للهلاك، ووضعه إياها فى التابوت الحجرى فى الكنيسة، ولم يكن قد علم بذلك من قبل، قال: "لِمَ لمْ تخبرينى غداتها لعل ذلك كان يحول دون شقاء طويل وشقاق؟"، قالت: "لا تفكر فيما مضى! أنا لا أفكر فيما عدا الآن ولم نفكر فيما عداه؟ من يدرى ماذا يدخر الغد؟".

ولكن الغد على ما يظهر لم يكن يدخر لهما شرًا.. كان الصباح مطيرًا غائمًا، وإذ كان كلير يعلم أن العجوز لا تأتى لفتح الشبابيك إلا فى الأيام المشمسة، تجرأ ودلف يرتاد أنحاء المسكن تاركًا تس نائمة، ولم يجد به طعامًا ولكن كان به ماء، واستغل كلير الضباب، وخرج من القصر فابتاع شايًا وزبدًا وخبزًا من دكان على بعد ميلين، كما ابتاع إبريق شاى وموقد كحول رغبة فى الحصول على نار بلا دخان، وأيقظها دخوله عائدًا، وتناولا فطورهما مما أحضر.

وكانا راغبين عن الظهور فى الخارج، ومر اليوم والليل واليوم التالى، حتى تصرمت خمسة أيام وهما فى عزلة تامة لا يكادان يشعران، لا يعكر سلامهما منظر آدمى ولا صوته، ولم يتوال أمامهما من الحوادث إلا تقلبات الجو، أو يؤنسهما إلا طيور (الغابة الجديدة)، واصطلحا دون اتفاق على ألا يخوضا فيما حدث بعد انفصالهما، وكأنما أمحى فراقهما المظلم وبدده عهدهما الحاضر، وكان كلما اقترحا أن يبرحا ملجأهما ويتقدما إلى سوثمبتن أو لندن، أظهرت كراهية شديدة للانتقال.

قالت: "لم ننهى عهد الهناءة والغبطة هذا؟ إن ما هو آت آت"، ثم نظرت من فرجة مصراعى الشباك وقالت: "كل ما فى الخارج هناك عناء، وفى الداخل هنا الدعة"، ومد بصره هو أيضًا فشعر بصدق ما تقول؛ ففى الداخل الحب والتواصل

والعفو عن الحوبة، وفى الخارج ما لا يغالب، قالت وهى تضغط خدها على خده: "و... و... أخشى أن رأيك الحاضر فى يتغير، ولست أحب أن أحيا بعد ذهاب شعورك الحالى نحوى، وأوثر أن أكون ميتة ملحدة متى حل الوقت الذى فيه تزدرينى، فلا أعلم أبدًا أنك ازدريتنى"، قال: "لا أستطيع أن أزدريك أبدًا"، قالت: "ذلك غاية مرادى، ولكنى إذا تدبرت حياتى لم أعجب لرجل يزدرينى إن عاجلاً وإن آجلاً... ما كان أجننى وآثمنى! على أننى فى ماضى لم أكن أحتمل أن أوذى ذبابة أو دودة، وكثيرًا ما أبكانى منظر طائر فى قفص".

ومكثا يومًا آخر، وتقشعت غيوم السماء المربدة ليلاً وكانت النتيجة أن صحت العجوز التى تتعهد القصر مبكرة وملأها الشروق الرائع بنشاط مفاجئ، وعولت على فتح القصر وتنقية هوائه أتم تنقية فى ذلك اليوم الصافى، فجاءت قبل السادسة وفتحت الحجرات السفلى وصعدت إلى المخادع، وهمت أن تعالج مزلاج المخدع الذى كانا به، وعندها توهمت أنها تسمع تنفس أشخاص فى داخله، وكان لين نعلها وكبر سنها جعلا سيرها غير مسموع إلى هذا الحد، وانكفأت راجعة، ثم جال بظنها أن حسها ربما يكون قد خدعها فعادت إلى الباب وعالجت مزلاجه بلطف.

وكان قفل الباب فاسدًا، ولكن كلير كان قد عرض قطعة من الأثاث وراءه فلم ينفتح إلا بوصة أو بوصتين، وكان خيط من ضوء الصباح يسقط من فرجة الشباك على وجهى النائمين، وهما مستغرقان فى سبات عميق، وشفتا تس متفرجتان قرب خد صاحبها كأنهما زهرة متفتحة نصف تفتح، وراع المرأة طهارة منظرهما وأناقة جلباب تس المعلق على كرسى وجاوربها الحريرية بجانبه والمظلة الرشيقة، وبقية ملابسها التى أتت بها لأنها لم تكن تملك سواها، فتلاشى غضبها الذى تبادر إليها أول الأمر، حين ظنتهما طريدين أفاقين وقحين، وحل محله عطف على هذين الحبيبين الراقيين الهاربين، فأغلقت الباب وتراجعت كما جاءت، وانطلقت لتشاور جاراتها فى هذا الكشف الغريب.

ولم تمض على ذهابها دقيقة حتى صحت تس وبعدها كلير، وشعر كلاهما أن شيئًا قد أزعجهما وإن لم يعلما كنهه وغاظهما ذلك، وحالما ارتدى ثيابه أرسل بصره من فرجة الشباك يفحص المرجة، قال: "أرى أن ننطلق توًا فإن اليوم صاح ويخيل إلي أن إنسانًا يعتام المنزل، ومن المحقق على كل حال أن العجوز آتية"، فوافقت تس فى استسلام ورتبا الحجرة، وحملا أشياءهما القليلة وانطلقا فى صمت، ولما صارا فى الغابة التفتت تجيل فى القصر نظرة أخيرة وقالت: "يا لك من قصر سعيد! وداعًا! ليست حياتى إلا هامة اليوم أو غد، فلِمَ لمْ نبق هناك؟"، قال: "لا تقولى ذلك يا تس! سنبارح هذه المقاطعة جميعًا عما قريب، وسنتم طريقنا كما بدأناه ونواصل السير شمالاً، وهناك لن يفكر أحد فى طلبنا، إنما سيطلبوننا عند موانئ وسكس إذا هم طلبونا بتاتًا، ومتى صرنا فى الشمال قصدنا إلى مرفأ فأبحرنا".

ولما تم له إقناعها استطردا فى خطتهما وواصلا اتباع خط مستقيم تجاه الشمال، وكانت استراحتهما الطويلة فى القصر الريفى قد منحتهما قدرة على المشى ولما دنا الظهر إذا هما يقاربان مدينة (ملشستر) ذات البروج الكنسية وكانت فى طريقهما، وعول على الاستراحة هنا فى بعض الآجام إلى ما بعد الظهر ثم الانطلاق تحت ستار الليل، وفى الغسق اشترى طعامًا كما فعل من قبل وبدآ رحلتهما الليلية، فاجتازا الحدود بين وسكس العليا والوسطى حوالى الساعة الثامنة.

ولم يكن جديدًا على تس المشى فى الريف بنجوة عن الطرق العامة، وقد أبدت فى ذلك مقدرتها القديمة، وكان عليهما أن يخترقا ملشستر تلك البلدة القديمة ليعبرا على جسرها نهرًا عظيمًا يعترضهما، وسارا قراب منتصف الليل يجتازان طرقاتها الخاوية التى لا تضيئها إلا مصابيح خافتة متباعدة، وكانا يتحاشيان السير على الرصيفين لئلا يرددا صدى خطواتهما، وكان بناء الكتدرائية الفخم الرشيق قائمًا مبهم الصورة عن يمينهما، ولكنهما لم يكونا يعيران جمالها انتباهًا، ولما خرجا من البلدة ركبا الطريق العام الذى انغمر بعد بضعة أميال فى سهل مكشوف.

ورغم أن السماء كانت ملبدة بالغيوم، فإن شعاعًا من هلال كان قد أنار طريقهما إلى هذا الحد، ثم غاب ولاحت السحب كأنما تستقر على سمت رأسيهما واحلولك الظلام كأنما ارتد الليل كهفًا، على أنهما استطاعا أن يتابعا طريقهما مجتهدين أن يظلا على العشب سائرين كيلا تسمع خطاهما، وكان ذلك ميسورًا: إذ لم يكن يعترض سبيلهما سياج ولا بوابة وكانت الوحدة الضاربة أطنابها والوحشة القائمة تحيطان بهما، إلا نسيمًا قارًا يسرى.

وبعد أن تحسسا طريقهما على هذا النحو مدى ميلين أو ثلاثة، أحس كلير فجأة أن بناء ضخمًا قائمًا حياله صاعدًا رأسًا من العشب وقد كادا يندفعان فيه، قال: "ما هذا البناء الفظيع؟" قالت: "إن به أزيزًا، أنصت!"، فأنصت فإذا الريح فى تلعابها فى جوف البناء تخرج ضوضاء كأنهما إرنان ناى هائل ذى وتر واحد، ولم يكن ينبعث من المكان صوت آخر، فرفع كلير يده وتقدم خطوة أو خطوتين فأحس بسطح البناء الرأسى، وبدا أنه مبنى من الحجر المصمت لا يتخلله لحام ولا ملاط، فعبث بأصابعه فأدرك أن ما كان صادفه عمود مربع الأضلاع، ومد يسراه فأحس بآخر مجاور، وكان شيء على ارتفاع غير محدود فوق رأسه يجعل السماء السوداء أشد سوادا، وكان يبدو كأنه بناء مترام يجمع أطراف الأعمدة العليا جمعًا أفقيًا.

ودخلا وجلسا فى حذر، ورددت السطوح حفيفهما الخافت، ولكنهما أحسا أنهما لا يزالان فى الخارج، فقد كان المكان غير مسقف، وطفقت تس تتنفس فى خوف، وتحير كلير وقال: "ما عسى أن يكون؟" وتحسسا عن جانبيهما فقابلت أيديهما عمودًا آخر كالبرج مربعًا مصمتًا كالأول، ومن ورائه ثالث فرابع، كان المكان كله أبوابًا وأعمدة متصلا بعضها من أعلى بعوارض، قال: "هذا هيكل الرياح بعينه"، وكان العمود التالى منعزلاً، وكانت أعمدة أخرى تؤلف بوابة ذات عمودين قائمين وثالث معترض على قمتيهما، وكانت سواها مجندلة على الأرض تستطيع أن تمر عربة على أحدها لاتساعه، وسرعان ما لاح أنها أجمة من الأعمدة الضخمة متجمعة على السهل المعشب، وتقدم الزوجان فى فسطاط الليل هذا حتى أوفيا على وسطه.

قال كلير: "هذا ستونهنج" قالت: "تعنى الهيكل الوثنى؟" قال: "نعم وهو أقدم من القرون وأعرق من آل دربرفيل! والآن ما عسانا أن نصنع يا عزيزتى؟ لعلنا إذا واصلنا السير وجدنا ملاذًا"، ولكن تس كان قد نال منها العياء، فارتمت على نشز بجانبها يحميه من الريح أحد الأعمدة، وكان ذلك النشز ساخنًا من أثر شمس النهار جافًا مريحًا، بعكس العشب الخشن القار المحيط به والذى بلل أذيالها ونعلها، قالت وهى تمد يدها نحو يد إينجل: "لا أريد متابعة السير يا إينجل، ألا نبقى هنا؟"، قال: "لا أرى ذلك فإن هذه البقعة مكشوفة من مدى أميال أثناء النهار، وإن لم تبد كذلك الآن"، قالت: "لقد تذكرت أن أحد أقرباء أمى كان راعيًا فى هذه الأصقاع، وأنت كنت تقول فى تلبوثيز إنى وثنية، فأنا الآن فى موطنى".

وركع بجانب جسمها الممدد، ووضع شفتيه على شفتيها وقال: "ايغالبك النعاس يا عزيزتى؟ كأنك مضطجعة على مذبح"، فغمغمت: "يطربنى كثيرًا أن أكون هنا.. فهذا مكان موحش ساكن يملؤنى غبطة لا يعلو وجهى فيه إلا السماء، ويخيل إلى أن ليس فى الدنيا بشر سوانا، ووددت لو لم يكن هناك أحد سوى لايزالو"، ورأى كلير أن الأولى لها أن تستريح هنا حتى يبين الضوء قليلاً، وبسط معطفه الكبير عليها وجلس بجوارها، واستمعا مليًا إلى عصف الريح فى الأعمدة ثم قالت: "إينجل.. إذا حدث لى حادث فهل لك أن تتعهد لايزالو إكرامًا لى؟"، قال: "أفعل"، قالت: "ما أشد طيبتها وغرارتها ونقاءها، وليتك إينحل تتزوجها إذا فقدتنى وأنت فاقدى عما قريب"، قال: "إذا فقدتك فقدت كل إنسان، وإن هى إلا أخت زوجتى".

قالت: "ليس فى ذلك بأس يا عزيزى، فأهل مارلت وأرباضها يتزوجون أخوات الزوجات، ولا يزالو وديعة لطيفة تزداد كل يوم جمالاً، وكم يسرنى متى ارتددنا أرواحًا أن أشاطرها إياك! ليتك تتعهدها بالتدريب والتهذيب وتنشئها لك خاصة، إنها تزدان بخير ما فى وتتنزه عن شر ما فى، فإذا صارت لك فكأن الموت لم يفرق بيننا، لقد قلتها ولن أعود إليها".

وصمتت واستغرق فى التفكير، وكان يستطيع أن يرى فى الأفق الشمالى الشرقى قبسًا من الضوء من بين الأعمدة، وكانت السحابة المصمتة المقعرة السوداء الشاملة للسماء ترتفع بجماعها كأنها غطاء آنية، تاركة اليوم المقبل يستهل على طرف الأرض البعيد، فيبدو فيه سواد الأعمدة الضخمة الشاهقة فرادى وجماعات، قالت تس: "أكانوا يضحون لله هنا؟" قال: "لا"، قالت: "فلمن إذن؟" قال: "للشمس على ما أظن، فذلك العمود المتسامى وحيدًا متجه فى اتجاه الشمس التى ستشرق وراءه عما قليل"، قالت: "هذا يذكرنى بشىء يا عزيزتى، أتذكر أنك أبيت التعرض لمعتقداتى قبل زواجنا؟ لقد كنت أعلم ما فى ضميرك رغم ذلك، وكنت أعتقد ما تعتقد، لا لأسباب لدى بل لأنك تعتقد ذلك، والآن خبرنى يا إينجل.. أتحسبنا مجتمعين بعد الممات؟ أريد أن أعرف".

فقبلها ليتفادى الرد فى هذا الظرف، فقالت وهى تغالب النحيب: "أوه، يا إينجل.. أخشى أن يكون معنى ذلك لا، وكم كنت أحب أن ألقاك ثانية! ماذا؟ ألا نتلاقى حتى نحن، أنت وأنا، ونحن يحب كل منا الآخر كل هذا الحب؟"، فلم يجب على هذا السؤال الخطير كما لم يجب من هو أعظم منه من قبل، وساد الصمت بينهما ثانية، وبعد دقيقة أو اثنتين انتظم تنفسها واسترخت كفها من كفه ونامت، وغدت الأضواء الفضية الشاحبة على الأفق الشرقى تبدى أقصى أرجاء السهل العظيم كأنها دانية مظلمة، ولاح المنظر المترامى فى هيئة التحفظ والتردد المعهودة قبل طلوع النهار، وبدت الأعمدة الشرقية وعوارضها سوداء حيال حجر الشمس المنحوت على شكل الشعلة القائم وراءها، وحجر التضحية القائم بين هذا وتلك، وسرعان ما خمدت ريح الليل، وسكنت البرك الصغيرة المترقرقة فى تجويفات الصخور، المستديرة فيها كأنها الفناجين.

وفى نفس الوقت لاح كأن شيئًا لا يجاوز حجم النقطة يتحرك على حافة الوهدة الشرقية، وكانت تلك رأس رجل يدانيهما من الهوة الواقعة خلف حجر الشمس، وود كلير لو أنهما كانا تابعا السرى، أما الآن فقد عول على البقاء فى موضعه هادئًا، وتقدم الرجل مصممًا ميممًا دائرة الأعمدة التى كانا داخلها، وسمع

كلير وراءه حفيف أقدام فالتفت فإذا رجل آخر على الأعمدة المجندلة، وقبل أن يعى إذا آخر دان عن يمينه تحت بوابة من الأعمدة، وسواه عن يساره، وارتمى ضوء الفجر على مقدم الرجل القائم جهة الغرب، فتبين كلير أنه رجل طويل يسير سير المدرب، وتجمعوا جميعًا كأنهم يقصدون هدفًا؛ لقد كانت قصتها إذن صحيحة!

ووثب واقفًا والتفت يبحث عن سلاح أو مدر أو منفذ للهرب، ولكن أقرب الرجال إليه كان إذ ذاك قائمًا على رأسه يقول: "لا جدوى فى ذلك يا سيدى فنحن ستة عشر على السهل وقد قطع خط الرجعة"، وتكأكأ الباقون فهمس إليهم كلير: "دعوها تكمل نومها!"، ولما فطنوا إلى مرقدها، ولم يكونوا فطنوا إليه من قبل لم يعارضوا، ووقفوا يراقبونها جامدين جمود الأعمدة المحيطة، ومشى كلير إلى مرقدها وانحنى فوقها وأمسك إحدى يدى النائمة المسكينة، وكان تنفسها قد ارتد سريعًا قصيرًا كأنه تنفس مخلوق دون المرأة، وظل الجميع منتظرين فى الضوء المتزايد، وكأنما قد فضضت وجوههم وأيديهم وبقية أجسادهم سوداء، والأحجار تبرق شهباء مشربة بالخضرة، ولا يزال السهل قطعة من الظلال.

وسرعان ما اشتد الضوء، وأنار شعاع جسمها الغافى وأطل من دون أجفانها فأيقظها، فقالت مجفلة: "ما هذا يا إينجل؟ هل جاءوا فى طلبى؟" قال: "أجل يا عزيزتى لقد جاءوا"، فغمغمت: "هذا ما ينبغى أن يكون، إينجل.. كم أنا جذلى! أجل، جذلى! لم يكن من الممكن أن تدوم هذه السعادة، فقد كانت أكثر مما ينبغى، لقد نلت منها كفايتى والآن لن أعيش حتى تزدرينى!" واعتدلت قائمة، ونفضت نفسها وتقدمت دون أن يتحرك أحد الرجلين، وقالت فى هدوء: "أنا مستعدة!".

كانت مدينة (ونتنسستر) القديمة الجميلة، التى كانت فيما مضى قصبة وسكس، تقوم وسط وهادها ونجادها فى صباح حار متوهج من أصباح يوليه، وكانت الدور المحدودبة السقوف المبنية من الآجر والقرميد والأحجار قد جف ما عليها من طحلب، وقد انخفض الماء فى جداول المروج وبدأ فى الشارع الرئيسى المنحدر من البوابة الغربية إلى صليب العصر الوسيط، ومن هذا إلى الجسر.. ذلك الكنس والتنظيف الذى يجرى على مهل وينبئ بقدوم يوم سوق من أسواق الطراز العتيق.

وكان الطريق من البوابة الغربية سالفة الذكر يصعد كما يعلم كل أبناء ونتنسستر منحدرًا طويلاً منتظمًا ذرعه ميل تام، مخلفا المنازل وراءه شيئًا فشيئًا، وكان شخصان يسيران صاعدين هذا الطريق من أرباض المدينة وكأنهما لا يحفلان فتيلاً بجهد الصعود، لا يحفلان به لانشغال بالهما لا لحبورهما، وكانا قد برزا على هذا الطريق من بوابة صغيرة فى حائط عال فى أسفل المنحدر، وكانا كأنهما يريدان الابتعاد عن المنازل وعن الناس، وكان هذا الطريق أمامهما أقرب الطرق إلى ذلك، ومع أنهما كانا صغيرين فإنهما كانا يسيران مطرقين، وقد ابتسمت الشمس على مشيتهما تلك فى غير اكتراث.

كان أحد هذين إينجل كلير، والآخر مخلوقة طويلة متفتحة بين الطفلة والمرأة هى صورة روحية لتس، أضأل منها بنية ولكن لها عيناها الجميلتان.. تلك لايزالو أخت زوج كلير؛ وكان وجهاهما الشاحبان يبدوان كأنهما قد تقلصا إلى نصف حجمهما العادى، وكانا يسيران مشتبكى اليدين لا ينطقان، وكان إطراق رأسيهما شبيهًا بإطراق (الرسولين) فى صورة (جيوتو).

ولما أوشكا أن يبلغا قمة التل الغربى العظيم دقت ساعات المدينة ثمانى، فأجفل كلاهما لسماع دقاتها، وتابعا السير خطوات فبلغا أول حجر من أحجار الأميال، يقوم أبيض فى خضرة إطار العشب المحيط، ووراءه المروج، وكانت هنا متصلة بالطريق، فعرجا فيها، وكأن قوة تغلب إرادتيهما أوقفتهما فجأة، والتفتا وانتظرا جامدين بجانب الحجر.

وكان المنظر الذى يرى من هذه القمة لا يكاد يحد.. كانت المدينة التى غادراها قائمة وسط السهل دونهما، تبدو مبانيها كأنها فى رسم مجسم لا يجرى على قواعد المنظور فى علم الرسم، ومن بينها برج الكتدرائية العريض ونوافذها النرمندية وممشاها وصحنها الهائلان، وقمم كنيسة القديس توماس وبرج الكلية المدبب، يقوم إلى يمين ذلك جميعًا أبراج وسقوف محدودبة المضيفة القديمة العهد التى لا يزال عابر السبيل اليوم يستطيع أن ينال فيها نصيبه من الخبز والجعة وكانت تدور حول المدينة هضبة تل القديسة كترين التارزة، ووراءها السهول يتلو بعضها بعضًا؛ حتى يغيب الأفق فى ضوء الشمس المطلة عليه.

وكان ينهض أمام هذه المناظر الريفية المترامية، وحيال مبانى المدينة الأخرى بناء من الآجر الأحمر ذو سقوف مسطحة شهباء، وصفوف من النوافذ القمينة ذات الحواجز الحديدية التى تنطق بالأسر، فكان بين ذلك البناء الرتيب الطراز وبين المبانى القوطية ذات الشذوذ والاختلاف فرق رائع، وكان يخفيه بعض الإخفاء عن المار فى الطريق أشجار من الصفصاف والبالوط دائمة الاخضرار، أما من تلك القمة فكان يرى ظاهرًا جليًا، وكانت البوابة التى برز منها الاثنان قائمة فى جدار هذا البناء.

وكان ينهض من وسط البناء برج قبيح المنظر مسطح القمة مثمن الضلاع يلوح حيال الأفق الشرقى، يبدو لمن يراه من هذه القمة جانبه المظلل غير المضىء فكأنه البقعة السوداء الوحيدة على جمال تلك المدينة، بيد أن الناظرين كانا مشغولين بهذه البقعة عن جمال هذه المدينة، وكانت على أفواف البرج سارية طويلة مثبتة قد تركز بصراهما عليها، وبعد دق الساعة بدقائق تعالى على السارية شىء بطىء ثم انتشر فى النسيم، وكان ذلك علمًا أسود.

لقد نفذ (العدل)، وفرغ كبير الآلهة كما يقول أسكليس من تلاعبه بتس، وتابع نبلاء دربرفيل ونبيلاتهم رقادهم فى قبورهم غافلين، وركع الناظران الصامتان على الأرض كأنهما يصليان، وظلا كذلك زمنًا طويلاً ساكنين بلا حراك، واستمر العلم فى خفوقه الصامت، ولما عاودتهما قواهما نهضا وشبكا يديهما ثانية وواصلا السير.

التصحيح اللغوى: نهاد فهمى
الإشراف الفنى: حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف: أسامة العبد



تس سليلة دربرفيل

هذه – إن أردنا أن نلخصها فى جملة – مأساة إغريقية من قبيل مآسى إسخولوس وأقرانه من شعراء التراجيديا باليونان فى القرن الخامس قبل الميلاد، اتخذت لها مسرحًا جنوب غربى إنجلترا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

إنها مأساة تس دربرفيل التى تبدأ الرواية وهى عذراء متفتحة للحياة فى السابعة عشرة من عمرها وتنتهى – وقد صارت امرأة عرفت ما يكون بين الرجال والنساء من صلات – وهى فى الواحدة والعشرين.

الشخصيات الرئيسية ثلاث: تس، والرجلان اللذان دخلا حياتها: ألك دربرفيل، وإينچل كلير. وعلى الهامش شخصيات ثانوية، ولكن دورها فى الرواية ليس بالضئيل، مثل أبوىَ تس، والمستر كلارك وزوجه.

تصميم الغلاف: تامر زيدان